

بسم الله الرحمن الرحيم



الجامعة الإسلامية - غزة
عمادة الدراسات العليا
كلية الآداب
قسم اللغة العربية

البيضاوي وجهوده البلاغية في ضوء تفسيره (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)

إعداد الطالب
علاء جميل أبو عنزة

١٢٠١٠٠٨٠٥

إشراف الأستاذ الدكتور
محمد شعبان علوان

قدم هذا البحث استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في البلاغة العربية من كلية الآداب
بالمجامعة الإسلامية - غزة.

١٤٣٦ - ١٥٢٠



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الغني الحميد، المبدئ المعيد، ذي العرش المجيد، الفعال لما يريد، أحاط بكل شيء علماً وهو على كل شيء شهيد، أحمده سبحانه، وأشكره، وأسأله من فضله المزيد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمداً عبد الله رسوله وخليله، أفضل داع إلى الإيمان والتوحيد، اللهم صل على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيراً، وبعد.

فإن القرآن الكريم حوى من البيان والبلاغة العجب العجائب، أفحى الله به العرب الفصحاء، وأحرار به عقول العلماء، وقفت أمام بлагاته وفصاحته الآذان صاغية، والعقول متحيرة، والفنوس منبهرة، حتى قال قائل الجن عندما سمعه: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجِيبًا﴾ الجن: ١، وقال قائل الإنس رغم كفره وقد أجرى الله الحق على لسانه: "والله إن أعلاه لمתר، وإن أسفله لمعدن، وإن يعلو ولا يُغلَى عليه".

فلا شك إذن أن القرآن معجز حق الإعجاز، وإعجاز القرآن ماثل في كثير من الوجوه أهمها نظمته، فقد تحدى الله عز وجل الجن والإنس أن يأتوا بمثله أو بمثل بعض منه فقال: ﴿قُلْ لَئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْأَرْضُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانُوا بَعْضُهُمْ لِيَعْصِي طَهِيرًا﴾ الإسراء: ٨٨، وقال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ وَأَدْعُوا شَهَادَاتِهِمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ البقرة: ٢٣

ومن هنا قام العلماء الأجلاء بالتنقيب عن أسرار بلاغته، وأوضحو لنا دلائل إعجازه، واعتبروا البلاغة مفتاح علومه، وطرزوا بالحديث عنه كتبهم ومصنفاتهم وتفاسيرهم.

لذلك كان هذا البحث في بلاغة القرآن الكريم والذي أقف من خلاله على البلاغة القرآنية في تفسير العلامة ناصر الدين البيضاوي الذي يُعد تفسيره (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) من كتب التفسير التي اهتمت بإظهار النكات واللفتات البلاغية، رجوت من خلال هذا البحث الوقوف على البلاغة القرآنية والقبس من نورها الوظاء علَّ الله ينفعنا بما يعلمنا، وأن يعلمنا ما ينفعنا، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

الباحث



أولاً: أسباب اختيار الموضوع:

- ابتغاء الأجر والثواب من الله عز وجل، وتحصيلاً لمعنى الخيرية التي قال عنها النبي صلى الله عليه وسلم: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)، إذ قرر العلماء أن تعلم القرآن يشمل تعلم لفظه: أي تلاوة وحفظاً، وتعلم معناه: أي فهماً وتقسيراً، ولا شك أن علم البلاغة من العلوم التي يحتاج إليها لفهم القرآن وتعقله.
- رغبة في تعلم بلاغتنا العربية وفهم مباحثها، وذلك بورود النبع الأول لها، وهو كتاب ربنا تبارك وتعالى، الذي أنزله قراناً عربياً، حير به العقول، وأدهش النفوس، وأنوار القلوب، وكتب التقسير كشفت النقاب عن أسراره وكنوزه وإعجازه، فليس لطالب علم البلاغة غنىً عن مطالعتها وسبر أغوارها.
- إظهار الإعجاز البلاغي والبياني في آيات القرآن الكريم، والذي هو من أجل وجوه الإعجاز الذي تحدى الله به مشركي مكة والعالمين جميعاً بقوله: ﴿فَإِنَّمَا يُحَدِّثُ مَثَلَهُ إِنْ كَانُوا صَدِيقِينَ﴾ الطور: ٣٤ .
- الوقوف على آراء عالم من أعلام التفسير، وإثراء المكتبة العربية بآرائه ولفقاته ونكاته البلاغية.
- تقديم دراسة تطبيقية للبلاغة العربية بعيداً عن المتون التي تحفظ والشرح التي تدرس مجردة لا يظهر فيها جمال البلاغة وروعتها وسحر بيانها، كما هو الحال في البلاغة القرآنية.
- استكمالاً للجهود السابقة التي بذلت للوقوف على البلاغة القرآنية وخاصة في كتب التقسير، حيث كانت جامعتنا الإسلامية الغراء ممثلة بقسم البلاغة فيها وخاصة أستاذنا الدكتور محمد شعبان علوان، وأخيه الأستاذ الدكتور نعمان شعبان علوان، كثيراً ما توجهنا أنا وزملائي إلى مثل هذه الدراسات، فقامت دراسات على تقسير القرآن مثل دراسة (الطاهر ابن عاشور وجهوده البلاغية في ضوء تفسيره التحرير والتتوير)، و(تفسير أبي السعود وجهوده في الدرس البلاغي)، و(البلاغة العربية في تفسير الشوكاني)، وغيرها من الدراسات، وتأتي هذه الدراسة ترئساً لذلك الطريق ضمن سلسلة الدراسات البلاغية المهمة بالتقسير القرآني.

ثانياً: الجهود السابقة:

البيضاوي رحمه الله عالم موسوعي، صنف في كثير من فنون العلوم المختلفة فله مصنفات عديدة جمع فيها كثيراً مما جادت به قريحته من فنون النحو والبلاغة والتفسير والشريعة والعقيدة والتاريخ.

ولذلك فإن كثيراً من العلماء قد أكبوا على تفسيره (*أنوار التنزيل وأسرار التأويل*) فقاموا بشرحه والتحشية عليه إما تحشية تامة أو على بعض منه، وفي ذلك يقول صاحب كشف الظنون: "ثم إن هذا الكتاب رزق من عند الله - سبحانه وتعالى - بحسن القبول عند جمهور الأفضل والفحول فعكفوا عليه بالدرس والتحشية، فمنهم من علق تعليقة على سورة منه ومنهم من حشى تحشية تامة ومنهم من كتب على بعض مواضع منه"^(١) ثم أخذ يعدد ما يزيد عنأربعين حاشية.

وقد أورد الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط أسماء ثلاثة وثلاثين حاشية^(٢) كتبت على تفسير البيضاوي وهي ما بين حواشٍ تامة أو على بعض منه، ولا شك أن هذا يشير إلى أهمية هذا التفسير وقيمة العلمية.

إلا أن أشهر تلك الحواشى كما يذكر صاحب كتاب (*التفسير والمفسرون*) هي حاشية ابن زاده وحاشية الشهاب الخفاجي وحاشية القونوي^(٣)

أما الجهود الحديثة التي اهتمت بتفسير البيضاوي، فإننا نذكر منها ما يتصل بعلوم اللغة العربية وما ينبع وموضوع هذا البحث وهي مفصلة كما يلي:

دراسات على تفسير البيضاوي:

١. القضايا النحوية والصرفية في تفسير القاضي البيضاوي مع حاشية الشهاب الخفاجي عليه المسماة بعنوان القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، تحقيق دراسة، مبروك عطية أحمد أبو زيد.

(١) كشف الظنون: ١٨٨/١.

(٢) انظر: الفهرس الشامل للتراث العربي والإسلامي المخطوط: المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، ٣٢٠/١ مخطوطات التفسير وعلومه، مؤسسة آل البيت، عمان، ١٩٨٩

(٣) التفسير والمفسرون: محمد السيد حسين الذهبي، ٢١٥/١، مكتبة وهبة القاهرة.

٢. كتاب دراسة لغوية ونحوية على تفسير البيضاوي، للأستاذ الدكتور عبد الوهاب حسن حمد التدريسي. مؤسسة دار الصادق للطباعة والنشر في العراق.

دراسات على حواشي تفسير البيضاوي:

١. كتاب البيان عند الشهاب الخفاجي في كتابه عنابة القاضي وكفاية الراضي، فريد النكلاوي، مطبعة الأمانة، القاهرة، ١٩٨١م.

٢. كتاب الالقاءات في حاشية الشهاب، هاشم محمد هاشم، مطبعة الأمانة، القاهرة، ١٩٨٦م.

٣. رسالة ماجستير بعنوان: مسائل علم المعاني وقيمتها البلاغية في حاشية الشهاب الخفاجي في الربع الاول من القرآن الكريم من أول سورة البقرة الى اخر سورة الانعام.

٤. رسالة ماجستير بعنوان: الأساليب الإنشائية عند الشهاب الخفاجي في حاشيته عنابة القاضي وكفاية الراضي، القطب عبد السلام طه الجيار

٥. شهاب الدين الخفاجي وجهوده في اللغة، عبدالرزاق بن فراج بن دخيل الصاعدي، رسالة ماجстير ، السعودية، ١٤١٢هـ.

٦. الشهاب الخفاجي نحوياً، حاتم القضاة، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، الكرك، ١٩٩٧م.

٧. الشهاب الخفاجي وجهوده اللغوية، عادل شحاذة عفار، دكتوراه.

٨. الشهاب الخفاجي وأثره في النحو، صلاح عبد العزيز علي السيد، دكتوراه

٩. الشهاب الخفاجي وجهوده في البلاغة والنقد، زين العابدين سالم عراقي النجار.

١٠. رسالة ماجستير بعنوان: الشهاب الخفاجي ومنهجه في التفسير. زهير ريات.

١١. البديع في حاشية القونوي على تفسير البيضاوي، أمل عبد نويفع المطيري، رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

١٢. مسائل علم المعاني في حاشية القونوي. رسالة ماجستير، محمد أبو العلاء الحمزاوي. جامعة الأزهر.



١٣. المباحث البينية في (حاشية زاده على تفسير البيضاوي) - دراسة بلاغية تحليلية. رسالة ماجستير، إبراهيم بن محمد الجمعة، جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية.

ثالثاً: منهج البحث:

اعتمدت خلال هذا البحث الطريقة الاستقرائية للوقوف على القضايا البلاغية الواردة في تفسير البيضاوي ثم عملت على تصنيفها وتحليلها ومناقشتها وقياسها بما استقر عند علماء البلاغة.

رابعاً: خطة البحث:

التمهيد: حياة الإمام البيضاوي:

- مولده ونشأته.
- شيوخه وحياته العلمية.
- تلاميذه.
- آثاره ومصنفاته العلمية.
- وفاته.

الفصل الأول: نظرة في تفسير البيضاوي:

وفيه مباحث:

- المبحث الأول: المبحث الأول: سبب تأليف البيضاوي لتفسيره.
- المبحث الثاني: مكانة تفسير البيضاوي بين كتب الفتاوى.
- المبحث الثالث: مصادر تفسير البيضاوي.
- المبحث الرابع: منهج البيضاوي في التفسير.

الفصل الثاني: مباحث علم المعاني في تفسير البيضاوي.

وفيه مباحث:

- مقدمة في علم المعاني.
- المبحث الأول: الخبر والإنشاء.
- المبحث الثاني: التعريف والتكيير.
- المبحث الثالث: التقديم والتأخير.
- المبحث الرابع: الاعتراض.



- المبحث الخامس: خروج الكلام عن مقتضى الظاهر.
- المبحث السادس: الإيجاز والإطناب والمساواة.

الفصل الثالث: مباحث علم البيان في تفسير البيضاوي

و فيه مباحث:

- المبحث الأول: التشبيه.
- المبحث الثاني: المجاز.
- المبحث الثالث: الاستعارة.
- المبحث الرابع: الكنية والتعريض.

الفصل الرابع: مباحث علم البديع في تفسير البيضاوي

و فيه مباحث:

- المبحث الأول: المحسنات المعنوية
- المبحث الثاني: المحسنات اللفظية

الفصل الخامس: تأثر البيضاوي بالسابقين وتأثيره في اللاحقين.

و فيه مباحث:

- المبحث الأول: تأثره بالسابقين.
- المبحث الثاني: تأثيره في اللاحقين.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.



التمهيد

”حياة الإمام البيضاوي“

- اسمه ونسبه.
- مولده ونشأته.
- شيوخه.
- تلاميذه.
- ثناء العلماء عليه.
- آثاره ومصنفاته العلمية.
- وفاته.

التمهيد: حياة الإمام البيضاوي

أولاً: اسمه ونسبه

هو الإمام عبد الله بن عمر بن محمد بن علي، أبو الخير (وقيل أبو سعيد)، البيضاوي، الشيرازي، الفارسي، الشافعي، القاضي، المفتى^(١).

والبيضاوي: نسبة إلى البيضاء من بلاد فارس، وهي مدينة كبيرة من أعمال شيراز، وينتسب إليها جماعة من العلماء، وهذه النسبة للبيضاء أشهر النسب، وبها يُعرف^(٢). وقد قال عنها الإصطخري: البيضاء أكبر مدينة في كورة إصطخر، وإنما سميت البيضاء لأن لها قلعة تبين من بعد ويُرى بياضها، وكانت معسراً لل المسلمين يقصدونها في فتح إصطخر، وهي تامة العمارة خصبة جداً، ينبع أهل شيراز بميرتها^(٣).

"والشيرازي": نسبة إلى شيراز، وهي بلدة عظيمة مشهورة في وسط بلاد فارس، وتنسب البيضاوي إليها لأن البيضاء تابعة لها، ولأنه تولى قضاء شيراز مدة.

والشافعي: نسبة إلى مذهب الإمام محمد بن إدريس الشافعي في الفقه الإسلامي، وينتسب البيضاوي إليه لأنه تلقه على هذا المذهب، وتولى القضاء للحكم بأحكامه، وصنف بعض الكتب الفقهية في المذهب الشافعي، وقدم فيه خدمات جليلة.

(١) انظر ترجمة البيضاوي في: (الوافي بالوفيات: صلاح الدين الصفعي، تحقيق الأرناؤوط وتركي مصطفى، ج ٢٠٦/١٧)، (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠م). و(طبقات الشافعية الكبرى: السبكي، تحقيق الحلو والطناхи، ج ١٥٧/٨)، (طبقات الشافعية الكبرى: ابن كثير، تحقيق عبد الله التركي، ج ٦٠٦/١٧)، (هجر للطباعة والنشر، ط ١، ١٩٩٧م). و(بغية الوعاة: السيوطى، تحقيق محمد إبراهيم، ج ٥٠/٢، دار الفكر، ط ٢٠١٩٧٩م). و(طبقات المفسرين: الداودى، تحقيق مجموعة من العلماء، ج ٢٤٨/١)، (دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٣م). و(شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد، تحقيق عبد القادر محمود الأرناؤوط، ج ٦٨٥/٧)، (دار ابن كثير، دمشق، ط ١، ١٩٨٨م). و(طبقات الشافعية: ابن قاضي شهبة، تحقيق عبد العليم خان، ج ٢٢٠/٢)، (مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند، ط ١، ١٩٧٩م). و(هديه العارفين أسماء المؤلفين والمصنفين: اسماعيل البغدادي، ج ٤٢/١)، (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٩٥١م). و(مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان: اليافعي، ج ١٦٥/٤)، (دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٩م). و(كشف الظنون عن أسمامي الكتب والفنون: حاجي خليفة، ج ١٨٦/١)، (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٣م). و(معجم المؤلفين: عمر رضا كحال، ج ٢٦٦/٢)، (مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٩٩٣م). و(التفسير والمفسرون: محمد الذبي، ج ٢١١، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٧، ٢٠٠٠م).

(٢) انظر: مقدمة تفسير البيضاوي: تحقيق محمد حلاق ومحمود الأطرش، دار الرشيد، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠م. نقلًا عن الأنساب: السمعاني: تحقيق البارودي، ج ٤٣١/١)، (دار الجنان، بيروت، ط ١، ١٩٨٨م).

(٣) انظر: معجم البلدان: ياقوت الحموي، ج ٥٢٩/١)، (دار صادر، بيروت، ط ١، ١٩٧٧م).



وُيُعرف البيضاوي بالقاضي، وقاضي القضاة، لأنه تولى هذين المنصبين فترة من الزمن^(١).

ثانياً: مولده ونشأته:

ولد البيضاوي في مدينة البيضاء باتفاق، ولم يذكر مرجع واحد تاريخ ولادته، كما أغفلت جميع المصادر سنّه عند الوفاة، مما يستحيل علينا تقدير ولادته، لكن يُفهم من كتب التراجم أن البيضاوي - رحمه الله - كان من المعمّرين، وعاش طويلاً.

وأما نشأة البيضاوي، فيظهر أنه نشأ في البيضاء، وتربى فيها على يد والده، وبدأ التعلم وتحصيل الفقه وغيره في البيضاء، وقد اقتصرت كتب التراجم على أنه تفقه بوالده، وهو ما صرّح به القاضي البيضاوي نفسه، ويحتمل أن البيضاوي رحل إلى شيراز وتبريز وسائر بلاد فارس يطلب العلم، ويكتسب المعرفة، ودللنا على ذلك نتاج البيضاوي ومعارفه وثقافته واختلاف العلوم التي صنف فيها، وكذلك انتقال والده إلى شيراز واستقراره فيها، والغالب أن يكون الوالد قد صحب ابنه معه إلى شيراز.

كما ثبت في ترجمة البيضاوي أنه رحل إلى تبريز والنقي بالشيخ محمد الكتحتائي، كما ثبت أن البيضاوي استقر بعد ذلك في تبريز ومات فيها^(٢).

ثالثاً: شيوخه:

قضى الإمام البيضاوي معظم حياته في شيراز المشهورة بالعلم، وأخذ العلوم المختلفة عن كبار العلماء فيها^(٣)، غير أن كتب التراجم لم تذكر لنا أسماء الشيوخ الذين تتلمذ البيضاوي على أيديهم، إلا ما ذكر في مرآة الجنان حيث يقول اليافعي عند ترجمته للبيضاوي: "تفقه بأبيه، وتفقه والده بالعلامة مجير الدين أبي سعيد منصور بن عمر البغدادي"^(٤)، وذكر صاحب كشف الظنون أن البيضاوي لازم الشيخ محمد الكتحتائي وأخذ عنه وصنف التفسير بإشارة منه^(٥).

(١) تفسير البيضاوي: مقدمة المحقق، محمد حلاق، محمود الأطرش، صفحة (ب).

(٢) انظر: مرآة الجنان: ٢٢٠/٤.

(٣) طبقات الشافعية لابن شهبة: ٢٢٠/٢

(٤) مرآة الجنان: ١٦٥/٤

(٥) انظر: كشف الظنون: ١٨٧/١.

رابعاً: تلاميذه:

لم يذكر المؤرخون في ترجمتهم للإمام البيضاوي تلاميذه، وإنما يمكننا العثور على بعض الأسماء التي تلمندت على يديه في ثايا الكتب، وهم:

١. **أحمد بن الحسن بن يوسف الجاربردي:** أحد الذين تق�포وا على الإمام البيضاوي، فقد جاء في كتاب الدرر الكامنة: "الإمام فخر الدين نزيل تبريز تقنه على مذهب الشافعي وفاق في العلوم العقلية، ذكره ابن السبكي في طبقاته فقال: كان إماماً فاضلاً ديناً خيراً وفراً مواظباً على الشغل في العلم وإفاده الطلبة، اجتمع مع القاضي ناصر الدين البيضاوي وأخذ عنه على ما بلغني"^(١).
٢. **زين الدين الهنكي:** فقد جاء في ترجمة الشيخ (عبد الدين الإيجي) في كتاب الدرر الكامنة: "أخذ عن مشايخ عصره ولازم الشيخ زين الدين الهنكي تلميذ البيضاوي"^(٢).
٣. **عمر بن إلياس بن يونس المراغي:** فقد جاء في ترجمته في كتاب الدرر الكامنة: "وسمع على القاضي ناصر الدين البيضاوي المنهاج والغاية القصوى والطوالع"^(٣).

خامساً: ثناء العلماء عليه:

أثنى العلماء على الإمام البيضاوي وذكروا فضله في كتبهم وتراجمهم فقد قال عنه تاج الدين السبكي: "كان إماماً مبِرزاً، نظاراً، صالحًا، متعبدًا، زاهداً"^(٤). وقال عنه ابن كثير: "هو القاضي الإمام العلامة ناصر الدين عبد الله بن عمر الشيرازي، قاضيها وعالماها وعالم أذربيجان وتلك النواحي"^(٥).

وقال عنه السيوطي: "كان إماماً عالمة، عارفاً بالفقه والتفسير والأصولين والعربية والمنطق، نظاراً صالحًا متعبدًا شافعياً"^(٦). وقال عنه ابن حبيب: "عالم نمى زرع فضله ونجم، وحاكم عظمت

(١) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ابن حجر العسقلاني، ١٢٣/١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣م.

(٢) انظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ٣٢٢/٢.

(٣) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ١٥٦/٣.

(٤) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي: ١٥٧/٨.

(٥) البداية والنهاية: ج ٦٠٦/١٧.

(٦) بغية الوعاة: ٥٠/٢.

بوجوده بلاد العجم، برع في الفقه والأصول، وجمع بين المعمول والمنقول، تكلم كل من الأئمة بالثناء على مصنفاته...ولي أمر القضاء بشيراز، وقابل الأحكام الشرعية بالاحترام والاحتراز^(١).

وثناء العلماء على الإمام البيضاوي، يدل على أنه كان علماً في زمانه، بالإضافة إلى كونه زاهداً وعابداً وقاضياً، ومتبحراً في شتى العلوم كما هو حال العلماء في تلك الفترة.

ومما يدل على ذكاء البيضاوي وسعة علمه وفقهه، ما رواه السبكي في طبقاته "أنه دخل تبريز وناظر بها، وصادف دخوله إليها مجلس درس قد عقد بها لبعض الفضلاء، فجلس القاضي ناصر الدين في آخريات القوم بحيث لم يعلم به أحد، فذكر المدرس نكتة زعم أن أحداً من الحاضرين لا يقدر على جوابها، وطلب من القوم حلّها، والجواب عنها، فإن لم يقدروا فالحلّ فقط، فإن لم يقدروا فإعادتها، فلما انتهى من ذكرها، شرع القاضي ناصر الدين في الجواب، فقال له: لا أسمع حتى أعلم أنك فهمتها. فخيره بين إعادتها بلفظها أو معناها، فبهت المدرس، وقال: أعدّها بلفظها، فأعادها، ثم حلّها وبين أن في تركيبه إليها خللاً، ثم أجاب عنها، وقابلها في الحال بمثلها، ودعا المدرس إلى حلّها، فتعذر عليه ذلك، فأقامه الوزير من مجلسه، وأدناه إلى جانبه، وسألته من أنت؟ فأخبره أنه البيضاوي، وأنه جاء في طلب القضاء بشيراز، فأكرمه، وخلع عليه في يومه، ورده وقد قضى حاجته^(٢).

سادساً: آثاره ومصنفاته العلمية:

عاش البيضاوي في شيراز مدة طويلة، وهي مدينة مشهورة بالعلم والعلماء، وهذا ما جعل منه عالماً موسوعياً، فقه كثيراً من العلوم وبرع فيها، ويدلنا على ذلك نتاجه ومصنفاته العلمية التي تتواترت ما بين الفقه وأصول الفقه والحديث والتاريخ والنحو والتفسير والمنطق، كثرة مصنفاته وتتنوعها مردها إلى المرحلة الأخيرة من حياته، التي تقرغ فيها وذلك بعد اعتزاله القضاء وال المناصب الدنيوية، تلك الفترة التي لازم فيها الشيخ محمد الكتحتاني وشرع في تصنيف تفسيره أنوار التنزيل وأسرار التأويل.

(١) طبقات الشافعية لابن شهبة: ٢٢٠/٢.

(٢) انظر: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي: ١٥٨/٨.

وقد أشاد غير واحد من العلماء بتصانيفه ومؤلفاته، فقد قال الصفدي: "صاحب التصانيف البدعية المشهورة"^(١)، وقال ابن شهية: "تكلم كل من الأئمة بالثناء على مصنفاته"^(٢).

ومن أشهر مصنفاته:

١. **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**: المسمى بـ"تفسير البيضاوي"، وسماه السبكي والداودي والسيوطبي بـ"مختصر الكشاف"^(٣)، وهو من التفاسير التي عنيت بالبلاغة والتأويل ويعتبر من أجل التفاسير وأشهرها، لما حواه من اختصار ودرر وفوائد ونكات، تلقفها العلماء فقاموا بالتحشية عليه، حيث أورد الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط أسماء ثلاثة وثلاثين حاشية^(٤) كتبت على تفسير البيضاوي وهي ما بين حواشٍ تامة أو على بعض منه، ولا شك أن هذا يشير إلى أهمية هذا التفسير وقيمه العلمية.
٢. **المنهاج (منهاج الوصول إلى علم الأصول)**: وهو كتاب مختصر في أصول الفقه، وهو مشهور وقد شرحه غير واحد^(٥)، قال ابن شهبة في ترجمة البيضاوي: "تكلم كل من الأئمة بالثناء على مصنفاته وفاه، ولو لم يكن له غير منهاج الوجيز لفظه المحرر لكفاه"^(٦).
٣. **الطوالع (طوالع الأنوار)**: وهو كتاب في أصول الدين والتوحيد، قال السبكي: "وهو أجل مختصر ألف في علم الكلام"^(٧).

هذه الكتب الثلاثة هي أشهر كتب الإمام البيضاوي، ومن مؤلفاته أيضاً^(٨):

٤. **شرح منهاج الوصول**.
٥. **(تحفة الأبرار)** في شرح مصابيح السنة للبغوي في الحديث الشريف.
٦. **(الغاية القصوى في دراية الفتوى)** في فروع الفقه الشافعى.
٧. **(شرح التنبيه للشيرازى)** في الفقه الشافعى. ذكره ابن كثير.
٨. **(شرح المنتخب)** في أصول الفقه للإمام فخر الدين الرازى.

(١) الوفي بالوفيات: ج ٢٠٦/١٧.

(٢) طبقات الشافعية لابن شهية: ٢٢٠/٢.

(٣) انظر: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي: ج ٨/١٥٧، وبغية الوعاة: ٥٠/٢، وطبقات المفسرين للداودي: ٢٤٨/١.

(٤) انظر: الفهرس الشامل للتراث العربي والإسلامي المخطوط: ٣٢٠/١.

(٥) البداية والنهاية: ج ١٧/٦٠٦.

(٦) طبقات الشافعية لابن شهية: ٢٢٠/٢.

(٧) طبقات الشافعية لابن شهية: ٢٢٠/٢.

(٨) انظر: تفسير البيضاوي: مقدمة المحقق، محمد حلاق، محمود الأطرش: صفحة (ث).

٩. (شرح المحسول) في أصول الفقه للإمام فخر الدين الرازي.
١٠. (مرصاد الأفهام إلى مبادئ الأحكام) وهو شرح مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه.
١١. (مصابح الأرواح) اختصر فيه طوالع الأنوار في أصول الدين.
١٢. (الإيضاح في أصول الدين) وهو شرح كتاب المصباح.
١٣. (شرح الكافية) في النحو لابن الحاجب.
١٤. (لب الباب في علم الإعراب) اختصر فيه الكافية لابن الحاجب.
١٥. (شرح المطالع) وهو مطالع الأنوار في الحكمة والمنطق للقاضي سراج الدين الأرموي.
١٦. (منت في علم الهيئة) وهو مختصر ذكره الخفاجي
١٧. (نظام التواريخ) باللغة الفارسية، من ابتداء الخلق حتى سنة ٦٧٤ هـ.
١٨. (التهذيب والأخلاق) في التصوف، ذكره محب الدين الخطيب في مقدمة نهاية السول.
١٩. (رسالة في موضوعات العلم وتعارفها) ذكره البغدادي والزرکلی.
٢٠. (شرح الفصول) لنصیر الدين الطوسي، ذكره البغدادي والخوانساري.
٢١. (منتهى المنى في شرح أسماء الله الحسنى) ذكره البغدادي.

سابعاً: وفاته:

تولى الإمام البيضاوي قضاء شيراز وذلك بعد القصة المشهورة التي استطاع من خلالها أن يجيب على نكتة ذكرها المدرس وقابلها بنكتة مماثلة تعذر على المدرس حلّها، فأقامه الوزير وأكرمه وولاه قضاء شيراز.

وبقي البيضاوي رحمة الله قاضياً على شيراز "فاستشفع من الشيخ محمد الكتحتائي، فلما أتاه على عادته قال: إن هذا الرجل عالم فاضل يريد الاشتراك مع الأمير في السعير، يعني أنه يطلب منكم مقدار سجادة في النار، وهي مجلس الحكم؛ فتأثر الإمام البيضاوي من كلامه، وترك المناصب الدينية، ولازم الشيخ إلى أن مات... ولما مات دفن عند قبره"^(١).

وهذا يقودنا إلى أن البيضاوي رحمة الله ختم حياته بالترغب الكامل للعلم تصنيفاً وتأليفاً، وقد نص على ذلك صاحب معجم المؤلفين الذي قال: "ثم ترك القضاء، وتخلص للعلم، وانزوى في

(١) انظر: كشف الظنون: ١٨٧/١.

تبريز^(١). وقد جاء في كشف الظنون أنه قد ألف تفسيره أنوار التنزيل وأسرار التأويل بإشارة من شيخه محمد الكتحائي الذي لازمه ودفن عند قبره^(٢).

وقد اتفق العلماء والمؤرخون على أن البيضاوي قد توفي في مدينة تبريز، لكنهم اختلفوا في سنة وفاته، فقال ابن كثير والصفدي والكتبي وابن حبيب: سنة (٦٨٥هـ)، وقال السبكي والإسنوي: (٦٩١هـ)^(٣).

(١) انظر: معجم المؤلفين: ٢٦٦/٢.

(٢) انظر: كشف الظنون: ١٨٧/١.

(٣) انظر: الوفي بالوفيات: ج ١٧/٢٠٦، والبداية والنهاية: ج ١٧/٦٠٦، وطبقات الشافعية لابن شهبة: ٢٢١/٢.

الفصل الأول

”نظرة في تفسير البيضاوي“

- المبحث الأول: سبب تأليف البيضاوي لتفسيره.
- المبحث الثاني: مكانة تفسير البيضاوي بين كتب التفاسير.
- المبحث الثالث: مصادر تفسير البيضاوي.
- المبحث الرابع: منهج البيضاوي في التفسير.

الفصل الأول: نظرة في تفسير البيضاوي

المبحث الأول: سبب تأليف البيضاوي لتفسيره

كما اتضح في ترجمة الإمام البيضاوي رحمه الله، فهو إمام عالمة وعى من العلوم أجلها وأشرفها، فقد فقه الفقه وأصوله، وبرع في الحديث والمنطق، وغاص في العربية والبلاغة، واقتصر من التاريخ وعلم الهيئة درراً وفوانيد، وكتب في أصول الدين والتوحيد، فهو عالم موسوعي نشاً في بلاد الفرس التي كانت مليئة بالعلم والعلماء.

ويكون الإمام البيضاوي بهذا بحراً من العلم، جمع إلى جانب هذا العلم منصباً كبيراً في الدولة وهو منصب القاضي ثم قاضي القضاة في شيراز، وكان كما وصفه علماء الترجم عابداً زاهداً، إلا أن منصب القضاء الذي تولاه البيضاوي قد ملأ عليه وقته ولم يبق له كثير وقت ليتفرغ للتصنيف والكتابة.

وما إن ترك القضاء والمناصب الدنيوية حتى لازم شيخه محمد الكتحنائي، ويبدو أنه كان سبباً في تأليف البيضاوي لهذا التفسير، فقد جاء في كشف الظنون أنه قد ألف تفسيره "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" بإشارة من شيخه محمد الكتحنائي^(١).

وقد صرّح البيضاوي نفسه رحمه الله بسبب تصنيفه لهذا التفسير بقوله في خطبة الكتاب: "وبعد، فإنّ أعظم العلوم مقداراً وأرفعها شرفاً ومناراً علم التفسير؛ الذي هو رئيس العلوم الدينية ورؤسها، ومبني قواعد الشرع وأسسها، لا يليق لتعاطيه والتصدي للتكلم فيه إلا من برع في العلوم الدينية كلها، أصولها وفروعها، وفاق في الصناعات العربية والفنون الأدبية بأنواعها، ولطالما أحدث نفسي بأن أصنف في هذا الفن كتاباً يحتوي على صفة ما بلغني من عظماء الصحابة وعلماء التابعين ومن دونهم من السلف الصالحين، وينطوي على نكت بارعة، ولطائف رائعة، استتبعتها أنا ومن قبلني من أفضل المتأخرين وأمثال المحققين، ويعرّب عن وجوه القراءات المشهورة المعزية إلى الأئمة الثمانية المشهورين، والشواذ المروية عن القراء المعتبرين؛ إلا أن قصور بضاعتي يثبطني عن الإقدام، ويعني عن الانتساب في هذا المقام، حتى سنج لي بعد الاستخارة ما صمم به عزمي على الشروع فيما أردته، والإتيان بما قصدته، ناوياً أن أسميه بعد أن أتممه، بـ"أنوار

(١) انظر: كشف الظنون: ١٨٧/١.

التنزيل وأسرار التأويل"، فها أنا الآن أشرع وبحسن توفيقه أقول وهو الموفق لكل خير ومعطي كل مسؤول^(١).

فبعد قراءة كلام البيضاوي تتضح الأسباب التي دفعته لتصنيف تفسيره وهي:

١. شرف علم التفسير ومكانته بين العلوم الدينية. لأن هذا العلم كما قال هو رأس العلوم الدينية، فالأحكام الشرعية مبنية على معرفة وفهم المراد من كتاب الله عز وجل.
٢. ما توفر لديه من العلوم المختلفة التي توصله للنظر في كتاب الله واستنباط النكات واللطائف الرائعة، وهو ما يُفهم من قوله: "لا يليق لتعاطيه والتصدي للتكلم فيه إلا من برع في العلوم الدينية كلها، أصولها وفروعها، وفاق في الصناعات العربية والفنون الأدبية بأنواعها" وكان البيضاوي رحمة الله لا يريد أن يستأثر بما لديه من العلم لنفسه، بل يريد أن يجمعه ويودعه في كتاب يستفيد منه الدارسون وطلاب العلم، ونراه ينص على ذلك في خاتمة الكتاب فيقول: "وأسأل الله تعالى أن يتم نفعه للطلاب، ولا يخلي سعي من يتبع فيه من الأجر والثواب، ويختتم كل خاتمة أمرٍ يؤمه بتحميس عن الآثام، وبلغني أعلى منازل دار السلام، في جوار العليين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً..."^(٢).
٣. عدم توفر تفسير مختصر، يجمع أقوال العلماء والصالحين، يبتعد عن التطويل وذكر الروايات المتعددة وأسباب النزول كما هو الحال في كتب التفسير بالتأثر، وهو ما أشار إليه بقوله: "ولطالما أحدث نفسي بأن أصنف في هذا الفن كتاباً يحتوي على صفة ما بلغني من عظماء الصحابة وعلماء التابعين ومن دونهم من السلف الصالحين"، فهذا دفعه لتأليف هذا الكتاب المختصر الذي رأى الحاجة ماسةً إليه.

وهنا مسألة من المهم البحث فيها وهي تسمية الكتاب.

اسم الكتاب:

فيتضح من كلام الإمام البيضاوي أنه أسمى تفسيره (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، وهذا هو الاسم الدقيق، وإن كان السُّبكي والداوودي والسيوطى أطلقوا عليه اسم "مختصر الكشاف"^(٣)، ويبدو أن مختصر الكشاف ليس اسمًا للكتاب، بقدر ما هو وصفٌ لمصدرٍ من المصادر المتعددة التي اعتمد عليها البيضاوي في تفسيره، ويدلُّنا على ذلك ما قاله صاحب كشف الظنون: "وتقسيمه

(١) تفسير البيضاوي: ٦-٥/١.

(٢) تفسير البيضاوي: ٥٨٨/٣.

(٣) انظر: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي: ج ٨/١٥٧، وبغية الوعاة: ٢/٥٠، وطبقات المفسرين للداوودي: ١/٢٤٨.

هذا - ي يريد تفسير البيضاوي - كتاب عظيم الشأن غني عن البيان، لخَصَ فيه من الكشاف ما يتعلق بالإعراب والمعاني والبيان، ومن التفسير الكبير ما يتعلق بالحكمة والكلام، ومن تفسير الراغب ما يتعلق بالاشتقاق وغومض الحقائق ولطائف الإشارات، وضمَ إليه ما ورَى زناد فكره من الوجوه المعقولَة، فجلا رِيْن الشَّكِ عن السِّرِّيَة، وزاد في العلم بسطة وبصيرة...^(١).

ومن هنا يتضح أن تسميته بختصر الكشاف ليست تسمية دقيقة ومنصفة؛ لأن البيضاوي لم يعتمد على الكشاف اعتماداً كلياً، وإن كان قد أخذ منه ما يتعلق بالإعراب والمعاني والبيان، إلا أنه استعان إلى جانب هذا بتفاصيل أخرى، مثل: التفسير الكبير وتفسير الراغب الأصفهاني جامع التفاسير، إضافة إلى أنه ضمَ إلى هذا وذاك نتاج تأمله وإعمال فكره وقريحته.

وقد سُمِّيَ آخرون (تفسير البيضاوي)، وهي تسمية نسبةٌ على سبيل الاختصار والتعریف بصاحبها ومصنفها؛ أي أن مؤلف هذا الكتاب هو البيضاوي وليس تسمية لكتاب، خاصة إذا ما علمنا أن من سُمِّيَ بهذا الاسم هو من قرأ هذا الكتاب من بعد، وبهذا يكون الاسم الأصح لكتاب على ما سُمِّيَ به صاحبه ومصنفه: (أنوار التنزيل وأسرار التأويل).

ولا شك أن البيضاوي - رحمه الله - قد وُفقَ إلى هذا الاسم أَيْمَناً توفيقاً، فأراد أن يبيّن من خلال عنوان الكتاب طريقته في هذا التفسير ويختصر على من يقرأ عنوان الكتاب عناء البحث عن المنهج الذي اتبَعَه صاحبه فيه.

فأشار بكلمة (أنوار التنزيل) إلى الكتاب الذي هو بصدق تفسيره وهو كتاب الله عز وجل، ووصفه بالأنوار، الذي هو لا شك أنوارٌ تتجلى على البشرية والعالم أجمع، بما أودع الله فيه من منهج حياة وكلام لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فقد قال الله عنه: ﴿يَعَلَّمُهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بِرُهْنَنْ مَنْ رَتَّكُمْ وَأَزَّلَنَا إِلَيْكُمْ ثُورًا مُّبِينًا﴾ النساء: ١٧٤ وقال: ﴿فَالَّذِينَ مَأْمُونُوا بِهِ وَعَزَّزُوهُ وَنَصَرُوهُ وَأَتَبْعَوا الْثُورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُنْلِحُونَ﴾ الأعراف: ١٥٧ وكيف لا يكون هذا القرآن نوراً وهو صادر عن الله عز وجل الذي هو نور السماوات والأرض: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ النور: ٣٥ ، وكيف لا يكون نوراً وقد جاء به عن الله رسولٌ هو للبشرية سراجٌ ونورٌ منيرٌ كما قال تعالى: ﴿يَعَلَّمُهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيرًا﴾ وَدَاعِيًّا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسَرِّجَامِنِيرًا ﴿٦﴾

(١) انظر: كشف الظنون: ١٨٧/١.

﴿الْأَحْزَاب﴾: ٤٥ - ٤٦، إِذَا فَالْقُرْآنُ نُورٌ وَمَصْدِرُهُ مِنْ نُورِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأُنْزَلَ عَلَى نَبِيٍّ هُوَ لِلنَّاسِ نُورٌ.

وأشار بكلمة (أسرار التأويل) إلى طريقة في التفسير، وهو ما أوضحه في خطبة الكتاب: "ولطالما أحدهن ذاتي بأن أصنف في هذا الفن كتاباً يحتوي على صفوته ما بلغني من عظماء الصحابة وعلماء التابعين ومن دونهم من السلف الصالحين، وينطوي على نكتٍ بارعة، ولطائف رائعة"^(١)، فأراد من تصنيف هذا التفسير، أن يكشف لنا أسرار وروائع ولطائف ما في الكتاب الكريم، التي لا تتأتى إلا لمن يحسن الغوص بحثاً عن الدرر واللالئ المكنونة في ذلك الكتاب الكريم كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾^{٧٨} ﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾^{٧٩} الواقعة: ٧٧ - ٧٨.

وحتى نفهم ما أراد البيضاوي من قوله أسرار التأويل يحسن بنا أن نقف على مسألة وهي:

هل هناك فرق بين التفسير والتأويل؟

والواقع أن هذه المسألة متشعبة وليس هذا مكان تقصيها، إذ أن بعض العلماء قالوا أنها معنى واحد وهناك من فرق بينهما وهو الأرجح، وهنا لا بد من ذكر أشهر الآقوال في الفرق بين التفسير والتأويل^(٢):

١. التفسير: بيان معاني القرآن من باب الجزم والقطع، وذلك لوجود دليل لدى المفسر، يعتمد عليه في الجزم والقطع، والتأويل: بيان معاني القرآن من باب الاحتمال وغلبة الظن والترجح، لعدم وجود دليل لدى المؤول يعتمد عليه في الجزم والقطع.
٢. التفسير: بيان معاني الألفاظ القرآنية الظاهرة، التي وضعت لها في اللغة. كتفسير الصراط بالطريق، والصيغ بالمطر، والتأويل: بيان باطن الألفاظ القرآنية، والإخبار عن حقيقة المراد بها.
٣. التفسير: هو فهم الآيات على ظاهرها، بدون صرفٍ لها عنه، والتأويل: صرف الآيات عن ظاهرها إلى معنى آخر، تحتمله الآيات، ولا يخالف الكتاب والسنة، وذلك عن طريق الاستباط.
٤. التفسير: هو الاقتصر على الإتباع والسماع والرواية، والاكتفاء بما ورد من مأثور في معاني الآيات، والتأويل: استبطاط المعاني والدلائل من الآيات، عن طريق الدراية والتدبر وإعمال الفكر والنظر.

(١) تفسير البيضاوي: ٦-٥/١.

(٢) انظر: التفسير والتأويل في القرآن: صلاح الخالدي، ص ١٧٠، دار النفائس، الأردن، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م. نقلًا عن التفسير والمفسرون للذهبي: ١٦/١٨-١٩.

٥. التفسير: هو بيان المعاني القريبة التي تؤخذ من الآيات، من كلماتها وجملها وتركيبها، عن طريق الوضع واللغة، والتأويل: هو بيان المعاني البعيدة التي تلحظ من الآيات، وتحوي بها كلماتها وجملها وتركيبها عن طريق الإشارة واللطيفة والإيحاء.

٦. التفسير: أكثر استعماله في الألفاظ والمفردات، والتأويل: أكثر استعماله في المعاني والجمل.

من خلال ما ذكر من الفرق بين التفسير والتأويل، نرى أن الإمام البيضاوي أشار بكلمة "أسرار التأويل" إلى أن تفسيره سيكون باحثاً عن النكات واللطائف والدلالات البلاغية والمعاني الخفية في كتاب الله عز وجل، أكثر من كونه مفسراً ينقل الروايات ويعدها وينظر المعاني القريبة للآيات والألفاظ.

"المؤول يمعن النظر في الجمل والتركيب والآيات، ويعتمد في نظره على تدبره وإعمال عقله، وتقليل وجوه الرأي والنظر، وتنفذ نظراته إلى باطن الآية، ويلتقت إلى لطائفها وإشاراتها وإيحاءاتها، ويستخرج حقائقها ودلائلها، ويلحظ المعنى بعيد غير المبادر للذهن، وغير الظاهر من الآية، ويسجل التوجيه والرمز والرمضة التي تشرق بها الآية، ويفق على غرضها ومقصودها، ويزيل ما عليها من لبسٍ أو اشتباه، ويحل ما تثيره من غموض أو إشكال"^(١).

(١) التفسير والتأويل في القرآن: ١٨١-١٨٠.

المبحث الثاني: مكانة تفسير البيضاوي بين كتب التفاسير

المطلب الأول: ما تميز به تفسير البيضاوي:

تميز تفسير البيضاوي بتميزاته عدة أهلته ليحتل مكانة مرموقة بين كتب التفاسير، وجعلت العلماء يهتمون به غاية الاهتمام، منها:

١. تفسير جامع لفرائد الفوائد:

فقد جمع تفسير البيضاوي صفوة آراء وتأملات العلماء والمفسرين الذين سبقوه، سيما الذين اهتموا بالكشف عن بيانه وبلاوغته وأسراره، فنجد البيضاوي في تفسيره ينتقي من رياض التفاسير أزكي رياحينها، وأنضج وأجمل ثمارها، ثم يؤلفها في كتابه، جاماً لهذه الفرائد بعد أن يضيف إليها نتاج تأمله وتدبره، فيكون بهذا العمل قد دفع عن طلاب العلم عناء التنقل بين التفاسير، لانتقاء الفوائد من هنا وهناك.

فقد أخذ من تفسير الكشاف للزمخري والتفسير الكبير للرازي وجامع التفاسير للراغب الأصفهاني إضافة إلى تفاسير أخرى، إلا أن له فضلاً في تفسيره، إذ كان جاماً لصفوة ما في التفاسير الأخرى كما قال البيضاوي: "وقد اتفق إتمام تعليق سواد هذا الكتاب المنطوي على فرائد فوائد ذوي الألباب، المشتمل على خلاصة أقوال أكابر الأئمة وصفوة آراء أعلام الأمة، في تفسير القرآن وتحقيق معانيه..."^(١).

وللوقوف على أهمية تفسير البيضاوي لا بد لنا من التأمل في تاريخ وفيات المفسرين الثلاثة الذين اعتمد على تفاسيرهم الإمام البيضاوي كمصدر لتفسيره، فقد جمعوا خلاصة ما يمكن أن يصدر في القرن السادس الهجري من قطبيه، فالراغب الأصفهاني الذي كانت وفاته في بداية القرن السادس (ت ٥٠٢ هـ) مرر إلينا تجربة القرن الرابع فيما يتعلق بالتفسير، والزمخري الذي قاريت وفاته منتصف القرن السادس (ت ٥٣٨ هـ) أدى بذله لظهور خلاصة ما توصلت إليه جهود المفسرين في أواسط هذا القرن، والرازي الذي ختم به القرن السادس (ت ٦٠٦ هـ) شكل صلة وصل بين القرنين السادس والسابع لينقل إلينا نهاية مسيرة علم التفسير في القرن السادس، وهذا يبرز

(١) تفسير البيضاوي: ٣/٥٨٨.

أهمية تفسير البيضاوي حيث جمع في تفسيره خلاصة قرن هو من أبرز القرون التي شهدت نهضة علمية واسعة فيما يتعلق بالعلوم الإسلامية على وجه العموم وبالتفسیر على وجه الخصوص^(١).

ونرى الشهاب الخفاجي في حاشيته يشهد بمكانة تفسير البيضاوي بين كتب التفاسير حين يقول: "والتفاسير جداول تنصب في لجأة بحره"، لذلك قرر أن يغوص باحثاً عن الجوهر وذلك حين قال: "فحَدَانِي ذلك إِلَى مَوَارِدِهِ وَمَصَادِرِهِ، وَحَثَّنِي عَلَى الْغَوْصِ عَلَى فَرَائِدِ جَوَاهِرِهِ"^(٢).

٢. تفسير بياني بلاغي:

حرص البيضاوي في تفسيره على إظهار الأسرار البلاغية والبيانية في القرآن الكريم والكشف عن دقائقها وإعجازها، فيعد تفسير البيضاوي من التفاسير التي نحت إلى هذا النوع من التفسير مع حرصه الشديد أن يكون مختصراً اختصاراً غير مخل بتوضيح دلالة الآيات.

فقد قال البيضاوي عند حديثه عن تفسيره وطريقته فيه: "والكشف عن عویصات الفاظه ومعجزات مبانیه"^(٣)، فأراد أن يكشف الألفاظ المشكلة الصعبة، وأن يظهر الإعجاز في معانی القرآن، وهذا ما قرره الشهاب الخفاجي حين قال: "سقاهم صینب البلاعنة هتونه، حتى تشبعـت فروعه وتهـلت غصونه، نجـوه بصوب الوحي مـدقـقـ، ودـوـحـهـ في رـبـيعـ المعـانـيـ مـثـمـرـ مـورـقـ"^(٤).

فلم يقتصر البيضاوي على التفسير بالتأثر كما هو حال القدماء بل مضى على طريقة المتأخرین في سعيه إلى إبراز مزايا القرآن وبلاعنته، وهذا ما قررته القونوی حين يقول: "فصنفوا كتاباً منقحة معتبرة - أي في التفسير - ، وربماً محررًة مهذبة، لكن قدماؤهم روح الله أرواحهم، اقتصروا على ما رُوي عن سيد البشر، في تبيين المعانی على وفق الأثر، ومتاخروهم طاب الله ثراه، حاولوا مع ذلك إبراز مزاياه، الرشيقه حسبما نطقها قواعد البلاغة الأنثقة، ليظهر إعجازه لكل جليلٍ وحقير، مما لا يطيق به عقول البشر، وما هو إلا لخالق القوى والقدر، وليعلموا امتيازه عن سائر الكتب الإلهية، ويشاهدوا فضله على سائر الزئر السماوية، لا سيما أنوار التنزيل وأسرار التأويل..."

(١) اهتمام مفسري القرن الحادي عشر بتفسير البيضاوي أسبابه ومظاهره: محمد إدريس، ص ٤٩٧، رسالة ماجستير، إشراف عبد القادر محمد الحسين، كلية الشريعة، جامعة دمشق.

(٢) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي: ١/٣.

(٣) تفسير البيضاوي: ٣/٥٨٨.

(٤) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي: ١/٣.

واحتوى من قواعد البلاغة والبراعة وفنون البدائع أدقها وأسنها... فكان من بين التفاسير كالغَرَّاء ، والفريدة البيضاء ، ومراة لانفهم وجوه البلاغة والإعجاز^(١).

وقال حاجي خليفة مبيناً البلاغة القرآنية في تفسير البيضاوي: "كشف القناع تارة عن وجوه محسن الإشارة وملح الاستعارة"^(٢).

٣. المنهج والأسلوب:

فلقد بلغ تفسير البيضاوي ذروة المنهج العلمي في التفسير، ذلك المنهج الذي درج عليه العلماء منذ بداية القرن السابع الهجري في عامة العلوم، وساعد البيضاوي على ذلك النشأة العلمية التي تربى عليها وهي ما يسمى بـ "الأسلوب الأعمسي" القائم على الجمع بين أصناف العلوم والترقي بها سوية من خلال بعضها البعض حتى تحصل الملكة العامة في كل هذه العلوم، مع تحرير القوالب التعبيرية بأسلوب واحد^(٣).

ظهر هذا المنهج في تفسير البيضاوي جلياً من حيث اعتماده في تأليفه على طريقة جمعت بين الاختصار ودقة التعبير والتزام المصطلح العلمي والإشارة إلى ما يت萃 عن التعبير من معانٍ يكتفى بحضورها في الذهن عند ذكرها، ثم تؤخذ مباني لما يأتي به التعبير بعدها^(٤).

ويظهر أيضاً منهج البيضاوي العلمي عند اقتباسه من تفاسير أخرى، فلم يكن مجرد ناقل للآراء والأقوال، فقد حل البيضاوي ما جمع من أفكار المتقدمين وبحثها ونقدها واستخرج منها أحکاماً، واستظهارات شخصية، وأبدع في كثير من الأحكام والاستظهارات، ما استقل به وانفرد بتحقيقه، وربما جمع الأوجه المتعددة والاحتمالات المختلفة، فرتبتها بحسب الرجحان وأشار إلى ما هو المعتمد منها، وما هو ضعيف أو مردود، وسبك تلك الأنظار البعيدة، والتحارير العالية سبكاً دقيقاً رقيقاً، بناء على تقييم العبارات وضبطها وتهذيبها واختصارها الاختصار المحكم، القابل للبساط والإيضاح، على ما هي الطريقة المختارة المسلوكة يومئذ في تحرير العلوم^(٥).

عمد البيضاوي في تفسيره إلى الإيجاز مبتعداً عن التطويل الذي قد يصيب القارئ بالسأمة والنصب عند قراءة الأسانيد والروايات، مراعياً أن يكون ايجازه غير مخلٍ في بيان الآيات ودلائلها

(١) حاشية القوني على تفسير البيضاوي: ١/٢٢-٢٣.

(٢) كشف الظنون: ١/١٨٧.

(٣) التفسير ورجاله: محمد الفاضل بن عاشور، ص ٩٦، مجمع البحث الإسلامية بالأزهر، ١٣٩٠هـ، ١٩٧٠م.

(٤) اهتمام مفسري القرن الحادي عشر بتفسير البيضاوي أسلابه ومظاهره: ٤٩٨

(٥) التفسير ورجاله: ٩٣

ودقائق معانيها، فقال عن تفسيره: "وقد اتفق إتمام تعليق سواد هذا الكتاب... في تفسير القرآن وتحقيق معانيه... مع الإيجاز الخالي عن الإخلاص، والتلخيص العاري عن الإضلال..."^(١).

وقد أشار الذهبي رحمه الله إلى الاختصار الذي عمد إليه البيضاوي فقال: "تفسير العالمة البيضاوي، تفسير متوسط الحجم"^(٢).

وبذلك أصبح تفسير البيضاوي بمحتواه ومنهجه وأسلوبه أثراً ساميًّاً لقيمة أسدى به القاضي يدًا بيضاء للباحثين والدارسين إذ قرَّب منهم المستعصي وجمع لهم المتفرق وضبط لهم تحرير غير المحرَّر^(٣)

٤. انتصاره لأهل السنة والجماعة:

وقف البيضاوي في تفسيره موقف المنتصر لمذهب أهل السنة والجماعة، متصدِّياً لما قرره الزمخشري في كشافه، الذي يعد من المصادر التي اعتمد عليها البيضاوي في الإعراب والمعانى مع طرحه للأفكار الاعتزالية الموجودة في الكشاف، وهو ما أشار إليه بقوله: "مع التلخيص العاري عن الإضلال"، وقد أشار السيوطي إلى هذا بقوله: "وماز فيه أماكن الاعتزال، وطرح موضوع الدسائس وأزال"^(٤)

وقال حاجي خليفة مبيناً موقف البيضاوي من اعتزاليات الكشاف: "أورد في المباحث الدقيقة ما يؤمن به عن الشبه المضلة وأوضح له مناهج الأدلة"، وبين في موضع آخر عقيدة البيضاوي التي ظهرت في تفسيره: "لأنه مالك زمام العلوم الدينية والفنون اليقينية على مذهب أهل السنة والجماعة"^(٥).

وقال الذهبي: "تفسير العالمة البيضاوي، تفسير متوسط الحجم... وقرر فيه الأدلة على أصول أهل السنة... وقد اختصره البيضاوي من الكشاف للزمخشري ولكنه ترك ما فيه من اعتزاليات، وإن كان أحياناً يذهب إلى ما يذهب إليه صاحب الكشاف..."^(٦).

(١) تفسير البيضاوي: ٥٨٨/٣.

(٢) التفسير والمفسرون: ٢١١/١.

(٣) التفسير ورجاله: ٩٤-٩٣.

(٤) نواهد الأباء : ١٣/١.

(٥) كشف الظنون: ١٨٧/١.

(٦) التفسير والمفسرون: ٢١١/١.

٥. المُكْنَةُ الْعِلْمِيَّةُ :

تفسير البيضاوي حديقةٌ غناءً مليئة بالعلوم الدينية والعلوم الخادمة لها، فقد قال حاجي خليفة: "وقد اعترفوا له قاطبة بالفضل المطلق وسلموا إليه قصب السبق فكان تفسيره يحتوي فنونا من العلم وعنة المسالك وأنواعاً من القواعد مختلفة الطرائق، وقلَّ من برع في فنٍ إلا وصَدَّه عن سواه وشغلَه والمرءُ عدو ما جهلَه فلا يصلُ إلى مرامِه إلا من نظرٍ إليه بعينِ فكره وأعمى عينَ هواه"^(١).

وقال القوني: "إِنَّهُ كَتَابٌ احْتَوَى عَلَى مَعَانِي كَثِيرَةِ الشَّعُوبِ مَتَدَانِيَّةِ الْجَنُوبِ، مَسْوَمَةُ الْمَبَدَئِ وَالْمَطَالِعِ، مَقْوِمةُ الْأَعْلَى وَالْقَوَاطِعِ"^(٢).

وبذلك فإن القارئ لتفسير البيضاوي ليظهر له من أول وهلة المُكْنَةُ الْعِلْمِيَّةُ التي لدى هذا العالم، فقد كان واسع الاطلاع عظيم المعرفة، وقد استفاد من هذه العلوم وسحرها لتكون خادمةً لتفسير الكتاب العظيم، وجعل منها أدوات يبرز من خلالها نكاته واستبطاناته في تأويل القرآن الكريم، فنجد أنه قد خاص في مسائل اللغة خوض صاحب القدم الراسخة مستعرضاً اشتراق ألفاظها واستعمالات العرب فيها وشهادتها من أشعارهم، وإذا مر بمسألة نحوية سبر أغوارها وخاض غمارها بمنتهى التحقيق والتدقيق، وإذا ما عرج على شيء من أحكام القرآن نجد أنه قد أبرز شخصيته الفقهية الفذة من خلال استعراض بعض أقوال المذاهب والترجيح بينها، وإذا ما لاحت له بارق مسألة أصولية أنساب لها قوسه ومدّ في استعراضها نفسه، فهو في علم الأصول النهر الذي لا يُجاري والبحر الذي لا يُبارى، وكذلك الشأن في العلوم العقلية والتاريخ والتصوف وعلم الفلك^(٣).

من خلال ما سبق تتضح بعض المميزات والخصائص التي تميز بها تفسير البيضاوي من بين التفاسير القرآنية، لذلك فإنه تفسير لا يستغني عنه من أراد فهم كتاب الله والوقوف على دقائقه وفهم مراد ربه.

ولهذا فإن تفسير البيضاوي قد لاقى قبولاً عند كثير من العلماء المتأخرین سواء في اعتماده مرجعاً للتدريس في الجامع لطلاب العلم أو من خلال كثرة الحواشی التي كتبت عليه.

(١) كشف الظنون: ١٨٧/١.

(٢) حاشية القوني على تفسير الإمام البيضاوي: ١/٢٢.

(٣) اهتمام مفسري القرن الحادي عشر بتفسير البيضاوي أسبابه ومظاهره: ٤٩٣.

المطلب الثاني: مظاهر العناية والاهتمام بتفسير البيضاوي:

أصبح تفسير البيضاوي بمحتواه ومنهجه وأسلوبه أثراً سامي القيمة، أسدى به القاضي يداً بيضاء للباحثين، إذ قرب منهم المستعصي، وجمع لهم المتفرق، وضبط لهم تحرير غير المحرر، فأحلَّ الناس منذ بروزه واشتهاره في النصف الثاني من القرن السابع محل الاعتماد والإقبال، وبذلك فإن تفسير البيضاوي قد أصبح كتاباً عميق الغور، صعب المراس، ثري المطابع، لذلك تتابعت العناية به تدريساً وتخريراً وتالياً.

فزيادة على الكتب التي ترجع إليه أصالةً من الحواشي والتعليق التي لا تكاد تدخل تحت حصر فإنه ما من مفسر للقرآن في القرن السابع وما بعده، إلا وتنسقير البيضاوي في طليعة مراجعه، ولقد عظم صيت هذا الكتاب وأقبل الناس عليه إذ وجدوا فيه الضالة المنشودة من التفسير العلمي على الطريقة التحليلية اللغوية^(١).

وأول ما يطالعنا من مظاهر العناية والاهتمام الذي حازه تفسير البيضاوي المؤلفات التي كتبت عليه سواء كانت تلك المؤلفات حواشٍ وتعليقات أو تخرج لأحاديثه أو أبياته أو حتى المختصرات التي كتبت عليه.

أولاً: المؤلفات التي كتبت على تفسير البيضاوي:

حظي تفسير البيضاوي بالكثير من العناية والاهتمام من قبل العلماء في مجال كتابة الحواشٍ والتعليقات عليه، والمؤلفات التي كتبت عليه بشكل عام، وقُلما تجد تفسيراً حظي بمثل ما حظي به هذا التفسير، ويدلنا على ذلك كثرة الحواشٍ التي كتبت عليه سواء كانت تامة أو على أجزاء منه، فقد جاء صاحب كشف الظنون على ذكر أسماء ما يقرب من أربعين حاشية وتعليقة ما بين حواشٍ تامة وأخرى غير تامة، وقد استدرك صاحب إيضاح المكنون نحوً من سبعين حاشية وتعليقة لم يأت على ذكرها صاحب كشف الظنون، في حين أورد الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط أسماء ثلاثمائة وثلاثة وثلاثين حاشية^(٢).

وكثرة هذه الحواشٍ تدل على قيمتها العلمية وتوحي بمدى الإقبال والعنابة اللذين حظي بهما هذا التفسير.

(١) التفسير ورجاله: ٩٣-٩٧ (بتصرف).

(٢) انظر: كشف الظنون: ١٨٨/١، وإيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون: إسماعيل باشا، ١٣٨/١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الفهرس الشامل للتراث العربي والإسلامي المخطوط: ٣٢٠/١.

ولعل الأسباب التي تقف وراء كثرة هذه الحواشي تظهر لنا من خلال ما اتضح سابقاً من القيمة العلمية لهذا التفسير وأسباب أخرى منها:

١. كان تفسير البيضاوي باباً مهماً للولوج إلى تفسير الكشاف:

ففقد كان تفسير البيضاوي مدخلاً مهماً للوصول إلى تفسير الكشاف، إذ أن كثيراً من قلوب الناس كانت تهفو إلى تفسير الكشاف، وكان علماء السنة يتعلّقون بالكشاف تعلقاً مشوباً بالحب والحدّر، وذلك لما حواه من آراء اعتزالية، فكان بروز البيضاوي بتفسيره ملخصاً من الكشاف زائداً عليه مبدأ من سقطاته ببرداً وسلاماً على تلك القلوب التي كانت تهفو إلى الكشاف وتتهيّبه.

وبذلك كان تفسير البيضاوي سلماً يصعد من خلاله من رام الوصول إلى الكشاف، وآية ذلك أنه لم تتوفر حواشي الكشاف إلا في القرن الثامن وما بعده، ولم تطلع غالباً إلا من الآفاق العلمية التي كانت مستيرة بتفسير البيضاوي.

بحيث أصبحت الأنظار متاجدة والبحث متباذلة باطراد بين حواشي الكشاف وحواشي البيضاوي كأنّ محرريها مجتمعون في مجلس واحد، وبذلك كثُرت الحواشي كثرة قلّ أن ترى مثلها في تفسير من التفاسير^(١).

٢. خشية العلماء من ضياع فوائد البيضاوي ونकاته:

ففقد لوحّت عبارة البيضاوي لأدباء العلماء بشيء من جمالها، فسعوا إلى تفسيره ليحيطوا اللثام عن باقي الجمال، وولجوا بحره ليستخرجوا درره خشية ضياعها في قعر الإهمال، فباشر هؤلاء العلماء العمل وحملوا معالو تنقيبهم وشرحوه ليرصفوا فرائد فوائده في حواشيهن التي كتبوها على تفسيره، وفي ذلك يقول جلال الدين السيوطي: "شعرت الديار المصرية من محقق، وخلت من مدرس يبدي ضمائره مدقق، فصار الكتاب بما فيه من الكنوز كصندوق مغلق، وأصبح لفقد من فيه أهلية لتدريسه كأنه مغلق، فاللهمني الله سبحانه وتعالى أن جردت الهمة لتدريسه، وشددت المئزر لنقرير ما فيه وتأسيسه^(٢)

(١) التفسير ورجاله: ٩٧-٩٨ (بتصرف).

(٢) اهتمام مفسري القرن الحادي عشر بتفسير البيضاوي وأسبابه ومظاهره: ٥٠٠. انظر عبارة السيوطي في نواهد الأباء:



٣. خشية العلماء على تفسير البيضاوي من فاقد الأهلية:

فمن أسباب كثرة الحواشي ما رأه العلماء من تعرض بعض فاقد الأهلية العلمية إلى هذا التفسير تدريساً وشرحاً، فخشى العلماء أن ينزله هؤلاء في غير منزلته التي يستحقها، ونحن نعلم أن رمد العين ينقلب عمى على يد الطبيب الجاهل... يقول الشهاب الخفاجي مبيناً إلى ذلك: "ولكني رأيت البغاث ربما تفكّت بأذب الشمار، ووردت قبل الضواري غير الأنهر، فحداني ذلك إلى موارده ومصادره، وحثني على الغوص على فرائد جواهره، وأن أكتب عليه حواشي تكون سياجاً لشماره، ومقدمات لنتائج أفكاره، التي تحرّر فيها البيان، ونادت الفضل للمنتقم في كل زمان" فأراد هؤلاء العلماء من حواشيهما التي كتبوها على البيضاوي أن تكون سياجاً لشماره كما ذكر الشهاب، فيقطعوا بذلك الطريق على كل طفولي يريد أن يتبوأ منزلة لا تتنبغي له وهو ليس لها بأهل^(١).

٤. الغزارة العلمية:

فقد وجد العلماء في هذا التفسير مادة علمية غزيرة وعبارة موجزة جامعة، وجمع لعلوم متعددة وآراء في فنون جمة، فحاول العلماء شرح تلك العلوم ومناقشة تلك الآراء وفك العبارات المجملة وكشف ما تحويه من نكت وعلوم، فكان لهم يتنافسون في الحواشي والتعليق عليه^(٢).

٥. كان منهجاً مقرراً على طلاب العلم:

فقد اعتمد كثير من المشايخ والعلماء مرجعاً لتدريس طلابهم وذلك لما فيه من اختصار وجمع للآراء المتعددة بجزالة لفظ وعذوبة أسلوب، فقد اشتهر تدريسه في كثير من أقطار العالم الإسلامي وخاصة إبان الدولة العثمانية، فعمد العلماء إلى كتابة شروح حواشٍ عليه ليسهلوا على طلابهم الوصول لهذا التفسير وفهم إشاراته ودقائق معانيه، فكان هذا مدعاه لكثره الحواشي والتعليقات التي كتبت عليه.

ونظراً لما سبق من أسباب، كثرت الحواشي والتعليقات كثرة قل نظيرها ما بين حواشٍ تامة وأخرى ناقصة، وسنورد هنا أسماء أشهر الحواشي والتعليقات.

(١) اهتمام مفسري القرن الحادي عشر بتفسير البيضاوي أسبابه ومظاهره: ٥٠٠-٥٠١. انظر عبارة الشهاب في: حاشية الشهاب: ٢/١

(٢) البيضاوي ومنهجه في التفسير: يوسف أحمد علي، ص ٣٣٥، رسالة دكتوراة، إشراف الأستاذ محمد شوقي السيد، جامعة أم القرى، السعودية.

١. الحواشى^(١):**حاشية القوجوى (محى الدين شيخ زاده):**

العالم الفاضل محى الدين محمد بن الشيخ مصلح الدين مصطفى القوجوى، المتوفى سنة إحدى وخمسين وتسعمائة، وهي أعظم الحواشى فائدة وأكثرها نفعا وأسهلها عبارة، كتبها أولا على سبيل الإيضاح والبيان للمبتدئ في ثمان مجلدات، ثم استأنفها ثانيا بنوع تصرف فيه وزيادة عليه، فانتشرت هاتان النسختان وتلاعيب بهما أيدي النساخ حتى كاد أن لا يُفرق بينهما، ولبعض الفضول منتخب تلك الحاشية ولا يخفى أنها من أعز الحواشى وأكثرها قيمة واعتبارا وذلك لبركة زهره وصلاحه.

حاشية القونوى:

إسماعيل بن محمد بن مصطفى، أبو المفدى، عاصم الدين، القونوى وهو مفسر، من فقهاء الحنفية، مولده بقونية ووفاته بدمشق عام (١١٩٥هـ)، وحاشيته على تفسير البيضاوى من الحواشى الجليلة، وطبعت هذه الحاشية باستبول سنة ١٢٨٣هـ في أربع مجلدات.

حاشية الشهاب الخفاجي:

أحمد بن محمد بن عمر، شهاب الدين الخفاجي المصري قاضي القضاة وصاحب التصانيف في الأدب واللغة، المتوفى (١٠٦٩هـ) له حاشية على تفسير البيضاوى أسمها (عنابة القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوى)، وهي من أعظم الحواشى وأكثرها نفعا، "وهي حاشية تامة واسعة كثيرة المباحث والفوائد، وسعت دائرة تفسير البيضاوى علمًا، أكثر مما وسعتها نقداً وبحثاً"^(٢). وقد تناولها العلماء بالدراسة والعنابة لما فيها من عظيم الفائدة، وقد طبعت ببلاط مصر سنة ١٢٨٢هـ، في ثمانية مجلدات، وهي مصورة حديثاً بالمكتبة الإسلامية في ديار بكر بتركيا.

حاشية السيالكوتى:

عبد الحكيم بن شمس الدين الهندي السيالكوتى البنجابي: فاضل، من أهل سialkot التابعة لlahore، بالهند، المتوفى (١٠٦٧هـ)، وقد قال عن حاشيته ابن عاشور: "سارت مثلاً في التحقيق،

(١) انظر حواشى وتعليقات تفسير البيضاوى: كشف الظنون: ١٨٨/١، إيضاح المكنون: ١٣٨/١.

(٢) التفسير ورجاله: ١٠٠.

والتحليل، وصواب النظر، ورشاقة العبارة، والإغراق في الإشارة، حتى اعتبرت عنقاء الدارسين وأبدها الناظرين^(١)، وطبعت هذه الحاشية في استنبول سنة (٢٧١٦هـ).

حاشية السيوطي:

الشيخ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي الإمام الحافظ المؤرخ الأديب، المتوفى سنة إحدى عشرة وتسعمائة وهي بعنوان "تواهد الأبرار وشوارد الأفكار".

حاشية ابن التمجيد:

العالم مصلح الدين مصطفى بن إبراهيم المشهور بابن التمجيد معلم السلطان محمد خان الفاتح، المتوفى (٨٨٠هـ) وهي مفيدة جامعة أيضاً لخصها من حواشي الكشاف في ثلاثة مجلدات، وطبعت هذه الحاشية باستنبول سنة ١٨٢٧م في سبع مجلدات.

حاشية الكازروني:

أبي الفضل القرشي الصديقي الخطيب المشهور بالказروني المتوفى في حدود سنة أربعين وتسعمائة (٩٤٠هـ) وهي حاشية لطيفة في مجلد أورد فيها من الدقائق والحقائق ما لا يحصى، وطبعت هذه الحاشية على هامش تفسير البيضاوي بدار الكتب المصرية بالقاهرة سنة (١٣٣٠هـ) في خمس مجلدات وصورت حديثاً في بيروت.

حاشية أبي بكر الحنفي:

وهو الشيخ أبو بكر بن أحمد بن الصائغ الحنفي المتوفى سنة (٧١٤هـ) واسم حاشيته (الحسام الماضي في إيضاح غريب القاضي)، شرح فيها غريب التفسير وضم إليها فوائد كثيرة.

حاشية الإسنوي:

وهو جمال الدين عبد الرحيم بن الحسن الإسنوي فقيه أصولي، من علماء العربية، ولد بإسنا، وتوفي سنة (٧٧٢هـ)، له كتب ومصنفات كثيرة وله حاشية على تفسير البيضاوي.

حاشية الكرمانى:

وهو الشيخ شمس الدين محمد بن يوسف الكرمانى المتوفى سنة (٧٨٦هـ).

(١) التفسير ورجاله: ١٠٠.

شرح إمام الكاملية:

كمال الدين محمد بن محمد بن عبد الرحمن المصري المعروف بإمام الكاملية المتوفى سنة (٨٧٤هـ)، له شرحان على أنوار التنزيل مطولاً وختصراً.

حاشية القراماني:

وهو الشيخ جمال الدين إسحق القراماني، المتوفى سنة (٩٣٣هـ)، وهي حاشية مفيدة جامعة.

٢. التعليقات والحواشي غير التامة^(١):

وأما التعليقات والحواشي غير التامة فكثيرة جداً فنذكر منها الأشهر فالأشهر فمنها:

تعليق عجم سنان المحتشى:

سنان الدين يوسف البردعي الشهير بعجم سنان المحتشى لشرح الفرائض كتبها إلى قوله - سبحانه وتعالى - ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُون﴾ البقرة: ٧١.

حاشية الأسفاريني:

الفاضل المحقق عصام الدين إبراهيم بن محمد بن عريشاء الأسفاريني المتوفى سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة وهي مشحونة بالتصريفات اللائقة والتحقيقات الفائقة من أول القرآن إلى آخر الأعراف ومن أول سورة النبأ إلى آخر القرآن أهدتها إلى السلطان سليمان خان.

حاشية سعدى أفندي:

المولى العلامة سعد الله بن عيسى الشهير بسعدي أفندي المتوفى سنة خمس وأربعين وتسعمائة وهي من أول سورة هود إلى آخر القرآن وأما التي وقعت على الأوائل فجمعها ولده بير محمد من الهاومش فألحقها إلى ما علقه وفيها تحقيقات لطيفة ومباحث شريفة لخصها من حواشي الكشاف وضم إليها ما عنده من تصرفاته المسلمة فوق اعتماد المدرسين عليها ورجوعهم عند البحث والمذاكرة إليها وقد علقوا عليها رسائل لا تحصى.

(١) انظر حواشي وتعليقات تفسير البيضاوي: كشف الظنون: ١٦٣/١، إيضاح المكنون: ١٣٨/١.

وحاشية سنان الدين:

الفاضل سنان الدين يوسف بن حسام المتوفى سنة ست وثمانين وتسعمائة وهي حاشية مقبولة من أول الأنعام إلى آخر الكهف وعلق على سورة الملك والمدثر والقمر وألقها وأهداها إلى السلطان سليم خان الثاني.

وتعليق العالم الفاضل مصلح الدين محمد الملازي:

المتوفى سنة سبع وسبعين وتسعمائة وهي إلى آخر الزهراوين مشحونة بالباحثات الدقيقة.

تعليق الفاضل محمد بن موسى البسنوي:

المتوفى سنة ست وأربعين وألف وهي إلى آخر سورة الأنعام. كتبها على طريق الإيجاز بل على سبيل التعمية والإلغاز.

وتعليق الفاضل المشهور بالعلائي بن محبى الشيرازي:

علاء الدين علي بن محيي الدين محمد الشريف المتوفى سنة (٩٤٥هـ) وهي على الزهراوين، فرغ عنها في رجب سنة خمس وأربعين وتسعمائة وسماها: (مصابح التعديل في كشف أنوار التنزيل).

تعليق الشيخ رضي الدين:

محمد بن يوسف الشهير بابن أبي اللطف القدسي المتوفى سنة (١٠٢٨هـ) وهي في مجلد ضخم، علقها في درسه عند الصخرة إلى آخر الأنعام فيبضمها وأرسلها إلى المولى أسعد المفتى.

٣. تحرير أحاديث تفسير البيضاوي:

لا شك أن تفسير البيضاوي مع جلالته وقيمة العلمية يبقى عملاً بشرياً لا يخلو من بعض الملاحظات والهبات البسيطة، إلا أنه لا بد من الإشارة إلى أن البيضاوي قد سار في تفسيره على طريقة صاحب الكشاف في ذكره في نهاية كل سورة حديثاً في فضلها، دون مراعاة لدرجة الصحة في هذه الأحاديث.

وقد تحدث ابن عاشور عن هذا الأمر فقال: "على أن القاضي البيضاوي لم يسلم من أمر وقع فيه صاحب الكشاف، وتهاون بأمره العلماء بعد القرن الثامن، وهو عدم التحري في درجة الأحاديث التي يوردها، معرضاً بما عليها من النقد والتزييف، وما يتصل بها من مباحث التجريح والتعديل، وذلك أمر أخذ عليه بحق، وإن حاول صاحب كشف الظنون تخفيف أمره عليه، فإن

الشهاب الخفاجي لم يزل يعلق على حديث مما أورده البيضاوي بأنه موضوع، وخاصة أحاديث فضائل السور^(١).

وبالرجوع إلى كلام حاجي خليفة فيما يخص كلام العلماء على أحاديث فضائل السور نقل ما قاله فيما يتعلق بهذا الأمر: "وأما أكثر الأحاديث التي أوردها في أواخر السور فإنه لكونه من صفت مرأة قلبه، وتعرض لنفحات ربه، تسامح فيه وأعرض عن أسباب التجريح والتعديل، ونحا نحو الترغيب والتأنويل، عالماً بأنها مما فاه صاحبه بزور، ولدى بغور، والله عالم بذلك الصدور"^(٢).

وبالنظر إلى كلام حاجي خليفة وكلام ابن عاشور يظهر لنا أن حاجي خليفة قد حاول الاعتذار للبيضاوي بما وقع فيه، واعتذر قد يكون مقبولاً إذا حُمل على أنه أورد هذه الأحاديث في معرض الترغيب في كتب التفسير لا في كتب الفقه والأصول وما شاكلها، ولكن وإن لم يكن هذا العذر مقبولاً عند بعض العلماء إلا أن هذا لا ينقص من قدر هذا التفسير الذي يعتبر أحد الأعمدة المهمة التي يرتكز عليها علم التفسير.

وقد أولى العلماء والدارسون تفسير البيضاوي بالعناية والاهتمام لاستدراك تلك الأحاديث وتخرجها وقد ظهرت المؤلفات التي كتبت لتخرج أحاديثه.

كتب تخرج أحاديث تفسير البيضاوي:

الفتح السماوي في تخرج أحاديث البيضاوي:

ألفه المحدث الشامي الشيخ زين الدين عبد الرؤوف المناوي (ت ٣١٠ هـ). وحققه أحمد مجتبى بن نذير عالم السلفي في طبعته الأولى (٩٤٠ هـ) دار العاصمة - الرياض، وعدد أحاديثه (٥٠١) حديثاً.

وقد جاء في مقدمة هذا الكتاب: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، اللَّهُ أَكْثَرُ أَنْ جَعَلَنِي مِنْ خَدَّامِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالسَّنَةِ النَّبُوَّةِ، وَجَبَلَنِي عَلَى الْاعْتِنَاءِ بِتَمْيِيزِ صَحِيحِ الْحَدِيثِ وَسَقِيمِهِ مِنْ غَيْرِ تَحْمِلِهِ، وَلَا عَصِبَّيَّةَ، وَالصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى خَيْرِ الْبَرِيَّةِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ذُوِّيَّ الْمَنَاقِبِ الْعُلَيَّةِ، وَبَعْدَ، فَيَقُولُ الْعَبْدُ الْمَقْصُرُ الْقَاصِرُ، الرَّاجِي عَفْوَ الرَّؤُوفِ الْقَادِرُ، إِنِّي قَدْ وَقَطْتُ عَلَى عَدَةِ تَخَارِيجِ الْأَحَادِيثِ الْوَاقِعَةِ فِي (الْكَشَافِ)، وَلَمْ أَقْفُ عَلَى مَنْ أَفْرَدَ تَخَارِيجَ الْأَحَادِيثِ الْوَاقِعَةِ فِي (تَفْسِيرِ

(١) التفسير ورجاله: ١٠١.

(٢) كشف الظنون: ١٨٨/١.

القاضي) طيب الله ثراه و جعل الجنة مثواه، بتأليف مستقل، مع دعاء الحاجة بل الضرورة إلى ذلك أشد إذ منها الصحيح والضعيف والموضوع وما لا أصل له، ولم يوقف له على خبر بالكلية فأفردت لذلك هذه العجالة، مع شغل البال، وسوء الحال، وكثرة الهموم، وترادف المصائب والغموم، حتى أصبحت القرحة قريحة، والجوارح جريحة، والدمع منهمل، والخاطر منكسر، إلى الله أشكو صدعة أذهبت بالي، فمن هولها ربع اصطباري غدا بالي، وسميته: (الفتح السماوي بتخريج أحاديث القاضي البيضاوي)، ومن مد الكون أستمد العون، وهو حسيبي ونعم الوكيل^(١).

تحفة الرواية في تخريج أحاديث البيضاوي:

ألفه الشيخ محمد بن حسن المعروف بابن همات أو محمد همات زاده، الدمشقي من علماء الحديث، توفي سنة (١١٧٥هـ)^(٢).

فيض الباري في تخريج أحاديث تفسير البيضاوي:

للشيخ عبد الله بن صبغة المدراسي المتوفى سنة (١٢٨٨هـ) رحمه الله تعالى وصل فيه إلى سورة مريم، مخطوط بقلم المؤلف منه نسخة مصورة في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة^(٣).

٤. مختصراته:

مواهب الجليل من تفسير البيضاوي أنوار التنزيل وأسرار التأويل:

للشيخ محمد أحمد كنعان طبع في بيروت نشر دار العلم للملاتين ودار لبنان للطباعة والنشر سنة (١٤٠٤هـ) في مجلد ضخم على هامش القرآن الكريم .

الإتحاف بتمييز ما تبع فيه البيضاوي صاحب الكشاف:

للشيخ محمد بن علي بن أحمد الداودي من علماء القرن العاشر، مخطوط منه نسخة في دار الكتب المصرية برقم (٢٧٠).

(١) الفتح السماوي بتخريج أحاديث القاضي البيضاوي: عبد الرؤوف المناوي، تحقيق أحمد مجتبى، ٩٠/١-٨٧/١، دار العاصمة، الرياض.

(٢) الأعلام للزرکلي: ٩١/٦.

(٣) الدليل إلى المتون العلمية: عبد العزيز بن إبراهيم بن قاسم.

مختصر تفسير البيضاوى:

لمحمد بن محمد بن عبد الرحمن المعروف بإمام الكاملية الشافعى القاهري المتوفى سنة أربع وسبعين وثمانمائة.

من مظاهر العناية والاهتمام بتفسير البيضاوي:

ثانياً: الدروس التي عُقدت على تفسير البيضاوي:

كما ظهر سابقاً فإن تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) بما له من مجموع خصائص ميزته عن غيره من كتب التفسير جعلته يحظى بالاهتمام البالغ وبوأته مكانة عالية قل نظيرها، لذلك فقد اعتمدته العلماء مادة مهمة لتعليم طلابهم التفسير، ومن هنا كثرت دروس العلم حول تفسير البيضاوي، وببدأ المشايخ يجizzون طلابهم تفسير البيضاوي، ويتناقلونه بالأسانيد الصحيحة خلافاً عن سلف.

أسماء بعض العلماء والمشايخ الذين عقدوا دروساً على تفسير البيضاوي:

١. **أحمد بن الصايغ**: الإمام العلامة شهاب الدين بن الصايغ المصري، الحنفي، كان بارعاً في العلوم الشرعية والعقلية، وكان يدرس في تفسير البيضاوي وغيره^(١).
٢. **شهاب الدين الأشيشي**: الفقيه الشافعي العارف بالحديث المتوفى (٩٨٣هـ)، كان يعقد دروساً في تفسير البيضاوي، فقد جاء في التحفة اللطيفة في ترجمة عمر بن عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي الفرج الزرندي المدنبي الشافعي أنه حضر دروساً في تفسير البيضاوي على الشهاب الأشيشي بقراءة حسين الفتخي^(٢).
٣. **علي بن حسن الجراعي**: الإمام العلامة المشهور بالقimirي كان قد ولد نصف إماماة الشافعية بالجامع الأموي، وتتصدر للإقراء بمقصورة الجامع الأموي في تفسير البيضاوي، ثم في تفسير البغوي، ومات ولم يكمله^(٣).
٤. **محمد البليدي**: التونسي المالكي العالم بالعربية والتفسير والقراءات، المغربي الأصل، سكن القاهرة وتوفي فيها سنة (١١٧٦هـ)^(٤)، كان يعقد دروساً في تفسير البيضاوي وحضرها الشيخ عبد الوهاب بن عبد السلام العفيفي، فقد جاء في عجائب الآثار: "ولما توفي شيخه الصباغ لازم السيد محمد البليدي في دروسه من ذلك تفسير البيضاوي بتمامه"^(٥).

(١) الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة: نجم الدين الغزي، ١١٧/٢، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

(٢) انظر: التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة: شمس الدين السخاوي، ٣٤٥/٣، أسعد طرابزوني الحسيني، ١٩٧٩م

(٣) انظر: الكواكب السائرة: ٢٠٣/٢.

(٤) انظر: الأعلام للزرکلی: ٦٨/٧.

(٥) انظر: عجائب الآثار في التراجم والأخبار: عبد الرحمن الجبرتي، ٣٠٣/١، دار الجيل، بيروت.

٥. **الشيخ خليل الحمصاني:** الشيخ خليل أفندي المحقق العلامة المدقق الفهامة، الشهير بابن الحمصاني الشافعي المتوفى (١١٢٣هـ)، جاء في كتاب يوميات شامية أنه بقي يخطب في جامع الآغا مثل عادة الخطباء... ووُعظ على الكرسي بالجامع في رمضان، وكان ماهراً في تفسير البيضاوي^(١).

٦. **الشيخ محرم بن محمد القسطموني:** المتوفى سنة (٩٨٣هـ) جاء في الشقائق النعمانية أنه بعد أن سلك مسلك الوعظ والتفسير عقد المجالس الشريفة ونصح وأفاد وانتصب للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في عدة من البلاد ثم عاد إلى قسطنطينية وشاع فيها أمره وارتفع ذكره وفوض إليه التدريس بمدرسة محمد باشا الصوفي... وُنصب له به كرسي للوعظ... فكان يدرس تارة ويعظ أخرى وقد أتم مراراً تفسير البيضاوي وال Kashaf وأحيا سنن الأئمة الأسلام^(٢).

٧. **محمد الرومي:** العلامة المعروفة بالملغري، جاء في خلاصة الأثر أن إبراهيم بن عبد الرحمن الخياري المدني الشافعي المتوفى (١٠٨٣هـ)، حضر دروس العلامة الملغري في تفسير القاضي البيضاوي^(٣). وقال عنها: "لازمته في قراءته فتحليت بفرائده، ولاحت لي مشرقة في سلك الإفادة جواهر فوائده، فحضرته من أول سورة عم إلى آخر سورة الطارق"^(٤).

وقد كثرت في القرن الحادي عشر الدروس حول تفسير البيضاوي منها^(٥):

٨. **عبد الرحمن المرشدي:** مفتى الحر المكي المتوفى (١٠٠٥هـ)، تولى تدريس المدرسة السليمانية الحنفية، وافتتح الدرس في تفسير البيضاوي من قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتُبَ عَلَيْكُمُ الْعِصَامُ كَمَا كُتُبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَلَكُمْ تَنَقُّوْنَ﴾ البقرة: ١٨٣، وحضر مجلسه فيها يومئذ جمع من العلماء والأعيان، وكان يوماً مشهوداً^(٦).

٩. **شمس الدين الحلبي:** المتوفى (١٠٠٥هـ)، كان يعقد دروساً في تفسير البيضاوي^(٧).

١٠. **إسماعيل بن عبد الغني النابلسي:** أملى تفسير البيضاوي بالجامع الأموي، وكان يورد عليه عبارات تقاسير عديدة وكلها إلقاء من حفظه^(٨).

(١) انظر: يوميات شامية: محمد بن كنان الصالحي، ٤٥/١.

(٢) انظر: الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية: طاشكري زاده، ٤٧٨/١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٥م.

(٣) انظر: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر: المحبي، ٢٥/١.

(٤) انظر: خلاصة الأثر: ٣١٢/٤.

(٥) نقلأً عن: اهتمام مفسري القرن الحادي عشر بتفسير البيضاوي أسبابه ومظاهره: ٥١١-٥٠٩. (بتصرف).

(٦) انظر: خلاصة الأثر: ٣٦٩/٢.

(٧) انظر: خلاصة الأثر: ١١٥/٤.

(٨) انظر: خلاصة الأثر: ٤٠٨/١.

١١. عبد البر الفيومي العوفي: (المتوفى ١٠٧١هـ)، لزم الشهاب الخفاجي وصيরه معيداً لدرسه في حاشيته على البيضاوي^(١).
١٢. علاء الدين الحصني: المعروف بالحصيفي، المتوفى (١٠٨٨هـ) يقول المحبي: "حضرته أنا بحمد الله تعالى وهو يقرئ تفسير البيضاوي في المدرسة التقوية^(٢).
١٣. يحيى بن عمر المنقاري الرومي: المتوفى (١٠٨٨هـ)، عندما ولّي قضاء مصر عقد بها درساً في تفسير البيضاوي وحضره أكابر علمائها وأذعنوا له بالتحقيق، ثم ولّي قضاء مكة ودرس فيها في المدرسة السليمانية في تفسير البيضاوي أيضاً، حيث شرع يقرر من أول سورة مرريم^(٣).
١٤. يحيى النابلي الشاوي اللبناني: المتوفى (١٠٩٦هـ) قال المحبي: "شرعت أنا وجماعة من بلدتنا دمشق وغيرها في القراءة عليه عندما كنا في الروم، فقرأنا تفسير سورة الفاتحة من البيضاوي وحاشية العقام"^(٤).
١٥. إبراهيم بن منصور: المعروف بالفتال الدمشقي، المتوفى (١٠٩٨هـ)، أُعطي دروساً في تفسير البيضاوي في داره بالكلاسة^(٥).

(١) انظر: خلاصة الأثر: ٢٩٢/٢.

(٢) انظر: خلاصة الأثر: ٦٣/٤.

(٣) انظر: خلاصة الأثر: ٤٧٧/٤.

(٤) انظر: خلاصة الأثر: ٤٨٧/٤.

(٥) انظر: خلاصة الأثر: ٥٢/١.

ثالثاً : تلمذ العلماء وطلاب العلم على تفسير البيضاوي:

فقد كان تفسير البيضاوي أحد الركائز الأساسية التي يقوم عليها تنشئة طلاب العلم والعلماء منذ صغرهم بعد أن يحفظوا القرآن ويأخذوا حظوظهم من السنة، وغيرها من العلوم الشرعية فقد كان تفسير البيضاوي أحد الكتب التي يتعلمونها وقت التحصيل.

فقد كان السيوطي رحمه الله من الذين قرأوا تفسير البيضاوي في زمن الطلب، فقد جاء في ترجمته في روضة الطالبين: "كان السيوطي رحمه الله شديد الذكاء، قوي الذاكرة، حفظ القرآن وهو دون ثمانين سنين وحفظ عمدة الأحكام وشرحه لابن دقيق العيد، ثم حفظ منهاج الإمام النووي في فقه الشافعية، ثم منهاج البيضاوي في الأصول، ثم ألفية ابن مالك في النحو ثم تفسير البيضاوي"^(١).

وكان طلاب العلم يقرأون على مشايخهم تفسير البيضاوي من جملة الكتب التي يقرأونها عليهم، فقد جاء في ترجمة الشيخ العالم الشهير ملا زاده السمرقندى أنه "دخل حلب ودمشق... وسأله مفتى حلب البدرى حسن السيوفى عن عبارة أشكلت عليه في المطول، فرفع له الإشكال بإرجاع ضمير فيها إلى خلاف ما ظنه السيوفى، فاعتقد فضله، ثم أخذ عنه تفسير البيضاوى"^(٢).

ومثل ذلك أيضاً الشيخ العالم الملا موسى الأول الكردى اللاذانى، نزيل حلب اشتغل ببلاده على جماعة منهم الملا محمد الخبىصى، وأخذ عن الشمس البازلى نزيل حماة، وعن ملا إسماعيل الشروانى أحد مریدي خوجه عبید النقشبندى أخذ عنه بمكة تفسير البيضاوى^(٣).

ومما ورد في ترجمة الشيخ خالد أبو البهاء ضياء الدين النقشبندى العالم الكبير المتوفى (١٢٤٢هـ) أنه قدم بغداد وقرأ فيها مختصر المنتهى في الأصول، ورجع إلى محله المأهول، وحيث حل من المدارس، كان فيها الأنقى الأروع السابق في ميادين التحقيق كل فارس، لا يسأل عن مسألة من العلوم الرسمية إلا ويجيب بأحسن جواب، ولا يمتحن بغويبة من تحفة ابن حجر أو تفسير البيضاوى إلا ويكشف عن وجوه خرائد الفوائد النقاب، وهو يستفيد ويفيد، ويقرر ويحرر فيجيد، إلى إنصاف وذكاء خارق، وقوة حافظة بذهن حاذق^(٤).

(١) روضة الطالبين وعمدة المفتين: أبو زكريا النووي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، ٩٠/١، على محمد معوض، دار الكتب العلمية.

(٢) الكواكب السائرة: ١٤٠/١.

(٣) الكواكب السائرة: ٣٠٩/١.

(٤) انظر: حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر: عبد الرزاق البيطار، ٥٨٧/١، تحقيق محمد البيطار، ١٣٨٠هـ،

نظرة في تفسير البيضاوي

وجاء في ترجمة الإمام المحقق المدقق شمس الدين محمد بن محمد التونسي المالكي أنه دخل طرابلس ثم دمشق وانتفع به أهلها وشهدوا له بالعلم خصوصاً في التفسير والعربية والمنطق والكلام والعرض والقراءات والمعانوي والبيان وقرأ عليه العلاء بن عماد الدين الشافعي في أوائل تفسير البيضاوي فأفاد وأجاد حتى أذهل العقول^(١).

وجملة القول فإن كثيراً من العلماء وطلاب العلم الذين لا يُحصَّنون عدداً قد تتلمذوا على تفسير البيضاوي وكان منهج دراستهم عند طلبهم للعلم، مما يدل دلالة واضحة على قيمة هذا التفسير العلمية ويدل على الإضافة النوعية التي أضافها هذا التفسير إلى المكتبة الإسلامية.

(١) انظر: شذرات الذهب: ٢٧٠/٨.

رابعاً: المناظرات التي وقعت حول تفسير البيضاوي:

ظهرت المناظرات في التاريخ الإسلامي كوجه من وجوه التناقض بين العلماء في شتى المجالات العلمية، وظهورها كان نتيجة توسيع العلوم وانتشارها وظهور مدارس مختلفة واختلاف في الآراء ووجهات النظر في شتى العلوم.

وقد عقدت المناظرات في مسائل النحو والفقه وعلم الكلام والشعر والأدب وغيرها من العلوم التي تتوعد واحتللت في تاريخ حضارتنا العربية والإسلامية، على نحو ما جرى بين الكسائي وسيبوبيه من مناظرة فيما أصبحت معروفة في تاريخ النحو العربي باسم "المسألة الزنورية".

ولم يكن الهدف من المناظرات مجرد التنازع والاختلاف، بل كان الهدف منها هو الوصول للصواب عبر الحوار والجدال والتي هي أحسن، فقد عُرِفت المناظرة بأنها: "المحاورة في الكلام بين شخصين مختلفين يقصد كل واحد منهما تصحيح قوله وإبطال قول الآخر، مع رغبة كل منهما في ظهور الحق، فكأنها بالمعنى الاصطلاحي مشاركتهما في النظر الذي هو النظر المؤدي إلى علم أو غلبة ظن ليظهر الصواب"^(١).

إذاً فالغاية من المناظرة هو إظهار الحق والوصول للصواب بعيداً عن التنازع والتناجر والجدال الذي لا فائدة منه، ورحم الله الشافعي الذي كان يقول: "ما ناظرني أحد فباليت أظهرت الحجة على لسانه أو على لساني".

ولم يكن علم التفسير أقل حظاً من العلوم المختلفة فقد عقدت مناظرات حول تفسير البيضاوي، فقد جرت مناظرة بين شمس الدين محمد بن القاسم بن المنقار الحلبي (ت ١٠٥ هـ)، وبين نجم الدين الغزي (ت ١٠٦١ هـ)، وكان بينهما خصام ومنافسة كما هو العادة بين العلماء، "ثم آل الأمر أن عقد له - ابن منقار الحلبي - مجلس عند قاضي القضاة مصطفى بن بستان وحضر جماعة من أعيان العلماء منهم الج القاضي محب الدين، والشهاب العيثاوي فأصلحوا بينهما ثم طلبوا المناظرة بينهما فتناولوا في عبارة من تفسير البيضاوي، وكانت الغلبة للنجم وألف العيثاوي رسالة حافلة فيما وقع بينهما، وكان ذلك اليوم قد ظهرت نجوم السماء نهاراً لقوة الكسوف، فقال بعض الأدباء مصراً أجاد فيه وهو قوله: (وعند كسوف الشمس قد ظهر النجم)

فسبكه النجم في أبيات هي قوله:

(١) آداب البحث والمناظرة: محمد الأمين الشنقيطي، ص ٤، تحقيق سعود العريفي، دار عالم الفوائد.

وتسعمائة مرّت جرى الأمرُ والحكمُ
تحرّى جدالاً حين زيله الحزمُ
لنا جدلاً بل خانه الفكرُ والفهمُ
وعند كسوف الشمسِ قد ظهر النجمُ
أصاب تلافاً حين تابعه الرَّجمُ^(١)

بعامِ ثمانٍ بعد تسعين حجة
بأن حضر الشّمسُ ابن منقار الذي
وناظرنا يوم الكسوفِ فلم يُطِقْ
فقيل وبعض القول لا شكَّ حكمةُ
ولولا تلافي الله جل جلاله

(١) خلاصة الأثر: ٤١٧.

المبحث الثالث: مصادر تفسير البيضاوي

اعتمد البيضاوي في تفسيره على مصادر مختلفة ومتعددة فقد جعل من القرآن الكريم مصدراً يفسر فيه القرآن بالقرآن، وكذلك جعل من السنة النبوية مصدراً لكثير من توجيهاته التفسيرية وذكر أسباب النزول وما ورد من الأحاديث النبوية التي تشرح وتفسر الآيات، واعتمد أيضاً على كتب معاصرة وسابقة، وأقوال علماء سابقين، وحتى معاصرین؛ لتكون مصادر له في تفسيره. فنراه قد اعتمد على مصادر معينة يرجع إليها في تقرير الأمور الفقهية، وأخرى في تقرير علم أصول الفقه ويدلل عليها من أقواله، ومصادر أخرى لتقرير علوم اللغة العربية، واستعان أيضاً بتفاصيله لتكون مرجعه ومصدره في تأليفه لكتابه بعنوان *الكتاب*.

أولاً: من القرآن الكريم:

يعد تفسير القرآن بالقرآن من أهم طرق التفسير وأحسنها فقد قال ابن كثير: "فإن قال قائل: مما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، مما أجمل في مكان ، فإنه قد فسّر في موضع آخر... بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رحمة الله تعالى: كل ما حكم به رسول الله، صلى الله عليه وسلم ، فهو مما فهمه من القرآن"(١).

وقال بدر الدين الزركشي في البرهان: "أحسن طريق التفسير أن يفسّر القرآن بالقرآن فما أجمل في مكان فقد فُصل في موضع آخر وما اختُصر في مكان فإنه قد يُسطّر في آخر ، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا يُبَيِّنَ لَهُمْ أَلَّا يَخْلُقُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ النحل: ٦٤ (٢).

ولهذا كان لا بد لمن يعتزم لتأليف كتاب الله تعالى أن ينظر في القرآن أولاً، فيجمع ما تكرر منه في موضوع واحد، ويقابل الآيات بعضها ببعض، ليستعين بما جاء مسهباً على معرفة ما جاء موجزاً، وبما جاء مبييناً على فهم ما جاء مجملأً، ولتحمّل المطلّق على المقيد، والعام على الخاص، وبهذا يكون قد فسر القرآن بالقرآن، وفهم مراد الله بما جاء عن الله، وهذه مرحلة لا يجوز

(١) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، تحقيق مصطفى السيد محمد وآخرون، ٦/١، مؤسسة قرطبة.

(٢) البرهان في علوم القرآن: بدر الدين الزركشي، ١٧٥/٢ - ١٧٦، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م

لأحد مهما كان أن يعرض عنها، ويتخطاها إلى مرحلة أخرى، لأن صاحب الكلام أدرى بمعاني كلامه، وأعرف به من غيره^(١).

لذلك فقد اعتمد البيضاوي في تفسيره كثيراً على القرآن الكريم وأخذ يُفسِّر القرآن بالقرآن بطرقٍ مختلفة.

فنجده البيضاوي يفسر الآية ويبين المراد منها على ما ظهر من معانها اللغوي، ويؤيد تفسيره لآية أخرى تعضد ما ذهب إليه^(٢)، ومثال ذلك ما جاء عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَشِينِ﴾ البقرة: ٤٥ قال: "الكبيرة" لثقلة شاقة كقوله تعالى: ﴿كَبَرَ عَلَى الْمُسْرِكِينَ مَا نَذَّرُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ الشورى: ١٣^(٣).

ومن الأمثلة التي تدل على اعتماده على القرآن الكريم ليوضح معنى لغوي آية أخرى هو تفسيره لقول الله تعالى: ﴿الْعَكْتَدِيلَةِ نَعِيَتِ الْعَدَلِيَّةِ﴾ الفاتحة: ٢ قال: "الرب في الأصل مصدر بمعنى التربية وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً ثم وصف به للمبالغة كالصوم والعدل وقيل هو نعمت من ربه فهو رب كقولك نعم فهو نعم ثم سمي به المالك لأنه يحفظ ما يملكه ويربيه ولا يطلق على غيره تعالى إلا مقيداً ك قوله: ﴿أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ يوسف: ٥٠^(٤).

وعند حديثه على قوله تعالى: ﴿إِنَّ الظَّرِبَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَنْذَرْنَاهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ البقرة: ٦ قال: "وال فعل إنما يمتنع الإخبار عنه إذا أريد به تمام ما وضع له، أما لو أطلق وأريد به اللفظ أو مطلق الحديث المدلول عليه ضمناً على الاتساع فهو كالاسم في الإضافة والإسناد إليه كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ إِمْتُوا﴾ البقرة: ١٣ ، و قوله: ﴿يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّابِرِينَ صِدْقُهُمْ﴾ المائدة: ١١٩ قولهم: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه"^(٥).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَعْبُدُ وَأَرْبُكُمُ الَّذِي خَلَقْتُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقَوْنَ﴾ البقرة: ٢١ قال: "نداء المعرف باللام فإن إدخال يا عليه متذر لتعذر الجمجم بين حرف التعريف فإنهما كمتلين وأعطي

(١) التفسير والمفسرون: ٣١/١.

(٢) الاستنباط عند القاضي البيضاوي من خلال تفسيره أنوار التنزيه وأسرار التأويل: يوسف السلمي، ص ٤٨، رسالة دكتوراه، إشراف عبد العزيز محمود، جامعة أم القرى، السعودية، ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م.

(٣) تفسير البيضاوي: ٩٨/١.

(٤) تفسير البيضاوي: ١٣/١.

(٥) تفسير البيضاوي: ٤٠/١.



حكم المنادى وأجري عليه المقصود بالنداء وصفاً موضحاً له والتزام رفعه إشعاراً بأنه المقصود وأقحمت بينهما هاء التتبّيّه تأكيداً وتعويضاً عما يستحقه أي من المضاف إليه وإنما كثُر النداء على هذه الطريقة في القرآن لاستقلاله بأوجهه من التأكيد وكل ما نادى الله له عباده من حيث إنها أمور عظام من حقها أن يتقطنوا إليها ويقبلوا بقلوبهم عليها وأكثُرهم عنها غافلون حقيق بأن ينادي له بالتأكيد الأبلغ والجموح وأسماؤها المحلاة باللام للعموم حيث لا عهد ويدل عليه صحة الاستثناء منها أو التأكيد بما يفيد العموم، كقوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلِئَكَةُ كُلُّهُمْ جَمِيعُهُنَّ﴾ الحجر: ٣٠^(١).

﴿وَمَا يُنْصَلُ بِمِنْ إِلَّا فَنِيسِينَ﴾ البقرة: ٢٦ أي الخارجين عن حد الإيمان كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَفَّقِينَ هُمُ الْفَنِيسُونَ﴾ التوبة: ٦٧ من قولهم فسق الرطبة عن قشرها إذا خرجت، وأصل الفسق الخروج عن القصد قال رؤبة "فواسقاً عن قصدها جواباً"^(٢).

وقد يفسر الآية بذكر آية تماثلها في المعنى من غير أن يذكر تفسيراً من عنده^(٣).

وقد يتصدى البيضاوي إلى آية تدل على حكم فقهي فيتخد فيها مذهباً، ويأتي بآية أخرى دليلاً إلى ما ذهب إليه.

ثانياً: من السنة النبوية^(٤):

من مصادره السنة النبوية فهو يورد الأحاديث صححها، وحسنها، ومعلولها، وضعيتها، ويستشهد بها في تفسيره للآيات على الرغم من أن تفسيره لا يعد تفسيراً بالتأثر، ولكنه يورد الأحاديث لأغراض في التفسير منها:

١. أن يورد الحديث لبيان ما تدل عليه الآية.

مثاله قوله: ﴿وَالصَّلَاةُ الْوُسْطَى﴾ البقرة: ٢٣٨، أي الوسطى بينها أو الفضلى منها خصوصاً وهي صلاة العصر لقوله عليه الصلاة والسلام يوم الأحزاب: "شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله بيتهن ناراً"^(٥).

(١) تفسير البيضاوي: ٥٩/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٧٧/١

(٣) الاستبطاط عند القاضي البيضاوي: ٤٨

(٤) انظر: البيضاوي ومنهجه في التفسير: ٤٨-٥٧.

(٥) تفسير البيضاوي: ٢٠٦/١

٢. يورد الحديث لتسهيل فهم الآية، وتوضيح معناها.

مثاله قوله: ﴿وَإِنْ أَعْيُدُهَا إِلَكَ﴾ آل عمران: ٣٦، أغيرها بحفظك، وذريتها من الشيطان الرجيم، المطرود وأصل الرجم الرمي بالحجارة وعن النبي صلى الله عليه وسلم "ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل من مسه إلا مريم وابنه"^(١).

٣. يورد الحديث ليغضّ به حجته ويؤيد ما ذهب إليه من قوله، ويرد على من

خالقه:

مثاله: ﴿فَلَقِثُوهُنَّ لِعَذَّتِهِنَّ﴾ الطلاق: ١ أي وقت عذهن والطلاق المشروع لا يكون في الحيض وأما ما روي من قوله عليه الصلاة والسلام "طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيستان" فلا يقاوم ما رواه الشیخان في قصة ابن عمر: "مره فليراجعها ثم ليمسكها حتى تطهر، ثم تحيسض، ثم تطهر، ثم إن شاء أمسك بعد وإن شاء طلق قبل أن يمس، فتلك العدة التي أمر الله تعالى أن تطلق لها النساء"^(٢).

٤. وقد يأتي البيضاوي بالحديث لبيان ما لا يعلم إلا من النقل، وليس للعقل

ولا للرأي فيه مجال:

وهو على ضربين: الإخبار عن قصة في العصور السابقة في زمان مضى، والإخبار عن مشهد من مشاهد يوم القيمة.

٥. أن يذكر الحديث لتبين سبب نزول الآية:

مثاله: قال البيضاوي قوله: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ الْسَّيِّئَاتِ﴾ هود: ١١٤ وفي سبب النزول أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "إنني قد أصبت من امرأة غير أني لم آتها فنزلت"^(٣).

٦. ومن استدلاله بالحديث أيضاً أن يذكر الحديث للدلالة على فضل السورة:
وهي من المأخذ عليه كما قرره أهل العلم، لأن بعض الأحاديث في فضائل السور يكثر فيها الضعف.

(١) تفسير البيضاوي: ٢٥٧/١.

(٢) تفسير البيضاوي: ٩٥/١.

(٣) تفسير البيضاوي: ١٥٤/٢.

ثالثاً: من أقوال الصحابة:

نرى البيضاوي يستدل بأقوال الصحابة عند تفسيره وذلك ليعرض ما ذهب إليه وليووضح المعنى لأن الصحابة كما هو معلوم هم أكثر الناس فهماً لكتاب الله بعد النبي صلى الله عليه وسلم، فهم الذين نزلت فيهم الآيات وهم الذين تلقوا علم الكتاب والسنة عن النبي صلى الله عليه وسلم، فنجد البيضاوي يستدل بأقوالهم لإثبات ما يذهب إليه في تفسيره.

من ذلك ما جاء عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلِكَةِ وَأَخْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ البقرة: ١٩٥ قال البيضاوي: (وأنفقوا في سبيل الله) ولا تمسكوا كل الإنفاق فيه فإن ذلك يقوى العدو ويسلطهم على إهلاكم، ويؤيد ما روى عن أبي أيوب الأنباري رضي الله عنه أنه قال: لما أعزَ الله الإسلام وكثُر أهله رجعنا إلى أهالينا وأموالنا نقيم فيها ونصلحها فنزلت "١".

ومثال آخر لاستشهاد البيضاوي بقول الصحابة ليدعم رأيه فيما يذهب إليه من تفسير هو عند تعرضه لتفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَبَقَتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَنْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيْمِمُوا الْحَيَثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَا سُمِّ بِعَذَابِهِ إِلَّا أَنْ تُنْفِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ البقرة: ٢٦٧ . قال البيضاوي: (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم) من حاله أو جياده، (ومما أخرجنا لكم من الأرض) أي ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الحبوب والثمرات والمعادن... (ولا تيمموا الخبيث منه) أي ولا تقصدوا الرديء منه أي من المال أو مما أخرجنا لكم... (ولستم بآخذيه) أي وحالكم أنكم لا تأخذونه في حقوقكم لردايته. (إلا أن تغمضوا فيه) إلا أن تتسامحوا.... وعن ابن عباس رضي الله عنه كانوا يتصدقون بحشف التمر وشرارة فنهوا عنه "٢".

ومثاله أيضاً استدلاله بقول عثمان وعلي رضي الله عنهمما في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَائِكُمْ وَأَخْوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخْ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأَمَّهَاتُكُمْ الَّتِي أَرْضَعْتُكُمْ وَأَخْوَاتُكُمْ مِنْ الرَّضَدَعَةِ وَأَمَّهَاتُ نِسَاءِكُمْ وَرَبَّتِكُمُ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَاءِكُمْ الَّتِي دَخَلَتْ بِهِنَّ إِنَّ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْشَرِبِهِنَّ فَلَا مُجَاهَ عَلَيْكُمْ وَحَلَّلَ أَبْنَاءِكُمْ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَانِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَّحِيمًا﴾

(١) تفسير البيضاوي: ١/١٧٤.

(٢) تفسير البيضاوي: ١/٢٢٦.

نظرة في تفسير البيضاوي

النساء : ٢٣ ، قال البيضاوي : (وأن تجمعوا بين الأخرين) في موضع الرفع عطفا على المحرمات والظاهر أن الحرمة غير مقصورة على النكاح فإن المحرمات المعدودة كما هي محرمة في النكاح فهي محرمة في ملك اليمين ولذلك قال عثمان وعلي رضي الله تعالى عنهم : حرمتهم آية وأحلتهم آية يعنيان هذه الآية . قوله : (أو ما ملكت أيمانكم) فرجح علي كرم الله وجهه التحريم وعثمان رضي الله عنه التحليل ، قوله علي أظهر لأن آية التحليل مخصوصة في غير ذلك ولقوله (صلى الله عليه وسلم) ما اجتمع الحال والحرام إلا غلب الحرام^(١) .

ومثاله أيضاً إيراده لقول عبد الله بن مسعود عند تفسيره لقول الله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْمَعْدُلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَا عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ النحل : ٩٠ . قال البيضاوي : ولا يوجد من الإنسان شر إلا وهو مندرج في هذه الأقسام - يقصد الفحشاء والمنكر والبغى - صادر بتوسط إحدى هذه القوى الثلاث - يقصد العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى - ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه : هي أجمع آية في القرآن للخير والشر ، وصارت سبب إسلام عثمان بن مظعون رضي الله تعالى عنه ولو لم يكن في القرآن غير هذه الآية لصدق عليه أنه تبيان لكل شيء وهدى ورحمة للعالمين^(٢) .

رابعاً: من كتب الفقهاء^(٣) :

كان البيضاوي في نقله للأحكام الفقهية يعتمد على فقه الشافعية والحنفية ولا يذكر سواهما إلا قليلاً، ولعل ذلك يرجع إلى أنهما المذهبان السائدان في تلك المناطق من بلاد فارس وخراسان.

ومن أمثلة نقله من كتب الفقهاء ما جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿وَدَاؤُدُّ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمُ كُلَّ مَنْ في الْحَرَثِ إِذْ نَقَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحَكْمِهِمْ شَهِيدِينَ﴾ ^(٤) ففهم منها سليمان وكعباً إلينا حكماً وعلماً وسخراً نام داؤد الجبار يسخن وألطير وكتنا فدعيلين^(٥) . الأنبياء : ٧٨ - ٧٩ .

قال البيضاوي : " رُوِيَ أَنَّ دَاؤِدَ حَكَمَ بِالْغَنَمِ لِصَاحِبِ الْحَرَثِ ، فَقَالَ سَلِيمَانُ - وَهُوَ ابْنُ إِحْدَى عَشْرَةِ سَنَةٍ - غَيْرُ هَذَا أَرْفَقَ بِهِمَا . فَأَمْرَ بِدُفْعِ الْغَنَمِ إِلَى أَهْلِ الْحَرَثِ يَنْتَقِعُونَ بِأَلْبَانِهَا وَأُولَادِهَا

(١) تفسير البيضاوي : ١ / ٣٤٤ .

(٢) تفسير البيضاوي : ٢ / ٢٧٧-٢٧٦ .

(٣) انظر : البيضاوي ومنهجه في التفسير : ٧٥-٧٩ .

وأشعارها، والحرث إلى أرباب الغنم يقومون عليه حتى يعود إلى ما كان، ثم يتراذآن. ولعلهما قالا اجتهادا.

واللأول نظير قول أبي حنيفة في العبد الجاني والثاني مثل قول الشافعي بغرم الحيلولة في العبد المغصوب إذا أبى، وحكمه في شرعنـا عند الشافعي، وجوب ضمان المتأفـ بالليل، إذ المعـنـ ضبطـ الدوابـ ليلاً، وهكـذا قضـى النبيـ (صـلى اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ) لـمـا دـخـلـتـ نـاقـةـ الـبرـاءـ حـائـطاـ وأـفـسـتـهـ، فـقالـ: عـلـىـ أـهـلـ الـأـمـوـالـ حـفـظـهـاـ بـالـنـهـارـ وـعـلـىـ أـهـلـ الـمـاـشـيـةـ حـفـظـهـمـاـ بـالـلـيلـ، وـعـنـدـ أـبـيـ حـنـيفـةـ لـاـ ضـمـانـ إـلـاـ أـنـ يـكـونـ مـعـهـ حـافـظـهـ لـقـوـلـهـ (صـلى اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ) جـرـحـ الـعـجـمـاءـ جـبـارـ^(١).

وأما مصادرـهـ منـ فـقـهـ الـمـالـكـيـةـ ماـ جـاءـ فـيـ تـفـسـيرـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ: ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَحَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيقًا ﴾ النـحلـ: ١٤ـ. قالـ البيـضاـويـ: تمـسـكـ بـهـ مـالـكـ وـالـثـورـيـ عـلـىـ أـنـ حـلـفـ أـلـاـ يـأـكـلـ لـحـمـاـ حـنـثـ بـأـكـلـ السـمـكـ، وأـجـبـ عـنـهـ بـأـنـ مـبـنـىـ الإـيمـانـ عـلـىـ الـعـرـفـ وـهـ لـاـ يـفـهـمـ مـنـهـ عـنـدـ الإـطـلـاقـ أـلـاـ تـرـىـ أـنـ اللـهـ سـمـىـ الـكـافـرـ دـاـبـةـ وـلـاـ يـحـنـثـ الـحـالـفـ عـلـىـ أـنـ لـاـ يـرـكـبـ دـاـبـهـ بـرـكـوـبـهـ^(٢).

واما مصادرـهـ منـ فـقـهـ الـحـنـابلـةـ ماـ جـاءـ فـيـ تـفـسـيرـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ: ﴿ يَتَأَكَّلُوا إِلَيْهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّاً مِنْ طَبَبَتِ مَا رَزَقْنَاهُمْ وَأَشْكَرُوا لِلَّهِ مِنْ كُنْتُمْ إِيمَانَهُ تَبَدُّلُونَ ﴾١٧٣ ﴿ إِنَّمَا حَرَمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالَّدَمَ وَلَعْنَمُ الْعِزْمِيَرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ عَدَدَ بَاعِثَ وَلَا عَادِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾١٧٤﴾ البـقـرةـ: ١٧٣ـ ١٧٤ـ.

قالـ البيـضاـويـ: "فـمـنـ اـضـطـرـ غـيرـ بـاغـ بـالـاسـتـشـارـ عـلـىـ مـضـطـرـ آخـرـ... وـلـاـ عـادـ سـدـ الرـمـقـ أوـ الجـوـعـةـ. وـقـيلـ غـيرـ بـاغـ عـلـىـ الـوـالـيـ وـلـاـ عـادـ بـقـطـعـ الـطـرـيـقـ فـعـلـىـ هـذـاـ لـاـ يـبـاحـ لـلـعـاصـيـ بـالـسـفـرـ وـهـ ظـاهـرـ مـذـهـبـ الشـافـعـيـ وـقـوـلـ أـحـمـدـ رـحـمـهـمـاـ اللـهـ تـعـالـىـ^(٣)".

خامساً: من كتب الأصول^(٤):

أخذـ البيـضاـويـ منـ كـتـبـ أـصـوـلـ الـفـقـهـ كـثـيرـاـ مـنـ الـاستـدـلـالـ بـالـآـيـاتـ عـلـىـ الـأـحـكـامـ الـأـصـوـلـيـةـ، بلـ وـأـكـثـرـ مـنـ ذـلـكـ تـأـثـرـهـ بـأـقـوـالـ الـذـينـ نـاقـشـواـ الـاسـتـدـلـالـ بـتـلـكـ الـآـيـاتـ وـرـدـواـ عـلـىـ الـمـعـتـرـضـيـنـ وـكـانـ أـهـمـ كـتـابـ اـعـتـمـدـ عـلـىـ الـبـيـضاـويـ فـيـ ذـلـكـ هـوـ كـتـابـ الـمـحـصـولـ لـلـفـخـ الرـازـيـ.

(١) تفسـيرـ البيـضاـويـ: ٤٢٨ـ/٢ـ.

(٢) تفسـيرـ البيـضاـويـ: ٢ـ/٢ـ. ٢٥٥ـ.

(٣) تفسـيرـ البيـضاـويـ: ١ـ/١ـ. ١٥٩ـ.

(٤) البيـضاـويـ وـمـنـهـجـهـ فـيـ التـفـسـيرـ: ٨٣ـ ٨٠ـ.

نظرة في تفسير البيضاوي

ففي قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقْ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا نَبَيَنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ عَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾^(١) النساء: ١١٥، قال: "الآية تدل على حرمة مخالفة الإجماع لأنَّه سبحانه وتعالى رتب الوعيد الشديد على المشاقة واتباع غير سبيل المؤمنين وذلك إما لحرمة كلٍّ منهما أو أحدهما أو الجمع بينهما، والثاني باطل إذ يصبح أن يقال من شرب الخمر وأكل الخنزير استوجب الحد، وكذا الثالث لأنَّ المشاقة محرمة ضمًّا إليها غيرها أو لم يضم، وإذا كان اتباع غير سبِيلِهِم محرماً، كان اتباع سبِيلِهِم واجباً لأنَّ ترك اتباع سبِيلِهِم ممن عرف سبِيلِهِم اتباع غير سبِيلِهِم"^(٢).

وقال الرازي في المحسول بعد ذكر الآية: "جمع الله تعالى بين مشاقة الرسول، واتباع غير سبِيلِ المؤمنين من الوعيد. فلو كان اتباع غير سبِيلِ المؤمنين مباحاً، لما جمع بينه وبين المحظور كما لا يجوز أن يقال: إن زنت وشربت الماء عاقبتك، فثبتت أنَّ متابعة غير سبِيلِ المؤمنين محظورة، ومتابعة غير سبِيلِ المؤمنين عبارة عن متابعة قول أو فتوى غير قولهم وفتواهم، فإذا كانت تلك محظورة وجب أن تكون متابعة قولهم وفتواهم واجبة، ضرورة، لأنَّه لا خروج من القسمين"^(٣).

ومسألة ثبوت الإجماع بدليل من الكتاب اختلف فيها العلماء.

ومن خالف مذهب البيضاوي في الاستدلال على الإجماع من الكتاب، إمام الحرمين الجويني، وأبو حامد الغزالى، قال الجويني: "تمسك القائلون بأى من كتاب الله، ونحن نذكر أوقعها، فما استدل به الشافعى قول الله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقْ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا نَبَيَنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ عَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾^(٤) النساء: ١١٥ ، فإذا أجمع المؤمنون على حكم قضية، فمن خالفهم فقد شاقهم، واتبع غير سبِيلِهِم، وتعرض للوعيد المذكور في سياق الخطاب، وقد أكثر المعترضون، وظنني أنَّ معظم تلك الاعتراضات فاسدة تكفلها المصنفوون، حتى ينتظم لهم أوجبة عنها ولست لأمثالها.

بل أوجه سؤالاً واحداً يسقط الاستدلال بالآية فأقول: إنَّ الربَّ تعالى أراد بذلك من أراد الكفر، وتكذيب المصطفى صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والحادي عن سنن الحق، وترتيب المعنى: ومن يشاقق الرسول ويتابع غير سبِيلِ المؤمنين المقتدين به، نوله ما تولى، فإنَّ سلم ظهور ذلك،

(١) تفسير البيضاوى: ٣٩١/١.

(٢) المحسول: فخر الدين الرازي، ٤/٣٦ ، تحقيق طه العلوانى، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، هـ١٤١٨، مـ١٩٩٧.

وإلا فهو وجه في التأويل لاتح، ومسلك في الإمكان واضح، فلا يتبقى للمتمسك بالآية إلا ظاهر معرض للتأويل، ولا يسوغ التمسك بالمحتملات، في مطالب القطع، وليس على المعترض إلا أن يظهر وجهاً في الإمكان، ولا يقوم للمحصل عن هذا جواب إن أنصف^(١).

وقال أبو حامد الغزالى: "والذى نراه أن الآية ليست نصاً في الغرض، بل الظاهر أن المراد بها أن من يقاتل الرسول ويُشاقه ويُتبع غير سبيل المؤمنين في مشاعره ونصرته، ودفع الأعداء عنه نوله ما تولى، فكانه لم يكتفى بترك المشاقة حتى تتضم إليه متابعة غير سبيل المؤمنين في نصرته والذب عنه والانقياد له فيما يأمر وينهى، وهذا هو الظاهر السابق لفهم، فإن لم يكن ظاهراً فهو محتمل ولو فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية بذلك لقبل، ولم يجعل ذلك رفعاً للنص، كما لو فسر المشاقة بالموافقة، واتباع سبيل المؤمنين بالعدول عن سبيلهم"^(٢).

فالذين يرفضون الاستدلال على الإجماع من الكتاب، قد استدلوا بأدلة غير الكتاب، فمنهم من استدل على الإجماع بحديث النبي صلى الله عليه وسلم لا تجتمع أمتي على ضلاله، كالغزالى وغيره، ومنهم من استدل على الاجتماع بالإجماع نفسه كالجويني، وعلى كل فالإجماع ثابت إما بالكتاب أو بال الحديث أو بالإجماع.

سادساً: من كتب اللغة^(٣):

تأثر البيضاوى بأهل اللغة ونقل عنهم ويبدو ذلك واضحاً في تفسيره فنقول عن الخليل وسيبويه وشعلب والزجاج والمبرد والأزهري وغيرهم. فكان يذكر من أخذ عنه في بعض الأحيان، وفي أحيان كثيرة لا يذكر اسم من أخذ عنه ويورده بصفة قيل.

ومن أمثلة ما أخذه من كتاب سيبويه ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَمَّ مَنِعَكَ أَمْلَكَ ... الآية﴾ (آل عمران: ٢٦). قال البيضاوى: "الميم عوض عن يا ولذلك لا يجتمعان وهو من خصائص هذا الاسم كدخول يا عليه مع لام التعريف وقطع همزته وتاء القسم وقيل أصله يا الله أما بخير فخفف بحذف حرف النداء ومتعلقات الفعل وهمزته. (مالك الملك) يتصرف فيما يمكن

(١) البرهان في أصول الفقه: عبد الملك الجويني، ٢٦٢/١، تحقيق صلاح عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.

(٢) المستصفى: أبو حامد الغزالى، ١٣٨/١، تحقيق محمد عبدالسلام عبد الشافى، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.

(٣) البيضاوى ومنهجه في التفسير: ٨٤

"التصريف فيه تصرف المالك فيما يملكون وهو نداء ثان عند سببويه فإن الميم عنده تمنع الوصفية"^(١)

أي أن الاسم الواقع بعد ميم اللهم لا يكون صفة لما قبله فهو نداء ثان حذف منه حرف النداء تخفيفاً، فكأن ترتيب الآية يا الله يا مالك الملك. وقد يقال لا هم والله فالمعنى بدل من حرف النداء وربما جمع بين البدل والمبدل منه في ضرورة الشعر كقول الراجز: (عفوت أو عذيت يا اللهم) ^(٢).

ومن أمثلة ما أخذه عن المبرد ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطُلُهُمَا أَبْيَهُمَا جَزَاءٌ بِمَا كَسَبُوا نَكَلًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ^(٣٨) المائدة: ٣٨ ، قال البيضاوي: "جملتان عند سيبويه إذ التقدير فيما يتلى عليكم السارق والسارقة أي حكمهما، وجملة عند المبرد والفاء للسببية دخل الخبر لتضمنها معنى الشرط إذ المعنى والذي سرق والتي سرقت ^(٤) .

وقال المبرد في كتاب الكامل في قوله تعالى: (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطُعُوهُمَا جَزاءً) **بِمَا كَسَبَا نَكَلًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** **٢٨** المائدة: ٣٨. وكذلك: (الرَّازِيَةُ وَالرَّازِيَ فَاجْلِدُوهُ كُلَّ فَجْدٍ مِنْهُمَا مِائَةٌ

جَلَدٌ النور: ٢ فليس على هذا، والرفع الوجه، لأن معناه الجزاء، كقوله: الزانية أي التي تزني، فإذا وجب القطع للسرقة والجلد للزنا، فهذا مجازة، ومن ثم جاز: الذي يأتيني فله درهم، فدخلت الغاء لأنه استحق الدرهم بالإتيان، فإن لم ترد هذا المعنى قلت الذي يأتيني له درهم، ولا يجوز: زيد فله درهم، أو هذا زيد، فحسن جميل، جاز، على أن زيداً خبر. وليس بابتداء، للإشارة دخلت الغاء،

(١) تفسير البيضاوى: ٢٥٢/١

(٢) الصاح تاج اللغة وصحاح العربية: أبو نصر الفارابي، (ليه): ص ٢٤٨، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملائين، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧ هـ، ١٩٨٧ م.

(٣) الكتاب: سيبويه، ١٩٦٢-١٩٧١، عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م

(٤) تفسير البيضاوى: ٤٣٥/١

وفي القرآن: ﴿الَّذِينَ يُنفِعُونَ أَمْوَالَهُم بِالْأَيْمَلِ وَالنَّهَارِ سِرًا وَعَلَانِكَةً فَلَهُمْ أَجْرٌ هُمْ عِنْدَ رَبِّهِم﴾ البقرة: ٢٧٤ ودخلت الفاء لأن الثواب دخل للإنفاق"

فسيبويه يقول السارق والسارقة هذه جملة كاملة حذف صدرها الذي تقديره فيما يتلى عليك حكم السارق والسارقة وجملة فاقطعوا مستأنفة، عند المبرد والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جملة واحدة من مبدأ وخبر دخلت فاء السببية على الخبر لتضمنه معنى الشرط إذ المعنى الذي سرق والتي سرقت فجزاؤهما الجلد.

وتأثر البيضاوي بأبي البقاء العكري من ناحية اللغة والإعراب في التفسير، ففي تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَذَنَا مِيقَاتَنَا بَيْنَ إِشْرَكِهِمْ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهُ﴾ البقرة: ٨٣ قال: "قيل تقديره لا تعبدوا فلما حذف أن رفع كقوله:

ألا أيها الزاجري أحضر الوغى وأني أشهد اللذات هل أنت مخدلي

ويدل عليه قراءة أن لا تعبدوا فيكون بدلاً من الميثاق، أو معمولاً له بحذف الجار، وقيل أنه جواب قسم دل عليه المعنى، كأنه قال: أحلفناهم لا تعبدون. وقرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وعاصم ويعقوب بالباء حكاية لما خوطبوا به، والباقيون بالياء لأنهم غيب^(١).

وهو كلام العكري غير أنه فيه تقديم وتأخير قال العكري: (لا تعبدون إلا الله) يقرأ بالباء على تقدير قلنا لهم لا تعبدون، وبالباء لأنبني إسرائيل اسم ظاهر فيكون الضمير حرف المضارعة بلفظ الغيبة لأن الأسماء الظاهرة كلها غيب، وفيه من الإعراب أربعة أوجه أحدها: أنه جواب قسم دل عليه المعنى، وهو قوله: (أخذنا ميثاقهم) أن معناه أحلفناهم، أو قلنا لهم بالله لا تعبدون.

والثاني أن (أن) مراده التقدير أخذنا ميثاقبني إسرائيل على أن لا تعبدوا إلا الله، فحذف حرف الجر ثم حذف أن فارتقع الفعل ونظره (ألا أيها الزاجري أحضر الوغى) بالرفع والتقدير عن أن أحضر الوغى.

والثالث أنه في موضع نصب على الحال، تقديره: أخذنا ميثاقهم موحدين، وهي حال مصاحبة ومقدرة، لأنهم كانوا وقت أخذ العهد موحدين، والتزموا الدوام على التوحيد.

(١) تفسير البيضاوي: ١١٥/١.

الرابع: أن يكون لفظه لفظ الخبر، ومعناه النهي، والتقدير قلنا لهم لا تعبدوا^(١).

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ إِمَّا بِاللَّهِ وَإِلَيْهِ أُخْرَى وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾^(٢) البقرة: ٨، قال البيضاوي: "والناس أصله أنس، لقولهم: إنسان، وأنس، وأنسي، فحذفت الهمزة حذفها في لوقة وعوض عنها حرف التعريف ولذلك لا يكاد يجمع بينهما"^(٣).

وقال العكري: "أصل الناس عند سيبويه أنس، فحذفت همزته، وهي فاء الكلمة، وجعلت الألف واللام عوض منها، فلا يكاد يستعمل الناس إلا بالألف واللام، ولا يكاد يستعمل أنس بالألف واللام، فالألف في الناس على هذا زائد واشتقاقه من الأنس بضم الهمزة"^(٤).

ونقل البيضاوي عن الزجاج والفراء، بل وتبني مذهب البصريين ورد على أهل الكوفة، يظهر ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ هُنَّ مُشَهَّدَاتُكُمُ الَّذِينَ يَشَهِّدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَمَ هَذَا ﴾^(٥) الأنعام: ١٥٠ قال البيضاوي: "أحضروهם وهو اسم فعل لا يتصرف عند أهل الحجاز وفعل يؤنث ويجمع عندبني تميم وأصله عند البصريين ها لم من لم إذا قصد حذفت الألف لتقدير السكون في اللام فإنه الأصل عند الكوفيين هل أم فحذفت الهمزة بإلقاء حركتها على اللام وهو بعيد لأن هل لا تدخل الأمر ويكون متعديا كما في الآية ولازما كقوله هلم إلينا^(٦).

وقال الزجاج: "وفي قوله هلم إلينا وهي ها ضمت إلى لم فجعلها كالشيء الواحد وفيه لغتان أحدهما وهو قول أهل الحجاز، ولغة التنزيل أن يكون في جميع الأحوال للواحد والواحدة والآثنين والآثنين والجماعة من الرجال والنساء على لفظ واحد، لا تظهر فيه علامة تثنية ولا جمع، كقولهم هلم إلينا فيكون بمنزلة رoid، وصه، ومه، ونحو ذلك، نحو الأسماء التي سميت بها الأفعال، وتستعمل للواحد والجمع، والتأنيث والتنكير على صورة واحدة والأخرى أن تكون بمنزلة رد في ظهور علامات الفاعلين، على حسب ما تظهر في رد وسائل ما أشبهها من الأفعال وهي في اللغة الأولى وفي اللغة الثانية، إذا كانت للمخاطب، مبنية مع الحرف الذي بعدها على الفتح كما أن هل تعلن مبني مع الحروف على الفتح وإن اختلف موقع الحرفين في الكلمتين، فلم يمنع الاختلاف من البناء على الفتح ولخفة ها المنبهة، لكون الأمر موضع الاستعطاف، كما لحقت يا ألا يا اسجدواوها هاؤنتم فحذف لكثرة استعمال الألف من ها ك لا أدرى، ولم أبل ولأن الألف حذفت لما

(١) التبيان في إعراب القرآن: أبو البقاء العكري، ١/٨٣-٨٤، تحقيق علي الباجماوي، الناشر عيسى البابي الحلبي وشركاه.

(٢) تفسير البيضاوي: ٤٤/١.

(٣) التبيان في إعراب القرآن: ١/٢٤.

(٤) تفسير البيضاوي: ٢٥٥/٢.

كانت اللام في نية السكون، وكأنه هلم والساكن معتبر بدليل جيل، ومول، فلم يعلوا اعتباراً بسكون الياء والواو في موئل، وجياً وحسن حذف الألف جعلها مع لم خمسة عشر، بدلالة اشتقاقهم الفعل منه فيما حكى الأصمعي إذا قيل لك هل فقال ما أهل، فاشتقاقهم الفعل نظير أهريق زيادة لا معنى له ويكون اشتقاق هله، وحوقل، وهو أحسن، لأنهم لم يغوروه في التثنية والجمع وقال الفراء إن أصله هل أم وأم، من قصدت والدليل على فساد هذا القول أن هل لا يخلو من أحد أمرتين إما أن يكون بمعنى قد، وهذا يدخل في الخبر وأما أن يكون بمعنى الاستفهام، وليس لواحد من الحرفين تعلق بالأمر وإن قلت هو خبر بمعنى الأمر؛ فإن ذلك لا يدخل عليه هل لأن من قال رحم الله لا يقول هل رحم الله^(١).

ومن كل ما سبق يتبيّن لنا أن البيضاوي استقاد من أقوال اللغويين والنحاة فنقل منها واختصر بعضها وتبنى أقوال البعض، فكانت كتب اللغة مصدراً من مصادر البيضاوي في التفسير.

سابعاً: من كتب التفسير:

من كتب التفسير الأساسية التي اعتمد عليها البيضاوي كمصادر في تفسيره التفاسير الثلاثة المشهورة وهي: تفسير الراغب الأصفهاني (مفردات القرآن)، وتفسير الزمخشري (الكاف الشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل)، وتفسير الفخر الرازي (مفآتيخ الغيب).

وقد اختص كل واحد من هذه التفاسير بفن من الفنون، برع فيه حتى صار تفسيره مشتهراً بهذا الفن الذي توسيع فيه وأتقنه، فتفسير الزمخشري اهتم بعلم المعاني والبيان، وتفسير الرازي اهتم بإبراز روح الحكمة القرآنية، وعرض نظرياتها من نواحي الفلسفة وأصول الدين وأصول الفقه، وتفسير الراغب اهتم بجانب اللغة وبيان المفردات^(٢).

أولاً: الكاف الشاف للزمخشري:

اعتمد البيضاوي على تفسير الكاف الشاف اعتماداً كبيراً حتى أن كثيراً من أهل العلم يعدون تفسير البيضاوي اختصاراً لهذا التفسير، فقد قال جلال الدين السيوطي: "وسيد المختصرات منه -

(١) إعراب القرآن: المنسوب إلى للزجاج: ١٥٤/١، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتب الإسلامية، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني.

(٢) اهتمام مفسري القرن الحادي عشر بتفسير البيضاوي أسبابه ومظاهره: ٤٩٤.

نظرة في تفسير البيضاوي

أي من تفسير الكشاف - كتاب أنوار التنزيل وأسرار التأويل للقاضي ناصر الدين البيضاوي، لخصه فأجاد، وأتى بكل مستجاد^(١).

والاسم الكامل لهذا التفسير هو (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل)، ومصنفه هو "محمود بن عمر بن أحمد الخوارزمي الزمخشري، جار الله، أبو القاسم: من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب. ولد في زمخشر (من قرى خوارزم) وسافر إلى مكة فجاور بها زمناً فلقب بجار الله. وتقل了 في البلدان، ثم عاد إلى الجرجانية (من قرى خوارزم) فتوفي فيها"^(٢).

والمتخصص للتفسير البيضاوي يرى حضوراً بارزاً للتفسير الزمخشري في ثناياه، والسؤال الذي يقفز إلى الأذهان هو: ما السبب الذي أهل تفسير الزمخشري لأن يحتل هذه المكانة عند القاضي البيضاوي في تفسيره؟

والجواب عن هذا السؤال يجيبنا عنه الزمخشري نفسه، حيث يقول: "ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما علم المعاني وعلم البيان"، والزمخشري كان ذلك الرجل، فقد كان غواصاً على دقائق معاني القرآن العظيم، مستخراجاً لنكاته البينية وأسراره البلاغية، مما دفع أبا حيان الأندلسى إلى أن يشي عليه فيقول: "أجل من صنف في علم التفسير، وأفضل من تعرض للتفقيق فيه والتحريف"، وكيف لا يستحق الزمخشري هذا الثناء من أبي حيان وهو الذي عد علم المعاني والبديع أحد الوجوه السبعة التي يصح من خلالها النظر في تفسير الكتاب العزيز^(٣).

ولكن الزمخشري كان معتزلي الاعتقاد قد حشا تفسيره هذا بمسائله الاعتزالية، بل ربما دس سمه اعترافاً في دسم نكاته وتحrirاته، فالتبس الأمر على لب الحليم، وخفى الخطب عن نظر الرجل الحكيم، فأحجم الناس عن تفسيره خشية الوقوع في شيء من اعترافاته، وأسدل الستار بينه وبين أن يرد الناس موارد نكاته ويستقوا من معين تحrirاته، فبات هذا التفسير أشبه ما يكون بكنز مرصود أو در مفقود.

(١) نواهد الأباء وشوارد الأفكار: جلال الدين السيوطي، ١٣/١، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٥م

(٢) الأعلام للزرکلی: ١٧٨/٧.

(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري، ٢/١، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ

نظرة في تفسير البيضاوي

وهنا بُرِزَ دور القاضي البيضاوي حيث لُخِصَ تفسير الزمخشري وانتقى منه تحريراته البلاغية ونكاته البيانية مهذبًا إياها، مخلصاً تفسيره من سقطات الزمخشري الاعتزالية، فُرُغَ السَّتَارُ بعد انسداله، وأُبْيَحَ الكنزُ بعد رصده، ووُجِدَ الدُّرُّ بعد فقده؛ فأقدم الناسُ إلَيْهِ بعد إِحْجَامِهِمْ، ووردوا حِيَاضَهُ بَعْدَ امْتِنَاعِهِمْ، وقد وجد بعضهم في تفسير القاضي البيضاوي ما يغيبُهُمْ عن خوضِ غمارِ الكشاف، في حين انتهز آخرون الفرصة ليجعلوا من تفسير البيضاوي سُلَّماً يرْقِيُهُمْ إِلَى النَّظَرِ في تفسير الزمخشري نظر المحقق المدقق^(١).

ومن أمثلة تأثير البيضاوي ونقله من تفسير الكشاف ما جاء في تفسير سورة الفاتحة، قال البيضاوي: "الحمد هو الثناء على الجميل الاختياري من نعمة أو غيرها والمدح هو الثناء على الجميل مطلقاً تقول حمدت زيداً على علمه وكرمه ولا تقول حمدته على حسنِهِ بل مدحته وقيل هما أخوان والشكر مقابلة النعمة قولاً وعملاً واعتقاداً قال:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة
يدي ولسانني والضمير المحجا

فهو أعم منها من وجه وأخص من آخر ولما كان الحمد من شعب الشكر أشيع للنعماء وأدل على مكانها لخفاء الاعتقاد وما في آداب الجوارح من الاحتمال جعل رأس الشكر والعمدة فيه فقال عليه الصلاة والسلام الحمد رأس الشكر وما شكر الله من لم يحمده. والذم نقىض الحمد والكفران نقىض الشكر ورفعه بالابتداء وخبره الله وأصله النصب وقد قرئ به وإنما عدل عنه إلى الرفع ليدل على عموم الحمد وثباته له دون تجده وحدوثه وهو من المصادر التي تتصب بأفعال مضمورة لا تكاد تستعمل معها والتعريف فيه للجنس ومعناه الإشارة إلى ما يعرف كل أحد أن الحمد ما هو أو للاستغرار إذ الحمد في الحقيقة كله له إذ ما من خير إلا وهو موليه بوسط أو بغير وسط كما قال تعالى: (وَمَا بَكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فِيْنَ اللَّهِ) وفيه إشعار بأنه تعالى حي قادر مرید عالم إذ الحمد لا يستحقه إلا من كان هذا شأنه^(٢)

وقال الزمخشري في معنى الحمد لله: "الحمد والمدح أخوان وهو الثناء والنداء على الجميل من نعمة وغيرها، تقول حمدت الرجل على إنعامه وحمدته على حسنه وشجاعته، وأما الشكر فعلى النعمة خاصة وهو باللقب واللسان والجوارح قال:

(١) اهتمام مفسي القرن الحادي عشر بتفسير البيضاوي أسبابه ومظاهره: ٤٩٥، نقلًا عن نوادر الأباء: ١٣/١، والتفسير ورجاله: ٩٤، والبيضاوي مفسرًا: ٣٩٨.

(٢) تفسير البيضاوي: ١٢/١

أفادتكم النعما مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجا

والحمد باللسان وحده فهو إحدى شعب الشكر ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: (الحمد رأس الشكر ما شكر الله عبد لم يحمده). وإنما جعله رأس الشكر لأن ذكر النعمة باللسان والثناء على موليها أشيع لها وأدل على مكانها من الاعتقاد وآداب الجوارح لخفاء عمل القلب وما في عمل الجوارح من الاحتمال بخلاف عمل اللسان وهو النطق الذي يفصح عن كل خفي ويجلب كل مشتبه. والحمد نقىضه الذم والشكرا نقيضه الكفران وارتفاع الحمد بالابتداء وخبره الظرف الذي هو (الله)، وأصله النصب الذي هو قراءة بعضهم بإضمار فعله على أنه من المصادر التي تتصرف بها العرب بأفعال مضمرة في معنى الإخبار كقولهم: شكرا وكفرا وعجبنا وما أشبه ذلك، ومنها سبحانه وتعالى ينزلونها منزلة أفعالها ويسدون بها مسدها لذلك لا يستعملونها معها ويجعلون استعمالها كالشريعة المنسوخة والعدل بها عن النصب إلى الرفع على الابتداء للدلالة على ثبات المعنى واستقراره ومنه قوله تعالى: ﴿قَاتُلُوا سَلَّمًا قَاتَلَ سَلَّمٌ﴾ هود: ٦٩، رفع السلام الثاني للدلالة على أن إبراهيم عليه السلام حياهم بتحية أحسن من تحيتهم لأن الرفع دال على معنى ثبات السلام لهم دون تجده وحدوثه، والمعنى نحمد الله حمدا، ولذلك قيل (إياك نعبد وإياك نستعين) لأنه بيان لحمدهم له، كأنه قيل كيف تحمدون؟ فقيل إياك نعبد. فإن قلت ما معنى التعريف فيه؟ قلت: هو نحو التعريف في: (أرسلها العراق) وهو تعريف الجنس ومعناه الإشارة إلى ما يعرفه كل أحد من أن الحمد ما هو والعراك ما هو من بين أجناس الأفعال، والاستغرار الذي يتوهمه كثير من الناس وهم منهم^(١).

هكذا نجد البيضاوي يلخص كلام الزمخشري فيخالفه حيناً ويوافقه أحياناً، فمثلاً نجده يخالفه في معنى الحمد فقال البيضاوي: هو الثناء على الجميل الاختياري، وقال الزمخشري هو الثناء على الجميل مطلقاً، والشيء المهم الذي خالفه فيه، أن التعريف في الحمد يفيد الاستغرار فخالف فيه مذهب الاعتزال القائل بأن العبد يخلق أفعاله الاختيارية. قال الشريف الجرجاني في حاشيته على الكشاف: "اختيار الجنس على الاستغرار مبني على طريقة الاعتزال، فإن أفعال العباد لما كانت مخلوقة لهم كانت المحامد راجعة إليهم، فلا يصح جعل المحامد كلها مختصة به تعالى. وفساده ظاهر، لأن اختصاص الجنس به تعالى مستلزم اختصاص أفراده أيضاً، إذ لو وجد فرد منه لغيره ثبت الجنس له في ضمنه"^(٢).

(١) الكشاف: ١١١-١١٢.

(٢) البيضاوي ومنهجه في التفسير: ٦٧

أما من ناحية اللغة فقد ترسم خطى الزمخشري في كثير من المعاني ففي تفسير قوله تعالى: ﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَنْخَطِفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَعْيِهِمْ وَأَبْصَرَهُمْ إِبْرَاهِيمَ إِبْنَ الْهَنَّ عَلَى كُلِّ سَعْيٍ وَفَدِيرٍ ﴾ البقرة: ٢٠ قال البيضاوي: "استئناف ثالث كأنه قيل ما يفعلون في تاري خ فوق البرق وخفته فأجيب بذلك وأضاء إما متعد والمفعول مذوق بمعنى كلما نور لهم ممشى أخذوه أو لازم بمعنى كلما لمع لهم مشوا في مطرح نوره وكذلك أظلم فإنه جاء متعدياً منقولاً من ظلم الليل ويشهد له قراءة أظلم على البناء للمفعول وقول أبي تمام:

هـما أظلـما حـالي ثـمة أحـليا
ظـلامـيـهـما عن وجـهـ اـمرـدـ أـشـيب

فإنه وإن كان من المحدثين لكنه من علماء العربية فلا يبعد أن يجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه وإنما قال مع الإضاءة) كلما (ومع الإظلام) إذا (لأنهم حراس على المشي فكلما صادفوا منه فرصة انتهزوها ولا كذلك التوقف ومعنى قاموا وقفوا ومنه قامت السوق إذا ركبت وقام الماء إذا جمد".

وقال الزمخشري في الآية: "استئناف ثالث كأنه جواب لمن يقول كيف يصنعون في تاري خ فوق البرق وخفته وهذا تمثل لشدة الأمر على المنافقين بشدته على أصحاب الصيб وما هم فيه من غاية التحير والجهل بما يأتون وما يذرون إذا صادفوا من البرق خففة مع خوف ان يخطف أبصارهم انتهزوا تلك الخفة فرصة خطوا خطوات يسيرة فإذا خفى وفتر لمعانه بقوا واقفين متقيدين عن الحركة ولو شاء الله لزاد في قصيف الرعد فأصمهم او في ضوء البرق فأعماهم وأضاء إما متعد بمعنى كلما نور لهم ممشى ومسلكاً أخذوه والمفعول مذوق وإما غير متعد بمعنى كلما لمع لهم (مشوا) في مطرح نوره وملقى ضوئه ويعضده قراءة ابن أبي عبلة كلما ضاء لهم والمشي جنس الحركة المخصوصة فإذا اشتد فهو سعي فإذا ازداد فهو عدو فإن قلت كيف قيل مع الإضاءة كلما ومع الإظلام إذا قلت لأنهم حراس على وجود ما هم به معقود من إمكان المشي وتأتيه فكلما صادفوا منه فرصة انتهزوها وليس كذلك التوقف والتحبس وأظلم يحتمل أن يكون غير متعد وهو الظاهر وأن يكون متعدياً منقولاً من ظلم الليل ويشهد له قراءة يزيد بن قطيب أظلم على ما لم يسم فاعله وجاء في شعر حبيب بن أوس:

هـما أظلـما حـالي ثـمة أحـليا
ظـلامـيـهـما عن وجـهـ اـمرـدـ أـشـيب

نظرة في تفسير البيضاوي

وهو وإن كان محدثاً لا يستشهد بشعره في اللغة فهو من علماء العربية فاجعل ما يقوله منزلة ما يرويه ألا ترى إلى قول العلماء الدليل عليه بيت الحماسة فيقتعنون بذلك لوثوقهم بروايته وإنقاذه ومعنى (قاموا) وقفوا وثبتوا في مكانهم ومنه قامت السوق إذا ركبت وقام الماء إذا جمد.

انظر كيف لخص البيضاوي كلام الزمخشري وأتى بقوله في إعراب أضاء وأظلم ثم قراءة أظلم على البناء للمفعول والاستشهاد بشعر أبي تمام ثم الحكم على شعره إنه لا يستدل به ولكن يعتمد عليه بناء على أنه عالم لغة يوافق قوله روايته ذكر البيضاوي ذلك كله من غير أن يذكر شيئاً من عنده.

وحيثنا السابق عن أن البيضاوي قد ترك في نقولاته من تفسير الكشاف ما فيه من اعترافات هو في العموم الأغلب إلا أنه كما يرى الذهبي كان يتبع الزمخشري في بعض اعترافاته فقال: "كان يذهب أحياناً إلى ما ذهب إليه صاحب الكشاف ومن ذلك أنه عندما فسر قوله تعالى في الآية [٢٧٥] من سورة البقرة: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الْرِّبَوَا لَا يَقُولُونَ إِلَّا كَمَا يَقُولُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ البقرة: ٢٧٥، وجده يقول: "إلا قياماً كقيام المتصروع، وهو وارد على ما يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع" .. ثم يفسر المس بالجنون ويقول: "وهذا أيضاً من زعمائهم أنّ الجن يمس الرجل فيختلط عقله".

ولا شك أن هذا موافق لما ذهب إليه الزمخشري من أن الجن لا تسلط لها على الإنسان إلا بالوسوسة والإغواء.

كما أنتا نجد البيضاوي قد وقع فيما وقع فيه صاحب الكشاف، من ذكره في نهاية كل سورة حديثاً في فضلها وما لقارئها من الثواب والأجر عند الله، وهي أحاديث موضوعة باتفاق أهل الحديث، ولست أعرف كيف اغتر بها البيضاوي فروها وتابع الزمخشري في ذكرها عند آخر تفسيره لكل سورة، مع ما له من مكانة علمية، وسيأتي اعتذار بعض الناس عنه في ذلك، وإن كان اعتذاراً ضعيفاً، لا يكتفى لتبرير هذا العمل الذي لا يليق بعالم كالبيضاوي له قيمته ومكانته^(١).

وبما يخص ما قاله الذهبي في العبارة السابقة من اعتذار بعض الناس عما وقع فيه البيضاوي من روايته في آخر تفسير كل سورة من أحاديث ضعيفة، فيقصد بذلك ما قاله حاجي خليفة: "وأما أكثر الأحاديث التي أوردها في أواخر سور فإنه لكونه من صفت مرآة قلبه، وتعرض

(١) التفسير والمفسرون: ٢١٢-٢١١/١.



لنفحات ربه، تسامح فيه وأعرض عن أسباب التجريح والتعديل، ونحا نحو الترغيب والتأويل، عالماً بأنها مما فاه صاحبه بزور، ولدى بغور، والله علیم بذات الصدور^(١).

ولا بد من الإشارة إلى أن البيضاوي لم يكن مجرد ناقل من هذه التفاسير وإنما جمع أفكار المتقدمين وبحثها ونقدتها واستخرج منها أحکاماً، واستظهارات شخصية، وأبدع في كثير من الأحكام والاستظهارات، ما استقل به وانفرد بتحقيقه، وربما جمع الأوجه المتعددة والاحتمالات المختلفة، فرتبتها بحسب الرجحان وأشار إلى ما هو المعتمد منها، وما هو ضعيف أو مردود، وسبك تلك الأنوار البعيدة، والتحارير العالية سبكاً دقيقاً رقيقةً، بناء على تقييح العبارات وضبطها وتهذيبها واختصارها الاختصار المحكم، القابل للبساط والإيضاح، على ما هي الطريقة المختارة المسلوكة يومئذ في تحرير العلوم، وهي المشتهرة عند العلماء بالطريقة الأعممية^(٢).

ثانياً: مفاتيح الغيب للرازي:

المصدر الثاني الذي اعتمد عليه البيضاوي في تفسيره هو تفسير مفاتيح الغيب للفخر الرازي، وهو "أبو عبد الله، محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن ابن علي، التميمي، البكري، الطبرistani، الرازي، الملقب بفخر الدين، المعروف بابن الخطيب الشافعي، المولود سنة ٤٥٤ هـ.

كان رحمة الله فريد عصره، ومتكلم زمانه، جمع كثيراً من العلوم ونبغ فيها، فكان إماماً في التفسير والكلام، والعلوم العقلية، وعلوم اللغة، ولقد أكسبه نبوغه العلمي شهرة عظيمة، فكان العلماء يقصدونه من البلاد، ويشدون إليه الرحال من مختلف الأقطار، وقد أخذ العلم عن والده ضياء الدين المعروف بخطيب الري، وعن الكمال السمعاني، والمجد الجيلي، وكثير من العلماء الذين عاصرهم ولقيهم، وله فوق شهرته العلمية شهرة كبيرة في الوعظ، حتى قيل إنه كان يعظ باللسان العربي واللسان العمجمي، وكان يلحقه الوجد في حال الوعظ ويكثر البكاء^(٣).

"وخصائص تفسيره (مفاتيح الغيب) كثيرة من أهمها الاستطراد وتصريف الأقوال والابعاد في الجدل والنقاش، ولذلك قال الصفدي في كتابه الوفي بالوفيات: "أتى الرازي في كتبه بما لم يُسبق إليه، لأنه يذكر المسألة ويفتح باب تقسيمها، وقسمة فروع ذلك التقسيم، ويستدل بأدلة السبر

(١) كشف الظنون: ١٨٨/١.

(٢) التفسير ورجاله: ٩٣.

(٣) التفسير والمفسرون: ٢٠٦/١

والتقسيم، فلا يشذ فيه عن تلك المسألة فرع له بها علاقة، فانضبطة له القواعد، وانحصرت المسائل.

ومن خصائصه أنه عرض للقراءات المختلفة وقد يخرج المعاني على كل قراءة، وربما أعرّب الآيات بحسب تلك القراءات، وقد يحتاج للقراءة بما قاله النحويون، وكثيراً ما يستشهد الرازى بالشعر للاستدلالات اللغوية أو البلاغية أو في مناسبة أدبية أو خلقية أو دينية، وهذا ما يدل على ثقافته الواسعة في آداب اللغة العربية وتذوق علومها، وإلى جانب كل هذا نجد هذا التفسير غني بأسباب النزول^(١).

ومجموع هذه الخصائص لا شك تجعل منه مصدراً مهماً لكل التفاسير التي كتبت بعده وليس تفسير البيضاوى إلا واحداً من هذه التفاسير التي وردت هذا المعين فنقلت منه ما يروى الضمان ويشبع الجوعان.

"وكان تفسير الفخر الرازى قائماً على أساس استبطاط المعاني الكثيرة من الألفاظ القرآنية المعدودة والعبارات القصيرة، وقد أبرز الرازى في تفسيره الفلسفة على أنها خادمة للشريعة لا حاكمة عليها واضعاً القرآن العظيم موضع الدراسة على منهج يرى تفوق الحكمة القرآنية على سائر الطرق الفلسفية.

ولكن الرازى أسهب في تفسيره وأطّال بذكر الاستدلالات الفلسفية واستعراض الآيات الكونية معترضاً لنفسه بأن الله سبحانه وتعالى مدح المتفكرين في خلق السماوات والأرض، وأنه من يعتقد عظمة الخالق بعد تفكير وتأمل إيمانه أقوى وأوفي من إيمان من يعتقد هذه العظمة دون تفصيل وتعيّن.

فجاء القاضي البيضاوى في تفسيره مهذباً لعبارة الرازى في بعض المواطن، ملخصاً شيئاً من إسهاباته، محراً لفيوضاته، دارجاً على نفس طريقة الرازى في إبراز روح الحكمة القرآنية وعرض نظرياتها من نواحي الفلسفة وأصول الدين وأصول الفقه؛ ولكن بطريقة مهذبة محررة^(٢).

(١) مقدمة مفاتيح الغيب: ٨/١.

(٢) انظر: التفسير ورجاله: ٧٨-٧٢ (بتصريف).

ثالثاً: مفردات القرآن للراغب الأصفهاني:

ومؤلفه هو الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم الأصفهاني (أو الأصبهاني) المعروف بالراغب: أديب، من الحكماء العلماء من أهل (أصبهان) سكن بغداد، واشتهر، حتى كان يقرن بالإمام الغزالى^(١)، وهو من مشاهير المفسرين من أهل السنة في القرن الرابع.

فقد اتخد القاضي البيضاوى من تفسير الراغب الأصفهانى رافداً ثالثاً لتقسيره ليضفي عليه مزيداً من تحرير رونق الكلام، واستجلاء إشارات البيان، مع الاهتمام ببيان المفردات واللغة^(٢).

فقد لخص البيضاوى من تفسير الراغب ما يتعلق بالاشتقاق، وغوامض الحقائق، ولطائف الإشارات، وتحرير المعانى الذوقية^(٣).

ويظهر تأثر البيضاوى بالراغب الأصفهانى في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة: ٣٠ قال البيضاوى: "وال الخليفة من يخلف غيره وينوب عنه والهاء فيه للمبالغة والمراد به آدم عليه الصلاة والسلام لأنه كان خليفة الله في أرضه وكذلك كلنبي استخلفهم الله في عمارة الأرض وسياسة الناس وتمكيل نفوسهم وتتنفيذ أمره فيهم لا لحاجة به تعالى إلى من ينوبه بل لقصور المستخلف عليه عن قبول فيضه وتلقي أمره بغير وسط ولذلك لم يستتبئ ملكا كما قال الله تعالى: ﴿وَكَوَّجَعَنَّنَّهُ مَلَكًا جَعَلَنَّهُ رَجُلًا﴾ الأنعام: ٩ ألا ترى أن الأنبياء لما فاقت قوتهم واشتعلت قريحتهم بحيث يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار أرسل إليهم الملائكة ومن كان منهم أعلى رتبة كلمة بلا واسطة كما كلام موسى عليه السلام في المiqات ومحمدما (صلى الله عليه وسلم) ليلة المعراج ونظير ذلك في الطبيعة أن العظم لما عجز عن قبول الغذاء من اللحم لما بينهما من التباعد جعل الباري تعالى بحكمته بينهما الغضروف المناسب لهما ليأخذ من هذا ويعطي ذلك^(٤).

وقال الراغب الأصفهانى في الآية السابقة: وال الخليفة والخلف يتقاربان من قولك: خلف فلان فلاناً إذا قام مقامه، والخلف والسلف يتتقاضان كخلف وقدام، فإن قيل: ما وجه استخلاف الله تعالى، والخلافة إنما تكون للنيابة عن الغرى؟ إما لغيبته أو موته أو عجزه، وذلك لا يجوز على الله تعالى قيل: بل قد يكون على غير ذلك، وهو أن يستخلف المستخلف غيره امتحاناً للمستخلف،

(١) الأعلام للزرکلی: ٢٥٥/٢

(٢) انظر: التفسير ورجاله: ٩٣.

(٣) الاستبطاط عند القاضي البيضاوى: ١٣٢

(٤) تفسير البيضاوى: ١/٨٢.

أو تهذيباً له، أو يستخلفه لقصور المستخلف عليه من قبول التأثير من المستخلف لا لعجز المستخلف وذلك ظاهر في الأشياء المهيمنة والطبيعية، فإن السلطان جعل الوزير بينه وبين رعيته، إذ هو يقبلون من الواعظ ماله قرب إلى قبولهم منه، وكذا الواعظ جعل بين العامة والحكماء، فإن العامة لا يقبلونه من الحكيم، وليس ذلك لعجز الحكيم، بل لعجز العامة عن القبول منه، وعلى هذا اللحم والعظم لما تباعد ما بينهما عجز العظم عن قبول الغذاء من اللحم، فجعل الله تعالى بحكمته بينهما الغضاريف التي بينهما، ولها مناسبة إليهما لتأخذ ذلك من اللحم وتعطيه العظم، وكذلك جعل تعالى الرسل بين الملك الذي هو من قبله تعالى وبين العباد لفضل قوة أعطاها ليأخذوا منه الحكمة ويوصلوها إلى الناس، وبهذا الوجه قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَا مَكَّاً لِجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾^(١)

(١) الأنعام: ٩٦

(١) تفسير الراغب الأصفهاني: الراغب الأصفهاني، ١٣٨/١، تحقيق محمد بسيوني وعادل الشدي، كلية الآداب جامعة طنطا، ودار الوطن الرياض.

المبحث الرابع: منهج البيضاوي في التفسير

بني البيضاوي رحمه الله تفسيره على منهج صرّح بجزء منه في مقدمة كتابه، إذ يقول: ولطالما أحدث نفسي بأن أصنف في هذا الفن كتاباً يحتوي على صفوة مما بلغني من عظماء الصحابة، وعلماء التابعين، ومن دونهم من السلف الصالحين، وينطوي على نكت بارعة، ولطائف رائعة، استبطنها أنا ومن قبلني من أفضل المتأخرین، وأمثال المحققين، ويعرّب عن وجوه القراءات المشهورة المعزوة إلى الأئمة الشانة المشهورين، والشواذ المروية عن القراء المعتبرين.

ففي مقدمته جاء على ذكر بعض ملامح منهجه، وسأحاول ترتيبها في نقاط والتتمثل على كل نقطة من هذه النقاط، مقسماً منهجه في التفسير إلى قسمين: (منهجه العام، ومنهجه البلاغي).

أولاً: منهجه العام:

يسير البيضاوي في تفسيره على طريقة معينة يلتزمها في أكثر تفسيره، ومنها:

١. معلومات السورة:

يفتح البيضاوي رحمه الله تفسيره للسورة بذكر كونها مكية أو مدنية، وعدد آياتها، ويدرك أسماء أخرى للسورة إن وجد.

من أمثلة إيراده لمعلومات السورة قوله في مقدمة سورة الأعراف: مكية غير ثمان آيات من قوله: ﴿وَسَلَّمُوا﴾ الأعراف: ١٦٣ إلى قوله: ﴿وَإِذْ نَنَقَّنَا الْجَبَلَ﴾ الأعراف: ١٧١ محكمة كلها. وقيل إلا قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَهَلِيِّنَ﴾ (١٩٩) الأعراف: ١٩٩ ، وأيها مائتان وخمس أو ست آيات^(١).

وفيما يخص إيراده أسماء السور الأخرى التي تعرف بها قوله في مقدمة سورة التوبه: هي آخر ما نزل ولها أسماء آخر، «التوبة» و «المتشقة» و «البحوث» و «المبعثرة» و «المنقرة» و «المثيرة» و «الحافرة» و «المخزية» و «الفاوضحة» و «المنكلة» و «المشردة» و «المدمدة» و «سورة العذاب» لما فيها من التوبة للمؤمنين والتشقّه من النفاق وهي التبرى منه، والبحث عن حال المنافقين وإثارتها، والحرف عنها وما يخزيمهم ويفضحهم وينكلهم ويشردّهم ويدمدّم عليهم^(٢)

(١) تفسير البيضاوي: ٥٣٣/١

(٢) تفسير البيضااوي: ٣٥/٢

٢. سبب النزول:

سبب النزول من علوم القرآن التي لا غنى لأي مفسر عنه، إذ إنه في كثير من الأحيان الركيزة الأساسية في فهم معنى الآية فهماً دقيقاً.

لذلك لم يهمل البيضاوي ذكر أسباب النزول فمن ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَ الظَّهِيرَةِ وَرُلْفَاتِنَ الْأَيَّلِ إِنَّ الْحَسَنَةَ يُذَهِّبُنَ السَّيِّئَاتَ ذَلِكَ ذِكْرُنَ اللَّذِكْرِينَ ﴾١١٤﴾ هود: ١١٤

قال البيضاوي: وفي سبب النزول أن رجلاً أتى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال إنني قد أصبت من امرأة غير أنني لم آتها فنزلت«^(١).

ومثاله أيضاً ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ حَصِيمٌ مُّثِينٌ ﴾

النحل: ٤، قال البيضاوي: روى أن أبي بن خلف أتى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعزم رمي

وقال: يا محمد أترى الله يحيي هذا بعد ما قد رم. فنزلت^(٢).

٣. الجمع بين التفسير بالرواية والدرائية:

فالبيضاوي لا يعتمد في تفسيره على ذكر الروايات والأقوال فقط، ولكنه يجتهد في بيان المعاني الخفية المستنبطة من الآيات ومراميها البلاغية.

فنراه يذكر الروايات التي يبين بها معنى الآية، كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ

عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قَتَالٍ فِيهِ ﴾البقرة: ٢١٧﴾، قال البيضاوي رحمه الله: عن ابن عباس رضي الله عنهمما

(ما نزلت أخذ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الغنيمة وهي أول غنيمة في الإسلام^(٣).

ومن بياني للمعاني الخفية وذكره لدلالة الآيات وما وراءها وما يفهم منها، ما جاء في تفسير

قوله تعالى: ﴿الْكَافِرِينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالْقَدِيرِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾آل عمران: ١٧﴾

قال البيضاوي رحمه الله: حصر لمقامات السالك على أحسن ترتيب، فإن معاملته مع الله تعالى إما توسل وإما طلب، والتلوسل إما بالنفس وهو منعها عن الرذائل وحبسها على الفضائل

والصبر يشملهما، وإما بالبدن، وهو إما قولي وهو الصدق وإما فعلي وهو القنوت الذي هو ملزمة

الطاعة، وإما بالمال وهو الإنفاق في سبيل الخير، وإما الطلب وبالاستغفار لأن المغفرة أعظم

المطالب بل الجامع لها وتوسيط الواو بينهما للدلالة على استقلال كل واحد منها وكمالهما فيها أو

(١) تفسير البيضاوي: ١٥٤/٢

(٢) تفسير البيضاوي: ٢٥٢/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ١٨٦/١

لتغاير الموصوفين بها، وتصنيص الأسحار لأن الدعاء فيها أقرب إلى الإجابة، لأن العبادة حينئذ أشق والنفوس أصفى والروح أجمع للمجتهدين^(١).

٤. أحاديث فضائل السور:

من منهج البيضاوي أنه يذكر في نهاية تفسير كل سورة حديثاً في فضلها، وقد عُدَّ هذا من المآخذ التي أخذت عليه، لأن أكثرها أحاديث ضعيفة كما تقرر ذلك سابقاً.

فمن ذلك ما جاء في نهاية سورة المائدة حيث يقول البيضاوي رحمه الله: عن النبي صلى الله عليه وسلم "من قرأ سورة المائدة أعطي من الأجر عشر حسناً ومحي عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات بعد كل يهودي ونصراني يتتنفس في الدنيا"^(٢)

٥. المسائل الفقهية:

البيضاوي رحمه الله كما تقدم في ترجمته من كبار فقهاء عصره، لذلك فإننا نرى في تفسيره تعرضه لبعض المسائل الفقهية خصوصاً عند آيات الأحكام، ويدرك آراء العلماء فيها، لكنه لا يتسع بل يذكرها بإيجاز دون إسهاب.

ومن ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكُنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَدَّتُمُ الْأَيْمَنَ﴾ المائدة: ٨٩، قال البيضاوي رحمه الله: (لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ) هو ما يbedo من المرء بلا قصد كقول الرجل: لا والله وبلى والله، وإليه ذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه، وقيل الحلف على ما يظن أنه كذلك ولم يكن، وإليه ذهب أبو حنيفة رحمه الله تعالى^(٣).

ومثاله أيضاً قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظْهِرُونَ مِنْ نَسَاءِهِمْ بِمَا يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ المجادلة: ٣ ، (ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا) أي إلى قولهم بالتدارك... وهو بنقض ما يقتضيه وذلك عند الشافعي بإمساك المظاهر عنها في النكاح زماناً يمكنه مفارقتها فيه، إذ التشبيه يتناول حرمته لصحة استثنائها عنه وهو أقل ما ينتقض به. وعند أبي حنيفة باستباحة استمتاعها ولو بنظرة شهوة. وعند مالك بالعزم على الجماع، وعند الحسن بالجماع^(٤).

(١) تفسير البيضاوي: ٢٤٩/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٤٧٦/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٤٥٩/١

(٤) تفسير البيضاوي: ٣٨٠/٣

٦. القراءات:

اهتم البيضاوي بذكر القراءات المختلفة التي تجيء عليها الآية وذكر صاحب هذه القراءة، لكنه لم يلتزم بالقراءات المتواترة فقط، بل ضم إليها الشاذة، كما نص على ذلك في مقدمته إذ يقول: "يعرب يعني تفسيره - عن وجوه القراءات المشهورة المعززة إلى الأئمة الثمانية المشهورين، والشواذ المروية عن القراء المعتبرين"^(١)

ما جاء في تفسير البيضاوي من ذكر للقراءات ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ مَالِكٌ يَوْمَ يَوْمِ الْيَنِينِ ﴾ الفاتحة: ٤ ، قال البيضاوي رحمة الله: مالِكٌ يَوْمَ الدِّينِ قراءة عاصم والكسائي ويعقوب ويعضده قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسُ لِفَسِ شَيْئًا وَلَا مُرْبُّ يَوْمَ يَوْمِ اللَّهِ ﴾ الانفطار: ١٩ . وقرأ الباقون: مَلِكٌ . وهو المختار لأن القراءة أهل الحرمين ولقوله تعالى: ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ أَيْمَمٌ ﴾ غافر: ١٦ ولما فيه من التعظيم... وقرئ مالك بالتحقيق وملك بلفظ الفعل^(٢)

٧. المعنى اللغوي الكلمة:

من منهج البيضاوي رحمة الله أنه يوضح المعنى اللغوي الكلمة في أصل وضعها ليتضجر معناها في سياق الآية، فمن ذلك مثلاً ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ البقرة: ٦ ، قال البيضاوي رحمة الله: وإنذار: التخويف أريد به التخويف من عذاب الله^(٣)

ومثال ذلك أيضاً قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿ مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ثُمَّ أَتَتْ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَلْمِنْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ البقرة: ١٠٦ ، قال البيضاوي رحمة الله: والنسخ في اللغة: إزالة الصورة عن الشيء وإثباتها في غيره، كنسخ الظل للشمس والنقل، ومنه التناسخ. ثم استعمل لكل واحد منها كقولك: نسخت الريح الأثر، ونسخت الكتاب. ونسخ الآية بيان انتهاء التبعد بقراءتها، أو الحكم المستفاد منها، أو بهما جميعاً^(٤)

(١) تفسير البيضاوي: ٦-٥/١

(٢) تفسير البيضاوي: ١٤/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٤١/١

(٤) تفسير البيضاوي: ١٢٧/١

٨. الاستشهاد بالشعر لبيان معنى الكلمة:

من ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ إِلَيْنَا عَجَّبًا﴾^(١) الكهف: ٩، قال البيضاوي رحمه الله: والرقيم اسم الجبل أو الوادي الذي فيه كهفهم، أو اسم قريتهم أو كلبهم. قال أمية بن أبي الصلت:

وَلَيْسَ بِهَا إِلَّا الرَّقِيمُ مُجاوِراً
وَصَيْدُهُمُو وَالْقَوْمُ فِي الْكَهْفِ هُجْدٌ^(٢)

٩. الاستشهاد بأقوال اللغويين:

من ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ ۚ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَأَرَيَ فِيهِ هُنَّىٰ لِتَعْتَيْنَ﴾^(٣) البقرة: ١ - ٢، قال البيضاوي رحمه الله: الم وسائل الألفاظ التي يتهجى بها، أسماء مسمياتها الحروف التي ركبت منها الكلم لدخولها في حد الاسم، واعتدار ما يخص به من التعريف والتكيير والجمع والتصغير ونحو ذلك عليها، وبه صرح الخليل وأبو علي^(٤).

١٠. بيان الاستعارات والأبنية الصرفية:

من ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ تَقْرِينٍ وَجَهَنَّمَ فَسْتَقْرُرُ وَمُسْتَوْدِعٌ﴾^(٥) الأنعام: ٩٨ ، قال البيضاوي رحمه الله: وقرأ ابن كثير والبصريان بكسر القاف على أنه اسم فاعل، والمستودع اسم مفعول أي فمنكم قار ومنكم مستودع^(٦)

١١. بيان التغيرات الصرفية:

من ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَأَىٰ الشَّمْسَ إِذَا طَلَّعَتْ تَنَزَّلُ عَنْ كَهْفِهِمْ﴾^(٧) الكهف: ١٧ ، قال البيضاوي رحمه الله: (إذا طلعت تزاور عن كهفهم) تميل عنه... وأصله تزاور فأدغمت الناء في الراي^(٨)

١٢. الصناعة النحوية:

اهتم البيضاوي رحمه الله بالصناعة النحوية اهتماماً واضحاً، وذلك لأهميتها في بيان المعنى وإيضاحه، لكنه لم يتسع في هذا الأمر.

(١) تفسير البيضاوي: ٣٢٨/٢

(٢) تفسير البيضاوي: ٢٤/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٥٠٨-٥٠٧/١

(٤) تفسير البيضاوي: ٣٣١/٢

من أمثلة اهتمامه بالصناعة النحوية ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا أَلَّاَيْنَ إِمَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾^(١) البقرة: ١٤، قال البيضاوي رحمه الله: (إنما نحن مستهزئون) تأكيد لما قبله، لأن المستهزئ بالشيء المستخف به مصر على خلافه. أو بدل منه لأن من حقر الإسلام فقد عظم الكفر. أو استئناف فكان الشياطين قالوا لهم إنما (قالوا إنما معكم) إن صح ذلك فما بالكم توافقون المؤمنين وتدعون الإيمان فأجابوا بذلك^(٢).

فقد أعرب البيضاوي جملة (إنما نحن مستهزئون) ثلاثة إعرابات الآية تحتملها جميعاً، بما لا ينافي المعنى، بل كل إعراب يؤدي معنى دقيق لا يتوصل إلى فهمه إلا بمعرفة هذه الإعرابات جميعاً.

ومن منهج البيضاوي في الصناعة النحوية، استشهاده بآراء أئمة النحو، كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَخِي، أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا ﴾^(٣) البقرة: ٢٦، قال البيضاوي رحمه الله: وأن بصائرها محفوظ المحل عند الخليل بإضمار من، منصوب بـإفضاء الفعل إليه بعد حذفها عند سيبويه^(٤)

ثانياً: منهجه البلاغي:

مما تقرر سابقاً أن تفسير البيضاوي من التفاسير التي اهتمت بالناحية البلاغية واللغوية، لذا سأحاول إيضاح منهج البيضاوي رحمه الله في عرضه للمسائل البلاغية في تفسيره، وأهم ملامح هذا المنهج:

١. اهتمامه بعلم المعاني والبيان أكثر من البديع:

الدرس لتفسير البيضاوي يتضح له أن البيضاوي رحمه الله اهتم بعلم المعاني والبيان أكثر من علم البديع، فتجده قد أتى على أكثر موضوعات علم المعاني من خبر وإنشاء وتقديم وتأخير، وتعريف وتنكير، وخروج الكلام عن مقتضى الظاهر... الخ، وكذلك على أكثر موضوعات علم البيان من مجاز واستعارة وكناية وتعريف، لكن إذا ما استقرأنا علم البديع وجدنا مباحثه قليلة تبدو على استحياء.

(١) تفسير البيضاوي: ٥٠/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٧٤/١

ولعل السبب في ذلك هو أن علم البديع أكثره قائم على المحسنات الفوضية، والبيضاوي يريد أن يوظف البلاغة لإيصال المعاني القرآنية ويتحقق له ذلك بعلمي المعاني والبيان أكثر من البديع.

٢. التعريفات الاصطلاحية البلاغية:

من منهج البيضاوي رحمة الله أنه يُعرف بعض المصطلحات البلاغية ويترك تعريف بعضها الآخر.

فمن تعريفاته البلاغية تعريفه (للتعريض) إذ يقول فيه: التعريض والتلویح إيهام المقصود بما لم يوضع له حقيقة ولا مجازاً، كقول السائل جئتك لأسلم عليك^(١).

وعرَّف البيضاوي (الكنية) فقال: والكنية هي الدلالة على الشيء بذكر لوازمه وروادفه، كقولك الطويل النجاد للطويل، وكثير الرماد للمضياف^(٢).

وعرَّف البيضاوي (الأمر) فقال: والأمر هو لقول الطالب للفعل، وقيل: مع العلو، وقيل: مع الاستعلاء، وبه سمي الأمر الذي هو واحد الأمور تسمية للمفعول به بالمصدر، فإنه مما يؤمر به كما قيل: له شأن وهو الطلب^(٣).

وعرَّف التشبيه المركب حيث سماه بالتشبيه المؤلف، فقال: والظاهر أن التمثيلين من جملة التمثيلات المؤلفة، وهو أن يشبه كيفية متفرعة من مجموع تضامت أجزاؤه وتلاصقت حتى صارت شيئاً واحداً بأخرى مثلها، كقوله تعالى: ﴿مَثُلَ الَّذِينَ حَتَّمُوا أَنْتَرَاهُ ثُمَّ لَمْ يَجْعَلُوهَا﴾ الجمعة: ٥^(٤)

وعرَّف التمثيل المفرد فقال: ويمكن جعلهما من قبيل التمثيل المفرد، وهو أن تأخذ أشياء فرادى فتشبهها بأمثالها ك قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ٢٦﴾ ولَا أَظْلَمْتُ وَلَا أَثْوَرُ ٢٧﴿ وَلَا أَلْظَلُ ٢٨﴾ فاطر: ١٩ - ٢١^(٥)

(١) تفسير البيضاوي: ٢٠٣/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٢٠٣/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٧٨/١

(٤) تفسير البيضاوي: ٥٨/١

(٥) تفسير البيضاوي: ٥٨/١

لكن فيما عدا ذلك لم نقف على تعریفاتٍ بلاغية لمباحث مهمه في علم البلاغة مثل (الخبر، الإنشاء، التعريف، التكير، المجاز، تأكيد المدح بما يشبه النم)، ولعل السبب في ذلك أن البيضاوي بصدق تفسير كتاب الله وإيصال المعنى وبيان الدقائق البلاغية، وليس مقصد他的 الأساس تأصيل علم البلاغة والكتابة في تقييعاته وتعریفاته.

٣. عدم التفصيل في تسمية الفن البلاغي:

لم يكن البيضاوي يذكر الفن البلاغي بشكل مفصل بل كان يأتي على ذكره بوجه عام، فيقول مثلاً استعارة ولا يبين نوعها تصريحية أو مكنية، أو يفرق بين المجاز المرسل والعقلاني.

من ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ومنها قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الْمُدَّثِرُ﴾ (١) ﴿فَرَأَيْنَاهُ﴾ (٢) المدثر: ١ - ٢ ، قال البيضاوي رحمه الله: (يا أيها المدثر) أي المدثر وهو لابس الدثار... وقيل المراد بالمدثر المدثر بالنبوة والكمالات النسانية، أو المختفي فإنه كان براء كالمحتفي فيه على سبيل الاستعارة^(١).

٤. استشهاده بالشعر :

يستشهد البيضاوي بالشعر لدعم توجيهاته البلاغية، من ذلك استشهاده على الالتفات في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١) ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (٢) ملِكِ يَوْمِ الْيَقْظَنِ ﴿إِلَيْكَ نَبَّأْتُ وَإِلَيْكَ نَسْتَعِنُ﴾ (٣) الفاتحة: ٢ - ٥ ، قال البيضاوي: ومن عادة العرب التقى في الكلام والعدول من أسلوب إلى آخر تطيرية له وتنشيطاً للسامع، فيعدل من الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم وبالعكس، كقوله تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا كُتُّمَ فِي الْفُلُكِ وَجَرَيْنَ إِلَيْهِمْ﴾ (٤) يومن: ٢٢ قوله ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّئَاحَ فَتَشِيرُ سَحَابَةً فَسَقَنَتْهُ﴾ (٥) فاطر: ٩ ، قول امرئ القيس:

تطاول ليلك بالإثمِ	ونام الخليُّ ولم تزُدِ
وبات وبات لـ ليلة	كـ لـ لـ ذـ ذـ العـ اـ لـ الأـ مـ دـ
وـ ذـ لـ كـ منـ نـ بـ جـاءـ نـيـ	وـ خـ بـ رـ تـ هـ عـ نـ أـ بـيـ الأـ سـ وـ دـ (٢)

(١) تفسير البيضاوي: ٤٦٤/٣

(٢) تفسير البيضاوي: ١٥/١ - ١٦

٥. ربط الآية بـلاغيًّا بآية أخرى:

يعمد البيضاوي عند تعريره لمسألة بلاغية بربطها وتشبيهها بآية أخرى أكثر وضوحاً في بابها البلاغي بحيث تصبح عالمة يحال إليها أمثالها.

من ذلك ما جاء في المجاز العقلي حيث جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا نَفِسٌ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ الأعراف: ٨٥، قال البيضاوي رحمه الله: (بعد إصلاحها) بعد ما أصلح أمرها أو أهلها الأنبياء وأتباعهم بالشرياع، أو أصلحوا فيها والإضافة إليها كإضافة في ﴿بَلْ مَنْ كُرِّمَ أَيْنِلَّ وَأَنَّهَارِ﴾ سبأ: ٣٣.^(١)

٦. ذكر الأغراض البلاغية لفن البلاغي:

لم يكن البيضاوي يتوقف عند ذكر الفن البلاغي الموجود في الآية، بل كان يذكر غرضه البلاغي وفائدة المعنوية، من ذلك تعليل الالتفات في قوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرُّ يَخْطُفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمُ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَأَنْوَ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ إِسْمَاعِيلُ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّكَ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ البقرة: ٢١ - ٢٠، قال البيضاوي رحمه الله: (يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبِّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)^(٢) قال البيضاوي رحمه الله: (يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبِّكُمْ) لما عدد فرق المكلفين وذكر خواصهم ومصارف أمورهم، أقبل عليهم بالخطاب على سبيل الالتفات هزاً للسامع وتنشيطاً له واهتمامًا بأمر العبادة، وتقخيماً لشأنها، وجبراً لتكلفة العبادة بلذة المخاطبة^(٣).

٧. ذكر الوجوه البلاغية المتعددة:

قد تحتمل الآية أكثر من وجه بلاغي فكان البيضاوي يأتي على ذكر الوجهين جميماً، كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّنْ مَوْهِنِهِمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ النور: ٤٥، قال البيضاوي رحمه الله: وإنما سمي الزحف مشياً على الاستعارة أو المشاكلة^(٤)

(١) تفسير البيضاوي: ٥٥٧/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٥٩/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٥٠٣/٢

ومن ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقَبَ بِهِ ثُمَّ بَغَى عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ لَعَفُوٌ غَفُورٌ﴾ (٦٠) الحج: ٦٠، قال البيضاوي رحمة الله: وإنما سمي الابداء بالعقاب الذي هو الجزاء للازدواج أو لأنه سببه^(١)

٨. اعترافه على آراء بلاغية:

من منهج البيضاوي رحمة الله أنه قد يذكر رأياً بلاغياً في الآية ويعترض عليه، من ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْلَيَّا كُمْ لَعَلَّ هُدَى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٢٤) سبا: ٢٤، قال البيضاوي رحمة الله: وهو بعد ما تقدم من التقرير البلاغي الدال على من هو على الهدى ومن هو في الضلال أبلغ من التصريح لأنه في صورة الانصاف المskt للخصم المشاغب، ونظيره قول حسان:

أَتَهْجُوْهُ وَلَسْنَتْ لَهُ بِكْفَهِ
فَشَرَّكَمَا لَخِيرَ كَمَا الْفِدَاءُ

وَقَيلَ إِنَّهُ عَلَى الْلُّفِ وَالنُّشْرِ وَفِيهِ نَظَرٌ^(٢).

٩. تعليل توجيهاته البلاغية:

من منهج البيضاوي رحمة الله في تفسيره أنه يعلل أحكامه وتوجيهاته البلاغية، ولا يطلقها جزافاً، فمن ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ فَنِي بِقِدِّمَاجَاهَكَ مِنْ أَعْلَمِ إِنَّكَ إِذَا لَمْنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٤٥) البقرة: ١٤٥، قال البيضاوي رحمة الله: إِنَّكَ إِذَا لَمْنَ الظَّالِمِينَ أكَدَ تهديده وبالغ فيه من سبعة أوجه: أحدها: الإتيان باللام الموطئة للقسم: ثانيها: القسم المضمر. ثالثها: حرف التحقيق وهو أن. رابعها: تركيبه من جملة فعلية وجملة اسمية.

وخامسها: الإتيان باللام في الخبر. وسادسها: جعله من الظالمين، ولم يقل إنك ظالم لأن في الاندراجه معهم إيهاماً بحصول أنواع الظلم. سابعها: التقيد بمجيء العلم تعظيمًا للحق المعلوم، وتحريضاً على اقتئائه وتحذيراً عن متابعة الهوى، واستقطاعاً لصدور الذنب عن الأنبياء^(٣)

(١) تفسير البيضاوي: ٤٥٦/٢

(٢) تفسير البيضاوي: ١٠٧/٣

(٣) تفسير البيضاوي: ١٤٨/١

الفصل الثاني

”مباحث علم المعاني في تفسير البيضاوي“

- مقدمة في علم المعاني (الفصاحة والبلاغة)
- المبحث الأول: الخبر والإنشاء.
- المبحث الثاني: التعريف والتكيير.
- المبحث الثالث: التقديم والتأخير.
- المبحث الرابع: الاعتراض.
- المبحث الخامس: خروج الكلام عن مقتضى الظاهر.
- المبحث السادس: الإيجاز والإطناب والمساواة.

الفصل الثاني: مباحث علم المعاني في تفسير البيضاوي

الفصاحة والبلاغة لغة:

الفصاحة: البيان، فُصح الرجل فصاحةً، فهو فصيح من قوم فُصّحاء، تقول: رجلٌ فصيح وكلامٌ فصيحٌ أيٌّ بلِيغٌ، ولسانٌ فصيحٌ أيٌّ طَلْقٌ، وأفصحَ تكلُّم بالفصاحة، وأفصح عن الشيء إفصاحاً إذاً بينَهُ وكشفَهُ، والفصيح في اللغة: المنطلقُ اللسان في القول، الذي يعرفُ جيدَ الكلام من رديئه، وأفصحَ اللبن: ذهبَ اللبأ عنه، وفُصحَ اللبن إذاً أخذت عنه الرغوة، وأفصحَت الشاة والناقة: خلصَ لبَنَهُما، وأفصحَ الصبح: بدا ضوءه واستبانَ، وكلَّ ما وضَحَ فقدَ أَفْصَحَ، ويقال: قد فصَحَكَ الصبحُ أيَّ بَانَ لَكَ وَغَلَبَكَ ضوءُه^(١).

وقد ورد ذكر الفصاحة في القرآن الكريم في قول الله تعالى: ﴿وَأَخِي هَرُورٍ هُوَ أَفْصَحُ مِيقَ لِسَانًا فَأَرْسَلَهُ مَعِ رَدْمًا يُصَدِّقُهُ إِنَّ أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ (القصص: ٣٤)، وقال عليه الصلاة والسلام: "أنا أَفْصَحُ الْعَرَبَ بِيَدِ أَنِّي مِنْ قَرِيشٍ"^(٢).

وموسى عليه السلام حين ذكر أن أخاه هارون هو أَفْصَحُ منه لساناً في الآية السابقة يشير إلى العقدة التي كانت في لسانه والتي جاءت في قوله تعالى: ﴿وَاحْمَلْ عَقْدَهُ مِنْ لَسَانِي﴾ طه: ٢٧، وذلك أن موسى عليه السلام كان في لسانه لغة بسبب ما كان تناول تلك الجمرة حين خير بينها وبين التمرة أو الدرة، فأخذ الجمرة فوضعتها على لسانه، فحصل فيه شدة في التعبير^(٣)، فكان دعاء موسى عليه السلام الله عز وجل أن يحل عقدة لسانه "رغبة منه في غاية الإفصاح بالحجّة، والمبالغة في وضوح الدلالة، لتكون الأعناق إليه أميل، والعقول عنه أفهم، والآنفوس إليه أسرع، وإن كان قد يأتي من وراء الحاجة، ويبلغُ أَفْهَامَهُمْ على بعض المتشقة"^(٤)

أما البلاغة في اللغة فتعني: الانتهاء والوصول، وتعني أيضاً الفصاحة وحسن الكلام، يقال: بلغ الشيء يبلغ بلوغاً وبلاغاً: وصل وانتهى إلى مراده، والبلاغ: ما يتبلغ به ويتوصل إلى

(١) لسان العرب (فصح): جمال الدين ابن منظور ، ٥٤٤/٢ بتصريف، دار صادر ، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤ هـ

(٢) شرح السنة للبغوي: الحسين البغوي، ٢٠٢/٤، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣ هـ، ١٩٨٣ م.

(٣) تفسير القرآن العظيم (ابن كثير): أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٦٧٧٤ هـ)، ٢١٢، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون - بيروت، الطبعة: الأولى -

١٤١٩ هـ

(٤) البيان والتبيين: عمرو بن بحر المشهور بالجاحظ، ٣١/١، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣ هـ

الشيء المطلوب، والبلاغة: الفصاحة، ورجل بلغ وبلغ وبلغ: حسن الكلام، فصيحه يبلغ بعبارة لسانه كُنه ما في قلبه، والجمع: بلغاء، وقد بلغ بلاغة: صار بلغاً^(١).

وقد وردت مادة (بلغ) في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿أَوْتَهِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعَظِّمْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيقًا﴾ (النساء: ٦٣).

والناظر إلى التعريف اللغوي لكل من الفصاحة والبلاغة يلحظ تشابهاً وترادفاً فيما، "المقصود منها: الظهور والبيان والانتهاء إلى المعنى وبلوغ المراد باللفظ الجيد والقول البلاغي المؤثر، والتعبير الحسن الفصيح، ولذا فإن أكثر البلاغيين يرون أن الفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد، وإن اختلف أصلهما، لأن المراد بهما: الإبارة عن المعنى والإظهار له وحسن التعبير عنه.

الفصاحة اصطلاحاً:

الفصاحة في اصطلاح أهل المعاني، عبارة عن الألفاظ البينية الظاهرة، المتبدلة إلى الفهم، والمأنوسية الاستعمال بين الكتاب والشعراء لمكان حسنها^(٢).

وفصاحة كما سبق تقع وصفاً للكلمة وللكلام وللمتكلم، فالكلمة الفصحة يجب أن تخلص من الأمور التالية:

١. من تناقض الحروف: لتكون رقيقة عذبة، تخف على اللسان ولا تشتعل على السمع.
٢. من الغرابة، وتكون مألوفة الاستعمال.
٣. من مخالفة القياس الصRFي، حتى لا تكون شاذة.
٤. من الكراهة في السمع.

أما فيما يخص "تناقض الحروف": فهو وصف في الكلمة يوجب ثقلها على السمع وصعوبتها أدائها باللسان، بسبب كون حروف الكلمة متقاربة المخارج، مثل كلمة (هعخ)، من قول أعرابي: (ترك ناقتي ترعى الهعخ)، وهو نبت ترعاه الإبل.

(١) لسان العرب (بلغ): ٤٢٠/٨ بتصريف.

(٢) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبداع: أحمد الهاشمي، ص ١٩، المكتبة العصرية بيروت.

و"غرابة الاستعمال": فهي كون الكلمة غير ظاهرة المعنى، ولا مألوفة الاستعمال عند العرب الفصحاء، وهو قسمان: القسم الأول ما يوجب حيرة السامع في فهم المعنى المقصود من الكلمة لتردد़ها بين معنيين أو أكثر بلا قرينة، ومثاله كلمة "مسَرَّجٌ" من قول رؤبة بن العجاج:

ومقلةً وحاجباً مزججاً
وفاحماً ومرسناً مسرجاً

والقسم الثاني من غرابة الاستعمال: ما يعبّر استعماله لاحتياجه إلى تتبع اللغات وكثرة البحث والتقطيش في المعاجم والقاميس، ومثاله: "تكأكأتم" وهي بمعنى اجتماعكم، من قول عيسى بن عمرو النحوي: (ما لكم تكأكأتم علي كتكأكأتم على ذي جنة أفرنعوا عنِي).

وأما "مخالفة القياس": فهو كون الكلمة شاذة غير جارية على القانون الصRFي المستربط من كلام العرب، مثل كلمة (الأجل)، في قول أبي النجم:

الحمد لله العلي الأجل
الواحد الفرد القديم الأول

فإن القياس (الأجل) بالإدغام ولا مسوغ لفكه.

وأما "الكرابة في السمع": فهو كون الكلمة وحشية، وتأنفها الطباع، وتمجّها الأسماء، وتتبّع عنه، كما ينبو عن سماع الأصوات المنكرة، مثل كلمة (الجرشيّ) ومعناها النفس، في قول أبي الطبيب المتّبّي يمدح سيف الدولة:

مباركُ الاسم أَعْرُ اللقب
كريمُ الْجَرْشِيُّ شَرِيفُ النَّسْبِ^(١)

البلاغة اصطلاحاً:

عرف الخطيب القزويني البلاغة بأنها: مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحتها^(٢).

والكلام حتى يكون بليغاً لا بد له من دعائم وهي^(٣):

١. اختيار اللغة.
٢. حسن التركيب وصحته.

(١) جواهر البلاغة: ٢٠-٢١

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة: جلال الدين القزويني، ٤١/١، محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل بيروت، الطبعة الثالثة.

(٣) البلاغة فنونها وأفاناتها علم المعاني: فضل حسن عباس، ٥٨، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م، الأردن.

٣. اختيار الأسلوب الذي يصلح للمخاطبين، مع حسن ابتداء، وحسن انتهاء.

وبقدر ما يتهيأ من هذه الدعائم، يكون الكلام مؤثراً في النفوس، والتأثير هو الدعامة الرابعة من دعائم البلاغة.

فالبلاغة إذن لا بد فيها من ذوق وذكاء، بحيث يدرك المتكلم متى يتكلم، ومتى ينتهي، وما هي القوالب التي يصب فيها المعاني التي رتبها في نفسه، فرب كلام يكون جميلاً في نفسه ومعناه لكنه لم ترّع فيه هذه الظروف ومقتضى الحال فلا يكون مؤثراً في النفوس.

فالبلاغة ليست منحصرة في إيجاد معانٍ جليلة، ولا في اختيار ألفاظ واضحة جزيلة، بل هي تتناول مع هذين الأمرين أمراً ثالثاً، وهو إيجاد أساليب مناسبة للتأليف بين تلك المعاني والألفاظ، مما يكسبها قوة وجمالاً^(١).

بعد ما تقرر من تعريف الفصاحة والبلاغة لغة واصطلاحاً، يظهر أن من العلماء من فرق بينهما ومنهم من جعلهما بمعنى واحد، ويظهر لنا أن الكلام قد يكون فصيحاً أو لا يكون فصيحاً بناء على ما اشترط علماؤنا الأجلاء في فصاحة الكلمة والكلام، وقد يكون الكلام بليغاً أو لا بالنظر إلى الدعائم التي وضعوها وأصلوها.

هذا كله فيما يخص كلام البشر، لكن وجب العلم أن كل معاني الفصاحة والبلاغة حاصلة وثابتة لكلام من خلق الإنسان وعلمه البيان، كلام الله عز وجل المتمثل في القرآن الكريم، "فيجب القضاء بكونه فصيحاً، سواء قلنا إن الفصاحة راجعة إلى الألفاظ، والبلاغة راجعة إلى المعاني، أو سواء قلنا إنهما شيء واحد يقعان على فائدة واحدة، فكل كلام صحيح فهو بليغ، وكل بليغ من الكلام فهو صحيح، فعلى جميع وجوههما فهما حاصلان في القرآن على أوضح مخصوص وأكمله، فيجب القضاء بكونه فصيحاً"^(٢).

والقرآن كله فصاحة وبلاغة، لا يعرفها إلا من حدق أساليب العرب ومهارات فيها وتمكن منها، لذلك كان العرب بما جبلوا عليه من فصاحة وبلاغة - حتى الكفار منهم - لا يتمالك نفسه عند سماع القرآن، فتراه يخُرُّ ساجداً، كما حكى أبو عبيدة أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ: ﴿فَاصْدِعْ بِمَا

(١) جواهر البلاغة: ٤٢

(٢) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: يحيى بن حمزة العلوى، ١٢٠/٣، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

تُؤْمِنُ (الحجر: ٩٤) فسجد وقال: سجدت لفصاحة هذا الكلام، "وعندما قرأ النبي صلى الله عليه وسلم سورة النجم بحضور كفار قريش وانتهى إلى قوله تعالى: ﴿فَأَنْجُلُوا إِلَيْهِ وَاعْبُدُوا﴾ (النجم: ٦٢) قال ابن عباس رضي الله عنه كما جاء عند البخاري: "سجد النبي صلى الله عليه وسلم بالنجم، وسجد معه المسلمين والمشركون والجن والإنس".^(١)

فالقرآن فصيح بلغ، فصيح في ألفاظه، بلغ في معانيه التي كانت تتنزل وفق مقتضى الحال، وكما يقول القرزيوني: "فمقتضى الحال مختلف، فإن مقامات الكلام متقاوتة، فمقام التكير يبأين مقام التعريف، ومقام الإطلاق يبأين مقام التقيد، ومقام التقديم يبأين مقام التأخير، ومقام الذكر يبأين مقام الحذف، ومقام القصر يبأين مقام خلافه، ومقام الفصل يبأين مقام الوصل، ومقام الإيجاز يبأين مقام الإطناب والمساواة، وكذا خطاب الذكي يبأين خطاب الغبي".^(٢)

"لذلك فإن الخطاب الموجه إلى المؤمنين يخالف في طريقة وأسلوبه وألفاظه ومعانيه الخطاب الموجه للكافرين، ففي قوله تعالى: ﴿وَالْمَاءُ ذَاتٌ لَرْجُعٍ ﴾١١﴿وَالْأَرْضُ ذَاتٌ أَصْنَاعٌ ﴾١٢﴿إِنَّمَا لَقُولٌ فَصَلٌ ﴾١٣﴿وَمَا هُوَ بِالْمُلْوَلٍ ﴾١٤﴿إِنَّمَا يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴾١٥﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾١٦﴿فَهُلُّ الْكَافِرُونَ أَمْ هُمْ رَوِيدًا ﴾١٧﴾ الطارق: ١١ - ١٧ ، فالوعيد والتهديد في هذه الآيات كأنه الصواعق التي تخلق لها قلوب الكافرين الملحدين.

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا سَمَعُوا لَهُنَا الْقُرْءَانُ وَالْغَوَافِيْهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُوْنَ ﴾٢٦﴿فَلَنُذَيِّقَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُوْنَ ﴾٢٧﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ الظَّالِمِيْمُ فِيهَا دَارُ الْخُلُدِ جَزَاءً إِمَّا كَانُوا بِإِيمَانِنَا بِمُحَمَّدٍ ﴾٢٨﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبِّنَا الَّذِينَ أَضَلَّنَا مِنَ الْحُكْمِ وَإِلَيْنَا يَحْكُمُ الْمُجْرَمُوْنَ ﴾٢٩﴾ فصلات: ٢٦ - ٢٩ ، فهو خطاب للكافرين فيه من التهديد والوعيد والإهانة والتحقير، فمن يحارب الإسلام في الدنيا سيداس بالأقدام يوم القيمة.

فجاء الكلام مراعياً لحال المخاطبين مراعاة تامة، ولكن لو انتقلنا لنرى كيف تغير الكلام، فنقف قليلاً مع المؤمنين، ونتأمل في كيفية الخطاب الموجه إليهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوْا رَبِّنَا اللَّهَ ثُمَّ أَسْتَقَمُوا تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلِئَكَةُ أَلَا نَخَافُوْا وَلَا نَحْرَجُوْا وَأَشْرُوْا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُوْنَ ﴾٣٠﴿تَحْمَنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا شَتَّهِيْ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا

(١) صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري، ١٤٢/٦، حديث رقم (٤٨٦٢)، تحقيق محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

(٢) الإيضاح: ٤٢/١ - ٤٣.

مَا تَدْعُونَ ﴿٢١﴾ نُزِّلَ مِنْ عَفْوٍ رَّحْمٌ وَمَنْ أَحْسَنْ فَوْلًا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَلِحًا وَقَالَ إِنَّمَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَلَا سَتُوْلُ الْحَسَنَةِ وَلَا أَسْيَثَةُ أَدْفَعَ بِأَنَّى هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي يَبْنَكَ وَيَنْهَا عَذَّوْ كَانَهُ وَلِيْ حَمِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَمَا يَلْقَنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍ عَظِيمٌ ﴿٢٤﴾ فصلت: ٣٠ - ٣٥ فالخطاب كله رحمة ولين، لأن الحال تقتضي هذا الخطاب، والفرق واضح بين الخطابين، فهذا مقام وذاك مقام، وهذا مقال وذاك مقال^(١).

حديث البيضاوي عن الفصاحة والبلاغة القرآنية:

تحدث البيضاوي في تفسيره عن فصاحة القرآن وبلاعته حديثاً مباشراً وإن كان كل تفسيره يشير إلى بلاغة القرآن وفصاحته فقال تعليقاً على قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَأْرَضُ آبَعَى مَاءَكَ وَيَسْمَأَهُ أَقْلَعِي وَغَيْضَ الْمَاءِ وَقُبْنَى الْأَمْرِ وَأَسْتَوْتَ عَلَى الْجُنُوْنِي وَقِيلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ هود: ٤٤، قال: والآلية في غاية الفصاحة لفخامة لفظها وحسن نظمها والدلالة على كنه الحال، مع الإيجاز الخالي عن الإخلاص^(٢).

وقال مقرراً وجه التحدي والإعجاز الحاصل في القرآن الكريم عندما علق على قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُثِنْتُمْ فِي رَيْسِ مَمَّا زَلَّنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأَنْوَأْتُمْ سُورَقَ مِنْ مِثْلِهِ وَأَدْعُوا شَهَدَاتَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ البقرة: ٢٣، لما قرر وحدانيته تعالى وبين الطريق الموصى إلى العلم بها، ذكر عقيبه ما هو الحجّة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وهو القرآن المعجز بفصاحته التي بذلت فصاحةً كليًّا مُنْطِقً، وإفحامه من طُول بمعارضته من مصاديق الخطباء من العرب العرباء مع كثرتهم وإفراطهم في المضادة والمضاراة، وتهاكمهم على المعازة والمعاراة، وعُرِفَ ما يتعرّف به إعجازه ويتُيقَّنُ أنه من عند الله كما يدعى^(٣).

وقال في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوَّهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرِكُمْ بِهِ فَقَدْ لَيْثَ فِيْكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقُلُونَ﴾ يومنس: ١٦، فإنه إشارة إلى أن القرآن معجز خارق للعادة فإن من عاش بين أظهرهم أربعين سنة لم يمارس فيها علمًا، ولم يشاهد عالماً، ولم ينشئ قريضاً ولا خطبة، ثم قرأ عليهم كتاباً بزت فصاحته فصاحةً كليًّا مُنْطِقً وعَلَّا عن كل منثور ومنظوم

(١) من بلاغة القرآن: أ.د. محمد علوان، وأ.د. نعمان علوان، ص ١٥-١٦، الطبعة الرابعة، ٤٣٠ هـ، ٢٠٠٩ م.

(٢) تفسير البيضاوي: ١٣٢/٢.

(٣) تفسير البيضاوي: ٦٦/١.

واحتوى على قواعد علمي الأصول والفرع وأعرب عن أقاصيص الأولين وأحاديث الآخرين على ما هي عليه، *علم أنه معلوم به من الله تعالى*^(١).

علم المعاني:

عرف السكاكي علم المعاني بأنه: "تتبع خواص تركيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره"^(٢).

أما الخطيب القزويني فقال عنه: "علم يعرف به أحوال اللفظ التي بها يطابق مقتضى الحال"^(٣).

"قد كانت البلاغة العربية بفروعها الثلاثة: المعاني والبيان والبديع أول الأمر كلها وحدة شاملة دون تمييز أو تحديد، فتجد في كتب المتقدمين خير شاهد على هذا إذ تجدها مختلطة بعضها البعض دون فصل بينها.

وشيئاً فشيئاً أخذ المشتغلون بالبلاغة العربية ينحون بها منحى التخصص والاستقلال، كما أخذت مسائل كل فن بلاطي تتبلور وتتلاحم واحدة بعد الأخرى، وظل الأمر كذلك حتى جاء عبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس الهجري (٤٧١ هـ) ووضع نظرية علم المعاني في كتابه "دلائل الإعجاز" ونظرية علم البيان في كتابه "أسرار البلاغة"، كما وضع ابن المعتز من قبله أساس علم البديع.

إذن الإمام عبد القاهر الجرجاني هو واضع أصول علمي المعاني والبيان ومؤسسها في العربية، وقد جعل من مباحث كلا العلمين وحدة يمكن النظر فيها نظرة شاملة"^(٤).

نعود إلى تعريف القزويني لعلم المعاني والذي هو من أدق التعريف لهذا العلم حيث يقول: "علم يعرف به أحوال اللفظ التي بها يطابق مقتضى الحال".

(١) تفسير البيضاوي: ٩٤/٢.

(٢) مفتاح العلوم: يوسف بن أبي بكر السكاكي، ص ١٦١، ضبط نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة: ٥٢/١.

(٤) علم المعاني والبيان والبديع: عبد العزيز عتيق، ص ٢٣، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.

وأحوال اللفظ هي الأمور التي تعرض له من التقديم والتأخير ، والتعريف والتكيير ، والخبر والإنشاء ، والحذف والذكر ، والفصل والوصل ، والإيجاز والإطناب والمساواة ، وخروج الكلام عن مقتضى الظاهر إلى غير ذلك من الموضوعات^(١).

وقد تعرض الإمام البيضاوي في تفسيره لكثير من هذه الموضوعات وبين الأغراض البلاغية التي يخرج إليها كل فن من هذه الفنون مع بيان سر البلاغة والجمال في الآيات القرآنية، وسأعرض هذه الموضوعات بقدر ما تهياً لي من الوقوف عليه في هذا البحث.

(١) من بلاغة القرآن: أ.د. محمد علوان، وأ.د. نعمان علوان: ١٩.

المبحث الأول: الخبر والإنشاء:

المطلب الأول: الخبر:

يُعرَف الخبر بأنه كل كلام يحتمل الصدق أو الكذب لذاته، أي بقطع النظر عن الذي ينطق بالخبر سواء كان مقطوعاً بصدقه أو كذبه، وبقطع النظر عن البدهيات كالسماء فوقنا والأرض تحتنا، فهذه مما لا يشك أحد في صدقها، ولكننا نعتبرها خبراً إلى ذات الكلام نفسه^(١).

فالخبر إذن ما احتمل الصدق أو الكذب لذاته، ولكن قد يسأل سائل: متى نعد الخبر صادقاً أو غير صادق؟ ورأي جمهور البلاغيين أن الخبر يكون صادقاً إذا طابق الواقع، ويكون كاذباً إذا لم يكن كذلك، فإذا قال قائل: جاء أخوك من السفر. وكان هذا الخبر يؤيده الواقع، بمعنى أن أخيك قد جاء بالفعل من سفره، فذلك هو الصدق، ويسمى الخبر صادقاً، أما إذا لم يكن كذلك، فلم يقدم أخيك من سفره، فهنا يكون الخبر كاذباً^(٢).

المقصود والأغراض التي من أجلها يُلقى الخبر: الأصل في الخبر أن يلقى لأحد غرضين^(٣):

١. إما إفاده المخاطب الحكم الذي تضمنته الجملة، إذا كان جاهلاً له، ويسمى هذا النوع: "فائدة الخبر" نحو: "الدين المعاملة".
٢. وإما إفاده المخاطب أن المتكلم عالم أيضاً بأنه يعلم الخبر، كما تقول لتلميذ أخفى عليك نجاحه في الامتحان: أنت نجحت في الامتحان. ويسمى هذا النوع: "لازم الفائدة".

وقد يخرج الخبر عن الغرضين السابقين إلى أغراض بلاغية أخرى تستفاد من القرآن، ومن سياق الكلام.

(١) من بлагعة القرآن: أ.د. محمد علوان، وأ.د. نعمان علوان: ٢٠.

(٢) البلاغة فنونها وأفاناتها علم المعاني: ٩٩-١٠٠.

(٣) جواهر البلاغة: ٥٦ بتصرف.

الأغراض البلاغية للخبر:

١. التهكم:

والتهكم: الاستهزاء، وعُرِفَّهُ ابن معصوم المدني في كتابه "أنوار الربع" فقال: "هو في الاصطلاح أخص منه في اللغة، لأنَّه في اللغة بمعنى الاستهزاء مطلقاً، وفي الاصطلاح: هو الخطاب بلفظ الإجلال في موضع التحذير، والبشاره في موضع التحذير، والوعد في مكان الوعيد، والعذر في موضع اللوم، والمدح في موضع السخرية، ونحو ذلك"^(١).

فيتضح من هذا التعريف أشكالاً كثيرة يأتي عليها أسلوب التهكم، والتي منها المدح في موضع السخرية، وهذا ما رأه البيضاوي عند تعرضه لقول الله تعالى: ﴿قَالُوا يَدْعُونَ أَصْلَوْتُكَ تَأْمِرُكَ أَنْ تَتَرَكَ مَا يَعْبُدُ إِبْرَاهِيمَ أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ هود: ٨٧، قال البيضاوي: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾: تهكموا به وقصدوا وصفه بضد ذلك^(٢)، وقال الزمخشري: "نسبته إلى غاية السفة والغيّ، فعكسوا ليتهكموا به ، كما يتهمكم بالشحيح الذي لا يبُغض حجره^(٣)، فيقال له : لو أبصرك حاتم لسجد لك^(٤)".

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْتَشِرْ فِي الْأَرْضِ مَرَحَّاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغْ لِلْجَهَالَ طُولًا﴾ الإسراء: ٣٧، قال البيضاوي: ﴿وَلَنْ تَبْلُغْ لِلْجَهَالَ طُولًا﴾: بتطاولك، وهو تهكم بالمختال وتعليق للنبي بأنَّ الاحتيال حماقة مجردة لا تعود بجدوى^(٥).

والسر الكامن وراء وصف الله عز وجل المتكبر بأنه لن يخرق الأرض ولن يبلغ الجبال طولاً، هو أنَّ المتكبر دائماً يحاول الاعتزاز بنفسه والتفاخر على الناس وهذا يجعله يحاول دائماً أن يتطاول على الناس ويمد عنقه إلى أعلى وذلك يجعله يدفع بقدمه في الأرض محاولاً الوصول لأعلى نقطة يمكنه الوصول لها، فجاء القرآن مبيناً أنَّ حالته هذه لن تقidente بشيء.

(١) أنوار الربع في أنواع البديع: ابن معصوم المدني، ٨٥/٢، تحقيق شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، الطبعة الأولى، ١٩٦٨، هـ١٣٨٨.

(٢) تفسير البيضاوي: ١٤٥/٢.

(٣) في الصحاح: بضم الماء بضميضاً: سال قليلاً قليلاً، (الصحاح: ١٠٦٦/٣)، والمعنى: الرجل شديد البخل.

(٤) الكشاف: ٤٢٠/٢.

(٥) تفسير البيضاوي: ٣٠٣/٢.

ومن أساليب التهكم التي تأتي بطريق الخبر: وضع البشارة موضع الإنذار والتحذير، كما في قوله تعالى: ﴿هَذَا نُرْلَمْ يَوْمَ الْدِين﴾ الواقعه: ٥٦، قال البيضاوي: "وفيه تهكم كما في قوله ﴿فَسَيِّرُهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ آل عمران: ٢١، لأن النزل ما يُعد للنازل تكرمة له"^(١).

٢. التحسر:

قال ابن منظور في مادة (حسر): وَحَسَرٌ يَحْسِرُ حَسَرًا وَحَسْرَةً وَحَسْرَانًا فَهُوَ حَسِيرٌ وَحَسْرَانٌ إذا اشتَدَتْ نَدَامَتْهُ عَلَى أَمْرٍ فَاتَهُ. لذلك فإن التحسر معناه الندامة على أمر فات عن المتكلم، ونرى أخباراً كثيرة أتت في القرآن على هذا المعنى^(٢).

من الأخبار التي تأتي لغرض التحسر قول الله تعالى: ﴿فَكُنْكُوكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾^(٤) وَجُنُودُ الْإِلَيَّسَ آجْمَعُونَ^(٥) ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾^(٦) تَأَلَّهُ إِنْ كُنَّا لَنَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ^(٧) إِذْ سُوِّيَّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ^(٨) الشعراة: ٩٤ - ٩٨ الشعراة: ٩٤ - ٩٨، قال البيضاوي: "والخطاب - أي ﴿تَأَلَّهُ إِنْ كُنَّا لَنَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ للبالغة في التحسر والنداة، والمعنى: أنهم مع تخاصمهم في مبدأ ضلالهم معترفون بانهما كهم في الضلالة متحسرون عليها"^(٩).

ونلحظ أن صيغة الخبر في الآيتين السابقتين في قوله تعالى: ﴿تَأَلَّهُ إِنْ كُنَّا لَنَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِذْ سُوِّيَّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قد جاءت بأقوى صيغة الإخبار، إذ اجتمع في هذا الخبر ثلاثة مؤكّدات، وهي القسم، وإن المؤكدة المخففة من الثقيلة، واللام المؤكدة أيضاً في جواب القسم، وهذا يدل على شدة حسرتهم وندمهم على ما وقعوا فيه من عبادتهم غير الله عز وجل.

ولا بد من وقفة ثانية عند قوله تعالى: (فَكَبَبُوا) فتكرار الحروف في هذه الكلمة توحى بتكرار الإطاحة بهم في نار جهنم مرة بعد مرة وهذا يشير إلى مدى الإهانة التي سيكون عليها هؤلاء يوم القيمة، ومن هنا يتضح المعنى البلاغي الذي أضافه تكرار هذه الحروف.

ولو رجعنا إلى أسلوب التحسر بطريق الإخبار وفيه يتحسر المتكلم على نفسه كما مرّ معنا، وقد يرد من المتكلم المدلي بالخبر تحسراً على غيره، كما يظهر من تفسير البيضاوي لقوله تعالى في قصة صالح عليه السلام مع قومه: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُوُهُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ يَسْأَلَةَ رَبِّ

(١) تفسير البيضاوي: ٣٦٥/٣.

(٢) لسان العرب (حسر): ٨٦٩/٢.

(٣) تفسير البيضاوي: ٥٤٥/٢.

وَنَصَحَّتْ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا يُجِبُونَ أَنْتَصِرُوكُمْ ﴿٧٩﴾ الأعراف: قال البيضاوي: "ظاهره أن توليه عنهم كان بعد أن أبصراهم جاثمين، ولعله خاطبهم به بعد هلاكم كما خاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم قليب بدر، وقال: "إنا وجدنا ما وعدنا رينا حقاً فهل وجدتم ما وعد ريكم حقاً، أو ذكر ذلك على سبيل التحسير عليهم" ^(١).

٣. التحسير:

وهذا الغرض يشبه إلى حد ما الغرض السابق وهو التحسير، حيث يتفقان في كون كلي منهما يدل على الندم، لكنهما يختلفان من حيث أن الخبر الذي يأتي للتحسir يكون واقعا على المتكلم، سواء كان ندما وحسرة على نفسه أو على غيره، أما الخبر الذي يأتي بعرض التحسير، فالغرض منه إيقاع الحسرة والندامة على المخاطب لا على المتكلم به، وهذا يتبيّن لنا الفرق بينهما.

ومما جاء في القرآن على هذا الغرض قوله تعالى في المسلمين المختلفين عن اللحاق بجيش المسلمين الذين لاحقوا المشركين إلى حمراء الأسد عقب غزوة أحد: ﴿أَلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَأَخْشُوْهُمْ فَرَادُهُمْ إِيمَنَا وَقَالُوا حَسِبَنَا اللَّهُ وَنَعَمْ أَنْوَكِيلُ ﴾^(٢) فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِنْ اللَّهِ وَفَضَلِّلُ لَمْ يَمْسِسُهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا بِضَيْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٣﴾ آل عمران: ١٧٣ - ١٧٤، قال البيضاوي رحمه الله: "﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ قد تفضل عليهم بالثبات وزيادة الإيمان والتوفيق للمبادرة إلى الجهاد والتصلب في الدين وإظهار الجراءة على العدو وبالحفظ عن كل ما يسوءهم وإصابة النفع مع ضمان الأجر حتى انقلبوا بنعمة من الله وفضل، وفيه تحسير للمخالف وتخطئة رأيه حيث حرم نفسه ما فازوا به" ^(٣).

ونظير هذا المعنى ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَحَبَّبُ الْجَنَّةَ أَحَبَّنَبْ أَنَّا رَأَيْنَاهُنَّ قَدْ وَجَدَنَا مَا وَعَدَنَا رَبِّنَا حَتَّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبِّكُمْ حَقًا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَنَ مُؤَذِّنُ بَيْتِهِمْ أَنْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْفَلَّالِيِّينَ ﴿٤٤﴾ الأعراف: ٤٤، قال البيضاوي: "إنما قالوه تبجحاً بحالهم وشماتة بأصحاب النار، وتحسيراً لهم" ^(٤).

والمعنى أن أصحاب الجنة خاطبوا أصحاب النار وأخبروهم بأنهم متعمدون فيما آتاهم الله من فضله على عكس ما هم فيه من العذاب الشديد، وكأنهم أرادوا بهذا الخطاب أن يوقعوا الحسرة والندامة في قلوبهم وذلك بذكر ما فاتهم من النعيم، وتذكيرهم بما هم فيه من الجحيم، لأن معنى

(١) تفسير البيضاوي: ٥٥٥/١.

(٢) تفسير البيضاوي: ٣١٤/١.

(٣) تفسير البيضااوي: ٥٤٤/١.

الاستفهام في ﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبّكُمْ حَقًا﴾ تقريرهم أن وعد الله لهم في الدنيا قد وقع عليهم في الآخرة.

٤. الوعد:

قال الجوهرى الوعد يستعمل في الخير والشر، قال ابن سيده: في الخير الوعد والعدة، وفي الشر الإياع والوعيد^(١).

والأخبار التي جاءت على سبيل الوعد من الله تعالى لعباده المتقين كثيرة لا تكاد تدخل تحت حصر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحَنَّكَ فَتَحَمَّبُنَا﴾ الفتح: ١ ، قال البيضاوى في تفسيرها: "وعد بفتح مكة"^(٢).

وذلك لأنه لم يكن قد فتح الله لنبيه على الحقيقة وقت نزول هذه الآية، فيكون هذا الخبر على سبيل وعد الله لنبيه بأن ذلك كائن لا محالة، وقد أورد هذا الخبر مؤكداً بـ(إن)، وأضاف إليها ضمير الجمع (نا) الدال على الله عز وجل وهو ضمير يدل على العظمة والقدرة، وكأن المراد أن الله عز وجل منجز لك يا محمد هذا الوعد لا محالة.

ومن ذلك وعد الله عز وجل لنبيه بالحفظ من أذى المشركين كما في قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلْغُ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهِبُّ لِلنَّاسِ الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ المائدة: ٦٧ ، قال البيضاوى: عِدَّةٌ وضمانٌ من الله سبحانه وتعالى بعصمة روحه صلى الله عليه وسلم من تعرض الأعدى^(٣).

ومن ذلك وعد موسى عليه السلام لقومه بأن الله ناصرهم على فرعون وقومه وذلك عندما توعدهم فرعون بالقتل في قوله تعالى: ﴿قَالَ سَقْنَاهُمْ وَسَتَحِيَّ نِسَاءُهُمْ وَإِنَّا فَوَهَمْنَا قَهْرُونَ﴾ الأعراف: ١٢٧ ، عندها وعد موسى قومه بقوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَسْتَعِينُ بِاللَّهِ وَأَصِرُّ وَإِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عَبْرَادِهِ وَالْعِقَبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الأعراف: ١٢٨ ، قال البيضاوى: "﴿وَالْعِقَبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وعد لهم بالنصرة وتذكير لما وعدهم من إهلاك القبط وتوريتهم ديارهم^(٤).

(١) لسان العرب (وعد): ٤٨٧٢/٦

(٢) تفسير البيضاوى: ٢٩٣/٣

(٣) تفسير البيضاوى: ٤٥١/١

(٤) تفسير البيضاوى: ٥٦٦/١

٥. الوعيد والتهديد:

والوعيد يقابل الوعد، كما عرفناه سابقاً، ويكون الوعيد في الشر، وقد وردت هذه اللفظة في القرآن الكريم في مواضع عدة منها: ﴿وَلَنْتَ كَنِّتُكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَاءِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ إبراهيم: ١٤، قوله تعالى: ﴿تَحْنُّ أَعْلَمُ بِمَا يَعْلَمُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ ق: ٤٥.

ومن أمثلة الأخبار التي جاءت لغرض الوعيد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفَسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ يونس: ٤، قال البيضاوي رحمه الله: ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفَسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بِإِفْسَادِهَا وَتَفْوِيتِ مَنَافِعِهَا عَلَيْهِمْ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ لِلْعَبْدِ كُسْبًا، وَأَنَّهُ لَيْسَ بِمَسْلُوبِ الْأَخْتِيَارِ بِالْكُلِّيَّةِ كَمَا زَعَمَتِ الْمُجْبَرَةِ، وَيُجُوزُ أَنْ يَكُونَ وَعِيدًا لَهُمْ بِمَعْنَى أَنَّ مَا يَحْقِيقُ بَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْعَذَابِ عَدْلٌ مِنَ اللَّهِ لَا يَظْلِمُهُمْ بِهِ، وَلَكِنَّهُمْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِاْفْتِرَافِ أَسْبَابِهِ﴾^(١).

ومما جاء في القرآن على الوعيد قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرَسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَقُولُونَ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ إِنَّمَا أَخَافُ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ الأعراف: ٥٩، قال البيضاوي: ﴿إِنَّمَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إن لم تؤمنوا، وهو وعيد وبيان للداعي إلى عبادته^(٢).

والمعنى: أنني أحذركم وأنواعكم بعذاب الله إن أنتم كذبتم الرسالة التي أرسلت بها ولم تعبدوا الله عز وجل.

وقد يرد الخبر في القرآن الكريم محتملاً الوعيد والوعيد معاً كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ لَنَا إِلَيْكَ الْكِتَبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْكَ مِنَ الْكِتَبِ وَمَهِمَّنَا عَلَيْهِ فَآخِذُكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَنْتَهِي أَهْوَاءُهُمْ عَمَّا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعْلَنَا مِنْكُمْ شَرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَتَبَلُّوكُمْ فِي مَا أَتَنَّكُمْ فَاسْتَيْقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيَنْتَهِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِيَفُونَ﴾ المائدة: ٤٨، قال البيضاوي: ﴿فَاسْتَيْقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ فابتدروها انتهازاً للفرصة وحيازة لفضل السبق والتقدير. ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾، استثناف فيه تعليل الأمر بالاستباق ووعد ووعيد للمبادرين والمقصرين^(٣).

(١) تفسير البيضاوي: ١٠٣/٢

(٢) تفسير البيضاوي: ٥٥٠/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٤٤٠/١

وعلى هذا الضرب قوله تعالى: ﴿فَإِنْ إِيمَنُوا بِمِثْلِ مَا إِمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تُؤْلَمُوا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِيَاقٍ فَسَيَكْفِيَهُمْ اللَّهُ وَهُوَ أَسْمَاعُ الْمُكْلِمِ﴾ البقرة: ١٣٧، قال البيضاوي: ﴿فَسَيَكْفِيَهُمْ اللَّهُ﴾ تسلية وتسكين للمؤمنين، ووعد لهم بالحفظ والنصرة على من ناوأهم. ﴿وَهُوَ أَسْمَاعُ الْمُكْلِمِ﴾ إما من تمام الوعد، بمعنى أنه يسمع أقوالكم ويعلم إخلاصكم وهو مجاز لكم لا حاله، أو وعيد للمعرضين، بمعنى أنه يسمع ما يبدون ويعلم ما يخفون وهو معاقبهم عليه^(١).

وأقرباً من معنى الوعيد التهديد، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ الشعراة: ٢٢٧، قال البيضاوي: تهديد شديد لما في "سيعلم" من الوعيد البليغ وفي "الذين ظلموا" من الإطلاق والتعميم، وفي "أي منقلب ينقلبون" أي بعد الموت من الإيهام والتهويل^(٢). وقال الزمخشري في هذه الآية: "ختم السورة بأية ناطقة بما لا شيء أهيب منه وأهول، ولا أنكى لقلوب المتأملين ولا أصدع لأكباد المتذمرين"^(٣).

ومن أمثلة الأخبار التي جاءت لغرض التهديد ما جاء في معرض أمر الله للناس أن يحسنوا إلى والديهم فقال: ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الْذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ إِرْجَمُهُمَا كَمَا رَبَّيْافِ صَغِيرًا﴾ (٤٦) رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي ثُوُسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّلِينَ غَفُورًا﴾ الإسراء: ٢٤ - ٢٥، قال القاضي رحمه الله: ﴿رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي ثُوُسِكُمْ﴾ من قصد البر إليهما واعتقاد ما يجب لهما من التوقير، وكأنه تهديد على أن يضرر لهما كراهة أو استئصالاً^(٤).

٦. الأمر:

قد يأتي الخبر ويكون الغرض منه الأمر، ويكون مجبيه بهذه الطريقة أبلغ منه بطريق الأمر المباشر، وذلك كقول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ إِذَا مَأْتُمْ أَهْلَ أُذُنْكُوْنَ عَلَىٰ تَهْرِئَةٍ شُجِيْكُمْ مِنْ عَلَيْكُمْ أَلْيِم﴾ (١٠) تُؤْمِنُنَّ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمُجْهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَأْمُوْلُكُمْ وَأَنْفَسِكُمْ ذَلِكُمْ حِلْزُ لَكُوْنَانِ كُوْنُمْ تَقْلُمَنَ﴾ الصاف: ١٠ - ١١، قال البيضاوي: ﴿تُؤْمِنُنَّ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمُجْهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَأْمُوْلُكُمْ وَأَنْفَسِكُمْ﴾ استثنافٌ مبينٌ للتجارة وهو الجمع

(١) تفسير البيضاوي: ١٤٣/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٥٥٨/٢

(٣) الكشاف: ٣٤٥/٣

(٤) تفسير البيضاوي: ٢٩٨/٢

بين الإيمان والجهاد المؤدي إلى كمال عزهم، والمراد به الأمر، وإنما جيء بلفظ الخبر إذاناً بأن ذلك مما لا يترك^(١).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَرَبَّصُنَّ بِأَنفُسِهِنَّ تَلَقَّهُ فُرُوشُهُ﴾ البقرة: ٢٢٨، قال البيضاوي رحمه الله: ﴿يَرَبَّصُنَّ﴾ خبر بمعنى الأمر، وتغيير العبارة للتأكيد والإشعار بأنه مما يجب أن يسارع إلى امثاله، وكأن المخاطب قصد أن يُمثل الأمر فيخبر عنه كقولك في الدعاء (رحمك الله)، وبناؤه على المبتدأ يزيده فضل تأكيد^(٢).

ومن هنا يتضح أن الأمر إذا جاء بصيغة الخبر كان أبلغ مما لو جاء بصيغة من صيغ الأمر المعروفة، إذ يوحى بذلك بأن المأمور حري به أن يجيب الأمر إلى أمره بسرعة لا تقبل التأخير حتى يغدو وكأنه انتقل من كونه أمراً إلى الخبر الذي حصل ووقع وانتهى في وقت سابق، إذ من المعلوم أن الأمر إنما يكون على وجه يطلب فيه الأمر من المأمور فعل شيء لم يكن قد حصل وقت الطلب، بخلاف الخبر فهو حاصل وقت التكلم إن كان مثبتاً عند الإخبار به.

ومنه أيضاً قوله جل اسمه: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعِيشَيَا وَجِينَ تُظَهِّرُونَ﴾ الروم: ١٨، قال البيضاوي: "إخبار في معنى الأمر بتزييه الله تعالى والثناء عليه في هذه الأوقات التي تظهر فيها قدرته وتتجدد فيها نعمته"^(٣).

٧. النهي:

يأتي الخبر أيضاً في القرآن الكريم لغرض النهي، وهو أبلغ من صريح النهي كما يقول البيضاوي رحمه الله، ونرى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَخَذَنَا مِيقَاتَ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ لَا تَقْبُدُونَ إِلَّا اللَّهُ﴾ البقرة: ٨٣، إذ يقول البيضاوي فيها: "إخبار في معنى النهي كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُصَارِكَابِثٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ البقرة: ٢٨٢، وهو أبلغ من صريح النهي لما فيه من إيهام أن المنهي سارع إلى الانتهاء فهو يخبر عنه"^(٤).

(١) تفسير البيضاوي: ٤٠٢/٣.

(٢) تفسير البيضاوي: ١٩٤/١.

(٣) تفسير البيضاوي: ٤٨/٣.

(٤) تفسير البيضاوي: ١١٥/١.

ومن أمثلته أيضاً قوله تعالى: ﴿فَإِنْ رَجَعَكُلَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَغْدُنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِي أَبَدًا وَلَنْ تُفْتَلُوا مَعِي عَدُوًا إِنَّكُمْ رَضِيَشُمْ بِالْقَعْدَةِ أَوْ لَمَرْقَ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَلِيفَينَ﴾ التوبة: ٨٣ قال البيضاوي: (فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِي أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِي عَدُوًا) إخبار في معنى النهي للبالغة^(١).

ومن أشباهه في القرآن ما جاء في قوله تعالى: ﴿الْحَجَّ أَشْهُرٌ مَعْلُومٌ فَمَنْ فَرَّصَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَأَرَفَّ وَلَا فُسُوقَ وَلَا حِدَالَ فِي الْحَجَّ وَمَا نَفَعُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَكَرَوْدُوا فَارَبَ خَيْرَ الْزَادِ الْقَوْيَ وَأَنَّقُونَ يَكْأُلُ الْأَلَبَبِ﴾ البقرة: ١٩٧، قال القاضي البيضاوي رحمه الله: "نفي الثلاثة على قصد النهي للبالغة والدلالة على أنها حقيقة بأن لا تكون"^(٢).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَّأَ﴾ النساء: ٩٢، قال البيضاوي: "قيل: (ما كان) نفي في معنى النهي"^(٣).

والمعنى أنه لا يتصور أن رجلاً مؤمناً يقتل أخيه إلا أن يكون خطأ ويفهم من هذه الآية النهي عن مقاتلة المؤمن وهو أبلغ لما فيه من تنكير كلمة (مؤمن)، وكأنه نفي صفة الإيمان عنه بالكلية إذ من المعلوم أن الإيمان مرتب والإيمان يزيد وينقص كما دل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُبَيَّنَ عَلَيْهِمْ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ الأنفال: ٢.

٨. التحرير:

جاء في تاج العروس: "حرَضَهُ تَحْرِيضاً: حَثَّهُ عَلَى الْقِتَالِ وَاحْمَاهُ عَلَيْهِ، كَمَا فِي الصَّاحِحِ وَقَالَ ابْنُ سَيِّدِهِ: التَّحْرِيظُ: التَّحْضِيظُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْلِمُهَا أَلَّمِي حَرَضُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ الأنفال: ٦٥. وَقَالَ الزَّجَاجُ: تَأْوِيلُهُ: حُثِّمُهُ عَلَى الْقِتَالِ قَالَ: وَتَأْوِيلُ التَّحْرِيظِ فِي الْلُّغَةِ أَنَّ تَحْثُّ إِلَيْهِ الْإِنْسَانَ حَتَّى يَعْلَمُ مِنْهُ أَنَّهُ حَارِضٌ إِنْ تَحَذَّفَ عَنْهُ^(٤)".

يتبين من التعريف اللغوي للتحريض أنه بمعنى الحث والتحضيض والترغيب، ونرى أن البيضاوي في تفسيره قد أخرج أخباراً على أنها بغرض التحرير وأخرى بغرض التحضيض وثالثة

(١) تفسير البيضاوي: ٧٠/٢.

(٢) تفسير البيضاوي: ١٧٧/١.

(٣) تفسير البيضاوي: ٣٧٩/١.

(٤) تاج العروس (حرض): الزبيدي، مجموعة محققو، ٢٩٠/١٨، دار الهدایة.

بغرض الحث ورابعة بغرض الترغيب، وجميعها بنفس المعنى تقريباً، لذلك وضعنا هذه المعاني تحت غرض واحد.

ويأتي الخبر بغرض التحريض، كما قد جاء في سورة آل عمران في الآيات التي أنزلتها الله عقب غزوة أحد عندما شاع أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قتل، قال الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفِيسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ كَيْنَبَا مُوجَّلًا وَمَنْ يُرِدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ وَمَنْ هُنَّا وَمَنْ يُرِدُ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَتَجِرِي الشَّكِينَ﴾ آل عمران: ١٤٥، قال البيضاوي: "وفيه تحريض وتشجيع على القتال، ووعد للرسول صلى الله عليه وسلم بالحفظ وتأخير الأجل" (١).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿رَبِّنَا لِلنَّاسِ حُبُّ الْشَّهَوَاتِ مِنْ أَلْسُنَهُ وَأَبْيَنَ وَأَقْنَطَرَ أَلْمُقْنَطَرَةَ مِنْ الْدَّهَبِ وَالْفَضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْكَمِ وَالْحَرْثِ دَلِيلُ مَتَّكِعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَعَابِ﴾ آل عمران: ١٤، قال البيضاوي: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَعَابِ﴾ أي المرجع، وهو تحريض على استبدال ما عنده من اللذات الحقيقة الأبدية بالشهوات المخدجة الفانية (٢).

ومما جاء في تفسير البيضاوي من الأخبار بغرض التحضيض قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمْ أَرَيَتَنِي وَالْأَجْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِنْدَمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْنَ لِئَسْ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ المائدة: ٦٣، قال البيضاوي: "تحضيض لعلمائهم على النهي عن ذلك فإن لولا إذا دخل على الماضي أفاد التوبيخ وإذا دخل على المستقبل أفاد التحضيض" (٣).

ويأتي الخبر بغرض الحث كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ بُدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا﴾ النساء: ١٤٩، قال البيضاوي: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَادِيرًا﴾ : أي يكثر العفو عن العصاة مع كمال قدرته على الانتقام، فأنتم أولى بذلك، وهو حث للمظلوم على العفو، بعدما رخص له في الانتظار حملاً على مكارم الأخلاق (٤).

وقد أشار البيضاوي إلى خبر غرضه الترغيب، في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّنَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشَّهَادَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسَنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾

(١) تفسير البيضاوي: ٣٠١/١.

(٢) تفسير البيضاوي: ٢٤٨/١.

(٣) تفسير البيضاوي: ٤٤٩/١.

(٤) تفسير البيضاوي: ٤٠٥/١.

النساء: ٦٩، قال البيضاوي: ﴿وَمَنْ يُطِعَ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ مزيد ترغيب في الطاعة بالوعد عليها مrafقة أكرم الخلق وأعظمهم قدرًا^(١).

٩. التسلية:

جاء في لسان العرب: "سَلَانِي مِنْ هَمِي تَسْلِيَةً وَأَسْلَانِي: أَيْ كَشَفَهُ عَنِي، وَأَسْلَى عَنِ الْهَمِّ وَتَسَلَّى يَعْنَى أَيْ اكْشَفَ، وَقَالَ أَبُو زِيدٍ: مَعْنَى سَلَوتُ إِذَا نَسِيَ ذِكْرَهُ وَذَهَلَ عَنْهُ"^(٢)

يفهم مما جاء في لسان العرب أن معنى التسلية هي إزالة الهم وكشفه عن الإنسان، وقد جاءت أخبار كثيرة في القرآن الكريم على هذا المعنى، فمنه قوله جل ذكره: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَسْتَعِينُ بِاللَّهِ وَأَصِرْرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعِنْقَةُ لِلْمُتَقِينَ﴾ الأعراف: ١٢٨، قال القاضي رحمه الله: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَسْتَعِينُ بِاللَّهِ وَأَصِرْرُوا﴾ لما سمعوا قول فرعون وتضجروا منه تسكيناً لهم ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعِنْقَةُ لِلْمُتَقِينَ﴾ تسلية لهم وتغیر للأمر بالاستعانة بالله والتثبت في الأمر^(٣).

فعندما يعلم المؤمن أن الأرض كلها بمن عليها هي لله يتصرف بها كيف يشاء يعز من يشاء ويدل من يشاء وأن من يعادونه هم خلق الله قادر على إهلاكهم وقتاما شاء تسكن نفسه وتطمئن ويهدون عليه كل ما يلقي في سبيل دينه.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِبَتْ رُسُلٌ مِّنْ قَبْلِكَ وَلِلَّهِ تُرْجَحُ الْأُمُورُ﴾ فاطر: ٤، قال البيضاوي: ﴿وَلَمْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِبَتْ رُسُلٌ مِّنْ قَبْلِكَ﴾ أي فتأس بهم في الصبر على تكذيبهم... وتنكير رسل للتعظيم المقتضي زيادة التسلية والتحت على المصايرة^(٤).

(١) تفسير البيضاوي: ٣٦٩/١

(٢) لسان العرب (سلا): ٢٠٨٥/٣

(٣) تفسير البيضاوي: ٥٦٦/١

(٤) تفسير البيضاوي: ١١٥/٣

١٠. التعجب:

العجبُ والعجبُ: إنكار ما يرُدُّ عليك لقلة اعتماده... قال الزجاج: أصل العجب في اللغة أن الإنسان إذا رأى ما ينكره ويقول مثله قال: قد عجبت من هذا... قال ابن الأعرابي: العجب النظر إلى شيء غير مألوف ولا معتاد^(١).

وقد وردت مادة (عجب) في القرآن الكريم، فقال الله تعالى: ﴿أَوْعَجَتُمْ أَنْ جَاءَكُنْدُكُرُّ مِنْ رَّيْكُرُ عَلَىٰ يَعْلَمُ مَنْكُرٍ لِّيُذَرَّكُمْ وَلَنَفَّوْا وَلَعَلَّكُمْ تَرْمَوْنَ﴾ الأعراف: ٦٣، فقال ابن عاشور في تفسير هذه الآية: "حقيقة العجب أنه انفعال نفسي يحصل عند إدراك شيء غير مألوف، وقد يكون العجب مشوباً بإنكار الشيء المتعجب منه واستبعاده وإحالته"^(٢).

إذن يتبيّن مما سبق أن التعجب إنكار لشيء غير معتمد وغير مألوف. وهناك صيغتان تستخدمان للتعجب، الأولى: (ما أفعله)، والثانية: (أفعل به)، لكن قد يأتي الخبر بغير التعبّب، وهو كثير في القرآن الكريم.

فمنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ تَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بَهْتَنَ عَظِيمٌ﴾ النور: ١٦، قال البيضاوي: ﴿سُبْحَنَكَ﴾: تعجب من ذلك الإفك، أو من يقول ذلك، وأصله أن يُنكر عند كل متعجب، أو تزييها الله تعالى من أن يصعب عليه مثله، ثم كثُر فاستعمل لك متعجب^(٣).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ أَبْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَعِّفُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلِ قَاتَلُهُمُ اللَّهُ أَفَلَا يَرَوْنَ كُوْنَ﴾ التوبة: ٣٠، قال البيضاوي: ﴿قَاتَلُهُمُ اللَّهُ﴾ دعاء عليهم بالإهلاك، فإن من قاتله الله هلك، أو تعجب من شناعة قولهم^(٤).

(١) لسان العرب (عجب): ٢٨١١/٤ بتصريف.

(٢) التحرير والتوكير: محمد الطاهر بن عاشور، ١٩٥/٨، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤ـهـ.

(٣) تفسير البيضاوي: ٤٨٩/٢

(٤) تفسير البيضاوي: ٤٩/٢

ونظير هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْلَكَاهُمُ الَّذِينَ أَفْسَدُوا بِاللَّهِ جَهَدَ أَيْمَنَهُمْ إِنَّهُمْ لَعُكْمٌ حِيطَتْ أَعْنَالُهُمْ فَأَصْبَحُوهُ خَسِيرِينَ﴾ المائدة: ٥٣، قال البيضاوي: وفيه معنى التعجب، كأنه قيل: ما أحبط أعمالهم بما أخسرهم^(١).

١١. الاستهزاء:

الهُزُءُ والهُرُوكُ: السُّخْرِيَّةُ، هُزِئَ بِهِ وَمِنْهُ. وَاسْتَهْزَأَ بِهِ سَخَّرَ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾١٤ ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَسْتَدِمُ فِي طَغْيَانِهِمْ يَعْمَلُونَ﴾ البقرة: ١٤ - ١٥^(٢).

ومن الأخبار التي جاءت في القرآن الكريم على جهة الاستهزاء قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنَّا لَرَدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴾١٠ ﴿إِذَا كُنَّا عَظِيمًا نَخْرُجُ ﴾١١ ﴿فَالْوَاقِلَكَ إِذَا كَرَهَ خَاسِرٌ﴾ النازعات: ١٠ - ١٢، قال البيضاوي: ﴿فَالْوَاقِلَكَ إِذَا كَرَهَ خَاسِرٌ﴾ ذات خسران أو خاسر أصحابها، والمعنى أنها إن صحت فنحن إذا خاسرون لتكذيبنا بها وهو استهزاء منهم^(٣).

ونظيره أيضاً قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ مُلْبِيًّا وَرَبِّنَا تَأْتِنَّا كُمْ عَلَيْهِ الْغَيْبِ لَا يَعْزِزُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ سبا: ٣، قال البيضاوي: (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة) إنكار لمجيئها أو استبطاء استهزاء بالوعد به^(٤).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدَنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَقْوَةٍ وَلَا ظَهْنَةٍ وَلَا حَرَمَةٍ مَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَ الرَّسُولِ إِلَّا أَبْلَغَ الْمُبِينَ ﴾٢٥﴾ النحل: ٣٥ ، قال البيضاوي: إنما قالوا ذلك استهزاء^(٥).

(١) تفسير البيضاوي: ٤٤٣/١.

(٢) لسان العرب (هزأ): ٤٦٥٩/٦.

(٣) تفسير البيضاوي: ٤٩٤/٣.

(٤) تفسير البيضاوي: ١٠٠/٣.

(٥) تفسير البيضااوي: ٢٦٠/٢.

١٢. الفخر:

جاء في الصاحح: **النَّفْخُ**: التعظُّم والتَّكْبُرُ، وقال ابن السَّكِّيْت: فاخَرَتِ الرَّجُل فَفَخَرْتُهُ أَفْخُرُهُ فَخْرًا، إذ كنْتَ أَكْرَمَ مِنْهُ أَبَاً وَأُمَّاً^(١)، وجاء في لسان العرب: **النَّفْخُ** ادعاء العظُّم والكبُر والشرف^(٢).

ويأتي الخبر في معنى **الفخر**، وذلك كقول عمرو بن كلثوم في معلقته الشهيرة:

إذا بلغ الفطام لنا صبي
تخر له الجبار ساجدنا

ومما جاء في التزيل الحكيم على هذا الغرض قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّبِيًّا إِلَّا
قَالَ مُرْتَفُوهَا إِنَّا بِمَا أَرْسَلْتُمْ بِهِ كَفِيرُونَ﴾ سبأ: ٣٤، قال البيضاوي في هذه الآية: تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما مُنِي به من قومه وتخصيص المتعمعين بالتكذيب، لأن الداعي المعظم إليه التكبير والمفاحرة بزخارف الدنيا والانهماك في الشهوات والاستهانة بمن لم يحظ منها، ولذلك ضموا التهكم والمفاحرة إلى التكذيب فقالوا: ﴿إِنَّا بِمَا أَرْسَلْتُمْ بِهِ كَفِيرُونَ﴾^(٣).

١٣. التعليل:

والتعليق أن يأتي الخبر لإظهار العلة والسبب، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهْنُوْ فِي آيَتِ
الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَائِمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْمُونَ كَمَا تَأْمُونَ وَرَجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرَجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا
النَّسَاءٌ: ٤٠﴾، قال البيضاوي في معنى الآية: "إِلزام لهم وتقريع على التوانى فيه بأن ضرر القتال دائرة بين الفريقين غير مختص بهم وهم يرجون من الله بسببه من إظهار الدين واستحقاق الثروات ما لا يرجو عدوهم فينبغي أن يكونوا أرغب منهم في الحرب وأصبر عليها. وقرئ أن تكونوا بالفتح، بمعنى: ولا تهنو لأن تكونوا تائمون، ويكون قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْمُونَ كَمَا تَأْمُونَ﴾ علة للنبي عن الوهن لأجله"^(٤).

وكان الخبر في ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْمُونَ كَمَا تَأْمُونَ﴾ جواب لسؤال سائل: لماذا تتهاانا يا رب عن الوهن والضعف ونحن نقاتل أعداءنا؟

(١) الصاحح (فخر): ٣٤٣/٣

(٢) لسان العرب (فخر): ٤٩/٥

(٣) تفسير البيضاوي: ١٠٩/٣

(٤) تفسير البيضاوي: ٣٨٨/١

ونظيره أيضاً قوله تعالى: ﴿فِيمَا نَقْضَيْهُمْ لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَدِيسَةً يَحْرِفُونَ الْكَلِمَ عن مَوَاضِعِهِ، وَسُوَا حَطَا مَمَا ذَكَرُوا بِهِ، وَلَا نَرَأُ نَطَّلُعَ عَلَى حَاسِنَتِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ المائدة: ١٣ ، قال البيضاوي رحمه الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل للأمر بالصفح وحث عليه وتنبيه على أن العفو عن الكافر الخائن إحسان فضلاً عن العفو عن غيره^(١).

ومن الأخبار التي جاءت في القرآن على جهة التعليل أيضاً قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْسَلَحَ الْأَشْهُرُ لِلْعُرُمِ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدُوكُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدوْهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكُوْةَ فَخَلُوْا سَيِّلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ التوبة: ٥ ، أمر الله المسلمين أن يخلوا سبيل المشركين وذلك إذا تابوا وأقاموا الصلاة ثم استأنف أمره لهم (فَخَلُوْا سَيِّلَهُمْ) بجملة أخرى وهي (إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) وفي هذا يقول البيضاوي رحمه الله: "تعليل للأمر أي فخلوهم لأن الله غفور رحيم خفر لهم ما قد سلف وعدلهم الثواب بالتوبة"^(٢).

فالأخبار إذا جاءت بعد أمر أو نهي تكون للتعليل.

١٤. المدح:

المدح من مدح يمدح: أحسن الثناء عليه^(٣) ، وهو نقىض الهجاء ، والمدح حسن الثناء^(٤) .

ومما جاء من الأخبار على غرض المدح قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ مَا يَرِيدُتُ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأَخْرُ مُشْكِنِهِمْ فَلَمَّا دَرَأْنَا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَبَغْ فَيَتَبَعُونَ مَا تَشَبَّهُ مِنْهُ أَبْتِغَاهُ أَبْتِغَاهُ تَأْوِيلَهُ، وَمَا يَسْكُنُهُمْ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأَخْرُ مُشْكِنِهِمْ فَلَمَّا دَرَأْنَا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَبَغْ فَيَتَبَعُونَ مَا تَشَبَّهُ مِنْهُ أَبْتِغَاهُ أَبْتِغَاهُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَآتَى سُحُونَ فِي الْمَلَمِ يَقُولُونَ إِنَّا مَنَّا بِهِ، كُلُّ مَنْ عَنْدَ رَبِّنَا وَمَا يَذَكُرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ آل عمران: ٧ ، قال البيضاوي: (وَمَا يَذَكُرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ) مدح للراسخين بجودة الذهن وحسن النظر وإشارة إلى ما استعدوا به للاهتداء إلى تأويله ، وهو تجرد العقل عن غواشي الحس^(٥) .

(١) تفسير البيضاوي: ٤٢٦/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٣٨/٢

(٣) المعجم المفصل في علوم البلاغة: إنعام عكاوي، ص٦٤٢ ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.

(٤) لسان العرب (مدح): ٤١٥٦/٦

(٥) تفسير البيضااوي: ٢٤٤/١

١٥. التوبيخ:

جاء في لسان العرب: "وَبَخَهُ لَامَهُ وَعَذَلَهُ"، وعلى ذلك يكون معنى التوبيخ مخاطبة الغير على جهة اللوم والتخطئة على فعل أو قول قام به^(١).

فمن الأخبار التي جاءت على هذا النحو قوله تعالى: ﴿ هَاتَنْتُمْ أُولَئِكَ بُحْبُونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكَيْدِ لَكُمْ وَإِذَا لَقُوْكُمْ قَاتُوا مَأْمَنًا وَإِذَا خَلَوْا عَصَمُوكُمُ الْأَنَاءِ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْمِنًا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ بِذَاتِ الْأَصْدُورِ ﴾ آل عمران: ١١٩، قال البيضاوي في تفسيره لهذه الآية: "أي أنت أولاء الخاطئون في موالاة الكفار و (بُحْبُونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ) بيان لخطئهم في موالاتهم... و تؤمنون (وَتُؤْمِنُونَ بِالْكَيْدِ لَكُمْ) بجنس الكتاب كله وهو حال من لا يحبونكم والمعنى إنهم لا يحبونكم الحال أنكم تؤمنون بكتابهم أيضا، فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بكتابكم، وفيه توبيخ بأنهم في باطلهم أصلب منكم في حكم"^(٢).

ومن أمثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ جَهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمُ الْعَبَدِرِينَ ﴾ ١٤٢ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمْنَوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴾ آل عمران: ١٤٣، قال البيضاوي: والخطاب للذين لم يشهدوا بدوا وتمموا أن يشهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهدا لينالوا ما نال شهداء بدر من الكرامة فألحوا يوم أحد على الخروج... (فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ) أي فقد رأيتموه معاينين له حين قتل دونكم من قتل من إخوانكم، وهو توبيخ لهم على أنهم تمنوا الحرب وتسببوا لها ثم جبنوا وانهزموا عنها أو على تمني الشهادة فإن في تمنيها تمني غلبة الكفار^(٣).

١٦. التبجح:

والتبجح هو إظهار الفرح والغبطة، فقد جاء في لسان العرب: وَبَجَحَ يَبْجُحُ وَابْتَجَحَ: فَرِحَ، وَبَجَحَهُ: أَفْرَحَه^(٤).

(١) لسان العرب (وبخ): ٤٧٥١/٦.

(٢) تفسير البيضاوي: ٢٩٠/١.

(٣) تفسير البيضاوي: ٣٠١/١.

(٤) لسان العرب (بجح): ٢١٠/١.

ويأتي الخبر أحياناً بغرض إظهار الفرح والغبطة كما في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُولَئِكَ كُلُّهُمْ بِسَيِّدِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمْ أَفْرَءُوا كِتَابِهِ﴾ الحالة: ١٩، قال البيضاوي: فيقول تبجحا هاوم اقرؤوا كتابيه^(١).

فيكون حال المؤمن في ذلك اليوم حال من فاز فوزاً عظيماً فيكون في غاية الفرح والسرور ويoid أن يُظهر هذا الفرح، ويعلم به كل مخلوق فلذلك ينادي ويقول (هاوم اقرءوا كتبته) ^(٢)

ومن الأخبار التي جاء لغرض التبجح أيضاً قوله تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ بَنَاءً إِزْهِيمَ ٦٦ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ٦٧ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَرَ لِمَا عَنِّكُفِينَ ٦٨﴾ الشعراء: ٦٩ - ٧١، قال البيضاوي: قالوا نعبد أصناماً فنظر لما عن الكفين فأطالوا جوابهم بشرح حالهم معه تبجحا به وافتخاراً. والمعنى أنهم سئلوا عما يعبدونه وكان حق الجواب أن يكون على قدر السؤال فيكون (نعبد أصناماً)، لكنهم أطالوا الجواب فقالوا أيضاً: (فنظر لها عاكفين)، وكأنهم فرجون مفتخرون بهذه العبادة^(٣).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةَ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدْنَا رَبَّنَا حَقَّا فَهُمْ وَجَدُّهُمْ مَآ وَعَدَ رَبِّكُمْ حَقًا قَالُوا نَعَمْ فَإِذَا مُؤْذَنٌ بِنَاهِمْ أَنْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ٤﴾ الأعراف: ٤، قال البيضاوي رحمة الله: "إنما قالوه تبجحا بحالهم وشماتة بأصحاب النار وتحسيرا لهم"^(٤). فالمؤمنون أرادوا أن يظهروا مقدار ما هم فيه من السعادة والفرح فلذلك قالوا: ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدْنَا رَبَّنَا حَقًا﴾، وأرادوا الشماتة وتحسیر أصحاب النار فقالوا: ﴿فَهُمْ وَجَدُّهُمْ مَا وَعَدَ رَبِّكُمْ حَقًا﴾.

١٧. التهيئة وتوطين النفس:

يأتي الخبر أيضاً لغرض بلاغي وهو تهيئة المخبر بطريق الخبر بما سيحصل ليستعد للأمر ويوطن نفسه على الصبر والبلاء، وجاء في لسان العرب معنى التوطين في مادة (وطن)، قال ابن منظور^(٤): وَتَوْطِينُ النَّفْسِ عَلَى الشَّيْءِ كَالْتَمَهِيدِ. قال ابن سيده: وَطَنَ نَفْسُهُ عَلَى الشَّيْءِ وَلَهُ فَتَوَطَّنَتْ: حملها عليه فتحملت وذلت له، وقيل: وَطَنَ نَفْسُهُ عَلَى الشَّيْءِ وَلَهُ فَتَوَطَّنَتْ حملها عليه، قال كثيرون:

إذا وُطِّنْتُ يوْمًا لَهَا النَّفْسُ ذَلَّتْ

فُطِّلَتْ لَهَا يَا عَزَّ كُلُّ مُصِيبَةٍ

(١) تفسير البيضاوي: ٤٤١/٣.

(٢) تفسير البيضاوي: ٥٤٣/٢.

(٣) تفسير البيضاوي: ٥٤٤/١.

(٤) لسان العرب (وطن): ٤٨٦٨/٦.

وقد جاءت أخبار في القرآن لغرض التهيئة والتمهيد وتوطين النفس، كما في قوله تعالى:

(وَلَنَبْلُوكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخُوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرُ الْعَصِيرِينَ) البقرة: ١٥٥

البيضاوي: **(وَلَنَبْلُوكُمْ)** ولنصيبنكم إصابة من يختبر لأحوالكم، هل تصبرون على البلاء وتستسلمون للقضاء، **(بِشَيْءٍ مِّنَ الْخُوفِ وَالْجُوعِ)** بقليل من ذلك... وإنما أخبرهم به قبل وقوعه ليوطّنوا عليه نفوسهم^(١).

وفائدة مثل هذه الأخبار التي تأتي للتهيئة وتوطين النفس أن يجعل المخبر المخبر على علم بما سيحصل حتى يأخذ الأبهة ويستعد لذلك كما هو الحال في الآية السابقة فإن الله أخبرهم بأن الابلاء لاحق بهم، حتى يصبروا ويجهزوا أنفسهم لهذا الأمر، فإن المصائب أو الابلاءات يتلقاها الإنسان المؤمن بالصبر والاحتساب إذا تهيأ لها وعلم أنها من الله ليتحمّل إيمانه ويري صدقه وإخلاصه،عكس الذي لم يوطّن نفسه على الصبر والاحتساب فتجده متسلطاً غاضباً معتراضاً على تقديرات الله وابتلائه، مع أن المصيبة واقعة واقعة رضي بها أم لم يرض، وكما جاء في الحديث: "عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير إن أصابته ضراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له."

وقد علق ابن عاشور في تفسيره التحرير والتتوير على الآية السابقة تعليقاً بليغاً جميلاً يحسن إيراده فيقول: "وجيء بكلمة (شيء) تهوناً للخبر المفجع ، وإشارة إلى الفرق بين هذا الابلاء وبين الجوع والخوف اللذين سلطهما الله على بعض الأمم عقوبة، كما في قوله : **(فَإِذَا قَدَّهَا اللَّهُ لِيَسَرَ الْجُوعُ وَالْخَوْفُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) النحل: ١١٢** ، ولذلك جاء هنا بكلمة (شيء) وجاء هنالك بما يدل على الملasseة والتمكن ، وهو أن استعار لها اللباس الملائم للملابس ، لأن كلمة (شيء) من أسماء الأجناس العالية العامة ، فإذا أضيفت إلى اسم جنس أو بنيت به ، علم أن المتكلم ما زاد كلمة (شيء) قبل اسم ذلك الجنس إلا لقصد التقليل؛ لأن الاقتصر على اسم الجنس الذي ذكره المتكلم بعدها لو شاء المتكلم لأغنى غناءها ، فما ذكر كلمة شيء إلا والقصد أن يدل على أن تنكير اسم الجنس ليس للتعظيم ولا للتتويع ، فبقي له الدلالة على التحقيق"^(٢).

(١) تفسير البيضاوي: ١٥١/١.

(٢) التحرير والتتوير: ٥٤/٢.

١٨. الاستدراك:

الاستدراك: رفع ما يتوهم ثبوته، نحو: الكتاب ممزقٌ لكته مفید، أو أن تنسَب لما بعدها حكماً يخالف الحكم الثابت لما قبلها، نحو: الماء عكرٌ لكته طاهرٌ^(١).

ويأتي الخبر حاملاً معنى الاستدراك كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَاتِ رَبِّي وَكَذَّبَتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا قَسْتَعْجُلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَعْلَمُ أَعْلَمُ وَهُوَ خَيْرُ الْفَانِيْلَنَ ﴾^{٥٧} ﴿ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا قَسْتَعْجُلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴾^{٥٨} الأنعام: ٥٧ - ٥٨ ، قال البيضاوي: (قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي) أي في قدرتي ومكنتي. (ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ) من العذاب. (لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) لأهلكتم عاجلاً غضباً لربِّي، وانقطع ما بيني وبينكم (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ) في معنى الاستدراك، كأنه قال: ولكن الأمر إلى الله سبحانه وتعالى وهو أعلم بمن ينبغي أن يؤخذ وبمن ينبغي أن يمهل منهم^(٢).

أضرب الخبر:

للخبر ثلاثة أضرب، وهي: (الابتدائي، والطليبي، والإنكاري)، ويجب على المخبر أن يعرف حال المخاطب عندما يلقى إليه الخبر لأن لكل حال ما يناسبه من أضرب الخبر.

فالخبر الابتدائي: وهو الخبر الذي يكون فيه المخاطب خالي الذهن من الخبر، غير متعدد فيه ولا منكر له، وفي هذه الحال لا يؤكّد له الكلام، لعدم الحاجة إلى التوكيد، نحو قوله تعالى: ﴿ الْمَالُ وَالْبَئُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ الكهف: ٤٦.

والخبر الطليبي: هو الذي يكون المخاطب متراجعاً في الخبر، طالباً الوصول لمعرفته، والوقوف على حقيقته، فيستحسن تأكيد الكلام الملقى إليه تقوية للحكم، ليتمكن من نفسه ويطرح الخلاف وراء ظهره، نحو: (إن الأمير منتصر).

(١) المعجم الوافي في أدوات النحو العربي: علي توفيق الحمد ويوسف الزعبي، ص ٢٨٣، دار الأمل، الأردن، الطبعة الثانية، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م

(٢) تقسيم البيضاوي: ٤٩٥/١.

والخبر الإنكاري: هو أن يكون المخاطب منكراً للخبر الذي يُراد إلقاءه إليه، معتقداً خلافه، فينبغي تأكيد الكلام له بمؤكد، أو مؤكدين أو أكثر، على حسب حاله من الإنكار قوة وضعفاً، نحو: إن أخاك قادم، أو إنه لقادم، أو والله إنه لقادم^(١).

شواهد على أضرب الخبر في تفسير البيضاوي:

وقد أشار الإمام البيضاوي رحمه الله إلى أضرب الخبر هذه عند تعرضه لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ البقرة: ٦.

قال البيضاوي: "و(إن) من الحروف التي تشابه الفعل في عدد الحروف، والبناء على الفتح، ولزوم الأسماء، وإعطاء معانيه والمتعدي خاصة في دخولها على اسمين... وفائتها تأكيد النسبة وتحقيقها، ولذلك يُتلقى بها القسم، ويُصدر بها الأجرة، وتنذر في معرض الشك مثل قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذَكَرًا﴾ إِنَّا مَكَّنَنَا لَهُ فِي الْأَرْضِ الكهف: ٨٣ - ٨٤، ﴿وَقَالَ مُوسَى يَنْفِرُ عَوْنَانِ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الأعراف: ١٠٤، قال المبرد: قولك: (عبد الله قائم) إخبار عن قيامه، (وإن عبد الله قائم) جواب سائل عن قيامه، (وإن عبد الله لقائم) جواب منكر لقيامه^(٢).

فكلام البيضاوي قد نص على عدة أمور في باب الخبر يحسن الوقف علىها وهي:

أولاً: أن (إن) حرف يفيد التوكيد والتحقيق.

ثانياً: أشار البيضاوي إلى استعمال (إن)، ويكون في الخبر الظبي وذلك عندما يكون المخاطب متربداً وهو ما عبر عنه بقوله: (وتنذر في معرض الشك).

ثالثاً: الآية التي استشهد بها البيضاوي على أن (إن) تأتي في معرض الشك، قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَنْفِرُ عَوْنَانِ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الأعراف: ١٠٤، وقد يسأل سائل أيضاً: كيف يصح أن يكون هذا الخبر مساقاً في معرض الشك، وفرعون كان منكراً تمام الإنكار لما جاء به موسى عليه السلام، بل كان يدعى أنه هو الإله لا غير، كما حكى الله عز وجل لنا، فقال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ القصص: ٣٨.

(١) انظر: جواهر البلاغة: ٥٨-٥٧

(٢) تفسير البيضاوي: ١/٣٩.

وقد يكون الجواب أيضاً: أن قول موسى عليه السلام لم يكن موجهاً لفرعون فقط، بل كان موجهاً لفرعون وملاهه، وكذلك بنى إسرائيل الذين استعبدتهم فرعون، والدليل على ذلك أن هذه الآية **(وَقَالَ مُوسَى يَنْفِرُ عَوْنَٰ مِنْ رَّبِّ الْعَالَمِينَ)** قد سبقت بقوله تعالى: **(إِنَّمَا بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُّوسَىٰ)** **(يَأَتَيْنَا إِلَيْنَا فِرْعَوْنَ وَمَلِئَةِ فَنَظَرَ كَيْفَ كَانَ عَنْقِيَّةُ الْمُغَسِّدِينَ)** **(الأعراف: ١٠٣)**، وأتبعت بقوله تعالى: **(حَقِيقٌ عَلَّاهُ أَنَّ لَا أَقُولُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْنَكُمْ بِيَتْنَاهُ مِنْ رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَقِيَّةَ إِسْرَائِيلَ)** **(الأعراف: ١٠٥)**، فالخطاب وإن كان موجهاً لفرعون فالرسالة لمن تحته من الناس سواء من ملأه أو من بنى إسرائيل المستعبدين بدليل قوله: **(قَدْ جِئْنَكُمْ بِيَتْنَاهُ)**.

ومن المعلوم أن بنى إسرائيل كانوا متربدين في اللحاق بموسى عليه السلام خوفاً من بطش فرعون كما قال الله عز وجل: **(فَمَآءِمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةُ مِنْ قَوْمِهِ عَلَّاهُ خَوْفٌ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلِئَةِ هُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالِمٌ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لِمِنَ الْمُسَرِّفِينَ)** **(يونس: ٨٣)**، فيكون الخطاب من موسى وجهاً للمتربيدين منهم ويكون الخبر خبراً طليباً كما قوله الإمام البيضاوي رحمه الله، يطلب فيه موسى عليه السلام من قومه أن ينزعوا عنهم لباس الخوف والتردد بقوله: **(وَقَالَ مُوسَى يَنْفِرُ عَوْنَٰ مِنْ رَّبِّ الْعَالَمِينَ)** **(وَلِيَحْقِّوْهُ مِنْ بَعْدِهِمْ)**، ويلحقوا به مؤمنين بالله عز وجل.

ومما جاء عن الخبر الإنكارى في تفسير البيضاوى ما جاء في قوله تعالى في الحوار الذي دار بين المرسلين وأصحاب القرية في سورة يس فقال الله تعالى: **(وَأَصْرَبْتَ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَبَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمَرْسُلُونَ)** **(إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ أَشْيَانَ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزَنَا بِشَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ)** **(١٦)** **(قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَتَمُّ إِلَّا تَكْذِبُونَ)** **(١٥)** **(قَالُوا رَبُّنَا يَعْمَلُ إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ)** **(١٤)** **(يس: ١٣ - ١٦)** ، قال البيضاوى: **(قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ)** استشهدوا بعلم الله وهو يجري مجرى القسم، وزادوا اللام المؤكدة لأنه جواب عن إنكارهم **(١)**.

ومعنى كلام البيضاوى في قوله: **(وزادوا اللام المؤكدة لأنه جواب عن إنكارهم)**، أن رد الرسل بعد تكذيب أصحاب القرية في المرة الأولى اقتصر على مؤكّد واحد وهو **(إن)** في قوله: **(فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ)** لأنهم كانوا في بداية الدعوة وقد يكون تكذيب أصحاب القرية تكذيب تردد لأن هذه دعوة جديدة لم تتجلى حقائقها ولم تظهر صحتها، ولكن بعد أن ظهر تكذيبهم أنه تكذيب

(١) تفسير البيضاوى: ١٢٩/٣.

إنكار مع سبق إصرار كما يقال، صح أن يؤكّد الخبر لهم بزيادة تناسب إنكارهم فزادوا القسم وزادوا اللام المؤكّدة في قولهم في قوله تعالى: (قَالُوا رَبُّنَا يَعْمَلُ إِنَّا لِإِيمَانِكُمْ لَمُرْسَلُونَ).

توكيد الخبر:

لتوكيد الخبر أدوات كثيرة، وأشهرها: إن، وأن، ولام الابتداء، وأحرف التبيه، والقسم، ونونا التوكيد، والحروف الزائدة (كتفعل واستفعال)، والتكرار، وقد، وأما الشرطية، وإنما، واسمية الجملة، وضمير الفصل، وتقديم الفاعل المعنوي^(١).

وسنأتي على بعض الآيات التي ذكرت فيها مؤكّدات الخبر كما أوردها الإمام الجليل ناصر الدين البيضاوي.

١. القسم:

من أهم طرق التوكيد: القسم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ اللَّهُنَّ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا أَسْأَعَةً قُلْ بَلَى وَرِيقٍ لَتَأْتِنَّكُمْ عَلَيْهِ الْغَيْبِ لَا يَعْزِزُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مَيْنَنِ ﴾^(٢) سبأ: ٣ ، قال البيضاوي: (وزيٰ لتأتِنكم عالم الغيب) تكرير لإيجابه مؤكّداً بالقسم مقرراً لوصف المقسم به بصفات تقرر إمكانه واستبعاده^(٢).

٢. كلمة (سوف):

من طرق توكيد الخبر: (سوف)، وقد أشار البيضاوي لها عند تعرّضه لقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَمْ يُفْرِغُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتَيْهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾^(٣) النساء: ١٥٢ ، قال البيضاوي: (أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتَيْهِمْ أُجُورَهُمْ) الموعودة لهم، وتصديره بسوف لتأكيد الوعد، والدلالة على أنه كائن لا محالة وإن تأخر^(٤).

٣. (السين):

ومنه أيضاً: (السين)، كما في قوله تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أُولَاءِ بَعْضٌ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَايُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقْسِمُونَ الصَّالِحَةَ وَيَنْهَاكُنَّ الْرُّكْوَةَ وَيُطْبِعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيِّدُهُمْ هُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾^(٥) التوبة: ٧١ ، قال البيضاوي رحمه الله: (أُولَئِكَ سَيِّدُهُمْ هُمُ اللَّهُ لَا محالة، فإن السين مؤكدة للوقوع^(٦))

(١) جواهر البلاغة: ٥٨

(٢) تفسير البيضاوي: ١٠٠/٣

(٣) تفسير البيضاوي: ٤٠٥/١

(٤) تفسير البيضاوي: ٦٤/٢

٤. (قد):

ومن طرق توکید الخبر أيضاً (قد)، فقال البيضاوي في قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّكَ لِلَّهِ مَا فِي
الْأَسْمَاءِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ وَبِمَا يَرَهُونَ إِنَّهُ فَيَعْلَمُهُمْ بِمَا عَيْلُوا وَاللَّهُ يُعْلِمُ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلِيمٌ﴾ (٦٦) النور: ٦٤، وإنما أكد علمه بقد لتأكيد الوعيد^(١).

٥. (التكرار):

ومن طرق التوكيد: التكرار، وقد يكون بتكرار مادة الكلمة بصيغ أخرى كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّتَ بَهْرَى مِنْ تَحْنِنَاهَا الْأَنْهَرُ خَلَلِينَ فِيهَا أَبْدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ
وَنُدْخِلُهُمْ ظَلَالًا ظَلِيلًا﴾ (٥٧) النساء: ٥٧، قال البيضاوي: لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظَلَالًا ظَلِيلًا ، فَيُنَانَنا
لا جوب فيه، ودائماً لا تنسخه الشمس، وهو إشارة إلى النعمة التامة الدائمة. والظليل صفة مشتقة
من الظل لتأكيده كقولهم: شمس شامس، وليل ليل، ويوم أيام^(٢).

٦. (الجملة الإسمية):

ومن طرق التوكيد: الجملة الإسمية، كما في قوله تعالى: ﴿فِيهِ مَا يَنْتَظِي بَيْنَتَ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ
دَخَلَهُ كَانَ مَأْمَنًا وَلَمَّا عَلَى الْأَنَاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مِنْ أَسْطَاعُهُ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ عَنِ الْمُعْلَمِينَ﴾ (٦٧) آل
عمران: ٩٧، قال البيضاوي رحمه الله: وقد أكد أمر الحج في هذه الآية من وجوه: الدلالة على
وجوبه بصيغة الخبر، وإبرازه في الصورة الاسمية، وإيراده على وجه يفيد أنه حق واجب الله تعالى
في رقب الناس، وتعظيم الحكم أولاً ثم تخصيصه ثانياً فإنه كايضاح بعد إبهام، وتثنية وتكرار
للمراد^(٣).

٧. حروف التنبيه:

ومن مؤكّدات الخبر أيضاً: حروف التنبيه، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ
الثُّجُورِ﴾ (٧٦) الواقعة: ٧٦، قال البيضاوي: فَلَا أُقْسِمُ إذ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم،
أو فأقسم ولا مزيدة لتأكيد^(٤).

(١) تفسير البيضاوي: ٥١١/٢

(٢) تفسير البيضاوي: ٣٦٤/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٢٨١/١

(٤) تفسير البيضاوي: ٣٦٧/٣

٨. ضمير الفصل:

ومن طرق التوكيد أيضاً ضمير الفصل، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴾^(١) ﴿ وَلَنَا لَنَحْنُ الصَّاغُونَ ﴾^(٢) ﴿ وَلَنَا لَنَحْنُ الْمُسَيْحُونَ ﴾^(٣) الصافات: ١٦٤ - ١٦٦، قال البيضاوي: وَمَا مِنْ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ حكاية اعتراف الملائكة بالعبودية للرد على عبادتهم والمعنى وما من أحد إلا له مقام معلوم في المعرفة والعبادة والانتهاء إلى أمر الله في تدبير العالم... وَلَنَا لَنَحْنُ الصَّاغُونَ في أداء الطاعة ومنازل الخدمة وَلَنَا لَنَحْنُ الْمُسَيْحُونَ المنزهون الله عما لا يليق به ولعل الأول إشارة إلى درجاتهم في الطاعة وهذا في المعرفة، وما في إن واللام وتوسيط الفصل من التأكيد والاختصاص لأنهم المواطنون على ذلك دائماً من غير فترة دون غيرهم^(٤).

٩. الباء المؤكدة:

ومن المؤكّدات أيضاً الباء المؤكدة، مثل قوله تعالى في قصة ابني آدم: ﴿ لَيْنَ بَسَطَتْ إِلَيَّ يَدَكَ لِيَقْتَلَنِي مَا أَنَا بِسَاطٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتَلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾^(٥) المائدة: ٢٨، قال البيضاوي: قيل كان هابيل أقوى منه، ولكن تخرج عن قتله واستسلم له خوفاً من الله سبحانه وتعالى؛ لأن الدفع لم يُبح بعد، أو تحريناً لما هو الأفضل، قال صلى الله عليه وسلم: كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل، وإنما قال ما مَا أَنَا بِسَاطٍ في جواب لَيْنَ بَسَطَتْ للتبرير عن هذا الفعل الشنيع رأساً والتحرز من أن يوصف به ويطلق عليه، ولذلك أكد النفي بالباء.^(٦)

١٠. اللام:

ومن مؤكّدات الخبر أيضاً اللام، كما في قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الْقَرَى نَقْصَ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَابِهَا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا يُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَّلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾^(٧) الأعراف: ١٠١، قال البيضاوي: بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ بما كذبوه من قبل الرسل، بل كانوا مستمرين على التكذيب، أو فيما كانوا ليؤمنوا مدة عمرهم بما كذبوا به أولاً حين جاءتهم الرسل، ولم تؤثر فيهم قط دعوتهم المتطاولة والآيات المتتابعة، واللام لتأكيد النفي والدلالة على أنهم ما صلحوا للإيمان لمنافاته لحالهم في التصميم على الكفر والطبع على قلوبهم^(٨).

(١) تفسير البيضاوي: ١٦٢/٣

(٢) تفسير البيضاوي: ٤٣٢/١

(٣) تفسير البيضااوي: ٥٦١/١

المطلب الثاني: الإنشاء

الإنشاء لغة:

جاء في لسان العرب في مادة (نشأ): **وَأَنْشَأَ السَّحَابُ يَمْطُرُ: بَدَا.** **وَأَنْشَأَ دَارًا: بَدَا بِنَاءً هَا.**
وَقَالَ ابْنُ جِنْيٍ فِي تَأْدِيهِ الْأَمْثَالِ عَلَى مَا وُضِعَتْ عَلَيْهِ: يُؤَدَّى ذَلِكَ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ عَلَى صُورَتِهِ
الَّتِي أَنْشَئَ فِي مَبْدِئِهِ عَلَيْهَا، فَاسْتَعْمَلَ الْإِنْشَاءَ فِي الْعَرَضِ الَّذِي هُوَ الْكَلَامُ. **وَأَنْشَأَ يَحْكِي حَدِيثًا:**
جَعَلَ. **وَأَنْشَأَ يَفْعُلُ كَذَا وَيَقُولُ كَذَا: ابْتَدَأَ وَأَقْبَلَ.** **وَفُلَانُ يُنْشِئُ الْأَحَادِيثَ أَيْ يَضْعُهَا.** **قَالَ اللَّيْثُ: أَنْشَأَ**
فُلَانُ حَدِيثًا أَيْ ابْتَدَأَ حَدِيثًا وَرَفَعَهُ^(١).

يشير المعنى اللغوي للإنشاء إلى معنى الابتداء والتكلم، ولذلك استغير هذا المعنى ليدل على مصطلح بلاغي يقابل الخبر وهو الإنشاء.

والإنشاء اصطلاحاً: ما ليس يتحمل صدقاً ولا كذباً^(٢)، وقيل: الكلام الذي لا يتحمل الصدق والكذب لذاته، وذلك لأنه ليس لمدلول لفظه قبل النطق به وجود خارجي يطابقه أو لا يطابقه^(٣)

أقسام الإنشاء:

الإنشاء قسمان: طبلي وغير طبلي، فالطبلي ما يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب، وله خمسة أنواع: الأمر والنهي والاستئهام والنداء والتنبي.

أما الإنشاء غير الطبلي: فهو ما لا يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب وله أنواع منها: صيغ التعجب، والقسم، وصيغ المدح والذم، وصيغ العقود، والرجاء^(٤)

والإنشاء غير الطبلي ليس مما يبحث عنه علماء البلاغة لأن أكثر صيغه في الأصل أخبار نقلت إلى الإنشاء، وإنما المبحوث عنه في علم المعاني هو الإنشاء الطبلي لما يمتاز به من لطائف بلاغية^(٥)

(١) لسان العرب (مادة نشا): ٤٤١٩/٦

(٢) الطراز: ١٦٢/٣

(٣) البلاغة فنونها وأفاناتها علم المعاني: ٩٩

(٤) انظر: الإيضاح: ٥٢/٣، وانظر أيضاً: من بلاغة القرآن: د. محمد ونعمان علوان: ٢٧-٢٩

(٥) جواهر البلاغة: ٧٦

أنواع الإنشاء الطلبية:

أولاً: الأمر:

الأمر لغة: الأمر : مَعْرُوفٌ، نَقِيَصُ النَّهْيٍ^(١). واصطلاحاً فهو: وهو صيغة تستدعي الفعل، أو قول ينبيء عن استدعاء الفعل من جهة الغير على جهة الاستعلاء^(٢)

ونجد في تفسير البيضاوي حديثاً عن التعريف الاصطلاحي للأمر عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيقَاتِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ الرعد: ٢٥، قال البيضاوي رحمة الله: والأمر: هو للقول الطالب للفعل، وقيل مع العلو وقيل مع الاستعلاء^(٣)

صيغ الأمر:

للأمر صيغ أربع هي: فعل الأمر كقوله تعالى: ﴿يَنْبَغِي خُذُ الْكِتَابَ بِفُورٍ﴾ مريم: ١٢، والمضارع المجزوم بلام الأمر كقوله تعالى: ﴿لَيُنْفَقُ ذُو سَعْةٍ مِنْ سَعْيِهِ﴾ الطلاق: ٧، واسم فعل الأمر نحو: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْسَكْتُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾ المائدة: ١٠٥ والمصدر النائب عن فعل الأمر نحو: سعياً في سبيل الخير^(٤)

الأغراض البلاغية للأمر:

يخرج الأمر عن معناه الحقيقي وهو طلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام إلى أغراض بلاغية أخرى، جاء البيضاوي في تفسيره على بعض منها وهي:

١. التهديد:

التهديد لغة: من الوعيد والتخويف^(٥).

وقد جاءت أوامر كثيرة في القرآن الكريم بغرض التهديد والوعيد، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَقُولُ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عِنْقَبَةُ الدَّارِ إِنَّمَا لَا يُنْلِعُ الظَّالِمُونَ﴾ الأنعام: ١٣٥، قال البيضاوي رحمة الله: (قُلْ يَا قَوْمٍ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ) على غاية تمكّنك

(١) لسان العرب (أمر): ٤/٢٧

(٢) الطراز: ٣/١٥٥

(٣) تفسير البيضاوي: ١/٧٨

(٤) جواهر البلاغة: ٦١

(٥) لسان العرب (هدد): ٦٤٦٣١

وأ يستطيعكم... وهو أمر تهديد... والتهديد بصيغة الأمر مبالغة في الوعيد كأن المهدد يريد تعذيبه مجتمعًا عليه فيحمله بالأمر على ما يفضي به، إليه، وتسجيل بأن المهدد لا يتأتى منه إلا الشر كالمامور به الذي لا يقدر أن ينقضي عنه^(١).

والآلية تهديد للكافرين أن يعملا باستقرار طاقتهم من أعمال الكفر والعداوة للنبي صلى الله عليه وسلم، ولدين الإسلام، فإن ما سيلاقونه من العذاب لا يوصف، ولذلك تهددهم الله بالعذاب دون أن يُصرّح به وإنما بطريقة الأمر لأن التلميح أبلغ من التصريح وليدل على أن العذاب المهددين به لا يعلم كنهه إلا الله.

وقد علق ابن عاشور على هذه الآية بقوله: وهو الأمر المستعمل في الإنذار والتهديد، ليتملي لهم في ضلالهم إماء يشعر، في متعارف بالخاطب، بأن المماور به مما يزيد المماور استحقاقاً للعقوبة، واقتراباً منها. أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يناديهم ويهدهم. وأمر أن يبتدىء خطابهم بالنداء للاهتمام بما سيقال لهم، لأن النداء يسترعي إسماع المنادين^(٢)

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَذَرَ الَّذِينَ أَنْجَذَوْا دِينَهُمْ لَعْبًا وَلَهُوا وَغَرَّهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾
الأنعام: ٧٠، قال البيضاوي رحمه الله: والمعنى أعرض عنهم ولا تبال بأفعالهم وأقوالهم، ويجوز أن يكون تهديداً لهم كقوله تعالى: ﴿ ذَرْ فِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَجِيدًا ﴾^(٣) المدثر: ١١.

٢. التعجيز:

جاء في مادة (عجز) في لسان العرب: العجز عدم القدرة، وأعجز شيء عجز عنه والتعجيز التثبيط، وكذلك إذا نسبته إلى العجز، وقال الليث: أعجزني فلان إذا عجزت عن طلبه وإدراكه^(٤).

ويُفهم مما جاء في لسان العرب أن التعجيز هو طلب الأمر من المماور بغرض إظهار عجزه عن تحقيقه.

مما جاء في تفسير البيضاوي من الأمر لغرض التعجيز والتحدي قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَقْرَرَهُ قُلْ فَأَقْرَأْ يُعْشِرِ سُورَ يَسِيلَهُ مُقْتَرَّ يَدِتِ وَأَدْعُوا مِنْ أَسْتَطَعُهُمْ بَنْ دُونَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَدِيقَنَ ﴾^(٥) هود: ١٣،

(١) تفسير البيضاوي: ٥١٩-٥٢٠/١

(٢) التحرير والتوكير: ٨٠/٩

(٣) لسان العرب (عجز): ٤/٢٨١٧

قال البيضاوي: (فَلَمْ يَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ) في البيان وحسن النظم تحداهم أولاً بعشر سور ثم لما عجزوا عنها سهل الأمر عليهم وتحداهم بسورة^(١)

والآية غاية في التحدي والتعجيز، إذ أن كفار قريش زعموا أنه أساطير الأولين وزعموا أن النبي ساحر تارة، وأن النبي شاعر تارة أخرى، وأن هذا القرآن افتراء من النبي صلى الله عليه وسلم، فتحداهم الله عز وجل في مواضع عده في القرآن الكريم، فتحداهم ابتداء أن يأتوا بمثل هذا القرآن فقال: ﴿قُل لَّيْنَ أَجْتَمَعَتِ الْإِلَashِ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ هَذَا الْفُرْقَانُ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ الإسراء: ٨٨ ثم لما ظهر ضعفهم وعجزهم تحداهم الله بأقل من ذلك وهو أن يأتوا بعشر سور مثله فقال: ﴿قُل فَأَتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ﴾ هود: ١٣، ثم حداهم الله أن يأتوا بسورة واحدة مثله فقال: ﴿قُل فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ البقرة: ٢٣، ولذلك فإن عجز كفار قريش كان ظاهراً واضحاً، وكان الله يقلل مقدار الآيات والسور التي طلب من الكفار أن يشابهوها في الفصاحة والنظام والبلاغة، وهذا دليل على بلاغة هذا القرآن وإعجازه وفصاحته، وأنه ليس من كلام البشر.

ونلحظ أن الآية الأخيرة في قوله تعالى: ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ لم يحدد فيها الله عز وجل طول هذه السورة ولم يقل بسورة من طواله أو أواسطه، بل أطلق إطلاقاً، وهذا يُظهر أن العرب الذين قامت الحجة بعجزهم قد استوت قدرتهم أمام طواله وقصاره فلم يعارضوا هذه ولا تلك^(٢)

٣. الخبر:

يأتي الأمر بغرض الإخبار، أي أنه يكون أمراً لفظاً لكنه خبرٌ معنى .

من الأوامر التي جاءت لغرض الخبر في تفسير البيضاوي ما جاء في قوله تعالى: (فَلَيَضْحَكُوا قَيْلًا وَلَيُبَكُّوا كَثِيرًا جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (التوبه: ٨٢) قال البيضاوي: إخبارٌ مما يؤول إليه حالهم في الدنيا والآخرة، أخرجه على صيغة الأمر للدلالة على أنه حتمٌ واجب^(٣)

وقال أبو السعود في هذه الآية: إخبارٌ عن عاجل أمرهم وأجله من الضحك القليل والبكاء الطويل المؤدي إليه أعمالهم السيئة^(٤)

(١) تفسير البيضاوي: ١٢٤/٢

(٢) انظر: النبا العظيم: ١٣٧

(٣) تفسير البيضاوي: ٧٠/٢

(٤) تفسير أبي السعود: ٨٨/٤

ومثال آخر على هذا الغرض ما جاء في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَنْفَقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّنْ يُنْتَهَى مِنْكُمْ ﴾ التوبه: ٥٣، قال البيضاوي: أمر في معنى الخبر، أي لن يتقبل منكم نفقاً لكم أنفقتم طوعاً أو كرها، وفائدة المبالغة في تساوي الإنفاقين في عدم القبول^(١)

٤. الإهانة:

جاء في لسان العرب: الْهُونُ: الخزي. وفي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: ﴿ فَلَا خَذَّلَهُمْ صَبَعَةُ الْعَذَابِ الْمُؤْنَى ﴾ فصلت: ١٧ ، أي ذي الخزي. والْهُونُ، بالضم: الهوان. والْهُونُ والْهُونُ: نقِصُ العِزِّ.. وتهانُ به: استخفَ به، والإسمُ الهوانُ والتهانة. ورجُلٌ فيه مهانة أي ذُلٌّ وَضُعْفٌ... إهانة الاستخفاف بالشيء وإستحقاق^(٢)

يتضح مما جاء في لسان العرب أن معنى الإهانة هو التحقيق والاستخفاف بالغير، وهو نقِصُ العز والإكرام بدليل أن الله عز وجل قال: ﴿ فَإِنَّمَا الْإِنْسَنُ إِذَا مَا أَبْتَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّتْ أَكْرَمَنِي ﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا أَبْتَلَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَنَنِي ﴾ الفجر: ١٥ - ١٦ ، تكون الإهانة في باب الأمر بأن يوقع الآمر على المأمور الإهانة والتحقيق بطريق الأمر.

ومن ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا الَّذِينَ أَسْوَدَتْ مُجْوَهُمْ أَكْفَرُهُمْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ آل عمران: ١٠٦ ، قال البيضاوي رحمه الله: (فذوقوا العذاب) أمر إهانة^(٣)

ونظير الآية السابقة قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَا وَيْدُهُمْ النَّارُ كُلُّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُبَيْدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ السجدة: ٢٠ ، قال البيضاوي رحمه الله: (ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ) إهانة لهم وزيادة في غيظهم^(٤)

(١) تفسير البيضاوي: ٥٨/٢

(٢) لسان العرب (هون): ٤٧٢٤/٦

(٣) تفسير البيضاوي: ٢٨٦/١

(٤) تفسير البيضاوي: ٧٣/٣

٥. الدعاء:

يأتي الأمر أيضاً لغرض بلاغي بداعي بداعي وهو الدعاء، إذ من المعلوم أن الأمر في الأصل طلب الفعل من الأعلى للأدنى على جهة الاستعلاء والإلزام، ولكن إن كان طلب الفعل من الأدنى إلى الأعلى على طريق المسألة فيكون بغرض الدعاء والتصرع والمسألة.

وقد عرَّف القزويني الأمر للدعاء فقال: إذا استعملت في طلب الفعل على سبيل التصرع نحو: ﴿رَبِّنَا أَغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَ﴾ نوح: ٢٨^(١).

من الآيات التي ورد فيها الأمر لغرض الدعاء قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا لَا يَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾٤٥﴾ يونس: ٨٥ - ٨٦ ، قال البيضاوي رحمة الله: وَيَعْنَى بِرَجْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَفِرِينَ من كيدهم ومن شؤم مشاهدتهم، وفي تقديم التوكيل على الدعاء تنبية على أن الداعي ينبغي له أن يتوكل أولاً لتجاب دعوته^(٢).

فيتضح من كلام البيضاوي رحمة الله أن موسى عليه السلام أمر قومه بالتوكيل على الله فقال: ﴿يَقُولُ إِنَّكُمْ مَاءْمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَتَكُلُّوْا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ ثم بعد التوكيل على الله شرع في الدعاء، وقد جاء الدعاء بصيغتين مختلفتين من صيغ الإنشاء، وهي: النهي والأمر، وهما متقاربان من حيث المعنى كما قرر البلاغيون، إذ أن الأمر بالشيء يستلزم النهي عن ضده.

والصيغة الأولى هي النهي في قوله: لَا يَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، والثانية الأمر في قوله: وَيَعْنَى بِرَجْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَفِرِينَ ، فالأمر والنهي هنا بمعنى الدعاء.

ومثال الأمر الذي جاء لغرض الدعاء قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْسَكْنَتَ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمَ رَبَّنَا لِيُقْيِمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَهُ مِنْ أَنَّاسٍ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ إبراهيم: ٣٧ ، قال البيضاوي رحمة الله: لِيُقْيِمُوا الصَّلَاةَ اللام لام كي وهي متعلقة بـ (أنْسَكْنَتَ) أي ما أسكنتم بهدا الوادي الباقي من كل مرتفق ومرتفق إلا لإقامة الصلاة عند بيتك المحرّم... وقيل لام الأمر والمراد هو الدعاء لهم بإقامة الصلاة كأنه طلب منهم الإقامة وسأل من الله تعالى أن يوفّهم لها^(٣).

(١) الإيضاح: ٨٦/٣

(٢) تفسير البيضاوي: ١١٣/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ٢٢٧/٢

٦. الإنفاس والتيسير:

القُنوط: اليأس، وفي التهذيب: اليأس من الخير، وقيل: أشد اليأس من الشيء وفي التنزيل:
 قال ﷺ: قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا أَضَالُونَ ﴿٥٦﴾ الحجر: (١)

فمعنى الإنفاس هو التيسير، ويأتي الأمر بغرض الإنفاس والتيسير وذلك حين يلقى الأمر على المخاطب أو المأمور بغرض إيقاعه في اليأس والقنوط من حصوله على أي خير، كما يفهم من التعريف، وقد جاءت آيات عديدة على هذا الغرض.

منها قوله تعالى: ﴿وَلَذَا مَسَ الْأَنْسَنَ ضُرُّ دُعَارَبَهُ، مُبِينًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَلَهُ، نِعْمَةً مَتَّهُ شَيْءًا مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَبَعْدَ لِلَّهِ أَنَّدَادًا يُبْلِلُ عَنْ سَبِيلِهِ، قُلْ تَمَّتْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾٨﴿ الزمر: ٨ ، قال البيضاوي رحمه الله: أمر تهديد فيه إشعار بأن الكفر نوع شر لا سند له، وإنفاس للكافرين من التمتع في الآخرة (٢)

فالأمر هنا كما أشار البيضاوي جاء لغرض الإنفاس والتيسير وذلك لأن حال الكافر أو المشرك بالله كان بين الإنابة لله في حال الضراء، واتخاذ الشركاء والأئداء مع الله في حال السراء، ويطعن الكافر يوم القيمة أن الحال التي كان عليها في الإنابة لله ستعود عليه بالخير والجزاء الحسن من الله في الآخرة، لذلك جاء الأمر من الله للتيسير وإنفاس ذلك الكافر من الخير، وأنه لن ينال من ذلك شيئاً فقال الله: (قُلْ تَمَّتْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا) بل أنه سيكون من أصحاب النار.

ومثال الأمر لغرض الإنفاس والتيسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي الْأَنَارِ لِخَزْنَةِ جَهَنَّمَ أَدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفُ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴾٩﴿ قَالُوا أَوْلَمْ تَأْتِكُمْ رُسُلُّكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعُوتُمُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾١٠﴿ غافر: ٤٩ - ٥٠ .

قال البيضاوي رحمه الله: (قالوا بلى قالوا فادعوا) فإنما لا نجترئ فيه إذ لم يؤذن لنا في الدعاء لأمثالكم، وفيه إنفاس لهم عن الإجابة (٣).

أي أن خزنة جهنم من الملائكة عندما قالوا للكافرين (فادعوا) كان ذلك بصيغة الأمر بغض إنفاسهم وتيسيرهم من إجابة الدعاء، أي أنه مهما دعوتم فإن الله قد قضى وقدر أنكم

(١) لسان العرب (قطط): ٣٧٥٢/٥

(٢) تفسير البيضاوي: ١٨٣/٣

(٣) تفسير البيضاوي: ٢١٢/٣

ماكثون فيها كما جاء في سورة الزخرف ﴿وَنَادَوْا يَمِّنَالِكَ لِيَقْعُضَ عَيْنَنَا رَبِّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَنِكُثُونَ ﴾^(١)
الزخرف: ٧٧.

٧. الإباحة:

من المعاني البلاعية التي يخرج إليها الأمر الإباحة، "فصيغة الأمر قد تستعمل في غير طلب الفعل استعلاءً، بحسب مناسبة المقام؛ كالإباحة؛ كقولك في مقام الإذن: جالس الحسن أو ابن سيرين"^(٢)

مثال الأمر الذي جاء بغرض الإباحة ما جاء في تفسير قوله تعالى: (وَأَدْنُ فِي النَّاسِ
بِالْحَجَّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ صَارِمٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجَّ عَمِيقٍ لِيَشْهُدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ
فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعُمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ) (الحج:
٢٨-٢٧). قال البيضاوي رحمه الله: (فَكُلُوا مِنْهَا) من لحومها أمر بذلك إباحة وإزاحة لما عليه أهل الجاهلية من التحرج فيه، أو ندباً إلى مواساة الفقراء ومساواتهم، وهذا في المتطوع به دون الواجب^(٣)

ومن الأمر للإباحة قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَدِيقَةُ
الْمَكَذِّبِينَ ﴾^(٤) الأنعام: ١١، قال البيضاوي رحمه الله: (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ الْمَكَذِّبِينَ) كيف أهلتهم الله بعذاب الاستئصال كي تعتبروا، والفرق بينه وبين قوله: ﴿قُلْ
سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا ﴾^(٥) الروم: ٤٢ أن السير ثمة لأجل النظر ولا كذلك ها هنا، ولذلك قيل معناه
إباحة السير للتجارة وغيرها وإيجاب النظر في آثار الهاكلين^(٦).

والمعنى الذي أشار له البيضاوي أن الأمر في (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا) يختلف عن الأمر في (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا)، ووجه ذلك الاختلاف ما أحدثه حرف العطف "ثم"
وهو حرف عطف يفيد التراخي، فقد عطف الله تعالى النظر على السير، أي أن المقصود الأول من الأمر هو إباحة السير في الأرض والتمتع بما أحل الله لنا منها كالتجارة وغيرها، والمقصود الثاني هو الاعتبار بما حصل للأقوام المكذبة برسالات الأنبياء.

(١) الإيضاح: ٨٢/٣

(٢) تفسير البيضاوي: ٤٤٥/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ٤٨١-٤٨٠/١

أما الآية الثانية (**فَلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا**) فقد استخدم الله عز وجل حرف الفاء الذي يفيد السببية، أي أن الله أمرهم بالسير لينظروا إلى عاقبة الذين كذبوا، فهو المقصود الأول والأخير من الأمر، وبهذا يتضح الفرق بين الأمرين.

٨. الندب:

والنَّدْبُ: أَن يَنْدَبَ إِنْسَانٌ قَوْمًا إِلَى أَمْرٍ، أَوْ حَرْبٍ، أَوْ مَعْوِنَةً أَيْ يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، فَيَنْتَدِبُونَ لَهُ أَيْ يُحِبِّيُونَ وَيُسَارِعُونَ. وَنَدْبُ الْقَوْمِ إِلَى الْأَمْرِ يَنْدَبُهُمْ نَدْبًا. دَعَاهُمْ وَحَثَّهُمْ. وَانْتَدَبُوا إِلَيْهِ: أَسْرَعُوا^(١)

ويكون الأمر للنبأ أن يحث الآمر المأمور بطريق الأمر على وجه الاستحباب، وأمثلته كثيرة في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿وَلَا سَعْيَفَ لِلَّذِينَ لَا يَحْدُثُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغَيِّرُهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَنْهَوْنَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَأَثْوَهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي أَتَنَاكُمْ﴾ النور:

٣٣

قال البيضاوي رحمه الله: (**وَأَثْوَهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ**) أمر للموالى كما قبله بأن يبذلوا لهم شيئاً من أموالهم... وقيل ندب لهم إلى الإنفاق عليهم بعد أن يؤدوا ويعتقوا^(٢) فيكون إعطاء المؤمن للمكاتب مالاً بعد المكافحة على وجه الاستحباب والنبأ، وليس عليه إثم إن لم يفعل.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغَنَ أَجْلَهُنَّ فَأَتْسِكُوْهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَّنِي عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ الطلاق: ٢، قال القاضي البيضاوي رحمه الله: (**وَأَشْهِدُوا ذَوَّنِي عَدْلٍ مِنْكُمْ**) على الرجعة أو الفرقة تبرياً عن الريبة وقطعاً للتنازع، وهو ندب كقوله: **وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَأْتُمْ** البقرة: ٢٨٢

٩. التهكم والاستهزاء:

التهكم والاستهزاء في اللغة بمعنى واحد^(٤)، قال ابن معصوم المدنى بأنه: في الاصطلاح أخص منه في اللغة، لأنه في اللغة بمعنى الاستهزاء مطلقاً، وفي الاصطلاح هو الخطاب بلفظ الإجلال في موضع التحذير، والبشرارة في موضع التحذير؛ والوعد في مكان الوعيد، والعذر في موضع اللوم؛ والمدح في معرض السخرية، ونحو ذلك^(٥).

(١) لسان العرب (ندب): ٤٣٨٠/٦

(٢) تفسير البيضاوي: ٤٩٦/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ٤١٥/٣

(٤) انظر: لسان العرب (كم): ٥٢٩/١٢

(٥) أنوار الريبع في أنواع البديع: ٨٥/٢

فالتهكم والاستهزاء بمعاني متقاربة نوعاً معاً، وما جاء من الأمر على هذا الغرض قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (٤٩) الدخان: ، قال البيضاوي رحمه الله: (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) أي وقولوا له ذلك استهزاء به وتقرعوا على ما كان يزعمه.

وقيل إن هذه الآية نزلت في أبي جهل فقد قال الزمخشري: "وروي أن أبو جهل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين جبليها أعز ولا أكرم مني فوا الله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلنا بي شيئاً" (١)

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَلِّلْنَا قِطْنَنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (٥٦) ص: ١٦، قال القاضي البيضاوي رحمه الله: (وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِلْنَا لَنَا قِطْنَنَا) قسطنا من العذاب الذي توعدنا به، أو الجنة التي تعدنا للمؤمنين (قبل يوم الحساب) استعجلوا بذلك استهزاء (٢).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا تَرَنَّا عَلَى عَبْدِنَا فَأُتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مَّثَلِهِ وَأَذْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُثُرُ صَنِيفَنَ﴾ (٣٢) البقرة: ٢٣، قال البيضاوي رحمه الله: اذعوا من دون الله شهداء يشهدون لكم بأن ما أتيتم به مثله... وفي أمرهم أن يستظهروا بالجماد في معارضة القرآن العزيز غاية التبكيت والتهكم بهم (٣).

١٠. التبكيت والتوبية:

والتبكيت: كالترعير والتعنيف... بكنته تبكيتاً إذا قرّعه بالعدل تقرعوا... وبكته بالحجّة أي غلبه. وبكته يبكته بكتاً، وبكته: كلاماً استقبله بما يكره (٤).

وجاء في لسان العرب أيضاً: (وبخه: لامه وعذله)، وعلى ذلك يكون معنى التوبية مخاطبة الغير على جهة اللوم والتخطئة على فعل أو قول قام به (٥).

أما التقرير فقد جاء في لسان العرب: والنقرير التأنيب والتعنيف وقيل هو الإيجاع باللوم وقرع الرجل إذا وبخه وعذله (٦).

(١) الكشاف: ٤٧٧/٥

(٢) تفسير البيضاوي: ١٦٨/٣

(٣) تفسير البيضاوي: ٦٥/١

(٤) لسان العرب (بكت): ٣٣٢/١

(٥) لسان العرب (وبخ): ٤٧٥١/٦

(٦) لسان العرب (قرع): ٣٥٩٦/٥

فيتضح من المعاني اللغوية للتبييت والتوبيخ والتقرير أنها كلها متقاربة في المعنى، وهو التأنيب واستقباله بما يكره وإيقاع اللوم عليه.

ما جاء في كتاب الله من الأوامر لغرض التبييت قوله تعالى: ﴿ وَعَلَمَ إِذَا أَلْأَسْمَاءَ كُلَّهَا عَرَضُوهُمْ عَلَى الْمَلِئَكَةِ فَقَالَ أَنِّيُوْنِي بِأَسْمَاءَ هُؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُ صَدِيقَنَ ﴾٢١﴿ البقرة: ٣١، قال البيضاوي رحمة الله: (فقال أَنِّيُوْنِي بِأَسْمَاءَ هُؤُلَاءِ) تبييت لهم وتتببيه على عجزهم عن أمر الخلافة^(١).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَكَرَ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَّةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُعَيِّنُهُ هَذِهِ أَلَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ أَلَّهُ مِائَةً عَامًا ثُمَّ بَعْدَهُ قَالَ كُمْ لَيْتَ قَالَ لَيْتَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَيْتَ مِائَةً عَامًا فَانظُرْ إِلَيْنِ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَعَهُ وَانظُرْ إِلَيْنِ حِمَارِكَ وَلَا نَجْعَلَكَ مَائِكَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَيْكَ أَعْظَامِكَ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوْهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ أَلَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾٢٢﴿ البقرة: ٢٥٩﴾.

قال القاضي البيضاوي: (قال أَعْلَمُ أَنَّ أَلَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) وقرأ حمزة والكسائي قال أَعْلَمُ على الأمر والأمر مخاطبه، أو هو نفسه خاطبها به على طريق التبييت^(٢)

وكأنَّ الرجل كان يخاطب نفسه ويلومها على سؤالها الذي سأله في البداية أَنَّى يُعَيِّنُهُ هَذِهِ أَلَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا حيث كان سؤاله سؤال إنكار واستبعاد، وبعد أن تبين له ما تبين من قدرة الله عز وجل خاطبها بهذا الخطاب على طريقة الأمر الذي غرضه التبييت والتقرير والتوبيخ.

أمّا ما جاء من الأوامر لغرض التقرير فقوله تعالى: ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمِيعُكُمْ وَالْأُولَئِنَ ﴾٢٣﴿ فإنَّ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكَيْدُونَ ﴾٢٤﴿ المرسلات: ٣٨ - ٣٩، قال البيضاوي رحمة الله: (إِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكَيْدُونَ) تقرير لهم على كيدهم للمؤمنين في الدنيا وإظهار لعجزهم^(٣).

والمعنى أنكم كنتم تکيدون للمؤمنين وتعادوهم في الدنيا وكنتم تتکرون البعث والحساب فيها قد حضر ذلك اليوم، فأمرهم رب العزة أن يکيدوه أمر تبييت وتقرير وتوبيخ على ما فعلوه من كفر بالله واستهزاء بالمؤمنين في الدنيا.

(١) تفسير البيضاوي: ٨٥/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٢٢٢/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٤٨٥/٣

١١. الاستهانة والاستخفاف:

ما جاء في مادة (هون) في لسان العرب: استهان به وتهاون به واستخف به، وفي الحديث: ليس بالجافي ولا المهين، يُروى بفتح الميم وضمها، فالفتح من المَهَانَة والضم من الإهانة الاستخفاف بالشيء والاستحقار والاسم الهوان، وهذا موضعه واستهان به وتهاون به واستحقره^(١).

أما الاستخفاف فقد جاء في لسان العرب: واستخفَّ فُلَانْ بِحَقِّي إِذَا اسْتَهَانَ بِهِ، ومنه ﴿فَاسْتَخَفَ قَوْمًا فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَنَسِيقَنَ﴾ الزخرف: ٤٥ أي حملهم على الخفة والجهل، يقال استخفه عن رأيه واستقره عن رأيه: إذا حمله على الجهل وأزاله عما كان عليه من الصواب، واستخف به وأهانه^(٢).

من كل ما سبق يتضح لنا أن الاستخفاف والاستهانة بمعنى واحد تقريباً، ولو نزلنا المعنى اللغوي للاستخفاف والاستهانة على الأمر، فهو طلب الأمر على جهة الاستحقار، وعدم المبالاة، فكأن المتكلم لا يعبأ بالمخاطب ولا يلقي له بالاً ولا يخافه، فيقول له مثلاً: أفعل ما بدا لك، وكأن المتكلم يُعَذِّبُ المخاطب أحقر وأقل من أن يسبب له ضرراً.

ومما جاء من الأوامر لغرض الاستهانة والاستخفاف في الذكر الحكيم قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَنْمُوسُونَا إِنَّا لَنْ نَدْخُلُهَا أَيْدِي مَا دَامُوا فِيهَا فَأَذَبَتْ أَنَّتِ وَرَبُّكَ فَتَنَاهِلَا إِنَّا هَنَّا قَاعِدُونَ﴾ المائدة: ٢٤، قال البيضاوي رحمه الله: قالوا ذلك استهانة بالله ورسوله وعدم مبالاة بهما^(٣).

فهذه الآية توضح جيله بني إسرائيل وصلفهم وعُتُوهُم حتى مع الأنبياء ومع الله عز وجل، فقد قالوا ما قالوه استهانة بالله واستخفافاً بقدرته، وقد حقق لهم من المعجزات ما لم يحقق لكثير من الأمم التي سبقتهم، من فلق البحر، وإنجائهم من بطش فرعون، وإطعامهم المن والسلوى، وتقضياتهم على كثير من خلق تفضيلاً، إلا أنهم لم يرعوا نعم الله عليهم في هذا كله.

ولم يعلموا ضعفهم وقلة حيلتهم أمام قوة الله عز وجل، والوجه الصحيح أن يكون الاستخفاف والاستهانة من الغير عندما يكون الإنسان على جهة من المَنَعة والقوَّة، ترى كل تهديد ووعيد صغيراً وحيناً فلا يعبأ به، إذ إنه يأوي إلى ركن شديد، فيدفعه ذلك إلى الاستهانة والاستخفاف بأعدائه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في قوم لوط عليه السلام في القرآن الكريم عندما أتاه قومه

(١) لسان العرب (هون): ٤٧٢٤/٦

(٢) لسان العرب (خفف): ١٢١٢/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ٤٣٠/١

يريدون الفاحشة فقال: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بَعْضُ قُوَّةٍ أَوْ أَوْتَ إِلَّا رَكِنٌ شَدِيدٌ﴾ هود: ٨٠، قال النبي صلى الله عليه وسلم كما جاء عند ابن كثير في تفسيره: عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «رحمه الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد - يعني الله عز وجل^(١).

أما نوح عليه السلام فقد تحدى قومه واستهان بما توعدوه به، قال الله حكاية عن نبيه:
 ﴿وَأَنْلَى عَلَيْهِمْ نَبَأً تُوحِّي إِذَا قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُوْمِهِ إِنْ كَانَ كَبَرٌ عَلَيْكُمْ مَقَابِي وَتَذَكِيرِي بِعَائِتَتِ اللَّهِ فَعَلَّ اللَّهُ تَوَكَّلْتُ﴾
 فاجتمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم علىكم غمة ثم أقضوا إلى ولا شفطرون ﴿٧١﴾ يونس: ٧١، قال البيضاوي: (فَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ) والمعنى أمرهم بالغزم أو الاجتماع على قصده والسعى في إهلاكه على أي وجه يمكنهم ثقة بالله وقلة مبالاة بهم^(٢).

١٢. التفویض:

سمّاه بعض العلماء التسلیم، ومما جاء في لسان العرب في مادة (فوض): فوْضٌ إِلَيْهِ الْأَمْرُ صِيرَةً إِلَيْهِ وَجَعَلَهُ الْحَاكِمُ فِيهِ^(٣). وجاء في مادة (سلم) سَلَمَتْ إِلَيْهِ الشَّيْءُ فَتَسْلَمَهُ أَيْ أَخْذَهُ التسلیم بذل الرضا بالحكم^(٤).

إذن يتضح تقارب التقويض والتسليم في المعنى اللغوي، وهذا يظهر وجه إطلاق العلماء التقويض تارة والتسليم تارة أخرى، ومعناه في باب الأمر: أن يأتي الأمر من المتكلم للمخاطب لتوقيله في الأمر وأن راض بما سيفعله.

وقد ذكر هذا الغرض البلاغي ابن فارس في كتابه "الصحابي"، وقال: "ويكون اللفظ أمراً والمعنى تسليم، نحو قوله جل ثناؤه: ﴿فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٌ﴾ طه: ٧٢^(٥)

وَمَا جَاءَ فِي تَفْسِيرِ الْبَيْضَاوِيِّ مِنَ الْأَمْرِ لِغَرْضِ التَّقْوِيْضِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا كَانُوا مَعَهُمْ عَلَى أَمْرٍ جَاءَجُمِيعَ الَّذِينَ يَدْعُونَهُمْ حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوكُمْ لِيَعْصِي سَائِلَيْهِمْ فَأَدْنِ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ بِالْأَعْمَالِ﴾

(١) تفسیر ابن کثیر: ٢٩١/٤

١١٠ / ٢) تفسير البيضاوي:

٣٤٨٥/٥ لسان العرب (فوض): (٣)

٤) لسان العرب (سلم): ٢٠٨٠/٣

(٥) الصاجي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها: ابن فارس الرازي، ص ١٣٩، الناشر محمد علي بيضون، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م

رَجِيمٌ ﴿٦٢﴾ النور : قال البيضاوي: (فَإِنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ) تقويض للأمر إلى رأي الرسول صلى الله عليه وسلم، واستدل به على أن بعض الأحكام مفوضة إلى رأيه^(١).

١٣. التسوية:

ون تكون في مقام يتوهم فيه أن أحد الشيئين أرجح من الآخر^(٢) ف يأتي الأمر ليدل على أن الأمر وعدمه سيان فلا فرق أفعال لم يفعل.

ومثاله قوله تعالى: ﴿أَسْتَغْفِرَ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ يَأْنَثُمْ كَقَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهِدِ الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ التوبة: ٨٠، قال البيضاوي: (استغفر لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ) يريد به التساوي بين الأمرين في عدم الإفادة لهم كما نص عليه بقوله: (إِنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ). روى أن عبد الله بن عبد الله بن أبي وكان من المخلصين سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض أبيه أن يستغفر له، ففعل عليه الصلاة والسلام فنزلت، فقال عليه الصلاة والسلام: لأزيدن على السبعين فنزلت: ﴿سَوَاءٌ عَيْنَهُمْ أَسْتَغْفَرَتْ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهِدِ الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ المنافقون: ٦

ومثاله أيضاً ما جاء في القرآن الكريم بحق المكذبين فيقال لهم يوم القيمة: ﴿أَصْلُوهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَيْنَكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوُنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الطور: ١٦، قال القاضي البيضاوي رحمه الله: (أصلوها فاصبروا أو لا تصبروا) أي ادخلوها على أي وجه شئتم من الصبر وعدمه فإنه لا محيس لكم عنها^(٤)

فالأمر والنهي في هاتين الآيتين جاءا ليدل على التسوية فلا ينفع استغفار النبي للمنافقين أو عدم استغفاره، وكذا لا ينفع صبر الكافرين أو عدم صبرهم في نار جهنم فهم معذبون فيها على كل حال.

(١) تفسير البيضاوي: ٥١٠/٢

(٢) علم المعاني والبيان والبديع، عبد العزيز عتيق: ٧٧

(٣) تفسير البيضاوي: ٦٩/٢

(٤) تفسير البيضاوي: ٣٢٩/٣

ثانياً: النهي:

ومن أنواع الإنشاء الطلبـيـ النـهـيـ، والنـهـيـ من فـعـلـ نـهـيـ يـنـهـيـ نـهـيـاـ وـنـهـاـ، والعـامـةـ تـقـولـ: يـنـهـيـهـ عـنـ الـأـمـرـ: زـجـرـهـ عـنـهـ بـالـفـعـلـ^(١).

وقد قال القزوينـيـ في النـهـيـ اصـطـلاـحـاـ: لـهـ حـرـفـ وـاحـدـ، وـهـ "لـاـ" الـجـازـمـةـ فـيـ نـحـوـ قـوـلـكـ: لـاـ تـقـعـلـ، وـهـ كـالـأـمـرـ فـيـ الـاسـتـعـلـاءـ، وـقـدـ يـسـتـعـمـلـ فـيـ غـيـرـ طـبـ الـكـفـ أـوـ التـرـكـ^(٢).

وقفة بين الأمر والنهي:

من التعـرـيفـ السـابـقـ لـلـنـهـيـ يـلـحـظـ أـنـ النـهـيـ يـشـبـهـ الـأـمـرـ فـيـ أـنـهـمـ يـأـتـيـانـ عـلـىـ وـجـهـ الـاسـتـعـلـاءـ وـالـإـلـزـامـ، وـيـخـلـفـانـ مـنـ حـيـثـ أـنـ الـأـمـرـ يـكـونـ طـبـ لـلـفـعـلـ وـالـثـانـيـ طـبـ لـلـكـفـ عـنـ الـفـعـلـ.

وـهـذـاـ مـاـ قـرـرـهـ الـقـاضـيـ الـبـيـضـاـوـيـ فـيـ تـقـسـيـرـهـ عـنـدـمـاـ قـالـ: إـنـ الـأـمـرـ بـالـشـيـءـ يـسـتـازـمـ النـهـيـ عـنـ ضـدـهـ، أـيـ أـنـ الـكـلـامـ إـذـاـ كـانـ عـلـىـ الـأـمـرـ فـإـنـهـ يـقـهـمـ مـنـهـ وـيـكـونـ مـنـ لـوـازـمـهـ النـهـيـ عـنـ ضـدـهـ، فـلـوـ أـمـرـ الـأـبـ اـبـنـهـ أـنـ: "قـمـ إـلـىـ الـصـلـاـةـ" فـهـوـ فـيـ الـحـقـيقـةـ نـهـيـ عـنـ الـجـلوـسـ وـتـرـكـ الصـلـاـةـ.

لـكـنـ قـدـ يـجـمـعـ أـحـيـانـاـ الـأـمـرـ بـالـشـيـءـ وـالـنـهـيـ عـنـ ضـدـهـ فـيـ خـطـابـ وـاحـدـ، وـيـكـونـ لـذـلـكـ فـضـلـ تـأـكـيدـ الـأـمـرـ وـتـقـرـيرـهـ، لـأـنـهـ وـرـدـ أـوـلـاـ بـطـرـيقـ الـمـنـطـوـقـ ثـمـ بـطـرـيقـ الـمـفـهـومـ.

وـمـثـالـ ذـلـكـ قـوـلـ اللـهـ تـعـالـىـ فـيـ آـيـةـ الـمـدـيـنـةـ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ مَأْمُوا إِذَا دَأَيْنَتْ بِدَيْنِ إِلَيْهِ أَجْبَلُ مُسْكِمَيْ فَأَكْتُبُهُو وَلَيُكْتَبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْمَكْذِلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَمَهُ اللَّهُ فَلَيَكْتُبْ وَلَيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْعَوْنَى وَلَيَكْتُبَ اللَّهُ رَبُّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا﴾ الـبـقـرـةـ: ٢٨٢ـ، قـالـ الـبـيـضـاـوـيـ رـحـمـهـ اللـهـ: (وـلـاـ يـأـبـ كـاتـبـ) وـلـاـ يـمـتـنـعـ أـحـدـ مـنـ الـكـتـابـ. (أـنـ يـكـتـبـ كـمـاـ عـلـمـهـ اللـهـ) مـثـلـ ماـ عـلـمـهـ اللـهـ مـنـ كـتـبـةـ الـوـثـائقـ، أـوـ لـاـ يـأـبـ أـنـ يـنـفـعـ النـاسـ بـكـتـابـتـهـ كـمـاـ نـفـعـهـ اللـهـ بـتـعـلـيمـهـ... (فـلـيـكـتـبـ) تـلـكـ الـكـتـابـةـ الـمـعـلـمـةـ. أـمـرـ بـهـاـ بـعـدـ النـهـيـ عـنـ الـإـبـاءـ عـنـهـ تـأـكـيدـاـ^(٣)

وـمـعـ كـلـ أـوـجـهـ الـاـنـقـاقـ بـيـنـ الـأـمـرـ وـالـنـهـيـ وـالتـقـرـيرـ بـأـنـ الـأـمـرـ بـالـشـيـءـ نـهـيـ عـنـ ضـدـهـ، إـلـاـ أـنـ السـيـاقـ يـوـجـبـ أـنـ تـكـوـنـ الصـيـغـةـ بـالـأـمـرـ أـحـيـانـاـ، وـأـنـ تـكـوـنـ بـالـنـهـيـ أـحـيـانـاـ أـخـرىـ، وـذـلـكـ بـحـسـبـ مـاـ يـكـوـنـ عـلـيـهـ مـقـتـضـىـ الـحـالـ الـذـيـ هـوـ مـقـصـدـ مـهـمـ يـدـورـ فـيـ فـلـكـهـ عـلـمـ الـبـلـاغـةـ.

(١) المعجم المفصل في علوم البلاغة: ٦٦٨

(٢) الإيضاح: ٨٨/٣

(٣) تفسير البيضاوي: ٢٣٤/١

وفيما يخص هذا الموضوع نرى رائعة من روائع البلاغة القرآنية ماثلةً في قوله تعالى:

﴿قُلْ تَعَاوَلَا أَتْلُ مَا حَرَمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنَا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ لِمَلَئِيْتُ مَخْنَتُ زَرْفَقَكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَرَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفَسَ الَّتِي حَرَمَ اللَّهُ أَلَا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَنَعُكُمْ بِهِ لَعْلَكُمْ تَعْقُلُونَ ﴾^(١) الأنعام: ١٥١.

يقول البيضاوي في هذه الآية: (وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) أي وأحسنوا بهما إحساناً وضعه موضع النهي عن الإساءة إليهما للبالغة وللدلالة على أن ترك الإساءة في شأنهما غير كاف بخلاف غيرهما^(٢).

فالآلية واردة لذكر المحرمات التي حرمتها الله عز وجل، وهي آية محكمة جامعة يقول عنها ابن مسعود فيما روي عن داود الأودي عن الشعبي عن علقة عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم التي عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً - إلى قوله - لعلكم تتقنون^(٢).

فالآيات كلها محرمات وجاءت بصيغة النهي، فقد نهى الله عز وجل عن الإشراك به، وعن قتل الأولاد خشية الفقر، وعن إتيان الفواحش والاقتراب منها، وقتل النفس التي حرمت الله، لكن وصية واحدة من تلك الوصايا خرجت من صيغة النهي إلى صيغة الأمر، وهي قوله تعالى: (وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)، إذ من المعلوم أن من صيغ الأمر المصدر النائب عن الفعل، والمعنى: "أحسنوا إليهما إحساناً"، وكان حق النظم كما سبق أن يأتي بالنفي عن الإساءة إلى الوالدين، لكن النهي عن الإساءة إليهما ليس هو مراد الله في الآية، وليس ذلك من البر بهما، وهو غير كاف في حقهما، لذلك كان الأمر بالإحسان أبلغ وأكثر دلالة على مراد الله من وجوب الإحسان في معاملتهما، لأن الإحسان الزيادة في التودد والمعاملة اللطيفة الكريمة التي مهما كانت فلن تُوفي الوالدين حقهما.

الأغراض البلاغية للنهي:

يخرج النهي عن معناه الأصلي وال حقيقي الذي هو طلب كف الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام لأغراض بلاغية عده، منها:

(١) تفسير البيضاوي: ٥٢٦/١

(٢) تفسير ابن كثير: ٣٢٢/٣

١. الدعاء:

يأتي النهي لغرض الدعاء كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبِّنَا إِنَّكَ أَيَّتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَنْوَلًا فِي الْحَيَاةِ الَّذِي رَبَّنَا لِيُضْلِلُوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبِّنَا أَطْسِنَ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَأَشَدَّ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾^(١) يومن: ٨٨، قال البيضاوي رحمه الله: (فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) جواب للدعاء أو دعاء بلفظ النهي^(٢).

ومن الدعاء الذي جاء بصيغة النهي أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَقُولُ إِنْ كُنْتُ أَمَانْتُ بِاللَّهِ فَعَيْنَاهُ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُ مُسْلِمِينَ ﴾^(٣) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلنَّاسِ الظَّالِمِينَ ﴾^(٤) وَخَنَّا بِرَحْمَاتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾^(٥) يومن: ٨٤ - ٨٦، قال القاضي البيضاوي رحمه الله: وفي تقديم التوكل على الدعاء تتبّيه على أن الداعي ينبغي له أن يتوكّل أولاً لتجاب دعوته^(٦).

يقصد أن موسى أمر قومه في البداية أن يتوكّلوا على الله ثم شرع بالدعاء، وجاء الدعاء بصيغتين الأولى بالنهي في قوله: (ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين)، والثانية بالأمر في قوله: (ونجنا برحمتك من القوم الكافرين).

ومن النهي الذي جاء لغرض الدعاء قوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَيْنَاهَا مَا أَكْسَبَتْ رَبِّنَا لَا تُؤْخِذْنَا إِنْ تَسِيَّاً أَوْ أَخْطَأْنَا أَوْ لَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْنَاهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبِّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَأَعْفُ عَنَّا وَأَغْفِرْ لَنَا وَأَرْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾^(٧) البقرة: ٢٨٦، حيث جمعت الآية بين الأمر والنهي معاً بعرض الدعاء، وقد عقب البيضاوي رحمه الله على هذه الآية فقال: "روي أنه عليه الصلاة والسلام لما دعا بهذه الدعوات قيل له عند كل كلمة فعلت"^(٨)، لذلك فقد اشتتمت الآية على ثلاثة نواهٍ غرضها الدعاء.

٢. التهكم والاستهزاء:

من النواهي التي جاءت لغرض التهكم والاستهزاء قوله تعالى: ﴿ وَكُمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا أَخْرَىٰ ﴾^(٩) فَلَمَّا أَحْسَوْنَا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكَفُونَ ﴾^(١٠) لَا تَرْكُضُوْا وَلَا جُوْمَ إِلَى مَا أَتَرْفَقْتُمْ فِيهِ وَمَسَكِنِكُمْ لَتَلَكُمْ شَعْلُونَ ﴾^(١١) الأنبياء: ١١ - ١٣، قال البيضاوي رحمه الله: (فَلَمَّا أَحْسَوْنَا

(١) تفسير البيضاوي: ١١٤/٢

(٢) تفسير البيضاوي: ١١٣/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ٢٤٠/١

بأنسنا) فلما أدركوا شدة عذابنا إدراك المشاهد المحسوس... (إذا هم منها يرتكبون) يهربون مسرعين راكضين دوابهم، أو مشبهين بهم من فرط إسراعهم. (لا ترتكبوا) على إرادة القول أي قيل لهم استهزاء لا تركضوا إما بلسان الحال أو المقال، والقائل ملك أو من ثم من المؤمنين^(١).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَغْبُدُ وَأَرْبَكُ الَّذِي حَكَمَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعِلَّكُمْ تَتَّقَوْنَ﴾^(٢) ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَشًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْجَحَ بِهِ مِنَ الشَّعَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْنَبُوا لِلَّهِ أَنَّدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٣) البقرة: ٢١ - ٢٢، قال القاضي البيضاوي رحمه الله: والمثل المนาوى... من ند يند نوداً: إذا نفر، ونادت الرجل خالفته، خص بالمخالف الممااثل في الذات كما خص المساوى بالممااثل في القدر، وتسمية ما يعبد المشركون من دون الله (أنداداً)، وما زعموا أنها تساويه في ذاته وصفاته ولا أنها تخالفه في أفعاله لأنهم لما تركوا عبادته إلى عبادتها، وسموها آلهة شابهت حالهم حال من يعتقد أنها ذات واجبة بالذات، قادرة على أن تدفع عنهم بأس الله، وتمنحهم ما لم يرد الله بهم من خير، فتهكم بهم وشنع عليهم بأن جعلوا أنداداً لمن يمتنع أن يكون له ند^(٤).

٣. التأديب:

قال ابن منظور في لسان العرب: وأدبه فتاًدَبْ: عَلِمَهُ، وَاسْتَعْمَلَهُ الرَّجَاجُ فِي اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَ: وَهَذَا مَا أَدَبَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ نَبِيًّا، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ... وَفِي الْحَدِيثِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مَأْدِبَةُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ فَتَعْلَمُوا مِنْ مَأْدِبِهِ يَعْنِي مَدْعَاتِهِ^(٥).

يُفهم مما جاء في لسان العرب أن التأديب معناه التعليم، وقد جاء في القرآن الكريم النهي لغرض التأديب، وليس نهايةً على الحقيقة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُنَّ لِشَائِعٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾^(٦) الكهف: ٢٣ - ٢٤، ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَإِذْ كُرِّرَكَ إِذَا نَسِيَتْ وَقُلَّ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّ لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدا﴾^(٧) الكهف: ٢٤، قال البيضاوي رحمه الله: (ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله) نهي تأديب من الله تعالى لنبيه حين قالت اليهود لقريش: سلوه عن الروح وأصحاب الكهف وذي القرنين، فسألوه فقال: «أئتوني غداً أخبركم» ولم يستثن فأبطا عليه الوحي بضعة عشر يوماً حتى شق عليه وكذبه قريش^(٨).

(١) تفسير البيضاوي: ٤١٥/٢

(٢) تفسير البيضاوي: ٦٢/١ - ٦٣/١

(٣) لسان العرب (أدب): ٤٣/١

(٤) تفسير البيضاوي: ٣٣٥/٢

٤. الاعتذار:

العذر الحجة التي يعتذر بها...ولي في هذا الأمر عذرٌ وعدوى ومعذرة: أي خروج من الذنب^(١).

والنهي يأتي غرضه الاعتذار إذا جاء بصيغة النهي وواقع الحال يدل على أنه يطلب فيه المتكلم من المخاطب أن يخرجه من الذنب أو الخطأ وأن لا يلومه عليه، كما جاء على لسان موسى عليه السلام في قصته مع الخضر، قال الله تعالى: ﴿فَالآنَ أَغْلِنْتِي بِمَا سَيِّئْتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عَسِّرًا﴾ الكهف: ٧٣، قال البيضاوي رحمه الله: (قال لا تؤاخذني بما ظلمت) بالذي نسيته أو بشيء نسيته، يعني وصيته بأن لا يعرض عليه أو بنسيناني إياها، وهو اعتذار بالنسبيان أخرج في معرض النهي عن المؤاخذة مع قيام المانع لها^(٢).

٥. التهيئة:

والمراد بالتهيئة والإثارة والتحريض كما جاء في لسان العرب: هاجت الأرض تهيج هياجاً، وهاج الشيء واهتاج وتهيج: ثار^(٣).

والنهي يكون للتهيئة إذا كان يقصد منه التحريض والتشجيع على ترك الفعل المنهي عنه، وأن يداوم المنهي عنه على تركه، أي أنه لا ينهاه، لأنه ليس مقيناً على فعله حالاً، بل يطلب منه الاستمرار في الكف عنه.

ومن النهي الذي جاء لغرض التهيئة قوله تعالى: ﴿فَلَا تَنْعِمْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا أَخْرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ الشعراة: ٢١٣، قال البيضاوي رحمه الله: تهيج لازدياد الإخلاص، ولطف لسائر المكلفين^(٤).

المكلفين^(٤).

فقد نهى الله نبيه والمؤمنين من ورائه عن أن يدعوا مع الله إلها آخر، ليس لأن النبي والمؤمنين يقومون بهذا العمل فيطلب منهم الكف عنه، ولكن نهي يراد به حث المؤمنين وتهييجهم على الازدياد من الإخلاص في العبادة والطاعة والثبات عليها، كما هو الحال في قوله تعالى في باب الأمر: ﴿أَقْدِنَا أَقْرَطَ أَمْسَتَقِمَ﴾ الفاتحة: ٦، فسؤال المؤمن ربـه الهدـية ليس لأنـه غير

(١) لسان العرب (عذر): ٢٨٥٤/٤

(٢) تفسير البيضاوي: ٣٤٨/٢

(٣) لسان العرب (هيج): ٤٧٣٣/٦

(٤) تفسير البيضاوي: ٥٥٥/٢

حاصل له في الوقت الحالي، ولكنه طلب للثبات والدوام على الهدایة، فإن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبهما كيف يشاء، فلذلك كان دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: "يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك".

ومن النهي الذي جاء لغرض التهبيج قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغَى حَكْمًا وَهُوَ أَذْنَى أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِّنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونُنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (١٤) الأنعام: ١٤، قال البيضاوي رحمه الله: (فَلَا تَكُونُنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) في أنهم يعلمون ذلك، أو في أنه منزل لجود أكثرهم وكفرهم به، فيكون من باب التهبيج كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الأنعام: ١٤

٦. التسوية:

يكون في مقام يتوهم فيه أحد الشيئين أرجح من الآخر، فيأتي النهي ليدل على أن الأمر وعدمه سيان فلا فرق أفعى أم لم يفعل.

ومثاله قوله تعالى: ﴿أَسْتَغْفِرَ لَهُمْ أَوْ لَا سْتَغْفِرَ لَهُمْ إِنْ سْتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٨٠) التوبة: ٨٠، قال البيضاوي رحمه الله: (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم) يريد به التساوي بين الأمرين في عدم الإفادة لهم كما نص عليه بقوله: (إِنْ سْتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ) روي أن عبد الله بن عبد الله بن أبيي وكان من المخلصين سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض أبيه أن يستغفر له، ففعل عليه الصلاة والسلام فنزلت، فقال عليه الصلاة والسلام: لأزيدن على السبعين فنزلت: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفِرَتْ لَهُمْ أَمْ لَمْ سْتَغْفِرَ لَهُمْ كَمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٦) المنافقون: ٦

٧. التهديد والوعيد:

ويكون النهي غرضه التهديد عندما يقصد المتكلم أن يخوّف من هو دونه قدرًا ومنزلة، عاقبة القيام ب فعل لا يرضى عنه المتكلم^(٣)، كأن يقول الأب لابنه وقد أذن المؤذن ورأه يلعب: لا تصل، فهو بهذا النهي يتهدده ويتوعده عاقبة عدم ذهابه للصلاة.

(١) تفسير البيضاوي: ٥١٣/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٦٩/١

(٣) علم المعاني والبيان والبديع: عبد العزيز عتيق: ٨٤

ومن النهي الذي جاء لغرض التهديد قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَنْ مَا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَنَعَّصُ فِيهِ الْأَفْصَنُ ﴾^(١) إبراهيم: ٤٢، قال البيضاوي رحمه الله: (ولَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَنَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ) خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، والمراد به تثبيته على ما هو عليه من أنه تعالى مطلع على أحوالهم وأفعالهم لا يخفى عليه خافية، والوعيد بأنه معاقبهم على قليله وكثيره لا محالة، أو لكل من توهם غفلته جهلاً بصفاته واعتاراً بإمهاله. وقيل إنه تسليمة للمظلوم وتهديد للظالم^(٢).

فالنبي وإن كان موجهاً للنبي صلى الله عليه وسلم لكنه تهديد للظالمين، ومن جميل ما قاله الشيخ ابن عاشور في التحرير والتووير على هذه الآية: وصيغة (لا تحسن) ظاهرها نهي عن حساب ذلك. وهذا النهي كناية عن إثبات وتحقيق ضد المنهي عنه في المقام الذي من شأنه أن يثير للناس ظن وقوع المنهي عنه لقوة الأسباب المثيرة لذلك. وذلك أن إمهالهم وتأخير عقوبتهم يشبه حالة الغافل عن أعمالهم، أي تحقق أن الله ليس بغافل، وهو كناية ثانية عن لازم عدم الغفلة وهو المؤاخذة، فهو كناية بمرتبتين، ذلك لأن النهي عن الشيء يأذن بأن المنهي عنه بحيث يتلبس به المخاطب، فنهيه عنه تحذير من التلبس به بقطع النظر عن تقدير تلبس المخاطب بذلك الحساب^(٣).

٨. الأخبار:

يأتي النهي أحياناً حاملاً معنى الخبر، ليؤكده ويتحققه، كما في قوله تعالى: ﴿ لَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا وَيْدُهُمُ النَّارُ وَلَيَسَ الْمَصِيرُ ﴾^(٤) النور: ٥٧، قال البيضاوي رحمه الله: (لَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ) وقرأ ابن عامر ومحمة بالياء على أن الضمير فيه لمحمد صلى الله عليه وسلم... والممعن ولا يحسن الكفار في الأرض أحداً معجزاً لله... (وَمَا وَيْدُهُمُ النَّارُ)
عطف عليه من حيث المعنى كأنه قيل: الذين كفروا ليسوا بمعجزين ومواهيم النار، لأن المقصود من النهي عن الحساب تحقيق نفي الإعجاز^(٥). أي أن الله لا يعجزه أن ينتقم من الذين كفروا، فهو خبرٌ بلفظ النهي.

(١) تفسير البيضاوي: ٢٢٨/٢

(٢) التحرير والتووير: ٢٤٥/١٣

(٣) تفسير البيضاوي: ٥٠٦/٢

٩. الاستهانة والاستخفاف:

كما أن الأمر يأتي لغرض الاستهانة والاستخفاف، ويعني الاستحقار وعدم الخوف من المخاطب، كذلك يأتي النهي لهذا الغرض، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّوْبَعَادِ أَمْثَالُكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلَيَسْتَجِبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَدِيقِنَ﴾ (١٦) ﴿اللَّهُمَّ ارْجُلْ يَتَشَوَّنَ إِلَيْهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبَصِّرُونَ إِلَيْهَا أَمْ لَهُمْ أَذَانٌ يَسْمَعُونَ إِلَيْهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كَيْدُونَ فَلَا تُنْظِرُونَ﴾ (١٧) الأعراف: ١٩٤ - ١٩٥، يقول البيضاوي رحمه الله: (قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ) واستعينوا بهم في عداوتي. (ثُمَّ كَيْدُونَ) فالبالغوا فيما تقدرون عليه من مكر، وهي أنت وشركاؤكم. (فَلَا تُنْظِرُونَ) فلا تمهلون فإني لا أبالي بكم لوثقي على ولایة الله تعالى وحفظه^(١).

فعدم المبالغة هو من باب الاستخفاف والاستهانة والاستحقار من المؤمنين للذين يعبدون غير الله عز وجل، وكذلك للشركاء الذين أشركهم مع الله في العبادة.

١٠. النصح والإرشاد:

وذلك عندما يكون النهي يحمل بين ثناياه معنى من معاني النصح والإرشاد، وذلك لأن المتكلم لا يقصد بهذا النهي أن يلزم المخاطب بما ينهاه عنه وإنما يكون ذلك من باب النصيحة لما يراه المتكلم أنه أفضل وأرشد للمخاطب فإن شاء أخذه وإلا تركه.

ومثاله من القرآن الكريم: ﴿يَبْيَعِيَّ مَادَمَ حُدُوا زِينَتُكُمْ عِنْدَكُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُّوا وَاشْرِبُوا وَلَا شُرْفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسَرِّفِينَ﴾ (٢١) الأعراف: ٣١، قال البيضاوي رحمه الله: (وَكُلُّوا وَاشْرِبُوا) ما طاب لكم. روي: أنبني عامر في أيام حجهم كانوا لا يأكلون الطعام إلا قوتاً ولا يأكلون دسماً يعظمون بذلك حجمهم فهم المسلمون به، فنزلت. (وَلَا شُرْفُوا) بتحريم الحلال، أو بالتعدي إلى الحرام، أو بإفراط الطعام والشره عليه^(٢).

أي أن الله عز وجل قد نهى عن الإسراف في الطعام والشراب، أو الإسراف في التحريم والتشدد في الدين على ما رأه البيضاوي من معنى الآية، وعلى هذا يكون النهي نصيحة وإرشاد، وهذا ما رأه ابن عاشور في هذه الآية إذ يقول: "والإسراف والسرف: تجاوز الكافي من إرضاء النفس بالشيء المشتهي... وهو نهي إرشاد وإصلاح"^(٣).

(١) تفسير البيضاوي: ٥٨٩/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٥٤١/١

(٣) التحرير والتبيير: ١٢٣/٨

١١. المبالغة:

بالغ يبالغ مبالغة وبلغاء إذا اجتهد في الأمر... والمبالغة أن تبلغ في الأمر^(١).

ويكون النهي غرضه المبالغة إذا قام المتكلم فنهى المخاطب عن مقدمات الشيء الذي يريد منه الانتهاء عنه، وكأنه لا يريد منه مباشرة المقدمات فضلاً عن إتيان المنهي عنه نفسه، وهو زيادة في النهي ومبالغة فيه.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ بَخْسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَكُذا وَإِنْ خَفِثَمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يَغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ التوبة: ٢٨، قال البيضاوي رحمه الله: (فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ) لنجاستهم، وإنما نهى عن الاقتراب للمبالغة أو للمنع عن دخول الحرم^(٢).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النَّسْلَكِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْكُمْ سَتَذَكَّرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًا إِلَّا أَنْ تَشْوِلُوا فَلَا تَمْرُوْقًا وَلَا تَقْرِنُوا عَقْدَةَ النِّكَاحِ حَقًّا يَبْلُغُ الْكِتَابُ أَجَاهَهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَأَخْذُرُوهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ البقرة: ٢٣٥، قال البيضاوي رحمه الله: (ولا تعزمو عقدة النكاح) ذكر العزم مبالغة في النهي عن العقد، أي ولا تعزمو عقد عقدة النكاح^(٣).

١٢. الإباحة:

يأتي النهي لغرض الإباحة، وفيه يكون المخاطب على اعتقاد أن الشيء المنهي عنه منوع فيأتي النهي ليدل على إباحته.

وذلك كقوله تعالى على لسان نصحة قارون: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسِ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَلَا حِسْنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَغْنِيَ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ القصص: ٧٧، قال البيضاوي رحمه الله: (وابتغ فيما آتاك الله) من الغنى. (الدار الآخرة) بصرفة

(١) لسان العرب (بلغ): ٣٤٦/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٤٧/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ٢٠٤/١

فإذا يوجبها لك فإن المقصود منه أن يكون وصلة إليها. (ولا تُنس) ولا ترك ترك المنسي. (نصيبك من الدنيا) وهو أن تحصل بها آخرتك وتأخذ منها ما يكفيك^(١).

فقوم قارون -الصالحون منهم- قدّموا له عدة نصائح، فقد نصحوه أن يستخدم أمواله ويسخرها فيما يعود عليه بالنفع ابتداءً، ثم لما خافوا أن يتوجهوا أن هذه النصيحة تحرّم الاستمتاع بالمال فيما أحل الله له، أتبعوها نصيحة أخرى مفادها: لأن لا ينس نصيبه من الدنيا، بأن يحصل منها ما يشاء بما أحل الله له، فيكون النهي في (ولا تنس نصيبك من الدنيا) غرضه الإباحة.

وقال ابن عاشور في هذه الآية: قال مالك: فيرأيي معنى (ولا تنس نصيبك من الدنيا) تعيش وتأكل وتشرب غير مضيق عليك. وقال قتادة: نصيب الدنيا هو الحال كله. وبذلك تكون هذه الآية مثلاً لاستعمال صيغة النهي لمعنى الإباحة^(٢).

١٣. التئيس:

ويكون النهي من المتكلم للمخاطب الذي يهتم بفعل أمر لا يقوى عليه، أو لا نفع له فيه من وجهة نظر المتكلم بغرض إيقاع اليأس في نفسه.

مثاله قوله تعالى: ﴿يَتَأْمِنَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوْا آتِيْمَ إِنَّمَا تُخْزِنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُوْنَ﴾ التحرير: ٧، قال البيضاوي رحمه الله: أي يقال لهم ذلك عند دخولهم النار، والنهي عن الاعتذار لأنه لا عذر لهم أو العذر لا ينفعهم^(٣).

فمهما أتوا بالمعاذير فلا تتفهم وقت إذ، لأنها معاذير كاذبة، فيقال لهم يوم القيمة (لا تعتذروا اليوم) لأنهم يرون في الاعتذار نجاة لهم مما هم فيه من العذاب، فيقال لهم ذلك على سبيل التئيس والإقناط.

ويقول الشوكاني في هذه الآية: أي يقال لهم هذا القول عند إدخالهم النار تأييساً لهم وقطعاً لأطماعهم^(٤).

(١) تفسير البيضاوي: ٢٤/٣

(٢) التحرير والتنوير: ١٧٩/٢٠

(٣) تفسير البيضاوي: ٤٢١/٣

(٤) فتح القدير: ٣٣٧/٥

١٤. التعظيم والتغليظ:

كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بِشِدَّادِ وَنَذِيرًا وَلَا تُنْسَلْ عَنْ أَعْجَبِ الْجَحِيمِ﴾^(١) البقرة: ١١٩، قال البيضاوي رحمه الله: (ولا تُنْسَلْ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ) ما لهم لم يؤمنوا بعد أن بلغت. وقرأ نافع ويعقوب: (لا تَسْأَل)، على أنه نهي للرسول صلى الله عليه وسلم عن السؤال عن حال أبويه. أو تعظيم لعقوبة الكفار كأنها لفظاعتها لا يقدر أن يخبر عنها، أو السامع لا يصبر على استماع خبرها فنهاه عن السؤال^(٢).

وقد علق ابن عاشور على هذه الآية: هو كناية عن فظاعة أحوال المشركين والكافرين حتى إن المتذكر في مصير حاليه ينهى عن الاشتغال بذلك لأنها أحوال لا يحيط بها الوصف ولا يبلغ إلى كنها العقل في فظاعتها وشناعتها، وذلك أن النهي عن السؤال يرد لمعنى تعظيم أمر المسئول عنه نحو قول عائشة: "يصلني أربعاً فلا تسأل عن حسنهم وطولهن"^(٣).

١٥. التثبيط:

جاء في لسان العرب: **تَبَطَّهُ عَنِ الشَّيْءِ تَثْبِطُهُ** إذا شعله عنه. وفي التنزيل العزيز: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ أَئْعَانُهُمْ فَتَبَطَّهُمْ﴾ التوبة: ٤ قال أبو إسحاق: **التَّثْبِطُ رُدُّكُ الْإِنْسَانَ عَنِ الشَّيْءِ يَفْعُلُهُ**، أي كره الله أن يخرجوا معكم فردهم عن الخروج. **وَتَبَطَّهُ عَنِ الشَّيْءِ تَبَطَّهُ وَتَبَطَّهُ**: ريشه وبناته. **وَتَبَطَّهُ عَلَى الْأَمْرِ فَتَبَطَّطُهُ**: وقفه عليه فتوقف^(٤).

ومعنى ذلك أن النهي يأتي لغرض التثبيط إذا كان المتكلم يريد أن يشغل المخاطب أو أن يرده عن عمل هم به، فينهاه بما هم به دفعاً له للكسل والجلوس عما أراد.

وذلك كقول الله عز وجل حكاية لحال المتخلفين القاعدين عن الجهاد: ﴿فَرَحِّ الْمُخَلَّفُونَ إِمَّقْعَدُهُمْ خَلَفَ رَسُولَ اللَّهِ وَكَهُوَا أَنْ يَجْهَدُهُمْ وَأَنْفَسِهِمْ فِي سَيِّلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا نَنْفِرُ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُ حَرَّاً لَّوْ كَانُوا يَفْتَهُونَ﴾^(٥) التوبة: ٨١، قال البيضاوي رحمه الله: (وقالوا لا تنفروا في الحر) أي قال بعضهم لبعض، أو قالوه للمؤمنين تثبيطاً^(٦)

(١) تفسير البيضاوي: ١٣٣/١

(٢) التحرير والتنوير: ٦٩٢/١

(٣) لسان العرب (ثبط): ٢٦٧/٧

(٤) تفسير البيضاوي: ٦٩/٢

١٦. التسلية:

ومعنى التسلية: كشف الهم والغم كما جاء في لسان العرب: وسلامي من همي تسلية وأسلامي أي كشفه عنني^(١).

ويأتي النهي لغرض التسلية، إذا كان المتكلم ينهى المخاطب عن قول أو فعل يوقعه في الحزن، فيكون نهيه عن ذلك تسلية له مما وقع أو سيقع به من الحزن.

وذلك كقول الله عز وجل: ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعَرَةَ لِلَّهِ حَيْثُماً هُوَ أَسْعَيُ الْعَالِمِينَ﴾ يونس: ٦٥ ، قال القاضي البيضاوي: (وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ) إشراكهم وتكذيبهم وتهديدهم. (إِنَّ الْعَرَةَ لِلَّهِ جَمِيعاً) استئناف بمعنى التعليل ويدل عليه القراءة بالفتح كأنه قيل لا تحزن بقولهم ولا تبال بهم لأن الغلبة لله جمِيعاً لا يملك غيره شيئاً منها فهو يقهرهم وينصرك عليهم^(٢).

فغاية النهي هو تسلية النبي صلى الله عليه وسلم مما وقع عليه من أذى الكفار، ووقفهم في وجه دعوته، وقتلهم وتعذيبهم للمؤمنين.

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبْ بِاللَّهِ غَنِيفًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشَخَّصُ فِيهِ الْأَبْصَرُ﴾ إبراهيم: ٤٢ ، قال البيضاوي رحمه الله: وقيل إنه تسلية للمظلوم وتهديه للظلم^(٣)

(١) لسان العرب (سلا): ٣٩٤/١٤

(٢) تفسير البيضاوي: ١٠٨/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ٢٢٨/٢

ثالثاً: الاستفهام:

عَرَفَ الْعُلُوِيُّ الْاسْتِفْهَامَ فَقَالَ: هُوَ طَلَبُ الْعِلْمِ بِشَيْءٍ لَمْ يَكُنْ مَعْلُومًا مِنْ قَبْلِ وَذَلِكَ بِأَدَاءِ مِنْ إِحْدَى أَدَوَاتِهِ الْآتِيَةِ وَهِيَ: الْهَمْزَةُ، وَهُلُّ، وَمَا، وَمَتَى، وَأَيَّانُ، وَكَيْفُ، وَأَيْنُ، وَأَنَّى، وَكَمُّ، وَأَيُّ^(١)

وَيَقُولُ السَّكَاكِيُّ فِي بَابِ الْاسْتِفْهَامِ: لِلْاسْتِفْهَامِ كَلِمَاتٌ مُوْضُوَّةٌ، وَهِيَ: الْهَمْزَةُ وَأَمُّ وَهُلُّ وَمَا مِنْ وَأَيِّ وَكَمُّ وَكَيْفُ وَأَيْنُ وَأَنَّى وَمَتَى وَأَيَّانُ بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَبِكَسْرِهَا... وَهَذِهِ الْكَلِمَاتُ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٌ: أَحَدُهَا يَخْتَصُ طَلَبُ حَصْوَلِ التَّصْوِيرِ، وَثَانِيَهَا يَخْتَصُ طَلَبُ حَصْوَلِ التَّصْدِيقِ، وَثَالِثُهَا لَا يَخْتَصُ^(٢)

وَلِلْاسْتِفْهَامِ أَدَوَاتٌ كَثِيرَةٌ كَمَا أَشَارَ السَّكَاكِيُّ، مِنْهَا مَا يَفِيدُ التَّصْوِيرَ، وَمِنْهَا مَا يَفِيدُ التَّصْدِيقَ، وَمِنْهَا مَا يَفِيدُ التَّصْوِيرَ وَالتَّصْدِيقَ مَعًا.

أَمَا التَّصْوِيرُ: فَهُوَ طَلَبُ تَعْبِينِ الْمَفْرَدِ، نَحْوَ: أَزِيدُ نَاجِحٍ أَمْ أَسَامِةً؟ أَمَا التَّصْدِيقُ: فَهُوَ طَلَبُ تَعْبِينِ النَّسْبَةِ أَوِ الْحُكْمِ، نَحْوَ: أَفَأْمَ مُحَمَّدٌ؟ وَأَفْهَمْتَ الدَّرْسَ؟

وَأَدَأَةُ الْاسْتِفْهَامِ الَّتِي تَقْدِي التَّصْوِيرَ وَالتَّصْدِيقَ مَعًا هِيَ: الْهَمْزَةُ فَقْطُ، أَمَّا أَدَأَةُ الْاسْتِفْهَامِ الَّتِي تَقْدِي التَّصْدِيقَ فَهِيَ: هَلُ^(٣).

وَالْأَدَوَاتُ الَّتِي تَقْدِي التَّصْوِيرَ هِيَ^(٤):

١. (ما): وَيُطَلَّبُ بِهَا شَرْحُ الشَّيْءِ، وَأَكْثَرُ مَا يَسْتَفْهَمُ بِهَا عَنِ الْعَاقِلِ.
٢. (من): وَأَكْثَرُ مَا يَسْتَفْهَمُ بِهَا عَنِ الْعَاقِلِ.
٣. (متى): وَيُسَأَلُ بِهَا عَنِ الزَّمَانِ مَاضِيًّا كَانَ أَوْ مُسْتَقْبَلًا.
٤. (أَيَّان): وَيُسَأَلُ بِهَا عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ.
٥. (أَيْن): وَيُسَأَلُ بِهَا عَنِ الْمَكَانِ.
٦. (أَنَّى): وَيُسَأَلُ بِهَا عَنِ الْحَالِ، فَتَسْتَعْمِلُ بِمَعْنَى كَيْفٍ.
٧. (كَيْف): وَيُسَأَلُ بِهَا عَنِ الْحَالِ.
٨. (كَم): وَيُسَأَلُ بِهَا عَنِ الْعَدْدِ.
٩. (أَي): وَهِيَ لِلْسُّؤَالِ عَمَّا يَمْيِيزُ أَحَدَ الْمُتَشَارِكِينَ فِي أَمْرٍ يَعْمَلُهُمَا

(١) الطراز: ٧٨/١

(٢) مفتاح العلوم: ٣٠٨

(٣) انظر: من بلاغة القرآن: أ.د. محمد علوان، أ. د نعمان علوان: ٤١ بتصرف.

(٤) السابق: ٤٤-٤٢ (بتصرف)

الأغراض البلاغية للاستفهام:**١. التوبيخ والتقرير والتبيك:**

والتبكّيُّث: كاللَّفْرِيْعِ وَالْتَّعْنِيْفِ، بَكَّيْهِ تَبَكِيْتَا إِذَا قَرَعَهُ بِالْعَدْلِ تَقْرِيْعًا، وَبَكَّيْهِ بِالْحُجَّةِ أَيْ خَلْبَهُ.
وَبَكَّيْهِ يَبَكُّهُ بَكْتَا، وَبَكَّيْهِ كَلَاهُمَا اسْتَقْبَلَهُ بِمَا يَكْرُهُ^(١).

وجاء في لسان العرب: (وَبَخَهُ: لَامَهُ وَعَذَلَهُ)، وعلى ذلك يكون معنى التوبيخ مخاطبة الغير على جهة اللوم والتخطئة على فعل أو قول قام به^(٢)

أما التقرير فقد جاء في لسان العرب: والتقرير التأنيب والتعنيف وقيل هو الإيجاع باللوم وَقَرَعْتُ الرَّجُلَ إِذَا وَبَخْتَهُ وَعَذَلَهُ^(٣)

فيتضح من المعاني اللغوية للتبكّيُّث والتوبيخ والتقرير أنها كلها متقاربة في المعنى، وهو التأنيب واستقباله بما يكره وإيقاع اللوم عليه، وكلها معانٍ متقاربة.

ومن الاستقهام الذي جاء لغرض التوبيخ قوله تعالى: ﴿يَتَأَلَّهَا الَّذِينَ إِمَانُوا مَالَكُّ إِذَا قِيلَ لَكُّ أَنْفَرُوا فِي سَيِّلِ اللَّهِ أَنَّا قَلَّمَنَا إِلَى الْأَرْضِ أَرَضَيْتُمُ إِلَيْهِ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعْتُمُ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ التوبة: ٣٨، قال البيضاوي رحمه الله: و(اثقلتم) على الاستقهام للتوبيخ^(٤).

ومن الاستقهام الذي غرضه التقرير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَمْ تَكُفُّرُونَ بِمَا يَأْتِيَتُ اللَّهُ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ آل عمران: ٩٩ - ٩٨، قال البيضاوي رحمه الله: (فَلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَمْ يَقْنِلِ عَمَّا تَعْمَلُونَ) كرر الخطاب والاستقهام مبالغة في التقرير ونبي العذر لهم، وإشعاراً بأن كل واحد من الأمرين مستباح في نفسه مستقل باستجلاب العذاب، وسيبل الله في دينه الحق المأمور بسلوكه وهو الإسلام. قيل كانوا يفتون المؤمنين ويحرشون بينهم حتى أتوا الأوس

(١) لسان العرب (بكت): ٣٣٢/١

(٢) لسان العرب (وبخ): ٤٧٥١/٦

(٣) لسان العرب (قرع): ٣٥٩٦/٥

(٤) تفسير البيضاوي: ٥٣/٢

والخرج فذكروهم ما بينهم في الجاهلية من التعادي والتحارب ليعودوا لمثله ويحتالون لصدتهم عنه^(١).

ومثال ما غرضه التبكيت والتقرير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَخْشُرُهُمْ وَمَا يَتَبَدَّلُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ مَا أَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هُوَلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلَّلُوا السَّبِيلَ﴾ الفرقان: ١٧، قال البيضاوي رحمه الله: (أَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هُوَلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلَّلُوا السَّبِيلَ) لإخالهم بالنظر الصحيح وإعراضهم عن المرشد النصيح، وهو استفهام تقرير وتبكيت للعبدة^(٢).

٢. التهكم والاستهزاء:

يأتي الاستفهام لغرض التهكم والاستهزاء "والتهكم في الاصطلاح: هو الخطاب بلفظ الإجلال في موضع التحذير، والبشرة في موضع التحذير، والوعد في مكان الوعيد، والعذر في موضع اللوم، والمدح في موضع السخرية، ونحو ذلك^(٣)".

ومنه قوله جل اسمه: (وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَّا أَشَهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتَكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ وَيُسَأَلُونَ) (الزخرف: ١٩)، قال البيضاوي رحمه الله: (أشهدوا خلقهم) أحضروا خلق الله إياهم فشاهدوهم إناثاً، فإن ذلك مما يعلم بالمشاهدة وهو تجاهيل وتهكم بهم^(٤).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذْلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلُدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُنَفَّعُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾ الفرقان: ١٥، قال البيضاوي رحمه الله: (قُلْ أَذْلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلُدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُنَفَّعُونَ) الإشارة إلى العذاب والاستفهام والتفضيل والترديد للتقرير مع التهكم^(٥).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَذَا رَأَوكَ إِنْ يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُنُّوا أَهْنَدَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ الفرقان: ٤، قال البيضاوي رحمه الله: (أَهْنَدَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا) محكي بعد قول مضمرا والإشارة للاستهقار...وهم على غاية الإنكار تهكم واستهزاء ولو لفوا أهذا الذي زعم أنه بعثه الله رسولًا^(٦).

(١) تفسير البيضاوي: ٢٨٢/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٥١٧/٢

(٣) المعجم المفصل في علوم البلاغة: ٤٤١

(٤) تفسير البيضاوي: ٢٤٧/٣

(٥) تفسير البيضاوي: ٥١٦/٢

(٦) تفسير البيضاوي: ٥٢٤/٢

٣. التشويق:

الشوق والاشتياق نزع النفس إلى الشيء، والشوق حركة الهوى^(١)، ويأتي الاستفهام بغرض التشويق عند إيراد السؤال من المتكلم إلى المخاطب بغرض تشويقه وإثارة دافعيته لانتباه للموضع المحدث عنه، أو إلى فعل يريده أن يفعله.

ومن الاستفهام الذي جاء لغرض التشويق قوله تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَكَ نَبَوًا لِّخَصْمٍ إِذْ سَرَّ وَأَلْمَحَ رَبَّكَ ص: ٢١ ، قال البيضاوي رحمه الله: (وَهَلْ أَتَكَ نَبَأً لِّخَصْمٍ) استفهام معناه التعجب والتشويق إلى استماعه^(٢).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ① ﴾ الغاشية: ١ ، قال عنها صاحب فتح القدير: (هل أتاك حديث الغاشية) قال جماعة من المفسرين: هل هنا بمعنى قد، وبه قال قطرب، أي: قد جاءك يا محمد حديث الغاشية، وهي القيامة لأنها تخشى الخالق بأحوالها. وقيل: إن بقاء هل هنا على معناها الاستفهامي المتضمن للتعجب مما في خبره، والتشويق إلى استماعه^(٣).

٤. التحضيض والتحريض:

الحضر: ضرب مِنَ الْحَثِّ فِي السَّيْرِ وَالسَّوْقِ وَكُلِّ شَيْءٍ، قال الأزهري: الحضر الحث على الخير. وَيُقَالُ: حَضَضْتُ الْقَوْمَ عَلَى الْقِتَالِ تَحْضِيضاً إِذَا حَرَضْتُهُمْ... وَحَضَضْهُ أَيْ حَرَضَه^(٤).

والتحريض: التحضيض، قال الجوهري: التحرير على القتال: الحث والإحماء عليه، قال الله تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا أَيُّهَا حَرَضُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ٦٥ ﴾ الأنفال: ٦٥، قال الزجاج: تأوليه حُثُّهم على القتال. قال وتأويل التحرير في اللغة: أن تُحَثُّ الإنسان حتاً يعلم معه أنه حارض إن تخلف عنه^(٥)

مما سبق يتضح لنا تقارب معنوي التحرير والتحضيض، لذلك يمكن جعل الاستفهام الذي يجيء لغرض التحضيض والتحريض تحت غرض واحد لتقارب المعنين.

(١) لسان العرب (سوق): ٢٣٦١/٤

(٢) تفسير البيضاوي: ١٦٩/٣

(٣) فتح القدير: ٥٧١/٥

(٤) لسان العرب (حضر): ٩١٠/٢

(٥) لسان العرب (حضر): ٨٣٦/٢

وبذلك يأتي الاستفهام لغرض التحضيض، إذا جاء طلب الفعل مصحوباً بالحث والإحماء عليه، وله أدوات منها: "لولا" و"لوما" و"هلا" و"ألا".

ومثاله قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُرْكِبُهُمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوةَكَ سَكُنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلَيْهِ﴾^(١) ١٢٣ التوبة: ١٠٣ - ١٠٤ ، قال البيضاوي رحمه الله: (ألم يعلموا) الضمير إما للمتوب عليهم والمراد أن يمكن في قلوبهم قبول توبتهم والاعتداد بصدقاتهم، أو لغيرهم والمراد به التحضيض عليهم^(١).

فالله عز وجل يحضر المؤمنين ويحثهم على التوبة، وعلى ما توجب قبولها عند الله وهي الصدقات وصلوات النبي صلى الله عليه وسلم والتي هي الدعاء لهم.

ومن الاستفهام الذي يجيء للتحريض، قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا إِنَّهَا الْعَزِيزُ مَسَنَّا وَأَهْنَاهَا الْفُرُّ وَجَثَنَا بِإِضْسَاعَةٍ مُّرْجَحَتِهِ فَأَوْفَ لَنَا الْكِيلَ وَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ بِمَا تَصْنَعُونَ﴾^(٢) ٨٨ يوسف: ٨٩ - ٨٨ ، قال البيضاوي رحمه الله: (قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جنحهون)^(٢) يوسف: ٨٩ - ٨٨ ، قال البيضاوي رحمه الله: (قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه) أي هل علمتم قبحه فتبتم عنه وفعلتم بأخيه إفراده عن يوسف وإذلاله حتى لا يستطيع أن يكلمهم إلا بعجز وذلة. (إذ أنتم جاهلون) قبحه فلذاك أقدمتم عليه أو عاقبته، وإنما قال ذلك تصحيحاً لهم وتحريضاً على التوبة، وشفقة عليهم لما رأى من عجزهم وتمسكهم لا معاتبة وتشريباً^(٢).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْءٌ أَمْنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ النساء: ٣٩ ، قال البيضاوي رحمه الله: أي تبعة تحقيق بهم بسبب الإيمان والإتفاق في سبيل الله، وهو توبيخ لهم على الجهل بمكان المنفعة والاعتقاد في الشيء على خلاف ما هو عليه، وتحريض على الفكر لطلب الجواب لعله يؤدي بهم إلى العلم بما فيه من الفوائد الجليلة، والعوائد الجميلة. وتتببيه على أن المدعو إلى أمر لا ضرر فيه ينبغي أن يجرب إليه احتياطاً، فكيف إذا تضمن المنافع^(٣).

(١) تفسير البيضاوي: ٧٧/٢

(٢) تفسير البيضاوي: ١٨٩/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ٣٥٧/١

٥. النهي:

قد يخرج الاستفهام عن معناه الحقيقى إلى معنى النهى، أي طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا مَا أَنْتُمْ وَإِذَا خَلَّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَخْدُنُوهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيَعْجُوْكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا نَعْقِلُونَ ﴾^{٦٧} البقرة: ٧٦، قال البيضاوى رحمة الله: (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا) يعني منافقهم. (قالُوا آمَنًا) بأنكم على الحق، وإن رسولكم هو المبشر به في التوراة (وَإِذَا خَلَّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا) أي الذين لم ينافقو منهم عاتبين على من نافق. (أَخْدُنُوهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ) بما بين لكم في التوراة من نعت محمد صلى الله عليه وسلم، أو الذين نافقوا لأعقابهم إظهاراً للصلب في اليهودية، ومنعاً لهم عن إبداء ما وجدوا في كتابهم، فيناافقون الفريقين. فالاستفهام على الأول تقرير وعلى الثاني إنكار ونهي^(١).

٦. الإنكار:

قد يخرج الاستفهام عن معناه الأصلي للدلالة على أن المستفهم عنه أمرٌ منكرٌ عرفاً أو شرعاً، ويأتي على نوعين:

النوع الأول: إنكار توبیخ: ويأتي بوجهين، فهو إما إنكار للتوبیخ على أمر وقع في الماضي، بمعنى ما كان ينبغي أن يكون ذلك الأمر الذي كان، أو إنكار توبیخ على أمر وقع في الحال، أو خيف وقوعه في المستقبل.

النوع الثاني: إنكار تكذيب: ويأتي بوجهين أيضاً، فهو إما إنكار للتکذیب في الماضي، بمعنى لم يكن، أي أن المخاطب إن ادعى وقوع شيء فيما مضى، أتي بالاستفهام الإنکاري تکذیباً له في دعواه، وإما إنكار للتکذیب في الحال أو في المستقبل.

فمن الإنكار التوبیخي قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَسْتَبِدَّا لَرَوْجَ مَحَّاكَبَ رَوْجٍ وَمَاتَتْمُ اَخْدَنَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوْهُنَّهُ شَكِيًّا أَتَأْخُذُوْنَهُمْ بِهَتَنَّا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾^{٦٨} النساء: ٢٠، قال البيضاوى رحمة الله: (أَتَأْخُذُوْهُنَّهُ بِهَتَنَّا وَإِثْمًا مُبِينًا) إستفهام إنكار وتوبیخ، أي تأخذونه باهتين وآثمين... قيل كان

(١) تفسير البيضاوى: ١١٣/١

الرجل منهم إذا أراد امرأة جديدة بعثت التي تحته بفاحشة حتى يلجهها إلى الافتداء منه بما أعطاها ليصرفه إلى تزوج الجديدة، فنهوا عن ذلك^(١).

ومن الانكار التكذبي قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُم مِنْ إِنْكِهِمْ لَيَقُولُونَ﴾^(٢) وَلَدَ اللَّهُ وَلَاهُمْ لَكَذِبُونَ
 ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾^(٣) الصافات: ١٥١ - ١٥٣، قال البيضاوي رحمه الله: (أَصْطَفَى
 الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ) استفهام إنكار واستبعاد، والاصطفاء أخذ صفة الشيء^(٤).

٧. الأمر والحد:

يأتي الاستفهام أيضاً لغرض الأمر، ويكون معنى الاستفهام طلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام، ويأتي أيضاً للدلالة على الحث، والحد والأمر معنيان متقاريان.

ومما جاء من الاستفهام لغرض الأمر قوله تعالى عن سيدنا داود عليه السلام: ﴿وَعَلَّمَنَاهُ
 صَنْعَةَ لَبُوْسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَكِرُونَ﴾^(٥) الأنبياء: ٨٠، قال البيضاوي رحمه
 الله: (فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ) ذلك أمر أخرجه في صورة الاستفهام للمبالغة والتقرير^(٦)

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنْ أَتَبَعَنِي وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمَمِ
 أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَيْنَكَ الْبَلْعَ وَاللَّهُ يَصِيرُ بِالْعِبَادِ﴾^(٧) آل عمران: ٢٠، قال
 البيضاوي رحمه الله: (أَسْلَمْنَتُمْ) كما أسلمت لما وضحت لكم الحجة، أم أنتم بعد على كفركم ونظيره
 وقوله: (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) وفيه تعير لهم بالبلاد أو المعاندة^(٨)

وإن لم يصرّح البيضاوي بأن الاستفهام في (أَسْلَمْتُمْ) للأمر والحد لكنه يفهم من ذكر
 نظيره وهو (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) أنه للأمر والحد.

ومن الاستفهام الذي جاء للحد قوله تعالى عن سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿فَرَأَى إِلَهَ أَهْلِهِ
 فَجَاءَهُ بِعِجْلٍ سَيِّنٍ﴾^(٩) فَقَرَبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ^(١٠) الذاريات: ٢٦ - ٢٧، قال صاحب أنوار التزيل:
 (فَقَرَبَهُ إِلَيْهِمْ) بأن وضعه بين أيديهم. (قال ألا تأكلون) أي منه، وهو مشعر بكونه حنيداً، والهمزة

(١) تفسير البيضاوي: ٣٤٢/١

(٢) تفسير البيضاوي: ١٦١/٣

(٣) تفسير البيضاوي: ٤٢٩/٢

(٤) تفسير البيضاوي: ٢٥٠/١

فيه للعرض والتحث على الأكل على طريقة الأدب إن قاله أول ما وضعه، وللإنكار إن قاله حينما رأى إعراضهم^(١)

٨. النفي:

يأتي الاستفهام ويكون الغرض منه النفي كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَنِحْشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَأَسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصْرِرُوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ آل عمران: ١٣٥، قال البيضاوي رحمه الله: (وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ) استفهام يمعنى النفي معتبرض بين المعطوفين، والمراد به وصفه تعالى بسعة الرحمة وعموم المغفرة والتحث على الاستغفار والوعد بقبول التوبة^(٢). والمعنى: لا أحد يغفر الذنوب إلا الله.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿صِبَغَةُ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنَ مِنَ اللَّهِ صِبَغَةً وَلَمْ يَخْنُلْهُ عَدِيدُونَ﴾ البقرة: ١٣٨، قال البيضاوي رحمه الله: (وَمَنْ أَحْسَنَ مِنَ اللَّهِ صِبَغَةً) لا صبغة أحسن من صبغته^(٣).

٩. التعجب:

العَجْبُ والعَجَبُ: إنكارٌ مَا يَرِدُ عَلَيْكَ لِفَلَةٍ اعْتِيَادٍ... قَالَ الرَّجَاجُ: أَصْلُ الْعَجَبِ فِي الْلُّغَةِ، أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا رَأَى مَا يُنْكِرُهُ وَيَقُلُّ مِثْلَهُ، قَالَ: قَدْ عَجِبْتُ مِنْ كَذَّا... قال ابن الأعرابي: العَجَبُ النَّظَرُ إِلَى شَيْءٍ غَيْرِ مَأْلُوفٍ وَلَا مُعْتَادٍ^(٤).

إذاً يأتي الاستفهام بغضون التعجب إذا جاء ليدل على شيء غير مألوف ولا معتاد، ومثاله قوله تعالى في مريم عليها السلام: ﴿قَاتَرَتْ رَبِّ أَنَّ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسِسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا فَضَّقَ أَمْرًا فَلَئِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ آل عمران: ٤٧، قال البيضاوي رحمه الله: (قَاتَرَتْ رَبِّ أَنَّ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسِسْنِي بَشَرٌ) تعجب، أو استبعاد عادي، أو استفهام عن أنه يكون يتزوج أو غيره^(٥) والمعنى أن غرضها من الاستفهام إظهار تعجبها، لأنه ليس من المألوف والمعتاد أن يكون لها ولد وهي لم تتزوج، ولم يمسسها بشر.

(١) تفسير البيضاوي: ٣٢٣/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٢٩٨/١

(٣) تفسير البيضاوي: ١٤٣/١

(٤) لسان العرب (عجب): ٢٨١١/٤

(٥) تفسير البيضاوي: ٢٦٢/١

ومثاله أيضاً قوله تعالى على لسان والد إبراهيم عليه السلام: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنِ الْهَمَّيِّ
يَأَبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجِعَنَكَ وَأَهْجُرُنِي مَلِئًا ﴾ مريم: ٤٦ ، قال البيضاوي رحمه الله: (قال أراغب
أَنْتَ عَنِ الْهَمَّيِّ يَا إِبْرَاهِيمُ) قابل استعطافه -أي إبراهيم عليه السلام- ولطفه في الارشاد بالفظاظة
وغلظة العناد فناداه باسمه ولم يقابل (يَا أَبَتِ): بيا بني، وأخره وقدم الخبر على المبتدأ وصدره
بالهمزة لإنكار نفس الرغبة على ضرب من التعبّ، كأنها مما لا يرغب عنها عاقل^(١).

فوالد إبراهيم عليه السلام تعجب من رغبة إبراهيم عن عبادة الأصنام، لأن عبادتها هو الأمر الصحيح الذي لا يجوز أن يحيد عنها عاقل، على عادة أهل الباطل، فهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً كما قال الله عنهم: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْأَرْضِ وَهُمْ يَخْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (١٠٤) الكهف: ٤، ويتهمنون كل من حاد عن عبادة الأصنام بأنه أتى أمراً عجاباً مع أنهم أحق بالتعجب من حالهم، فقد قال الله عنهم يحكي قولهم وتعجبهم: ﴿أَجْعَلَ الْآلِمَةَ إِلَهًا وَجِدًا إِنَّ هَذَا لَشَنُ عَجَابٍ﴾ (٥) ص: ٥

١٠. التعميم:

يأتي الاستفهام ويراد به التعجب، وهو يشبه التعجب في كونه إيراد الاستفهام بغرض إنكار شيء غير مألوف ولا معتاد، ويختلف عنه في أن التعجب يراد به إيقاع العجب على المخاطب.

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٦٧) المائدة: ٧٤، قال البيضاوي رحمه الله: (أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ) أي أفلًا يتوبون بالانتهاء عن تلك العقائد والأقوال الزائفة ويستغفرون بالتوحيد والتزية عن الاتحاد والحلول بعد هذا التقرير والتهديد... وفي هذا الاستفهام تعجب من إصرارهم^(٣)

٣٦٩ / ٢ تفسير البيضاوي:

(٢) تفسير البيضاوي: ٥٣٥/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ٤٥٤ / ١

١١. التقرير:

أورد الإمام عبد القاهر الجرجاني الاستفهام للتقرير في دلائل الإعجاز فقال: واعلم أنَّ هذا الذي ذكرت لك في "الهمزة وهي للاستفهام" قائم فيها إذا هي كانت للتقرير. فإذا قلت: "أَنْتَ فعلت ذاك؟" ، كان غرضك أن تقرره بأنه الفاعل. يُبيِّنُ ذلك قوله تعالى، حكايةً عن قول نمرود: ﴿قَالُوا أَنَّتَ فَعَلْتَ هَذَا إِنَّا لَمِنْتَنَا يَتَابُرُهِمْ﴾^(١) الأنبياء: ٦٢ لا شبهة في أنَّهم لم يقولوا ذلك له عليه السلام وهم يُ يريدون أنْ يُقرُّ لهم بِأنَّ كَنزَ الأَصْنام قد كان، ولكنَّ أنْ يقرَّ بأنه منه كان، وكيف؟ وقد أشاروا له إلى الفعل في قولهم: (أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا)^(١)

لذلك فإنَّ المقصود بالاستفهام الذي يجيء لغرض التقرير هو حمل المخاطب على الاعتراف بالشيء المستفهام عنه.

وأورد ابن فارس الاستفهام لغرض التقرير في كتابه الصاحبي حيث يقول: "ويكون استخاراً، والمعنى تقرير. نحو قوله جل شوأه: ﴿أَسْتَبِرْتُكُمْ﴾^(٢) الأعراف: ١٧٢

ما جاء في كتاب الله من الاستفهام لغرض التقرير قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُ مَا فَعَلْتُمْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَهْلُونَ﴾^(٣) ﴿قَالُوا إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَرَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَقَرَّ وَيَصِيرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٤) يوسف: ٨٩ - ٩٠، قال البيضاوي رحمه الله: (قالوا إنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ) استفهام تقرير ولذلك حقق بأن ودخول اللام عليه^(٥).

فإحتجة يوسف عليه السلام بعد أن كشف لهم عن نفسه ونَكَرُهم بما فعلوا، سألهما هذا السؤال، سؤال تقرير، ليتأكدوا يقيناً أنه هو، وفي هذا يقول ابن عاشور: "وأدخل الاستفهام التقريري على الجملة المؤكدة لأنَّهم تطلبا تأييده لعلمهم به"^(٦)

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَخَذَ رَبِّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِ ذُرِّيَّهُمْ وَأَشَهَدُهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَسْتَبِرْتُكُمْ قَالُوا لَنْ شَهَدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾^(٧) الأعراف: ١٧٢ ، قال البيضاوي رحمه الله: (وَأَشَهَدُهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَسْتَبِرْتُكُمْ قَالُوا بَلِ شَهَدْنَا) أي ونصب لهم دلائل ربوبيته

(١) دلائل الإعجاز: ١١٣

(٢) الصاحبي: ١٣٥

(٣) تفسير البيضاوي: ١٨٩/٢

(٤) التحرير والتوير: ٤٩/١٣

وركب في عقولهم ما يدعوهم إلى الاقرار بها حتى صاروا بمنزلة من قيل لهم: (أَسْتَ بِرِبِّكُمْ قَالُوا بَلِّي) فنزل تمكينهم من العلم بها وتمكنهم منه بمنزلة الإشهاد والاعتراف على طريقة التمثيل^(١).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِتَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَنَا إِبَائِكَ إِنَّرِبِّهِمْ وَإِنَّمَا يَعْبُدُونَ مَوْجِدًا وَخَلَقَ لَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ البقرة: ١٣٣، قال البيضاوي رحمه الله: (ما تعبدون من بعدي) أي: أي شيء تعبدونه، أراد به تقريرهم على التوحيد والإسلام، وأخذ ميثاقهم على الثبات عليهم^(٢).

١٢. التحقيق:

ويكون الاستفهام لغرض التحقيق عندما يخرج الاستفهام عن معناه الأصلي للدلالة على ضاللة المسؤول عنه وصغر شأنه، مع معرفة المتكلم أو السائل به^(٣).

ومما جاء في القرآن الكريم من الاستفهام لغرض التحقيق قوله تعالى: ﴿فَنَلَّ الْإِنْسَانُ مَا أَنْكَرُهُ﴾ منْ أَيِّ نَعْيٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ منْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴿١٩﴾ عبس: ١٧ - ١٩، قال البيضاوي رحمه الله: (منْ أَيِّ شيءٍ خَلَقَهُ) بيان لما أنعم عليه خصوصاً من مبدأ حدوثه، والاستفهام للتحقيق ولذلك أجاب عنه بقوله: (منْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ) فهياه لما يصلح له من الأعضاء والأشكال، أو فَقَدَرَهُ أطواراً إلى أن تم خلقته^(٤).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْتَ بِإِرْهِيمَ رُشَدٌ مِّنْ قَبْلٍ وَكُنَّا بِهِ عَلَيْمِينَ﴾ إِذْ قَالَ لِإِرْهِيمَ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ الْتَّمَاثِيلُ أَتَيْتَ أَنْتَ هَذَا عَلَيْكُمْ ﴿٥٥﴾ الأنبياء: ٥٢ - ٥١، قال البيضاوي رحمه الله: (ما هذه التماثيل التي أنت لها عاكفون) تحبير لشأنها وتوضيح على إجلالها، فإن التمثال صورة لا روح فيها لا يضر ولا ينفع^(٥).

١٣. التهويل:

أشار القرزياني في الإيضاح إلى أن الاستفهام يأتي لغرض التهويل ومثل له بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا بَيْتَ إِسْرَئِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٢٠﴾ الدخان: ٣٠ -

(١) تفسير البيضاوي: ٥٨١/١

(٢) تفسير البيضاوي: ١٤١/١

(٣) علم المعاني والبيان والبديع: عبد العزيز عتيق: ٩٥

(٤) تفسير البيضاوي: ٥٠٠/٣

(٥) تفسير البيضاوي: ٤٢٣/٢

٣١، وقال: كقراءة ابن عباس رضي الله عنهم: (وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ مَنْ فِرْعَوْنَ) ، بلفظ الاستقحام، لما وصف الله تعالى العذاب بأنه مهين لشنته وفظاعة شأنه، أراد أن يصور كنهه، فقال: (مَنْ فَرْعَوْنُ؟) أي أتعرفون من هو في فرط عته وتجبره، ما ظنك بعذاب يكون هو المعدب به، ثم عرف حاله بقوله (إِنَّهُ كَانَ عَالِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ) ^(١)

ويسمى البيضاوي هذا الغرض (الاستعظام) ومثاله ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ إِنَّهُمْ قَاتُلُوا لَنْ تَمْسَكَنَا أَنْتَارُ إِلَّا أَيَامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّمٌ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾٢﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَعَنَتْهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَبَّ فِيهِ وَوُفِيتَ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَمُمْلِمُ لَا يُظْلَمُونَ ﴾٣﴿ آل عمران: ٢٤ - ٢٥، قال البيضاوي رحمه الله: (فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَبَّ فِيهِ) استعظام لما يحقيق بهم في الآخرة وتکذیب لقولهم (لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات) ^(٤).

فإنهم لما أنكروا هول عذاب الله عز وجل الذي سيحقيق بهم في الآخرة لتكذيبهم بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم، واستهانتهم بالنار زاعمين أنها لن تكون إلا أياماً معدودة، فكأنهم قادرون على احتمال هذه الأيام إن كانت معدودة كما يزعمون، فردد الله عليهم بالاستقحام الذي يدل على تهويل يوم الجمع، الذي هو قبل دخول النار، فإذا كان الله قد دلنا على أن يوم الجمع يوم مهول، مما بالكم بما بعده من عذاب سرمدي في النار، وهنا تكمن بلاغة القرآن في الدلالة على المعاني مع شدة الإيجاز والإعجاز.

١٤. الاستبعاد:

أورد هذا الغرض من أغراض الاستقحام القزويني في الإيضاح ومثل له بقوله تعالى: ﴿أَفَهُمْ لَهُمُ الْذَّكَرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾٤﴿ الدخان: ١٣﴾

وقيل: هو عد الشيء بعيداً حساً أو معنى، وقد يكون منكراً مكروهاً غير منظر أصلاً^(٤).

(١) الإيضاح: ٧٨/٣

(٢) تفسير البيضاوي: ٢٥٢/١

(٣) الإيضاح: ٧٩/٣

(٤) علم المعاني والبيان والبديع: عبد العزيز عتيق: ٩٨

ومما جاء في تفسير البيضاوي على هذا الغرض قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَعْذَا كُنَّا عَظِيمًا وَرُفِنَا أَئْنَا لَمْ بَعُثُونَ حَلْقًا جَدِيدًا﴾^(١) الإسراء: ٤٩، قال البيضاوي رحمه الله: (إِنَّا لَمَبْعُثُونَ حَلْقًا جَدِيدًا) على الإنكار والاستبعاد لما بين غضاضة الحي وبيوسة الرميم، من المباعدة والمنافاة^(١).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَحِقْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُهُ أَبَاؤُنَا فَأَنَا إِمَّا تَعْبُدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(٢) الأعراف: ٧٠، قال البيضاوي رحمه الله: استبعدوا اختصاص الله بالعبادة والأعراض بما أشرك به آباؤهم انهماكاً في التقليد وحباً لما ألغوه^(٢).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيَ الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيقُشُ مِنْ الْدَّعْيَ مِنَاعَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا مَامَا فَكَتَبْنَا مَعَ الشَّهِيدِينَ﴾^(٣) وما لنا لا نؤمن بإلهنا وما جاءنا من الحق ونعلم أن ميدخلنا ريشاما مع القوم الصالحين^(٤) المائدة: ٨٣ - ٨٤، قال البيضاوي رحمه الله: استفهام إنكار واستبعاد لانتفاء الإيمان مع قيام الداعي وهو الطمع في الانخراط مع الصالحين، والدخول في مداخلهم^(٤).

١٥. العَرْضُ:

أشار السكاكى إلى الاستفهام لغرض العرض فقال: كما إذا قلت لمن تراه لا ينزل إلا تنزل فتصيب خيراً امتنع أن يكون المطلوب بالاستفهام التصديق بحال نزول صاحبك لكونه حاصلاً ويوجه بمعونة قرينة الحال على نحو إلا تحب النزول مع محبتنا إياه، وولد معنى العرض^(٤)

وقد عقب البيضاوي على آية: ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾^(٥) فَقُولَاهُ قُولَاهُ لَنَا لَعَلَّهُ يَذَكَّرُ أَوْ يَخْفَى﴾^(٦) طه: ٤٣ - ٤٤، قال البيضاوي: (فَقُولَاهُ لَهُ قُولَاهُ لَنَا) مثل ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَّا أَنْ تَرَكَ﴾^(٧) وَاهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَنَخْفَى﴾^(٨) النازعات: ١٨ - ١٩ فإنه دعوة في صورة عرض ومشورة حذراً أن تحمله الحماقة على أن يسطو عليكم^(٩).

(١) تفسير البيضاوي: ٣٠٥/٢

(٢) تفسير البيضاوي: ٥٥٢/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٤٥٦/١

(٤) مفتاح العلوم: ٣٠٤

(٥) تفسير البيضاوي: ٣٩٢/٢

ومنه قوله تعالى: ﴿فَرَبِّهِمْ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ الذاريات: ٢٧، قال البيضاوي رحمة الله: (فَرَبِّهِمْ إِلَيْهِمْ) بأن وضعه بين أيديهم. (قال ألا تأكلون) أي منه، وهو مشعر بكونه حنيداً، والهمزة فيه للعرض والمحث على الأكل على طريقة الأدب^(١).

١٦. الاستبطاء:

وهو عُد الشيء بطريقاً في زمن انتظاره^(٢).

ومثاله قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثْلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهِمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّىٰ يَقُولُ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَقِيْنَ نَصْرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ البقرة: ٢١٤، قال البيضاوي رحمة الله: (متى نصر الله) استبطاء له لتأخره^(٣).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿فَجُمِيعَ السَّحَرَةُ لَمِيقَاتِ يَوْمِ مَعْلُومٍ﴾ وقيل للناس هل أنت مجتمعون^(٤) الشعراة: ٣٨ - ٣٩، قال البيضاوي رحمة الله: (وقيل للناس هل أنت مجتمعون) فيه استبطاء لهم في الاجتماع حثاً على مبادرتهم إليه كقول تأبظ شرًا:

هَلْ أَنْتَ بَاعِثٌ دِينَارٍ لِحَاجَتِنَا أَوْ عَبْدَ رَبِّ أَخَا عَوْنَ بنِ مِحْرَاقِ^(٤)

(١) تفسير البيضاوي: ٣٢٣/٣

(٢) علم المعاني والبيان والبديع: عبد العزيز عتيق: ٩٧

(٣) تفسير البيضاوي: ١٨٥/١

(٤) تفسير البيضاوي: ٥٣٩/٣

رابعاً: التمني:

عُرِفَ العلوي التمني فقال: هو عبارة عن توقع أمر محبوب في المستقبل^(١). وقيل هو: هو طلب حصول شيء محبوب لا يرجى حصوله، إما لكونه مستحيلاً، كقول المتنبي:

وحملت أرضك ما تحمل فليت وقارك فرقته

وإما لكونه بعيد التحقق والحصول نحو: ﴿يَأْتِيَتْ لَنَا مِنْ مَا أَوْتَكُمْ قَدْرُونَ إِنَّمَا لَذُو حَظٍ عَظِيمٍ﴾
القصص: ٧٩^(٢)

ويلاحظ من التعريف أن التمني طلب حصول شيء محبوب لذلك فهو يُعد من الأساليب الإنسانية الطلبية التي سماها العلوي صاحب الطراز بالطلب الإيجابي فقال عند حديثه عن الطلب: وينقسم إلى طلب سلبي، وإلى طلب إيجابي فالطلب الإيجابي: هو الأمر، والتمني، والطلب السلبي هو النهي، وكل الأمرين وارد في كتاب الله تعالى^(٣).

فالتمني والنداء وإن اتفقا مع النهي في كونهما من الأساليب الإنسانية لكن يختلفان في أن الأمر والتمني يُطلب بهما حصول أمر غير حاصل فبدلك سمي طلباً إيجابياً، بينما النهي يُطلب به عدم حصول الشيء ولذلك سماه العلوي طلباً سلبياً.

تعريف التمني عند البيضاوي:

القاضي البيضاوي رحمه في تفسيره ألمح إلى تعريف التمني وهو يقارب التعريف الذي استقر عليه العلماء بعد ذلك، ونرى ذلك عند تعرّضه لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْمَنُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّرِجَالٍ نَّصِيبٌ مِّمَّا أَكْتَسَبُوا وَلِلْأَنْسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا أَكْنَسَبَنَّ وَسَعَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ يُكْلِشُ شَنِيعَلِيَّمَا﴾ النساء: ٣٢

قال البيضاوي: ﴿وَلَا تَنْمَنُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ من الأمور الدنيوية كالجاه والمال، فلعل عدمه خير والمقتضي للمنع كونه ذريعة إلى التحاسد والتعادي، معربة عن عدم الرضا بما قسم الله له، وأنه تشهي لحصول الشيء له من غير طلب وهو مذموم، لأن تمني ما لم يقدر له

(١) الطراز: ١٦٠/٣.

(٢) علوم البلاغة «البيان، المعاني، البديع»: أحمد المراغي، ص ٦٢.

(٣) الطراز: ١٥٥/٣.

معارضة لحكمة القدر، وتمني ما قدر له بكسب بطالة وتضييع حظ، وتمني ما قدر له بغير كسب ضائع ومحال^(١).

فعبارة البيضاوي السابقة تحمل عدة معانٍ مهمة يحسن الوقوف عليها، التي منها قوله في التمني: "وأنه تشِ لحصول شيء له من غير طلب وهو مذموم" وبهذا يوافق البيضاوي العلماء في تعريفهم للتمني من كونه طلب حصول شيء محبوب، لكن البيضاوي علق في عبارته السابقة على قضية تمني الممكن وتمني المستحيل من وجاهة شرعية لا بلاغية، فالتمني عند البلاغيين يكون في الأمر المستحيل، أو فيما هو ممكن بعيد التحقق والحصول، وقد أشار البيضاوي إلى أن تمني المستحيل معارضه لحكمة القدر، فاختلاف البيضاوي على التمني الذي يكون مستحيلاً اختلاف شرعي لا بلاغي، لأن الإسلام حثا على الاجتهاد وعدم الاتكال على التمني الذي لا ينفع الإنسان كما قال عليه الصلاة والسلام: "لَيْسَ الإِيمَانُ بِالثَّمَنِي، وَلَا بِالثَّحَلِي، لَكِنْ مَا وَقَرَ فِي الْقُلْبِ، وَصَدَقَةُ الْفِعْلِ"^(٢).

ألفاظ التمني:

١. ليت:

ومما جاء من التمني بـ "ليت" في القرآن الكريم قوله تعالى حكاية عن قول حبيب النجار عندما دعا قومه إلى عبادة الله عز وجل: ﴿إِنَّمَّا اتَّقَىٰ مِنْ نَّاسٍٖ إِذْ قَالُوا لَيْلَتَنِي يَعْلَمُونَ﴾^(٣) يس: ٢٥ - ٢٦، قال البيضاوي رحمه الله: قيل أدخل الجنة قيل له ذلك لما قتلوا بشري له بأنه من أهل الجنة، أو إكراماً وإننا في دخولها كسائر الشهداء... وإنما تمنى علم قومه حاله ليحملهم على اكتساب مثلها بالتوبة عن الكفر والدخول في الإيمان والطاعة على دأب الأولياء في كظم الغيط والترحم على الأعداء، أو ليعلموا أنهم كانوا على خطأ عظيم في أمره وأنه كان على حق^(٤).

(١) تفسير البيضاوي: ٥٣/١

(٢) أمالی ابن بشران: أبو القاسم ابن بشران ١٤١/٢، تحقيق أحمد بن سليمان، دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ، ١٩٩٩م

(٣) تفسير البيضاوي: ١٣٠/٣

فحبـبـ النـجـارـ تـمـنـىـ بـقـوـلـهـ يـأـلـيـتـ قـوـمـيـ يـعـلـمـونـ أـنـ يـعـلـمـ قـوـمـهـ بـحـالـهـ، وـتـمـنـيـهـ هـذـاـ هوـ طـلـبـ مـحـبـبـ إـلـىـ نـفـسـهـ، فـإـنـهـ تـمـنـىـ أـنـ يـعـلـمـ قـوـمـهـ مـاـ هـوـ فـيـهـ مـنـ النـعـيمـ وـالـثـوابـ فـيـ الـآـخـرـةـ مـاـ لـاـ عـيـنـ رـأـتـ وـلـاـ أـدـنـ سـمـعـتـ وـلـاـ خـطـرـ عـلـىـ قـلـبـ بـشـرـ، لـيـدـفـعـهـمـ هـذـاـ عـلـمـ إـلـىـ الإـيمـانـ بـالـلـهـ عـزـ وـجـلـ.

٢. هل:

واللفظة الثانية الموضوقة للتمني هي: "هل" والأصل أنها للاستفهام، وسبب العدول عن "لَيْتَ" إلى "هل" إبراز المُتمنّى لكمال العناية به في صورة الممكـن الذي لا يـجـزـمـ بـأـنـقـائـهـ^(١).

والذي يحدد أن معنى هل الاستفهام أو التمني هو مقتضى الحال الذي ترد فيه كما يقول السـكـاكـيـ رـحـمـهـ اللـهـ: "كـمـاـ إـذـاـ قـلـتـ هـلـ لـيـ منـ شـفـعـيـ فـيـ مـقـامـ لـاـ يـسـعـ إـمـكـانـ التـصـدـيقـ بـوـجـودـ الشـفـعـيـ اـمـتـنـعـ إـجـرـاءـ الـاسـتـفـهـامـ عـلـىـ أـصـلـهـ وـوـلـدـ بـمـعـونـةـ قـرـائـنـ الـأـحـوـالـ مـعـنـىـ التـمـنـيـ"^(٢).

ومما جاء في القرآن الكريم من التمني بـ "هل" قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُمْ يَأْتِي﴾ تـأـوـيـلـهـ يـقـوـلـ الـذـيـنـ سـوـءـ مـنـ قـبـلـ قـدـ جـاءـتـ رـسـلـ رـبـنـاـ يـالـحـيـ فـهـلـ لـنـاـ مـنـ شـفـعـاءـ فـيـشـفـعـوـاـ لـنـاـ أـوـ نـرـدـ فـعـمـلـ غـيـرـ الـذـيـ كـنـاـ نـتـمـلـ قـدـ خـسـرـوـاـ أـنـفـسـهـمـ وـضـلـلـ عـنـهـمـ مـاـ كـانـواـ يـفـتـرـوـنـ﴾^(٣) الأعراف: ٥٣، قال البيضاوي رـحـمـهـ اللـهـ: (فـهـلـ لـنـاـ مـنـ شـفـعـاءـ فـيـشـفـعـوـاـ لـنـاـ) الـيـوـمـ. (أـوـ نـرـدـ) أـوـ هـلـ نـرـدـ إـلـىـ الـدـنـيـاـ. وـقـرـئـ بـالـنـصـبـ عـطـفـاـ عـلـىـ (فـيـشـفـعـوـاـ)، أـوـ لـأـنـ أـوـ بـمـعـنـىـ إـلـىـ أـنـ، فـعـلـيـ الـأـوـلـ الـمـسـؤـلـ أـحـدـ الـأـمـرـيـنـ الشـفـاعـةـ أـوـ رـدـهـ إـلـىـ الـدـنـيـاـ، وـعـلـىـ الـثـانـيـ أـنـ يـكـونـ لـهـمـ شـفـعـاءـ إـمـاـ لـأـحـدـ الـأـمـرـيـنـ أـوـ لـأـمـرـ وـاحـدـ وـهـوـ الرـدـ^(٤).

فيـفـهـمـ منـ كـلـامـ الـبـيـضـاـوـيـ رـحـمـهـ اللـهـ أـنـ استـعـمـالـ هـلـ هـذـاـ لـلـسـؤـالـ، وـلـكـنـ لـيـسـ سـؤـالـ عـلـمـ، فـهـمـ يـعـلـمـونـ يـقـيـنـاـ أـنـ لـاـ شـفـعـيـ لـهـمـ كـمـاـ قـالـ اللـهـ تـعـالـيـ: ﴿فـاـلـتـاـ مـنـ شـفـعـيـنـ﴾^(٥) ﴿وـلـاـ صـدـيقـ حـمـيـ﴾^(٦) الشـعـراءـ: ١٠١ - ١٠٠، وـلـكـنـهـ سـؤـالـ تـمـنـ لـلـرـجـعـةـ إـلـىـ الـدـنـيـاـ لـيـحـصـلـوـاـ مـاـ فـاتـهـمـ مـاـ يـسـتـجـلـ بـهـ رـضـىـ اللـهـ عـزـ وـجـلـ وـدـخـولـ الـجـنـةـ.

وقد أـشـارـ الطـاهـرـ اـبـنـ عـاشـورـ إـلـىـ ذـلـكـ فـقـالـ: وـالـاسـتـفـهـامـ يـجـوزـ أـنـ يـكـونـ حـقـيقـيـاـ يـقـوـلـهـ بـعـضـهـمـ لـبـعـضـ، لـعـلـ أـحـدـهـ يـرـشـدـهـمـ إـلـىـ مـخـلـصـ لـهـمـ مـنـ تـلـكـ الـوـرـطـةـ، وـهـذـاـ القـوـلـ يـقـولـوـنـهـ فـيـ اـبـتـادـهـ

(١) جواهر البلاغة: ٨٧.

(٢) مفتاح العلوم: ٣٠٤/١.

(٣) تفسير البيضاوي: ٥٧٤/١.

رؤيه ما يهددهم قبل أن يوقنوا بانتقاء الشفيع الممحكي عنهم في قوله تعالى: ﴿فَمَا نَأَيْنَا مِنْ شَفِيعٍ﴾^(١) و﴿لَا صَدِيقٌ حَمِيمٌ﴾^(٢) الشعرا: ١٠١ - ١٠٠، ويجوز أن يكون الاستفهام مستعملاً في التمني^(٣).

٣. لو:

تُستعمل لو للتمني بدلاً من ليت لإظهار المتمنى في صورة الممتنع علماً بأن لو في أصل استعمالها حرف امتناع لامتناع^(٤).

ومن التمني بـ "لو" في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْعُوا أَحَسَنَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَعْتَهُ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^(٥) آن تقول نفس بخسرنى على ما فرطت في جنى الله وإن كنت لمن السذريين^(٦) أو تقول لو أنت الله هدى لكتبت من المؤمنين^(٧) أو تقول حين ترى العذاب لو أنت لي كرامة فأكون من المحسنين^(٨) الزمر: ٥٥ - ٥٨ ، قال البيضاوي رحمه الله: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَنِي﴾ بالإرشاد إلى الحق. ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الشرك والمعاصي. ﴿بَلْ قَدْ جَاءَتِكَ إِيَّاِي فَكَذَبْتَ إِلَيْهَا وَأَسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكُفَّارِ﴾^(٩) الزمر: ٥٩ ، رد من الله عليه لما تضمنه قوله ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَنِي﴾ من معنى النفي، وفصله عنه لأن تقديميه يفرق القراءان وتأخير المودود يخل بالنظم المطابق للوجود لأنه يتحسر بالتفريط ثم يتعال بفقد الهدایة ثم يتمنى الرجعة^(١٠).

فالبيضاوي يشير إلى أن لو استعملت هنا للتمني بقوله: "يتمنى الرجعة" ويقصد بها قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَمَةً فَأَكُونُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ، فالمرفظ في جنب الله يتمنى أن يرجع إلى الدنيا ليؤمن بالله حق الإيمان، ويستجلب رضى الله عز وجل.

٤. لعل:

الأصل في لعل أنها للترجي وليس للتمني، وهنا لا بد من التفريق بين التمني والترجي.

فالتمني قسم من أقسام الإنشاء الطلب، والترجي قسم من أقسام الإنشاء غير الطلب، وأفعال الرجاء: عسى وحرى واحلولق، ولهذا فإن الذي استقر عند بعض الناس من أن التمني طلب

(١) التحرير والتقوير: ١٥٦/٨.

(٢) من بلاغة القرآن: أ.د. محمد علوان، وأ.د. نعمان علوان: ٥٩.

(٣) تفسير البيضاوي: ١٩٤/٣

المستحيل والترجي طلب الممكن خال من الدقة، لأن التمني قد يكون لغير المستحيل، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن الترجي ليس طلباً، وإنما هو ترقب حصول الشيء^(١).

ويُتمنى بـ "عل" إذا كان المرجو بعيداً ميؤساً من حصوله، فصار شبيها بالمحالات والممكناً التي لا طماعية في حصولها^(٢).

ومن الآيات التي أوردها العلماء على التمني بـ "عل" قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَاكُنُّ أَبْنَى لِصَرْحًا لَعَلَّيْ أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴾^(٣) غافر: ٣٦، قال البيضاوي: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَاكُنُّ أَبْنَى لِصَرْحًا بَنَاءً مَكْشُوفًا عَالِيًّا مِنْ صَرْحِ الشَّيْءِ إِذَا ظَهَرَ . لَعَلَّيْ أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ الْطَرْقَ وَقَرَأَ حَفْصَ بَالْنَصْبِ عَلَى جَوَابِ التَّرْجِي وَلِعَلِهِ أَرَادَ أَنْ يَبْيَنِ لِهِ رَصْدًا فِي مَوْضِعِ عَالٍ يَرْصُدُ مِنْهُ أَحْوَالَ الْكَوَاكِبِ الَّتِي هِيَ أَسْبَابُ سَمَاوَيَةٍ تَدْلِي عَلَى الْحَوَادِثِ الْأَرْضِيَّةِ، فَيَرِي هُلْ فِيهَا مَا يَدْلِي عَلَى إِرْسَالِ اللَّهِ إِيَاهُ، أَوْ أَنْ يَرِي فَسَادَ قَوْلَ مُوسَى بْنَ أَخْبَارِهِ مِنْ إِلَهِ السَّمَاءِ يَتَوَقَّفُ عَلَى اطْلَاعِهِ وَحُصُولِهِ إِلَيْهِ، وَذَلِكَ لَا يَتَأْتِي إِلَى الصَّعُودِ إِلَى السَّمَاءِ وَهُوَ مَا لَا يَقُوِي عَلَيْهِ إِلَّا إِنْسَانٌ، وَذَلِكَ لِجَهْلِهِ بِاللَّهِ وَكِيفِيَّةِ اسْتِبَانِهِ ﴾^(٤).

فتعليق البيضاوي على هذه الآية يشير إلى أنه اعتبر "عل" للترجي، مع أنه صرّح بأنَّ المرجو - وهو الصعود إلى السماء - أمر لا يقوى عليه الإنسان، وكأنه يريد أن يعتبره من المستحيلات، والترجي لا يكون في المستحيلات وإنما هو ترقب لحدوث الممكناً، وهنا يصح أن يكون قد قصد أنَّ أصل ما وضعت له للترجي ولكن استخدمت هنا للتمني فيما هو من المستحيلات.

وذلك إبرازاً للمستحيل في صورة الممكن كما أورد ذلك صاحب فن البلاغة بقوله تعليقاً على هذه الآية: "فبلغ فرعون أسباب السماوات أمر مستحيل، وهذا يتضمن استعمال الأداة التي وضعت للتمني وهي ليت، ولكنه استعمل بدلاً منها لعل التي تقيد الرجاء، وسبب هذا العدول هو إبراز المستحيل في صورة الممكن إظهاراً لكمال العناية به والتشويق إليه"^(٤).

ولا بد من الإشارة إلى أن حروف التمني: "هل، لو" ركبت منها حروف أخرى وهي حروف التنديم والتحضيض، وهي دالة على التمني أيضاً، وفي ذلك يقول السكاكي رحمة الله: "وكان الحروف المسمة بحروف التنديم والتحضيض وهي: هلا وألا ولو لا ولو ما مأخوذة منها مركبة مع

(١) من بلاغة القرآن: أ.د. محمد علوان، وأ.د. نعمان علوان: ٥٩ (بتصرف).

(٢) علوم البلاغة للمراغي: ٦٢/١.

(٣) تفسير البيضاوي: ٢١٠-٢٠٩/٣.

(٤) فن البلاغة: عبد القادر حسين، ص. ١٥٠، عالم الكتب، الطبعة الثانية، ١٤٠٥ هـ، ١٩٨٤ م.

لا وما المزيدتين مطلوباً بالتزام التركيب التبيه على إلزام هل ولو معنى التمني، فإذا قيل هلا أكرمت أو ألا بقلب الهاء همزة أو لولا أو لوما فكان المعنى ليتك أكرمت متولداً منه معنى التنديم، فإذا قيل هلا تكرم أو لولا فكان المعنى ليتك تكرمه متولداً من معنى السؤال^(١).

"والتديم معناه جعل السامع نادماً على ترك فعله في الماضي نحو: هلا أكرمت زيداً، على معنى ليتك أكرمت؛ قصداً إلى جعله نادماً على ترك الإكرام.

والمراد بالتحضيض: حث السامع على فعل في المستقبل نحو: هلا تقوم، على معنى ليتك تقوم، قصراً إلى حثه على القيام^(٢).

ومما جاء في القرآن من التمني بأدوات التنديم والتحضيض قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَمُ الرَّبَّيِّبُونَ وَالْأَحْجَارُ عَنْ قَوْلِهِ إِلَّا نَدَرَ وَأَكَلُوهُمُ الْسُّحْنَتَ لِئَسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾^(٣) المائدة: ٦٣، قال البيضاوي رحمه الله: لَوْلَا يَنْهَمُ الرَّبَّيِّبُونَ وَالْأَحْجَارُ عَنْ قَوْلِهِ إِلَّا نَدَرَ وَأَكَلُوهُمُ الْسُّحْنَتَ تحضيض لعلمائهم على النهي عن ذلك فإن لولا إذا دخل على الماضي أفاد التوبيخ وإذا دخل على المستقبل أفاد التحضيض^(٤).

فقد دخلت لولا هنا على فعل الاستقبال وبذلك دلت على التحضيض، وأشار البيضاوي إلى أن الفعل إذا دخل على الماضي أفاد التوبيخ وهو ما أطلق العلماء عليه فيما بعد بـ "التديم".

ومن التمني بـ "لوما" قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَكْأِبُهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾^(٥) ٦ - ^(٦) لَوْمَا تَأْتِنَا بِالْمُلْتَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ^(٧) الحجر: ٦ - ٧، قال البيضاوي رحمه الله: لَوْمَا تَأْتِنَا رُكِّب لَوْ مع ما رُكِّبت مع لا لمعنى امتناع الشيء لوجود غيره والتحضيض^(٨).

ومن التمني ما جاء بـ "ألا" كقوله تعالى في قصة الهدد مع النبي الله سليمان عليه السلام: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْأَةَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تَحْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾^(٩) النمل: ٢٥، قال البيضاوي رحمه الله: وقرئ «هلا» و «هلا» بقلب الهمزة هاء و «ألا تسجدون» و «هلا تسجدون» على الخطاب. (الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْأَةَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تَحْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ) وصف له

(١) مفتاح العلوم: ٣٠٧

(٢) خلاصة المعاني: الحسن المفتى، تحقيق عبد القادر حسين، ص ٢٢٨، الناشرون العرب، السعودية.

(٣) تفسير البيضاوي: ٤٤٩/١

(٤) تفسير البيضاوي: ٢٣٤/٢

تعالى بما يوجب اختصاصه باستحقاق السجود من التقدّر بكمال القدرة والعلم حتّى على سجوده ورداً على من يسجد لغيره^(١).

فقد أفادت ألاّ أو هلاً -على اختلاف القراءات- معنى الحث على السجود كما أشار البيضاوي، الذي هو التحضيض على السجود والطاعة والتسليم لله عز وجل.

خامساً: النداء:

والنداء: هو طلب المتكلم إقبال المخاطب بحرف نائب مناب أدعوه لفظاً، نحو: يا زيد، أو تقديرأ نحو: ﴿يُوْسَفَ أَغْرِضَ عَنْ هَذَا﴾ يوسف: ٢٩^(٢).

أدوات النداء: (الهمزة، أى، يا، آى، هيا، وا)، وهي في كيفية الاستعمال نوعان: (الهمزة وأى) لنداء القريب، وباقى الأدوات لنداء البعيد^(٣).

لكن قد تستعمل تلك الأدوات لغير ما اختصت له من حيث نداء القريب والبعيد للدلالة على معنى بلاغي كما نرى ذلك في حرف النداء (يا)، فأصل وضعه أنه لنداء البعيد لكنه ينادي به القريب لمعانٍ دلنا عليها البيضاوي في تعليقه على قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَعْبُدُ وَأَرْبَكُ الَّذِي خَلَقْتُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّمَّوْنَ﴾ البقرة: ٢١ قال البيضاوي رحمة الله: و (يا) حرف وضع لنداء البعيد، وقد ينادي به القريب تزيلاً له منزلة البعيد، إما لعظمته كقول الداعي: يا رب، ويا الله، هو أقرب إليه من حبل الوريد. أو لغفلته وسوء فهمه، أو للاعتناء بالمدعو له وزيادة الحث عليه^(٤).

كما أن حروف نداء البعيد تستعمل لنداء القريب، فإنه قد تستعمل أدوات نداء القريب لنداء البعيد لغرض بلاغي وهو الإشارة إلى استحضار المنادى في ذهن المتكلم فكانه كالحاضر معه لا يغيب عن القلب، وكأنه ماثل أمام العين، كقول الشاعر:

أسكان نعمان الأراك تيقنوا
 بأنكم في ربع قلبي سكان^(٥).

(١) تفسير البيضاوي: ٥٥٦/٢

(٢) خلاصة المعاني: ٢٤٧

(٣) جواهر البلاغة: ٨٩ بتصرف.

(٤) تفسير البيضاوي: ٥٩/١

(٥) جواهر البلاغة: ٨٩

ويخرج النداء من معناه الأصلي الذي هو طلب إقبال المخاطب إلى معانٍ أخرى تستقاد من السياق، ومنها:

١. الإغراء:

وهو حث المخاطب على الفعل الطيب والبعد عن الفعل السيء^(١).

ومن النداء الذي جاء لغرض الإغراء قوله تعالى حكاية لقول هده سليمان عليه السلام:

﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَةَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلَمُونَ﴾ النمل: ٢٥.

قال البيضاوي رحمه الله: وقرأ الكسائي ويعقوب إلا بالتحفيف على أنها للتتبية ويا للنداء ومناداه محفوظ أي: ألا يا قوم اسجدوا كقوله:

وَقَالَتْ أَلَا يَا اسْمَعْ أَعِظَّكَ بِخَطَّةٍ فَقُلْتُ سَمِيعًا فَانْطَقَيْ وَأَصْبِيْ (٢).

وقد جاء في فتح القدير تعليقاً على هذه الآية: قال الكسائي: ما كنت أسمع الأشياخ يقرئونها إلا بالتحفيف على نية الأمر، فتكون «ألا» على هذه القراءة حرف تتبية واستفصال وما بعدها حرف نداء، واسجدوا فعل أمر، وكان حق الخط على هذه القراءة أن يكون هكذا «ألا يا اسجدوا»، ولكن الصحابة رضي الله عنهم أسقطوا ألف من يا وهمزة الوصل من اسجدوا ووصلوا الياء بسين اسجدوا، فصارت صورة الخط ألا يسجدوا، والمنادى محفوظ، وتقديره: ألا يا هؤلاء اسجدوا، وقد حذفت العرب المنادى كثيراً في كلامها^(٣).

وبهذا يكون الغرض من النداء في هذه الآية الإغراء والثح على السجود وعبادة الله عز وجل وليس الغرض منه طلب إقبال المخاطب.

٢. التحسس:

يأتي النداء لغرض إظهار الحسنة وذلك كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ جُنُبٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كَانَ مُنْزَلِنَ﴾ إن كانت إلا صيحة وحدة فإذا هم خمدون^(٤) يَحْسَرَةٌ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهِزُونَ^(٥) يس: ٢٨ - ٣٠، قال البيضاوي رحمه الله: (ما يأتيهم من رسول إلا

(١) من بلاغة القرآن: أ.د. محمد علوان، وأ.د. نعمان علوان: ٦١.

(٢) تفسير البيضاوي: ٥٦٥/٢

(٣) فتح القدير: محمد بن علي الشوكاني، ١٥٤/٤، دار ابن كثير ودار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

كأنوا به يَسْتَهِزُونَ) فإن المستهزئين بالناصحين المخلصين المنوط بنصحهم خير الدارين أحقاء بأن يتحسروا ويتحسرون عليهم، وقد تلهف على حاليهم الملائكة والمؤمنون من التقلين، ويجوز أن يكون تحسراً من الله عليهم على سبيل الاستعارة لتعظيم ما جنوه على أنفسهم ويعيده قراءة (يا حسْرَتِي)^(١).

٣. الاختصاص:

وهو ذكر اسم ظاهر بعد ضمير لأجل بيانه^(٢).

ومثاله قوله تعالى: ﴿ قَالُوا أَنْتُمْ جِنٌ مِّنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَرِبِّكُمْ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ هود: ٧٣ ، قال البيضاوي رحمه الله: وأهل البيت نصب على المدح أو النداء لقصد التخصيص كقولهم: اللهم اغفر لنا أيتها العصابة^(٣).

وقفات بلاغية على النداء:

الوقفة الأولى: حذف أداة النداء:

وعند الحديث على النداء والبلاغة القرآنية فيه لا بد من الإشارة إلى أن حرف النداء يُحذف ويكون لغرض بلاغي بديع كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَاهَا قَيْصَرَهُ فَقَدْ مِنْ دُبُرِ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنْ إِنَّ كَيْدَكُنْ عَظِيمٌ ﴾ يوسف: ٢٨ - ٢٩ ، فقد تبين للعزيز أن يوسف عليه السلام بريء من التهمة المنسوبة إليه، بشهادة الشاهد من أهلها، فلما تبين له ذلك بالدليل القاطع نادى يوسف عليه السلام وحذف حرف النداء ليدل على أنه أسر بالحديث ليوسف لأن هذه القضية تمس شرفه ومكانته، وكأنه يريد منه أن يبقى الأمر طي الكتمان، ولا يستجاب للأنظار بأداة النداء.

ولقد علق البيضاوي رحمه الله على هذه الآية بقوله: يُوْسُفُ حَذَفَ مِنْهُ حِرْفَ النِّدَاء لِقُرْبِهِ وَتَفَطَّنَهُ لِلْحَدِيثِ . أَغْرِضَ عَنْ هَذَا اكْتِمَهُ وَلَا تَذَكِّرْهُ^(٤).

ومن جميل ما عُلِقَ على هذه الآية ما جاء في كتاب خصائص التراكيب قال: والشاهد حذف حرف النداء، وله هنا رمز لطيف، وكأنه يهمس بهذا الخبر في أذن يوسف محاذراً أن يسمعه

(١) تفسير البيضاوي: ١٣١/٣

(٢) جواهر البلاغة: ٩٠

(٣) تفسير البيضاوي: ١٤٠/٢

(٤) تفسير البيضاوي: ١٧٠/٢

أحد، ثم فيه تقريب، وملائفة ليوسف عليه السلام، وإيماء خفي بأن الخبر كله يجب أن يُضمِّن في السرائر، وألا يجري به لسان، وكان المجتمع المصري في فجر التاريخ مجتمع سيادة وشرف وثراء وملك ونعمة، وقيم وأخلاق^(١).

الوقفة الثانية: تكرار أداة النداء:

حرف النداء قد يُحذف كما مضى ويؤدي إلى معنى بلاجيء بديع، وقد يُكرَّر لمعنى بديع أيضاً كما جاء في قصة الرجل المؤمن الذي هو من آل فرعون وقد كان يكتُم إيمانه: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ أَهْلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَنْقَلَبُوا رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ غافر: ٢٨، فقد نادى قومه مراراً وتكراراً وأعاد حرف النداء في كل مرة، فالنداء الأول قول الله تعالى: ﴿يَقُولُ لَكُمُ الْمَلَكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَصْرُّنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا فَأَلَّا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا آرَى وَمَا يَقُولُ لَكُمُ الْمَلَكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَصْرُّنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا فَأَلَّا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا آرَى وَمَا أَهْدِيْكُمْ إِلَّا سَيْلَ الرَّشَادِ﴾^(٢) غافر: ٢٩، والنداء الثاني: ﴿يَقُولُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْرَابِ﴾^(٣) غافر: ٣٠، والنداء الثالث: ﴿وَيَقُولُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّيَادِ﴾^(٤) غافر: ٣٢، والرابع: ﴿يَنْقُومُ أَتَّيْعُونَ أَهْدِيْكُمْ سَيْلَ الرَّشَادِ﴾^(٥) غافر: ٣٨، والخامس: ﴿يَنْقُومُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَلَذٌ أَلَّا خَرَّةٌ هِيَ دَارُ الْفَرَارِ﴾^(٦) غافر: ٣٩، والنداء السادس: ﴿وَيَنْقُومُ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى الْجَوَزَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى الْأَنَارِ﴾^(٧) غافر: ٤١.

ويكشف لنا البيضاوي رحمة الله السر وراء تكرار النداء في هذه الآيات فيقول: كَرَّ نداءهم إيقاظاً لهم عن سُنة الغفلة واهتمامًا بالمنادي له، ومبالغة في توبيخهم على ما يقابلون به نصحه^(٨).

(١) خصائص التراكيب: محمد أبو موسى، ص ١٥٨، مكتبة وهبة، الطبعة السابعة.

(٢) تفسير البيضاوي: ٢١٠/٣

المبحث الثاني: التعريف والتنكير

من الأساليب البلاغية البدعة التي عرفت في بلاغتنا العربية التعريف والتنكير، وهو أسلوب بديع يتعلق بمقتضى حال السياق، فقد يصلح التعريف في مقام لا يصلح فيه التنكير وعلى العكس أيضاً، ونرى ذلك واضحاً وماثلاً في كثير من آيات القرآن الكريم.

فنقرأ تارة قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّي أَجْعَلْ هَذَا بَلَدًا إِيمَانًا وَأَنْزَقْ أَهْلَهُ مِنَ الشَّرَرِ﴾ البقرة: ١٢٦، ونقرأ في موضع آخر قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّي أَجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ إِيمَانًا وَأَجْنَبَنِي وَبَقَ آنَّ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ إبراهيم: ٣٥.

ونقرأ أيضاً قوله تعالى: ﴿أَهْدَنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الفاتحة: ٦ ، وفي آية أخرى: ﴿إِنَّا فَتَحَنَّ لَكَ فَتَحَمَّنَّا﴾ ١ ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأْخَرَ وَيُغْفِرَ لَكَ مَا تَعْمَلُ﴾ ٢ ﴿وَهَدَيْكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ الفتح: ١ - ٢ .

فأسلوب التعريف والتنكير وارد في لغة العرب وفي كتاب الله عز وجل فحري بنا أن نبحث عن أسراره ودقائقه لنقف على روعته وأثره في الدلالة على المعنى المراد^(١).

والسر في مجيء آية ﴿رَبِّي أَجْعَلْ هَذَا بَلَدًا إِيمَانًا﴾ البقرة: ١٢٦ نكرة، ومجيء آية ﴿رَبِّي أَجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ إِيمَانًا﴾ إبراهيم: ٣٥ معرفة، هو أن الأولى كانت من دعاء إبراهيم عليه السلام في قدومه الأول إلى مكة، عندما ترك فيها زوجته وابنه إسماعيل عليه السلام، حيث لم تكن البلد بلداً معروفة محددة المعالم بل كانت وادياً لذلك جاءت نكرة، فلذلك يكون المدعو به هنا في هذه الآية من إبراهيم عليه السلام أمرين: الأمر الأول أن تصبح بلداً في المستقبل، والثاني أن تصبح آمنة.

أما الآية الثانية فقد كانت من دعاء إبراهيم عليه السلام بعد أن أصبحت بلداً معروفة باسمها وهيتها فلذلك عرّفها بأـل التعريف التي هي للعهد، ويكون المدعو به هنا في هذه الآية الأـمن فقط^(٢).

(١) انظر: البلاغة فنونها وأفاناتها علم المعاني: ٢٩٥

(٢) انظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى: شهاب الدين الألوسي، ٣٧٩/١، تحقيق علي عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

أما سبب مجيء ﴿أَنْدَنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الفاتحة: ٦ معرفة، و﴿وَيَهِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ الفتح: ١ - ٢ نكرة، فالسبب هي أن الهداية المطلوبة في الفاتحة هي الهداية العامة والمقصود فيها بالصراط المستقيم هو طريق الحق، الذي هو طريق واحد لا يتعدد، أما (ويهديكم صراطاً مستقيماً) فقد جاءت نكرة لأنها جاءت في معرض امتنان الله على النبي والمؤمنين بعد صلح الحديبية حيث كان هذا الصلح علامة فارقة في تاريخ المسلمين لأنهم فتوحا من بعدها مكة، فالمقصود (يهديك صراطاً مستقيماً) "يزيدك هدية لم يسبق بذلك بالتوسيع في بيان الشريعة والتعريف بما لم يسبق تعريفه به منها، فالهداية إلى الصراط المستقيم ثابتة للنبي صلى الله عليه وسلم من وقت بعثته ولكنها تزداد بزيادة بيان الشريعة وبسعة بلاد الإسلام وكثرة المسلمين"^(١)

التعريف والتنكير اصطلاحاً:

المعرفة ما دلت على شيء بعينه، والنكرة ما دلت على شيء لا بعينه^(٢).

فالتعريف هو التمييز، وهو الإفراد، وهو التخصيص بعد التعميم، هو أن يكون شيء ما محدداً بين المتكلم والسامع، فيدور حوله الكلام، هذا يتحدث عنه ذاك يفكر فيه^(٣).

وفائد التعريف أن المعرفة أخص من النكرة، وكلما كانت أخص كانت أتم دلالة على المراد، لكونه أقل احتمالاً على المراد من النكرة^(٤).

أدوات التعريف:

١. الضمير:

وهو إما للمتكلم، أو المخاطب، أو الغائب، ومثال المعرف بضمير المتكلم قوله تعالى: ﴿يَمْوِسِّعُ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ النمل: ٩ ، ومثال المعرف بضمير المخاطب ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلَ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ أَلْسَمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ البقرة: ١٢٧ ، ومثال المعرف بضمير الغائب: ﴿فَنَلَقَّهُ آدَمُ مِنْ زَيْدٍ كَلَمَنِي فَقَاتَ عَيْنَهُ إِنَّهُ مَوْهُ الْوَابِ الْجَمِ﴾ البقرة: ٣٧ . فكل من (أنا)، و(أنت)، و(هو) ضمائر دلت على معرفة وفي جميعها تدل على الله عز وجل الذي هو أعرف

(١) التحرير والتوكير: ١٤٨/٢٦

(٢) الطراز: ٨/٢

(٣) بلاغة الكلمة والجملة: منير سلطان، ص ٣٣، منشأة المعارف، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، الإسكندرية.

(٤) الإشارات والتبيهات في علم البلاغة: محمد الجرجاني، ص ٣٦، تحقيق الدكتور عبد القادر حسين، دار نهضة مصر، القاهرة.

ال المعارف. يُحْكى أن سَبِيلِي رَأَيَ فِي الْمَنَامِ فَقَيلَ لَهُ: مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ؟ قَالَ: خَيْرًا كَثِيرًا، لَجَعْلِي اسْمَهُ أَعْرَفَ الْمَعَارفِ^(١).

٢. العلمية:

العلم هو الذي يعين مسماه مطلقاً، ويؤتى به ليميز مسماه عن غيره^(٢). والعلم قد يكون اسماً مثل محمد و خالد و عائشة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ إِلَيْنَا فَقَاتَلْتُمُ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾ غافر: ٣٤، وقد يكون كنية وهو العلم المصدر بـأب أو أم مثل: ﴿تَبَّتْ يَدَآئِي لَهَمِّ وَتَبَّ﴾ المسد: ١، وقد يكون لقباً مثل الفاروق والصديق.

٣. اسم الإشارة:

يأتي التعريف بأسماء الإشارة ومنها: هذا، هذان، أولئك، تلك، ذلك...، ومثال المعرف باسم الإشارة: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَأَرْبَبِ فِيهِ هُنْدِيَ الْمُتَقِيَّنَ﴾ البقرة: ٢، و﴿الَّذِينَ أَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَشْرُونَهُ حَقًّا تَلَوَّنَهُ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرُ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّمِيرَةُ﴾ البقرة: ١٢١

٤. الاسم الموصول:

الاسم الموصول من الأسماء المبهمة، ولذا فهو يحتاج إلى الصلة دائماً، فالصلة هي التي تزيل إبهامه، ألا ترى إذا قلت: جاء الذي، فكانك لم تقل شيئاً، فإذا قلت: علم ولدك، فإن هذه الصلة بدت هذا الإبهام^(٣).

ومثال التعريف باسم الموصول قوله تعالى: ﴿وَرَوَدَتْهُ أَلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّتْ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيَّتَ لَكَ قَالَ مَعَادَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّ الْأَخْسَنِ مَنْ وَاَيَ لَهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ يوسف: ٢٣

٥. التعريف بـ"أَل":

يأتي التعريف بـ"أَل" لإفاده معنى من المعاني التي تقيدها اللام.

(١) الدر المصنون في علوم الكتاب المكنون: شهاب الدين الحلبي، ١/٤٢، تحقيق أحمد الخراط، دار القلم، دمشق.

(٢) البلاغة فنونها وأفاناتها علم المعاني: ١٠٣.

(٣) انظر: البلاغة فنونها وأفاناتها علم المعاني: ٧٠٣.

أنواع لام التعريف^(١):**١. لام العهد الصريحي:**

وهي ما يتقدم مدخلولها صراحة كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورٌ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَيْشَكْوَفُ فِيهَا مَضَبَّعُ الْمُصَبَّحِ فِي زِيَاجَةِ الْزِيَاجَةِ كَانَهَا كَوْنِكَ دُرْقِي﴾ النور: ٣٥، فقد ذكر المصباح والزجاج منكرين ثم أعيداً معرفين.

٢. لام العهد الكنائي:

هي ما تقدم ذكرها كناية، أي مبهماً، تعينه القراءن، كقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ اللَّهُ كَذَلِكَ﴾ آل عمران: ٣٦، فالذكر وإن لم يتقدم صريحاً قد استفيده من (ما) في قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ آل عمران: ٣٥، إذ التحرير وهو العتق لخدمة بيت المقدس لم يكن إلا للذكر.

٣. لام العهد الحضوري:

هي ما علم مدخلولها عند المخاطب سواء أكان حاضراً أم لا، نحو: ﴿إِذْ يَأْبَعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ الفتح: ١٨، أي الشجرة المعهودة لديك.

٤. لام الحقيقة:

هي ما يشار بها إلى الحقيقة، بقطع النظر عن عمومها، وخصوصها، وتسمى لام الجنس، وهي كقوله تعالى: ﴿وَجَعَنَّا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَفَعٍ حَيٍ﴾ الأنبياء: ٣٠، إذ المراد جعلنا مبدأ كل شيء حي هذا الجنس وهو الماء.

٥. لام الحقيقة في ضمن فرد مبهم:

إذا قامت القرينة على ذلك، وتسمى لام العهد الذهني، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الظَّبْيُ﴾ يوسف: ١٣.

١. لام الاستغراق الحقيقي:

وذلك مثل قوله تعالى: ﴿عَلِمْتُ الْغَيْبَ وَالشَّهَدَةَ﴾ الأنعام: ٧٣، أي كل غيب وكل شهادة.

(١) علوم البلاغة للمراغي ١١٨-١٢٠ (بتصرف).

لام التعريف في تفسير البيضاوي:

وقد أشار البيضاوي إلى أنواعٍ من لامات التعريف في تفسيره؛ فنجده مثلاً يتطرق إلى لامي الجنس والاستغرق عند تعرضه لقوله تعالى: ﴿الْعَكْدُ لِلَّهِ بِأَنَّ الْعَكْلَمَتْ﴾ الفاتحة: ٢، قال البيضاوي رحمة الله: **والتعريف فيه للجنس** ومعنى: الإشارة إلى ما يعرف كل أحد أن الحمد ما هو؟ أو لاستغرق، إذ الحمد في الحقيقة كله له، إذ ما من خير إلا وهو موليه بوسط أو بغير وسط كما قال تعالى: **وَمَا يَكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ** وفيه إشعار بأنه تعالى هي قادر مرید عالم. إذ الحمد لا يستحقه إلا من كان هذا شأنه. وقرئ الحمد لله بإتباع الدال اللام وبالعكس تنزيلاً لهم من حيث إنهم يستعملان معاً منزلة كلمة واحدة^(١).

ويأتي البيضاوي على ذكر لام العهد ولام الجنس في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَيْنِهِمْ أَنَّدَرَتْهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾ البقرة: ٦، قال البيضاوي رحمه الله: وتعريف الموصول: إما للعهد، والمراد به ناس بأعيانهم كأبي لهب، وأبي جهل، والوليد بن المغيرة، وأحبار اليهود، أو للجنس، متداولاً من صمم على الكفر، وغيرهم، فخص منهم غير المصرىن بما أنسد إليه^(٢).

وقد أشار البيضاوي أيضاً إلى لام العهد الصريحي - وهو الذي يتقدم ذكره - في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ فَصَنَعَ فِرْعَوْنُ مِثْقَالَ الرَّسُولِ فَأَخْذَتْهُ أَخْذًا وَيَلًِا﴾ المزمول: ١٥ - ١٦، قال البيضاوي رحمه الله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾ يا أهل مكة. شَهِدًا عَلَيْكُمْ يوم القيمة بالإجابة والامتناع، كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ فِرْعَوْنَ رَسُولًا يعني موسى عليه الصلاة والسلام يشهد عليكم ولم يعينه لأن المقصود لم يتعلق به، (فَصَنَعَ فِرْعَوْنُ مِثْقَالَ الرَّسُولِ) عَرَفَهُ لسبق ذكره.^(٣)

الأغراض البلاغية للتعرف:

يأتي التعريف دالاً على المعاني الأصلية التي وضعت له كالدلالة على الجنس أو العهد، ويأتي للدلالة على أغراض بلاغية أخرى تستقاد من السياق، ونرى ذلك كثيراً في القرآن الكريم، جاء على ذكرها البيضاوي في تفسيره أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ومن تلك الأغراض:

١٣/١ تفسير البيضاوى:

(٢) تفسير البيضاوى: ٤٠ / ١

٤٦١ تفسير البيضاوي:

١. التكثير:

يأتي الاسم معرفاً للدلالة على الكثرة كما في قوله تعالى حكاية عن آل فرعون: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا نَاهِنَّ وَلَنْ نُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَطْبَرُوا بِمُؤْسَنٍ وَمَنْ مَعَهُ وَالآئمَّا طَلَبُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١) الأعراف: ١٣١، قال البيضاوي رحمه الله: وإنما عرف الحسنة وذكرها مع أداة التحقيق لكثرة وقوعها، وتعلق الإرادة بإحداثها بالذات، ونكر السيئة وأتى بها مع حرف الشك لندرتها وعدم القصد لها إلا بالتبع^(٢).

فالله عز وجل في هذه الآية يُقصُّ علينا أحوال آل فرعون، وكفرهم بالله عز وجل، فعندما أراد الله تعداد نعمه عليهم وصفها بـ(الحسنة)، معرفة ليدل على كثرة ما أنعم الله عليهم من النعم التي لا تُحصى، وعندما أراد -جَلَ اسمه- ذِكر ما ابتلاهم به قبل الحسنة المعرفة الدالة على الكثرة بـ(سيئة) النكرة الدالة على قلة تلك الابتلاءات والمصائب لأنه لو أراد أن يبيتليهم ويعذبهم بما استحقوه من العذاب لهلكوا جميعاً وإنما يُعذَّبُ ببعض الذنب لا جميعها كما قال: ﴿فَإِنْ تَوَلُّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾^(٣) المائدة: ٤٩، وكما قال: ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(٤) الروم: ٤١.

٢. التعظيم:

من الأسماء التي جاءت معرفة لأجل التعظيم قوله تعالى: ﴿أَنْتَمُونَاهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾^(٥) ﴿وَلَقَدْ رَأَاهُ زَلَّةً أُخْرَى﴾^(٦) ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾^(٧) ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَلَوَى﴾^(٨) ﴿إِذْ يَقْشِي السِّدْرَةَ مَا يَقْشِي﴾^(٩) النجم: ١٢ - ١٦، قال البيضاوي غفر الله له: ﴿إِذْ يَقْشِي السِّدْرَةَ مَا يَقْشِي﴾ تعظيم وتکثير لما يغشاها بحيث لا يكتتها نعت ولا يحصيها عَدُّ، وقيل يغشاها الجم الغفير من الملائكة يعبدون الله عندها^(١٠).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِيٌ وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(١١) الأعراف: ١٧٨، قال البيضاوي رحمه الله: تصريح بأن الهدى والضلال من الله، وأن هداية الله تختص ببعض دون بعض، وأنها مستلزمة للاهتداء، والإفراد في الأول والجمع في الثاني باعتبار اللفظ، والمعنى تتبّيه على أن المهتدين كواحد لاتحاد طريقهم بخلاف الضالين، والاقتصار في

(١) تفسير البيضاوي: ٥٦٦/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٣٣٧/٣

الإخبار عن هداه الله بالمهدي تعظيم لشأن الاهداء، وتنبيه على أنه في نفسه كمال جسيم ونفع عظيم لو لم يحصل له غيره لكتفاه وأنه المستلزم للفوز بالنعم الآجلة والعنوان لها^(١).

فيفهم من كلام البيضاوي رحمة الله أن مجيء كلمة (المهدي) معرفة تقيد تعظيم شأن الاهداء وأنه أمر إذا حصل له الإنسان يكون قد حصل أمراً عظيماً لا يضره ما فاته من أمور الدنيا بعد ذلك.

٣. التشريف:

يأتي الاسم معرفة ليدل على معنى شرف وعلو مكانة المعرف كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾^(٢) المائدة: ٥٦، قال البيضاوي رحمة الله: وضع الظاهر موضع المضمر تنبيهاً على البرهان عليه فكانه قيل: ومن يتول هؤلاء فهم حزب الله وحزب الله هم الغالبون وتنويعاً بذكرهم وتعظيمها لشأنهم وتشريفاً لهم بهذا الاسم^(٣).

فقد كان حق النظم والسياق أن يكون: (من يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإنهم هم الغالبون)، لكنه عدل عن الضمير إلى إعادة اللفظ بطريقة بلاغية بدعة، وهي بتسميتهم حزبه، فعرّف الله عز وجل الـ "حزب" بعد أن كان نكرة وذلك بإضافتهم إلى نفسه العليّة، وذلك تشريفاً لهم وتعظيمها.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّكَ هَذِهِ الْبَلْدَةُ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَمْ يُكُلْ شَيْءٌ وَأُمِرْتُ أَنَّ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾^(٤) النمل: ٩١، قال البيضاوي رحمة الله: أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ذلك بعد ما بين المبدأ والمعاد وشرح أحوال القيامة، إشعاراً بأنه قد أتم الدعوة وقد كملت وما عليه بعد إلا الاستغلال بشأنه والاستغراب في عبادة ربّه، وتخصيص مكة بهذه الإضافة تشريف لها وتعظيم لشأنها^(٥).

فالله عز وجل قد أمر نبيه عليه السلام أن يقول لهم أنه يعبد ربّاً يخالف تلك الأرباب التي تعبدونها والتي لا تملك لأنفسها نفعاً ولا ضرراً، وأراد من نبيه أن يُعرّفهم على ربّهم الذي يستحق

(١) تفسير البيضاوي: ٥٨٣/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٤٤٦/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٥٧٧/٢

العبادة منفرداً دون غيره، عرّفه بأنه رَبِّ هَذِهِ الْبَلْدَةَ ، وتعريف (رب) بإضافة (هذه البلدة) وهي مكة تشريفٌ وتعظيم لها.

ولعل هناك معنى آخر في تخصيص إضافة (هذه البلدة) - والتي هي مكة - دون غيرها مما يصح أن يضاف إليها لفظ رب، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أمر بأن ينقل هذه الكلمات لكتار قريش، في معرض دعوتهم لعبادة الله، والمعلوم أنهم كانوا يُولون مكة منزلةً ومكانة عظيمة، فمقتضى الحال يناسب أن يستثمر تعظيمهم وتقديسهم لمكة والبيت المحرم، فيما يقربهم من الإيمان بالله، وذلك لأن المعنى المفهوم من هذه الإضافة: أن الذي خلق وأوجد هذا المكان وهذه البلدة التي تعظمنها وتقدسونها وتوقرون حرمتها أولى بالتعظيم والعبادة.

٤. التهويل:

ومعنى التهويل التخويف والتقييع فقد جاء في لسان العرب: **التَّهْوِيلُ: التَّقْرِيزُ وَالْأَهْوَالُ**؛ هي جَمْعُ هُوْلٍ وَهُوْلُ الْحَوْفُ وَالْأَمْرُ الشَّدِيدُ^(١).

ويأتي الاسم معروفاً في القرآن الكريم لإفاده تهويل هذا الاسم وإظهاره في مظهر الخوف والدلالة على شدته وصعوبته، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا أَلْوَانَ ۝ وَثَمُودًا فَآتَيْنَاهُمْ ۝ وَقَوْمَ نُوحَ تِنْ قَبْلَ إِنْهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمُ وَأَطْغَى ۝ وَالْمُؤْنَفَكَةُ أَهْوَى ۝ فَفَسَّنَهَا مَاغْشَى ۝﴾ النجم: ٥٠ - ٥٤.

فقد عَدَ الله في هذه الآيات ما فعله بالأقوام التي كفرت وقابلت الرسالات بالتكذيب والعداء، ذكر عاداً وثمود، وقوم نوح، ثم أتى على ذكر المؤنفة وهم قوم لوط فقال عنهم: فَفَسَّنَهَا مَاغْشَى، قال البيضاوي رحمه الله عن التعريف في هذه الآية: فيه تهويل وتعيم لما أصابهم^(٢).

والمعنى أنه أصاب قوم لوط عاذبٌ مهولٌ مخوف لا يكاد يوصف، ولذلك عرفه الله تبارك وتعالى باسم الموصول الذي يفيد التهويل والتعيم.

ومما جاء في كتاب الله من هذا القبيل قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكَرَةُ الْمَوْتِ يَأْخِذُ ذَلِكَ مَا كَثَرَ مِنْهُ ۝ ۝ ق: ١٩﴾، قال البيضاوي رحمه الله: وقرئ (سكرة الحق بالموت) على أنها لشدتها اقتضت بِهِيدُ^(٣)

(١) لسان العرب (هول): ٧١٢/١١

(٢) تفسير البيضاوي: ٣٤٢/٣

الزهوق أو لاستعقابها له كأنها جاءت به، أو على أن الباء بمعنى مع، وقيل سَكْرَةُ الحق سكرة الله واضافتها إليه للتهليل^(١).

فهي سكرة عظيمة مهولة لأنها جاءت من الله عز وجل على اعتبار أن المقصود في (سكرة الحق) على هذه القراءة هو الله عز وجل، بعظمته وجبروته وقوته، ولذلك فالتعريف بالإضافة في هذه الآية أفاد التهويل والتغريغ، لعلَّ الإنسان يحسب حساباً لهذا اليوم ويُبعِدْ له عذابه لينجو ويُسعد.

٥. الاستعطاف:

يأتي التعريف لغرض بلاغي بديع وهو الاستعطاف، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى:
 (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أُولَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتَمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ
 وَكَسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُصَارُ وَالِدَةٌ بِوَلْدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلْدِهِ) (البقرة: ٢٣٣).

فلو تأملنا قوله تعالى لَأَنْصَارَ وَلِدَهُ بُولَدَهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بُولَدُهُ لوجدنا كلمة (ولد) في كلمتي (بولدتها) و(بولده)، قد عُرِّفَ بالإضافة إلى أمه تارة وإلى أبيه تارة أخرى، وكان يمكن أن يكون النظم (لا تضارُون في أولادكم)، لكن هذه العبارة لا تحمل المعنى المراد ولا تكون بلغة كما هو الحال فيما جاء به النظم، والسرور وراء تصصيل الإضافة وتعدادها أوضحه لنا البيضاوي بقوله: وإضافة الولد إليها تارة وإليه أخرى استعطاف لها على، وتنبيه على أنه حقيق بأن يتقدما على استصلاحه والإشفاق فلا ينبغي أن يضرا به، أو أن يتضاراً بسببه^(٢).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَأَذْرَكَ فِي الْكَنْبِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَّبِيًّا ﴾ (٤١) إِذْ قَالَ لِأَيْهِ يَتَأَبَّتْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾ (٤٢) مريم: ٤١ - ٤٢ ، قال البيضاوي رحمة الله عليه: إِذْ قَالَ لِأَيْهِ يَتَأَبَّتْ الناء معوضة من ياء الإضافة ولذلك لا يقال يا أبتي ويقال يا أبنا، وإنما تذكر للاستعطاف بذلك كررها^(٣).

٦. الشموخ:

يأتي التعريف لغرض إظهار شمول المعرف لجميع ما يدل عليه، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهٍ هُوَ مُؤْمِنٌ فَاسْتَبِقُوا الْعَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا إِنَّ اللَّهَ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

(١) تفسير البيضاوي: ٣١٥/٣

(٢) تفسير البيضاوي: ١/٢٠١

(٣) تفسير البيضاوي: ٣٦٨/٢

البقرة: ١٤٨، قال البيضاوي رحمه الله: **فَأَسْتَيْقُوا الْخَيْرَاتِ** من أمر القبلة وغيره مما ينال به سعادة الدارين، أو الفاضلات من الجهات^(١).

فمجيء كلمة (الخيرات) معرفة بأجل التعريف دعوة من الله عز وجل إلى التسابق إلى جميع الخيرات وهذا ما أشار له البيضاوي بقوله: (وغيره مما ينال به سعادة الدارين)، فما ينال به سعادة الدارين تشمل كل الطاعات المأمورين بها من صيام وصلاة وزكاة وحج وأعمال قلبية وغيرها، وبهذا تكون كلمة "الخيرات" معرفة شاملة لكل تلك الطاعات والأعمال على تنوعها.

٧. التحقيق:

يأتي التعريف بقصد التحقيق كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَنْخَذُونَكَ إِلَّا هُرُزُوا أَهْدَى الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾ الفرقان: ٤١، قال البيضاوي رحمه الله: **وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَنْخَذُونَكَ إِلَّا هُرُزُوا** ما يتخذونك إلا موضع هزء أو مهزوءاً به. **أَهْدَى الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا** والإشارة للاستحقاق^(٢).

ومنه أيضاً قوله تعالى: **تَبَّئَتْ يَدَاهَا لَهَبٌ وَتَبَّ** المسد: ١، قال البيضاوي رحمه الله: وإنما كانه والتكنية تكرمة لاشتهاره بكنيته ولأن اسمه عبد العزى فاستكره ذكره، ولأنه لما كان من أصحاب النار كانت الكنية أوفق حاله، أو ليجانس قوله: ذات لهب^(٣).

فالتعريف بالعلمية وهي الكنية في (أبي لهب) أنت لقصد تحيره لأنك كان يُسمى عبد العزى، وهو اسم يفتخر به صاحبه على اعتقاده بأن العزى إله، فلما قيل له (أبي لهب)، كان ذلك تحقيقاً له.

٨. المبالغة:

يأتي الاسم معرفاً ليدل على المبالغة، وذلك كما في قوله تعالى: **يَأَيُّهَا النَّاسُ أَتَمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَهُ هُوَ أَفْغَنُ الْحَمِيدِ** فاطر: ١٥، قال البيضاوي رحمه الله: وتعريف الفقراء للمبالغة في فقرهم كأنهم لشدة افتقارهم وكثرة احتياجهم هم الفقراء، وأن افتقار سائر الخلق بالإضافة إلى فقرهم غير معند به^(٤).

(١) تفسير البيضاوي: ١٤٩/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٥٢٤/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ٥٨١/٣

(٤) تفسير البيضاوي: ١١٨/٣

ومنه قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَللّٰهُ أَعُبُدُ عِظِيْصاً لَّهُ دِيْنِهِ ۖ فَاعْبُدُوا مَا شَيْئُتُمْ مِّنْ دُونِهِ ۖ قُلْ إِنَّ الْخَسِيرِينَ الَّذِيْنَ حَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيْمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسْرَانُ الْمُبِيْنُ ۚ ۱٤ ۖ الزمر: ۱۵ - ۱۶ ۖ قال البيضاوي رحمه الله: (قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ) الكاملين في الخسارة. (الَّذِيْنَ حَسِرُوا أَنفُسَهُمْ) بالضلالة. (وَأَهْلِيْمُ) بالإضلال... (أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسْرَانُ الْمُبِيْنُ) مبالغة في خسارتهم لما فيه من الاستثناف والتصدير بـ أَلَا، وتوسيط الفصل وتعریف الخسارة ووصفه بـ المُبِيْنُ^(١).

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَأَخْفَضَ لَهُمَا جَنَاحَ الَّذِيْلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّيْتَ أَرْجُمَهُمَا كَمَا رَبَّيْنَا صَغِيرًا ۖ ۲۲ ۖ الإسراء: ۲۴ ۖ قال البيضاوي رحمه الله: وَأَخْفَضَ لَهُمَا جَنَاحَ الَّذِيْلِ تَذَلَّ لَهُمَا وَتَوَاضَعُ فِيْهِمَا... وأمره بخفضه مبالغة... وإضافته إلى الذل للبيان والمبالغة كما أضيف حاتم إلى الجود، والمعنى وانخفاض لها جناح الذل^(٢).

٩. الوصف:

يأتي التعريف للدلالة على وصف في الاسم المعرف، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَأَءَ إِذَا الظَّالِمُونَ فِيْ عَمَرَتِ الْلَّوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوْا أَيْدِيْهُمْ أَخْرِجُوْا أَنفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُبَزَّوْنَ عَذَابَ الْهُوْنِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُوْنَ عَلَى اللَّهِ عِيْرَ الْمُعْقَى وَكُنْتُمْ عَنْ مَا يَأْتِيْهُ تَسْتَكْبِرُوْنَ ۖ ۹۳ ۖ الأنعام: ۹۳ ۖ قال البيضاوي رحمه الله: تُبَزَّوْنَ عَذَابَ الْهُوْنِ أي الهوان يريدون العذاب المتضمن لشدة وإهانة، فإضافته إلى الهون لعراقته وتمكنه فيه^(٣).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ فَآتَيْنَا عَيْتَمَ رِبَّا صَرَصَرَ فِي أَيَّامٍ حَمَسَاتٍ لَّذِيْفَهُمْ عَذَابَ الْخَرْزِيِّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَعَذَابَ الْآخِرَةِ أَخْرَى وَهُمْ لَا يُصَرُّوْنَ ۖ ۱۶ ۖ فصلت: ۱۶ ۖ قال البيضاوي رحمه الله: أضاف العذاب إلى الخرزي وهو الذل على قصد وصفه به^(٤).

فكلمة (عذاب) في الآيتين عُرِفت بالإضافة إلى الهوان تارة وإلى الخزي تارة أخرى وتعريفها جاء لغرض وصف ذلك العذاب، حتى يكون رادعاً ونذيراً لل العاصين والكافرين بالله عز وجل.

(١) تفسير البيضاوي: ١٨٥/٣

(٢) تفسير البيضاوي: ٢٩٨/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ٥٠٦/١

(٤) تفسير البيضاوي: ٢٢٣/٢

والتعريف يكون كما في الأمثلة السابقة مغنىً عن التوصيف عندما يأتي معرفاً بالإضافة إلى الصفة، وقد يأتي مغنىً عن التوصيف عندما يأتي معرفاً بألف التعريف وهذا ما نص عليه البيضاوي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِإِيمَنِنَا يَمْسِمُهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُدُونَ﴾^(١) الأنعام: ٤٩ ، قال البيضاوي رحمه الله: جعل العذاب ماساً لهم كأنه الطالب للوصول إليهم، واستغنى بتعريفه عن التوصيف^(٢).

١٠. الاختصاص:

يأتي التعريف للدلالة على الاختصاص ومعناه كما جاء في لسان العرب: "اختصه: أفرد
بِهِ دُونَ غَيْرِهِ، وَيُقَالُ: اخْتَصَ فَلَانُ بِالْأَمْرِ وَتَخَصَّصَ لَهُ إِذَا انْفَرَدَ" ، وبهذا يكون معنى الاختصاص هو أن يأتي الاسم معرفاً لغرض إظهار تفرد الاسم في الدلالة على المسمى به دون غيره.

ومثاله قوله تعالى: ﴿الَّتِي تِلَكَ مَا يَنْتَ الْكِتَبِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكُنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٣) الرعد: ١ ، قال البيضاوي رحمه الله: (وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ) هو القرآن كله ومحله الجر بالعطف على الكتاب ... أو الرفع بالابتداء، وخبره الحق ... وتعريف الخبر وإن دل على اختصاص المنزل بكونه حق فهو أعم من المنزل صريحاً أو ضمناً^(٤).

أي أن ما أنزله الله عز وجل وهو القرآن الكريم هو الحق وحده، وبهذا يكون القرآن ناسخاً لكل الكتب السابقة ولا حق في الأرض إلا ما جاء في هذا الكتاب الكريم.

ومثاله الاختصاص أيضاً قوله تعالى: ﴿وَسَعَاهُمْ عَنِ الْقَرْبَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً أَبَخِرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذَا تَأْتِهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شَرَعاً وَيَوْمَ لَا يَسْتَئْنُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ بَلْلُوْهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُدُونَ﴾^(٥) الأعراف: ١٦٣ ، قال البيضاوي رحمه الله: (يَوْمَ سَبْتِهِمْ شَرَعاً) بالإضافة لاختصاصهم بأحكام فيه^(٦).

كلمة (سبتهم)، معرفة بالإضافة للدلالة على يوم السبت، وهو اليوم المعروف الذي هو من أيام الأسبوع، فجاءت الكلمة هنا معرفة للدلالة على أن الله قد خصهم بأحكام في يوم السبت وهو الامتناع عن الصيد امتحاناً لهم وابتلاءً، هذه الأحكام خاصة بهم دون غيرهم مأمورين بها في يوم السبت دون سائر الأيام، فذلك ميز الله يوم السبت عند اليهود بتعريفها بإضافتها إلى الضمير

(١) تفسير البيضاوي: ٤٩١/١

(٢) تفسير البيضاوي: ١٩٦/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ٥٧٨/١

الdal عليهم في (سبتهم)، وبهذه الإضافة يتضح أن سبت اليهود في أحكامه يخالف يوم السبت عندسائر الأمم، وهذه دلالة الاختصاص في الإضافة.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَفَقَاتَهَا﴾^(١) محمد: ٢٤ ، قال البيضاوي رحمه الله: أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَفَقَاتَهَا لا يصل إليها ذكر ولا ينكشف لها أمر... وتكير القلوب لأن المراد قلوب بعض منهم أو للإشعار بأنها لإبهام أمرها في القسوة، أو لف्रط جهالتها ونكرها لأنها مبهمة منكورة وإضافة الأقوال إليها للدلالة على أقال مناسبة لها مختصة بها لا تجанс الأقوال المعهودة^(١).

وكان مجيء كلمة (أقالها) معرفة بالإضافة أفادت أن هذه الأقوال خاصة بتلك القلوب التي رفضت وأعرضت عن تدبر القرآن الكريم، وهذه الأقوال لا تتعادهم إلى غيرهم، فالقرآن مفتوحة أبواب كنوزه وروائعه وأحكامه وكل ما فيه لمن أراد التدبر، أما ذلك الذي وضع على قلبه قفل فلن يجيء من ثمار القرآن شيئاً.

(١) تفسير البيضاوي: ٢٨٩/٣

أغراض التنكير:

يأتي التنكير لأغراض بلاغية منها:

١. التعظيم:

ومن الآيات التي جاء فيها الاسم معرفاً لغرض التنكير قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقَصَاصِ حَيَاةٌ يَتَأْوِي إِلَّا بَنِ لَمَكُونَ﴾ البقرة: ١٧٩، قال البيضاوي: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقَصَاصِ حَيَاةٌ﴾ كلام في غاية الفصاحة والبلاغة من حيث جعل الشيء محل ضده، وعرف القصاص ونكر الحياة، ليدل على أن في هذا الجنس من الحكم نوعاً من الحياة عظيماً، وذلك لأن العلم به يردع القاتل عن القتل، فيكون سبب حياة نفسيين. ولأنهم كانوا يقتلون غير القاتل، والجماعة بالواحد، فتثور الفتنة الثاني تخصيص. وقيل: المراد بها الحياة الأخرى، فإن القاتل إذا اقتضى منه في الدنيا لم يؤخذ به في الآخرة^(١).

٢. التقليل:

يأتي التنكير لغرض تقليل الاسم المنكر، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿شَبَحَنَ الَّذِي أَسْرَى يَعْبُدُهُ لَيَلَامَ مِنَ الْمَسِيدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسِيدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَرَّكَنَا حَوْلَهُ لِزُرْيَهُ مِنْ مَا يَئِنَّا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ الإسراء: ١، قال البيضاوي رحمة الله: وفائدته الدلالة بتنكيره على تقليل مدة الإسراء، وذلك قرئ: «من الليل» أي بعضه كقوله: ﴿وَمِنَ الْأَيَّلِ فَتَهَجَّدُ بِهِ﴾ الإسراء: ٧٩^(٢).

فمجيء كلمة ليلاً نكرة دلت على أن الإسراء كان في جزء قليل من الليل للدلالة على عظيم قدرة الله وعظم هذه المعجزة.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْخُذُوا أَيْنَنَكُمْ دَخْلًا بَيْنَكُمْ فَنَزَلَ قَدْمًا بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذَوَّقُوا أَشْوَهَ بِمَا صَدَدُتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ النحل: ٩٤، قال البيضاوي: فنزل قدم وإنما وحد ونكر للدلالة على أن زلل قدم واحدة عظيم فكيف بأقدام كثيرة^(٣).

(١) تفسير البيضاوي: ١٦٤/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٢٨٩/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ٢٧٨/٢

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا نَتَلُو مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كَنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفْيِضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزِزُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالٍ ذَرَّةٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾٦١﴿ يومنٍ: ٦١ ، قال البيضاوي رحمه الله: (وما تكون في شأن...) ولا تكون في أمر... والضمير في (وما تكون من...) له لأن تلاوة القرآن معظم شأن الرسول، أو لأن القراءة تكون لشأن فيكون التقدير من أجله ومفعول تتلو من قرآن على أن من تبعيضة أو مزيدة لتأكيد النفي أو للقرآن، وإضماره قبل الذكر ثم بيانه تخفيم له أو الله(١).

فمجيء كلمة (قرآن) نكرة مسبوقة بحرف التبعيضة (من) دلت على التقليل، أي أن الله شاهد عليكم ومجاز لكم بقراءة القرآن ولو كان جزءاً يسيراً.

٣. التحقيق:

يأتي الاسم منكراً للدلالة على تحقيره وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ لَوْكُمُ الَّهُ يُشَّرِّعُ مِنَ الصَّيْدِ مَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ يَخْافُهُ مِنَ الْفَيْبِ فَمَنْ أَعْتَدَ فَعَدَهُ اللَّهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾٤٤﴿ المائدة: ٩٤

قال البيضاوي رحمه الله: نزلت في عام الحديبية ابتلاهم الله سبحانه وتعالي بالصيد، وكانت الوحش تغشامهم في رحالهم بحيث يتمكنون من صيدها أخذًا بأيديهم وطعنًا برماتهم وهم محرومون، **والتحقيق في (يشرع)** للتبيه على أنه ليس من العظام التي تدحش الأقدام كالابتلاء ببذل الأنفس والأموال، فمن لم يثبت عنده كيف يثبت عند ما هو أشد منه(٢).

فإيراد كلمة (بشيء) نكرة دلت على أن ما ابتلاهم الله به من تحريم الصيد، هو شيء حقيرٌ وقليل لا يقارن بابتلاءات أخرى رصدتها الله للمؤمنين كالجهاد بالمال والنفس والتضحية في سبيل الله وهذه الأمور لا يستطيعها كل المؤمنين، ومن هنا كان أجر المجاهدين عظيماً عند الله، ولا يُقارن حتى بالصدقة وإطعام الحاج وعمار بيت الله الحرام ولذلك قال الله تعالى: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سَقَائِمَ الْحَاجَ وَعَمَارَةَ الْمَسْجِدِ لَهُرَامَ كَمَّ أَمَنَ إِلَّهُ وَالْيَوْمُ الْآخِرِ وَجَهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوْنَ عَنْهُ اللَّهُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّلَمِيْنَ ﴾١٩﴿ التوبه: ١٩ .

(١) تفسير البيضاوي: ١٠٧/٢

(٢) تفسير البيضاوي: ٤٦٢/١

ومن التكثير الذي جاء لغرض التحقيق قوله تعالى: ﴿أَتَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبَهَا مِنَ الْكِتَابِ يُمْعِنُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَوْمًا فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ ^(٢٣) آل عمران: ٢٣، قال البيضاوي: وتكير النصيب يتحمل التعظيم والتحقيق ^(١).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ^(٤) الحاثية: ١٤، قال البيضاوي رحمه الله: ليجْزِيَ قَوْمًا كَانُوا يَكْسِبُونَ علة للأمر ، والقوم هم المؤمنون أو الكافرون أو كلاهما فيكون التكير للتعظيم أو التحقيق أو الشيوخ ^(٢).

٤. التعميم:

ومثاله قوله تعالى: ﴿يَكَاهُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَ كُفَّارٌ مُّنْهَا فَتَبَيَّنَوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا يَجْهَلُونَ فَنُصِيبُهُمْ عَلَى مَا فَعَلُوكُمْ نَدِيمُكُمْ﴾ ^(٦) الحجرات: ٦، وتنكير الفاسق والنبا للتعميم وتعليق الأمر بالتبين على فسق المخبر يقتضي جواز قبول خبر العدل من حيث إن المعلق على شيء بكلمة إن عدم عند عدمه، وأن خبر الواحد لو وجب تبينه من حيث هو كذلك لما رتب على الفسق، إذ الترتيب يفيد التعليل وما بالذات لا يعلل بالغير ^(٣).

والمعنى أنه إن كان الذي جاء بالخبر فاسقاً، وجب عليكم التبين من خبره، بقطع النظر عن درجة فسقه أو مكانته في المجتمع، وبهذا يكون معنى التكير في (فاسق) التعميم لتقيد كل من انتطبقت عليه صفة الفسق.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُوا يَوْمًا لَا يَجْرِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ ^(٤) البقرة: ٤٨، قال البيضاوي: لَا يَجْرِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وإيراده منكراً مع تنكير النفسي للتعميم والإفناط الكلي ^(٤).

(١) تفسير البيضاوي: ٢٥١/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٢٦٩/٣

(٣) تفسير البيضاوي: ٣٠٦/٣

(٤) تفسير البيضاوي: ٩٩/١

٥. المبالغة:

يأتي الاسم منكراً لغرض إظهار المبالغة في صفة الاسم وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ يَنْهَا أَلَّذِينَ مَاءْمُوا مَنْرَدَ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ مُّجْهَبِهِمْ وَيُحْبِبُهُمْ أَذْلَى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْزَى عَلَى الْكُفَّارِ يُجْهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَا يُبَرِّ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِ ﴾٦٤﴿ المائدة: ٥٤

قال البيضاوي: **وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَا يُبَرِّ** عطف على يجاهدون بمعنى أنهم الجامعون بين المجاهدة في سبيل الله والتصلب في دينه، أو حال بمعنى أنهم مجاهدون وحالهم خلاف حال المنافقين، فإنهم يخرجون في جيش المسلمين خائفين ملامة أوليائهم من اليهود فلا يعملون شيئاً يلحقهم فيه لوم من جهتهم، وللومة المرة من اللوم وفيها وفي تكير لائم مبالغتان (١).

والمبالغتان التي يتحدث عنها البيضاوي فسرها الشهاب ووقف عليهما في حاشيته إذ يقول: (وفيها وفي تكير لائم مبالغتان) لأنه نفى عنهم مخافة اللوم من أي لائم كان، وبانتقاء الخوف من اللومة الواحدة ينتفي خوف جميع اللومات لأن النكرة في سياق النفي تعم فإذا انضم إليها تكير فاعلها استوعب خوف جميع اللوم.

فالтельفظ الأولى في قوله: (اللومة) إذ أن هؤلاء القوم الذين سيأتي الله بهم لا يخافون أي نوع من اللومات كان، والمبالغة الثانية في قوله: (لائم) فهم لا يخافون أي لائم كان بغض النظر كان قوياً أو ضعيفاً غنياً أو فقيراً، وهذا ما أفاده التكير في الكلمتين.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَعْبُدُهُ فِي هَذَا صِرَاطُ مُسْتَقِيمٍ ﴾٦١﴿ يس: ٦١ ، قال البيضاوي رحمة الله: **هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ** إشارة إلى ما عهد إليهم أو إلى عبادته، فالجملة استئناف لبيان المقتضى للعهد بشقيه أو بالشق الآخر، والتكير للمبالغة والتعظيم (٢).

٦. النوعية:

من الأغراض التي يأتي لإفادتها التكير بيان النوعية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَصَبَتِي مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلْمَتْ وَرَعْدٌ وَرِزْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَبِعَهُمْ فِي هَذَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْقَوْاعِدِ حَذَرَ الْمَوْتٍ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكُفَّارِ ﴾١١﴿ البقرة: ١١

(١) تفسير البيضاوي: ٤٤٥/١

(٢) تفسير البيضااوي: ١٣٧/٣

١٩، قال البيضاوي رحمه الله: وتنكيره - يقصد تنكير (صيـب) - لأنـه أـريد بـه نوعـ منـ المـطر شـديـد^(١).

ومنـه ما جاءـ في قولهـ تعالى: ﴿مِمَّا حَطَّيْغُتُمُ أَغْرِقُوا فَأَذْخَلُوا فَارِقَةً يَجِدُوا لَهُم مَنْ دُونَ اللَّهَ أَنْصَارًا﴾
نـوح: ٢٥، قالـ البيـضاـويـ رـحـمـهـ اللـهـ: وـتنـكـيرـ النـارـ لـلـتعـظـيمـ أوـ لـأنـ المرـادـ نوعـ منـ النـيرـانـ^(٢).

ومنـهـ قولهـ تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَرِهِمْ غَشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾
الـبـقرـةـ: ٧، قالـ البيـضاـويـ رـحـمـهـ اللـهـ: وـمعـنىـ التـنكـيرـ فـيـ الـآـيـةـ أـنـ عـلـىـ أـبـصـارـهـ نـوعـ غـشاـوةـ لـيـسـ
ماـ يـتـعـارـفـهـ النـاسـ، وـهـوـ التـعـامـيـ عـنـ الـآـيـاتـ، وـلـهـمـ مـنـ الـآـلـامـ الـعـظـامـ نـوعـ عـظـيمـ لـاـ يـعـلـمـ كـنـهـ إـلـاـ
الـلـهـ^(٣).

٧. التهويل:

كـماـ فـيـ قـولـهـ تـعـالـىـ: ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِكُفَّارِنَا سَعِيرًا﴾^(٤) الفـتحـ: ١٣
قالـ البيـضاـويـ رـحـمـهـ اللـهـ: وـتنـكـيرـ سـعـيرـاـ لـلـتهـوـيلـ أوـ لـأنـهاـ نـارـ مـخـصـوصـةـ^(٥).

ومنـهـ قولهـ تعالى: ﴿وَجَاءُو عَلَىٰ قَيْمِصِهِ بِدَمِ كَذِبٍ قَالَ بْلَ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبَرُ جَيْلٌ وَاللَّهُ أَمْسَكَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصْنَعُونَ﴾^(٦) يـوسـفـ: ١٨، قالـ البيـضاـويـ فـيـ هـذـهـ الـآـيـةـ: بـلـ سـوـلـتـ لـكـمـ أـنـفـسـكـمـ أـمـرـاـيـ
سـهـلتـ لـكـمـ أـنـفـسـكـمـ وـهـونـتـ فـيـ أـعـيـنـكـمـ أـمـرـاـ عـظـيمـاـ مـنـ السـوـلـ وـهـوـ الـاسـترـخـاءـ^(٧).

وـيـفـهمـ مـنـ كـلـامـ البيـضاـويـ فـيـ قـولـهـ (أـمـرـاـ عـظـيمـاـ) أـيـ أـنـهـ أـمـرـ مـهـولـ مـخـيفـ، وـذـلـكـ كـمـاـ
جـاءـ عـنـ الطـاهـرـ اـبـنـ عـاشـورـ فـيـ تـعـلـيقـهـ عـلـىـ هـذـهـ الـآـيـةـ فـقـالـ: وـتنـكـيرـ (أـمـرـاـ) لـلـتهـوـيلـ^(٨).

(١) تفسير البيضاوي: ٥٥/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٤٥٣/٣

(٣) تفسير البيضاوي: ٤٤/١

(٤) تفسير البيضاوي: ٢٩٦/٣

(٥) تفسير البيضاوي: ١٦٥/٢

(٦) التحرير والتقوير: ٢٣٩/١٢

٨. الإبهام:

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ أَطْرَحُوهُ أَرْضًا يَعْلَمُ لَكُمْ وَجْهُ أَيْكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَنِيعِينَ﴾^(١) يوسف: ٩، قال البيضاوي رحمه الله: أَوْ أَطْرَحُوهُ أَرْضًا منكرة بعيدة من العمران، وهو معنى تتكيرها وإبهامها ولذلك نسبت كالظروف المبهمة^(٢).

وقد وافق تعليق البيضاوي على هذه الآية ما جاء في فتح القدير للشوكاني حيث قال: والتنكير للإبهام أي أرضاً مجهرة^(٣).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَالنَّمَاءُ ذَاتُ الْبَرْوَجِ ۖ وَالْيَوْمُ الْمَوعُودُ ۖ وَشَاهِدٌ وَمَشْهُورٌ ۖ﴾ البروج: ١ - ٣، قال البيضاوي رحمه الله: وَشَاهِدٌ وَمَشْهُورٌ ومن يشهد في ذلك اليوم من الخلق وما أحضر فيه من العجائب، وتنكيرهما للإبهام في الوصف أي وَشَاهِدٌ وَمَشْهُورٌ لا يكتبه وصفهما^(٤).

٩. التكثير:

ومثاله ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَنَسِئُسُ وَمَا سَوَّنَهَا ۖ قَالَمَهَا فُجُورُهَا وَتَقْوَنَهَا ۖ﴾ الشمس: ٧ - ٨، قال البيضاوي رحمه الله: وتنكير نفسٍ للتکثير^(٥).

ومثاله أيضاً قوله تبارك اسمه: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَخْسَرُ فِي عَلَىٰ مَا فَرَّطَتْ فِي جَنَّبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمَنِ الْسَّذِّرِينَ ۚ﴾ الزمر: ٥٦، قال البيضاوي رحمه الله: أن تقول نفسٌ كراهة أن تقول وتنكير نفس لأن القائل بعض الأنفس أو للتکثير كقول الأعشى:

وَرَبِّ بَقِيعٍ لَوْ هَتَّفْتُ بِجَوَهِ
أَتَانِي كَرِيمٌ يَنْفَضُ الرَّاسَ مُعْضِبًا^(٦).

(١) تفسير البيضاوي: ١٦٢/٢

(٢) فتح القدير: ١٠/٣

(٣) تفسير البيضاوي: ٥١٧/٣

(٤) تفسير البيضاوي: ٥٣٨ / ٣

(٥) تفسير البيضاوي: ١٩٤/٣

المبحث الثالث: التقديم والتأخير

التقديم والتأخير لغة:

جاء في لسان العرب في مادة (قدم): وَقَدْمُهُم يَقْدُمُهُم قَدْمًا وَقُدُومًا وَقَدْمُهُم، كِلَاهُمَا: صَارَ أَمَّا هُمْ... وَقِيلَ: مُقَدَّمَةٌ كُلِّ شَيْءٍ أَوْلَهُ، وَمُقَدَّمٌ كُلِّ شَيْءٍ تَقْيِضُ مُؤَخِّرَهُ... الْجَوْهَرِيُّ قَدَمٌ، بِالْفَتْحِ يَقْدُمُ قُدُومًا أَيْ تَقَدَّمَ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدُهُمُ النَّارَ وَيَئُسَّ أَلْوَرُدَ الْمَوْرُودَ﴾ هود: ٩٨ أَيْ يَتَقَدَّمُهُم إِلَى النَّارِ^(١).

أما التأخير لغة فقد قال عنه ابن منظور: فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى: الْآخِرُ وَالْمُؤَخِّرُ، فَالْآخِرُ هُوَ الْبَاقِي بَعْدَ فَنَاءِ خَلْقِهِ كُلِّهِ نَاطِقُهُ وَصَامِتُهُ، وَالْمُؤَخِّرُ هُوَ الَّذِي يُؤَخِّرُ الْأَشْيَاءَ فَيَضْعُفُهَا فِي مَوَاضِعِهَا، وَهُوَ ضِدُّ الْمُقَدِّمِ، وَالْآخِرُ ضِدُّ الْقُدُمِ... وَالتَّأْخِيرُ: ضِدُّ الْتَّقْدِيمِ^(٢).

التقديم والتأخير اصطلاحاً:

عرف الطوفي البغدادي التقديم والتأخير فقال: هو جعل اللفظ في رتبة قبل رتبته الأصلية أو بعدها، لعارض اختصاص أو أهمية أو ضرورة^(٣).

مبحث التقديم والتأخير مبحث دقيق بديع من مباحث علم المعاني تظهر فيه روعة البلاغة العربية، فقد وقف عنده العلماء كثيراً في القرآن الكريم وفي اللغة العربية بشكل عام، فقد قال عنه الإمام الشیخ عبد القاهر الجرجاني: هو بابٌ كثیر الفوائد، جمُّ المحسن، واسعُ التصرف، بعيدُ الغایة، لا يزال يُعَتَّرُ لك عن بدیعه، ویُقْضی بكَ إلی لطیفة، ولا تزال ترى شعراً یروقك مسمعه، ویُلْطِفُ لديك موقعه، ثم تنتظر فتجد سببَ أنْ رائقَ ولطفَ عندك، أنْ قُدِّمَ فیه شيءٌ، وحولَ اللفظ عن مكانِ إلى مكان^(٤).

وقد أشار العلوی في الطراز إلى بلاغة التقديم والتأخير فقال: اعلم أن منزلة المعنى من اللفظ هي منزلة الروح من الجسد، فكل لفظ لا معنى له فهو بمنزلة جسد لا روح فيه ومفهوم علم المعاني، هو إدراك خواص مفردات الكلم بالتقديم والتأخير، وفهم مركباتها، ونعني بقولنا إدراك خواص المفردات في التقديم والتأخير ما يفهم من قولنا زيد منطلق، ومنطلق زيد، ومن الكرام زيد،

(١) لسان العرب (قدم): ٤٦٥/١٢.

(٢) لسان العرب (آخر): ١١/٤.

(٣) الإكسير في علم التفسير: سليمان الطوفي، ص ١٨٩، تحقيق عبد القادر حسين، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الثانية.

(٤) دلائل الاعجاز في علم المعاني: عبد القاهر الجرجاني، ص ١٠٦، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدنی بالقاهرة ودار المدنی بجدة، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

وزيد من الكرام، وبقولنا وفهم مركباتها، وهو ما في قوله زيد قائم، وإن زيدا لقائما، فكل واحد من هذه الصور يفيد معنى غير ما يفيده الآخر من أجل التركيب، وهكذا القول في جميع التراكيب، فإنها دالة على معانٍ بدعة، ومرشدة إلى أسرار عجيبة^(١).

أما الزركشي فقال في التقديم والتأخير: **هُوَ أَحَدُ أَسَالِبِ الْبَلَاغَةِ فَإِنَّهُمْ أَتَوْا بِهِ دَلَالَةً عَلَى تَمْكِنِهِمْ فِي الْفَصَاحَةِ وَمَلْكَتِهِمْ فِي الْكَلَامِ وَأَقْيَادِهِ لَهُمْ وَلَهُ فِي الْقُلُوبِ أَحْسَنُ مَوْعِظٍ وَأَعْذَبُ مَذَاقٍ.**

وقد اختلف في عدّه من المجاز فمِنْهُمْ مَنْ عَدَهُ مِنْهُ لِأَنَّهُ تَقْدِيمٌ مَا رُبْتَهُ التَّأْخِيرُ كَالْمَفْعُولِ وَتَأْخِيرُ مَا رُبْتَهُ التَّقْدِيمُ كَالْفَاعِلِ نَقْلٌ وَاحِدٌ مِنْهُمَا عَنْ رُبْتَهُ وَحْقَهُ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْهُ فَإِنَّ الْمَجَازَ نَقْلٌ مَا وُضِعَ لَهُ إِلَى مَا لَمْ يُوضَعُ^(٢).

والتقديم والتأخير مبحث قرر قواعده وبينها أفضل بيان الإمام عبد القاهر الجرجاني - رحمه الله - وكان الناس من قبل عبد القاهر يتحدثون عن التقديم والتأخير حديثاً عاماً، فيقولون: إنما يُقدم الشيء للاهتمام به^(٣).

فقد قسم الإمام عبد القاهر الجرجاني التقديم والتأخير إلى قسمين فقال: واعلم أنّ تقديم الشيء على وجهين: تقديم يقال إنه على نية التأخير، وذلك في كلّ شيء أقرّته مع التقديم على حكمه الذي كان عليه، وفي جنسه الذي كان فيه، كخبر المبتدأ إذا قدمته على المبتدأ، والمفعول إذا قدمته على الفاعل كقولك: "منطلق زيد" و "ضرب عمراً زيد"، معلوم أن "منطلق" و "عمراً" لم يُخرجَا بالتقديم عما كانا عليه، من كون هذا خبر مبتدأ ومروعاً بذلك، وكون ذلك مفعولاً ومنصوباً من أجله كما يكون إذا أحْرَثَ.

وتقديم لا على نية التأخير، ولكن على أن تُنقل الشيء عن حكم إلى حكم، وتجعل له باباً غير بابه، وإعراباً غير إعرابه، وذلك أن تجيء إلى اسمين يُحملُ كُلُّ واحِدٍ منها أن يكون مبتدأ ويكون الآخر خبراً له، فتقديم تارةً هذا على ذاك، وأخرى ذاك على هذا. ومثاله ما تصنّعه بزيده والمنطلق، حيث تقول مرة: "زيد المنطلق"، وأخرى، "المنطلق زيد"، فأنت في هذا لم تقدم "المنطلق" على أن يكون متروكاً على حكمه الذي كان عليه مع التأخير، فيكون خبر مبتدأ كما كان، بل

(١) الطراز: ١٣١/٣

(٢) البرهان في علوم القرآن: ٢٣٣/٣

(٣) البلاغة فنونها وأفاناتها علم المعاني: ٢١٠

على أن تُنفَلَّه عن كونه خبراً إلى كونه مبتدأً، وكذلك لم تؤخِّر "زياداً" على أن يكون مبتدأ كما كان، بل على أن تُخرجَه عن كونه مبتدأ إلى كونه خبراً^(١).

فالألفاظ عند نظمها في اللغة لا بد من ترتيبها وفق المعنى المراد في نفس المتكلم لتدل على معنى، ولا يصح إطلاق الألفاظ دون مراعاة ترتيبها، ومن هنا يتضح تقاضل قول على قول واستحسان بعضهم لهذا البيت وانتقادهم لذاك، فالميزان الذي يوزن به شرف القول ووضاعته هو طريقة التركيب والنظم والترتيب وليس الألفاظ المجردة.

وإن صحَّ لنا أن نشبه الكلام فإننا نشبهه بالعقد الذي يُراد له أن يكون جميلاً بديعاً، مبهراً للأنظار، مؤثراً في النفوس، فإنه لا بد فيه عند تأليف حباته وخرزه وضمها إلى بعضها البعض من مراعاة الترتيب فيها فلا تُقْدَم حبة ولا تُؤخَّر أخرى إلا لغرض تكوين الصورة البدية التي يريد أن يُخرج عليها الناظم ذلك العقد، ولو وضع الناظم الحبات كيما اتفق دون مراعاة الترتيب لسلب منه الجمال والروعة ولكن مما يرغب عنه صاحبه.

وعن أهمية النظم في الألفاظ وترتيبها يقول الإمام عبد القاهر في أسرار البلاغة: اعلم أن الكلام هو الذي يعطي العلوم منازلها، ويبيّن مراتبها، ويكشف عن صورها، ويجني صنوف ثمرها، ويدل على سائرها، وينير مكون ضمائرها... وإذا كان هذا الوصف مقوم ذاته وأحسن صفاته، كان أشرف أنواعه - يعني الكلام - ما كان فيه أجي وأظهر، وبه أولى وأجدر، ومن ها هنا يبيّن للمحصّل، ويقرّر في نفس المتأمّل، كيف ينبغي أن يَحْكُم في تقاضل الأقوال إذا أراد أن يقسّم بينها حظوظها من الاستحسان، ويعدّ القسمة بتصانيف القسطاس والميزان، ومن بين الجلي أن التباين في هذه الفضيلة، والتباين عنها إلى ما ينافيها من الرذيلة، ليس بمجرد اللفظ، كيف والألفاظ لا تُقيّد حتى تُؤلَّف ضريراً خاصاً من التأليف، ويُعتمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب، فلو أنك عَمَدت إلى بيت شعر أو فصل نثر فعددت كلماته عدداً كيف جاء واتفق، وأبطلت نضده ونظامه الذي عليهبني، وفيه أفرغ المعنى وأجري، وغيرت ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد ما أفاد، وببساطة المخصوص أبان المراد... وفي ثبوت هذا الأصل ما تعلم به أن المعنى الذي له كان هذه الكلم بيت شعر أو فصل خطاب، هو ترتيبها على طريقة معلومة، وحصولها على صورة من التأليف مخصوصة، وهذا الحكم - يعني الاختصاص في الترتيب - يقع في الألفاظ مرتبأ على

(١) دلائل الاعجاز: ١٠٦-١٠٧.

المعاني المرتبة في النفس، المنتظمة فيها على قضية العقل، ولا يتصور في الألفاظ وجوب تقديم وتأخير، وتختص في ترتيب وتنزيل، وعلى ذلك وضعت المراتب والمنازل في الجمل المركبة^(١).

وأكثر ما يظهر جمال وبلاهة التقديم والتأخير في القرآن الكريم "فالآية القرآنية، وإن كانت تجمع داخلها بعض المعطوفات فإن هذا الجمع لا يكون دون ترتيب ولا نظام، فإذا كان من الجائز أن يتقدم بعض أجزاء الجملة على بعض، فقد حرمت الجملة في القرآن، على أن يكون هذا التقديم، مشيراً إلى مغزى، دالاً على هدف، حتى تصبح الآية بتكوينها، تابعة لمنهج نفسي، يتقدم عندها فيها ما تجد النفس تقديمها أفضل من التأخير، فيتقدم مثلاً بعض أجزاء الجملة حين يكون المحور الذي يدور عليه الحديث وحده، فيكون هو المقصود والمعنى، والنفس يتقدم عندها من يكون هذا شأنه، فلا جرم أن يتقدم في الجملة، كما تقدم في النفس"^(٢)

فلا يصح أن تقدم لفظة أو تؤخر أخرى إلا لغرض في نفس المتكلم، وقد ذكر البلاغيون أغراضًا بلاغية للتقديم والتأخير، نذكر منها ما جاء في تفسير البيضاوي:

الأغراض البلاغية للتقديم والتأخير:

١. التخصيص:

يأتي التقديم أحياناً لغرض التخصيص ومعنى التخصيص: النسبة إلى شيء دون غيره^(٣).

وقالوا التخصيص: رفع الاحتمال في المعرفة، وتقليل الاشتراك في النكرات^(٤).

فيأتي التقديم لإفادة التخصيص ويقصد به نسبة الشيء إلى شيء ونفيه عما سواه، وذلك بطرق كثيرة جاءت بها آيات القرآن الكريم.

فمن التقديم الذي جاء لغرض التخصيص قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَىُ اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعَلَمَوْا﴾ فاطر: ٢٨، قال البيضاوي رحمه الله: إذ شرط الخشية معرفة المخشي والعلم بصفاته وأفعاله، فمن كان أعلم به كان أخشى منه ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «إنى أخشاكم الله وأنقاكم له»، ولذلك

(١) أسرار البلاغة: ٤-٥.

(٢) من بلاغة القرآن لأحمد بدوي: ٩٠.

(٣) حاشية كتاب الإيضاح: ١٦٢/٢.

(٤) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة: عبد المتعال الصعيدي، ٩٩/١، مكتبة الآداب، الطبعة السابعة عشر،

٢٠٠٥ هـ، ١٤٢٦ م

أتبعه بذكر أفعاله الدالة على كمال قدرته، وتقديم المفعول لأن المقصود حصر الفاعلية ولو أُخِّر انعكس الأمر^(١).

فتقديم لفظ الجلالة وهو (الله) أفادت تخصيص حكم الخشية والخوف من الله بـ(العلماء) أي أنه ليس هناك من يخشى الله حق الخشية ويعرف قدره إلا العلماء.

وقد تعرَّض شيخ البلاغة الإمام عبد القاهر الجرجاني لهذه الآية وأوضح غرض التقاديم فيها فقال: إن تقديم اسم الله تعالى إنما كان لأجل أن الغرض أن يبيّن الخاשون مَنْ هُمْ، ويُحَبِّر بأنهم العلماء خاصةً دون غيرهم. ولو أُخِّر ذكر اسم الله وقدم "العلماء" فقيل: "إِنَّمَا يَخْشَى الْعُلَمَاءُ اللَّهُ" ، لصار المعنى على ضد ما هو عليه الآن، ولصار الغرض بيان المَخْسِيَّ مَنْ هُوَ، والإخبار بأنه الله تعالى دون غيره، ولم يَجِبْ حينئذٍ أن تكون الخشية من الله تعالى مقصورةً على العلماء، وأن يكونوا مخصوصين بها كما هو الغرض في الآية، بل كان يكون المعنى أنَّ غير العلماء يَخْشَونَ الله تعالى أيضاً، إِلَّا أَنَّهُمْ مَعَ حَشِيتِهِمُ اللَّهُ تَعَالَى يَخْشَوْنَ مَعَهُ غَيْرَهُ، والعلماء لا يَخْشَوْنَ غيرَ الله تعالى.

وهذا المعنى وإن كان قد جاء في التزيل في غير هذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهُ﴾ الأحزاب: ٣٩، فليس هو الغرض في الآية، ولا اللفظ بمحتمل له البُتْة. ومنْ أجاز حملها عليه، كان قد أبطأ فائدة التقاديم، وسوَّى بين قوله تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}، وبين أن يُقال: "إِنَّمَا يَخْشَى الْعُلَمَاءُ اللَّهُ" ، وإذا سوَّى بينهما، لزمه أن يسوِّي بين قوله: "ما ضرب زيداً إلا عمرو" وبين: "ما ضرب عمرو إلا زيداً" ، وذلك ما لا شبهة في امتلاكه^(٢).

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ تَبَدَّلُ وَإِنَّكَ نَسْتَعِيْنُ﴾ الفاتحة: ٥، قال البيضاوي رحمه الله: ثم إنه لما ذَكَرَ الحقيق بالحمد، ووصف بصفات عظام تميز بها عن سائر الذوات وتعلق العلم بمعلوم معين خوطب بذلك، أي: يا من هذا شأنه نخصك بالعبادة والاستعانة، ليكون أدل على الاختصاص^(٣).

(١) تفسير البيضاوي: ١٢١/٣

(٢) دلائل الاعجاز: ٣٣٨-٣٣٩.

(٣) تفسير البيضاوي: ١٥/١.

وقد أورد السَّكَاكِي هذه الآية في مفتاح العلوم في معرض حديثه عن التقديم والتأخير فقال:
والتحصيص لازم للتقديم ولذلك تسمع أنْمَة علم المعاني في معنى ﴿إِيَّاكَ نَبْشُرُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾
يقولون نخصك بالعبادة لا نعبد غيرك، ونخصك بالاستعانة منك لا نستعين أحدا سواك^(١).

وَقَرِيبًا مِنَ الْآيَةِ السَّابِقَةِ قُولَهُ تَعَالَى : ﴿ يَتَأَبَّلُهَا الَّذِينَ أَمْتَوْا كُلَّاً مِنْ طَبِيعَتِهِ مَا رَزَقْنَاهُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كَنْتُمْ إِيمَانَكُلُّهُونَ ﴾ البقرة: ١٧٢ ، قَالَ الْبَيْضَاعِي رَحْمَهُ اللَّهُ: وَأَشْكُرُوا اللَّهَ عَلَى مَا رَزَقَكُمْ وَأَحَلَّ لَكُمْ إِنْ كَنْتُمْ إِيمَانَكُلُّهُونَ إِنْ صَحَّ أَنْكُمْ تَخْصُّونَهُ بِالْعِبَادَةِ، وَتُقْرُونَ أَنَّهُ مَوْلَى النَّعْمَ، فَإِنْ عَبَادَتُهُ تَعَالَى لَا تَنْتَمْ إِلَّا بِالشَّكْرِ^(٢).

فتقديم المفعول في (إياه تعبدون) أفادت اختصاص الله عز وجل بالعبادة دون غيره ولذلك قال البيضاوي: (إن صح أنكم تخصونه بالعبادة).

وكما أن تقديم المفعول على الفعل تقيد التخصيص كما في الآيات السابقة، فتقديم الظرف أيضاً يأتي للتخصيص كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسًا وَهُمْ فِي مَا أَشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَلِيلُوْنَ﴾ (١٠٢) الأنبياء: قال البيضاوي رحمه الله: وتقديم الظرف للاختصاص والاهتمام به^(٣).

ومنه قوله تعالى: ﴿أَولَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا إِمَانًا وَيُنْسَخِطُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَإِلْبَطِيلٍ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ العنكبوت: ٦٧، قال البيضاوي رحمه الله: وتقديم الصلتين للاهتمام أو الاختصاص على طريق المبالغة^(٤).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿يُسَيِّدُ اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ التغابن: ١، قال البيضاوي رحمه الله: لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ قدَّمَ الطرفين للدلالة على اختصاص الأمرين به من حيث الحقيقة^(٥).

٢٣٣ مفتاح العلوم:

١٥٨/١ تفسير البيضاوي:

(٣) تفسير البيضاوي: ٤٣٤ / ٢

٤) تفسير البيضاوي:

٤١٠ / ٣) تفسير البيضاوي:

ومنه قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَشَقُّ الْأَرْضَ عَنْهُمْ سِرَايَاً ذَلِكَ حَسْرٌ عَيْنَانِي سَيِّرٌ ﴾ ﴿ ٤٤ ﴾ ، قال البيضاوي رحمه الله: وتقديم الظرف للاختصاص فإن ذلك لا يتيسر إلا على العالم القادر لذاته الذي لا يشغله شأن عن شأن^(١).

٢. تقوية الحكم وتقريره في نفس السامع:

تُقدم الكلمة لإفاده تقوية الحكم وتقريره في نفس السامع، وهذا الغرض تعرّض له الإمام عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز وبسط الحديث عنه، فقد أوضح الإمام أنّ تقديم الفاعل على الفعل في الجمل المثبتة نحو: "زيد قد فعل" و"أنا فعلت" و"أنت فعلت" يفيد أحد معنيين:

الأول: التخصيص، وقال في ذلك رحمه الله: ومثال ذلك أن تقول "أنا كتبت في معنى فلان وأنا شفعت في بابه"، تزيد أن تدعى الانفراد بذلك والاستبداد به، وتزيل الاشتباه فيه، وتزد على من زعم أن ذلك كان من غيرك، أو أن غيرك قد كتب فيه كما كتب^(٢).

الثاني: تقوية الحكم وتأكيده لدى السامع: وفي ذلك يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني: أن لا يكون القصد إلى الفاعل على هذا المعنى، ولكن على أنك أردت أن تتحقق على السامع أنه قد فعل، وتمتنعه من الشك، فأنت لذلك تبدأ بذكره، وتوّقعه أولاً ومن قبل أن تذكر الفعل في نفسه، لكي تباعده بذلك من الشبهة، وتمتنعه من الإنكار، أو من أن يُظن بك الغلط أو التزيّد. ومثاله قولك: "هو يعطي الجزيء"، و "هو يحب الثناء"، لا تزيد أن ترمع أنه ليس هنا من يعطي الجزيء ويحب الثناء غيره، ولا أن تُعرض بإنسان وتحطّه عنه، وتجعله لا يعطي كما يعطي، ولا يرحب كما يرحب، ولكنك تزيد أن تتحقق على السامع أن إعطاء الجزيء وحب الثناء دأبه، وأن تمكّن ذلك في نفسه^(٣).

والسبب الذي جعل تقديم المحدث عنه على الفعل آكد وأثبت لدى السامع أن الإنسان عندما يُحدث بالاسم في مطلع الحديث يتهيأ ليعلم الفعل الذي قام به أو وقع منه ويكون أكثر استعداد ويوطن نفسه ليعلم خبره.

وفي ذلك يقول شيخ البلاغة عبد القاهر الجرجاني: فإن قلت: فمن أين وجّب أن يكون تقديم ذكر المحدث عنه بالفعل، آكذ لإثبات ذلك الفعل له... فإن ذلك من أجمل أنه لا يؤتى بالاسم

(١) تفسير البيضاوي: ٣١٩/٣

(٢) دلائل الإعجاز: ١٢٨ .

(٣) دلائل الإعجاز: ١٢٩-١٢٨ .

مُعَرَّى من العوامل إلَّا لِحَدِيثٍ قد نَوَى إِسْنَادَهُ إِلَيْهِ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ، فَإِنْ قَلْتَ: "عَبْدُ اللَّهِ"، فَقَدْ أَشَعَرْتَ قَبْلَهُ بِذَلِكَ أَنَّكَ قَدْ أَرَدْتَ الْحَدِيثَ عَنْهُ، فَإِذَا جَئْتَ بِالْحَدِيثِ فَقُلْتَ مَثَلًا: "قَامَ" أَوْ قَلْتَ: "خَرَجَ"، أَوْ قَلْتَ: "فَقِيمَ" فَقَدْ عُلِمَ مَا جَئْتَ بِهِ وَقَدْ طَأَتْ لَهُ وَقَدْمَتْ الإِعْلَامُ فِيهِ، فَدَخَلَ عَلَى الْقَلْبِ دُخُولَ الْمَأْنُوسِ بِهِ، وَقَبْلَهُ قَبْولُ الْمَهِيَأِ لِهِ الْمَطْمَئِنَ إِلَيْهِ، وَذَلِكَ لَا مَحَالَةَ أَشَدُ لِثَبَوَتِهِ، وَأَنْقَى لِلشُّبُهَةِ، وَأَمْنَعُ لِلشُّكُّ، وَأَدْخُلُ فِي التَّحْقِيقِ.

وَجَمِلَةُ الْأَمْرِ أَنَّهُ لَيْسَ إِعْلَامُكَ الشَّيْءَ بَغْتَةً غَفَلًا، مَثْلُ إِعْلَامِكَ لَهُ بَعْدَ التَّبَيِّهِ عَلَيْهِ وَالتَّقدِيمَ لَهُ، لَأَنَّ ذَلِكَ يَجْرِي مَجْرِي تَكْرِيرِ الإِعْلَامِ فِي التَّأكِيدِ وَالْإِحْكَامِ. وَمَنْ هُنَّا قَالُوا: إِنَّ الشَّيْءَ إِذَا أُضْمِرَ ثُمَّ فُسِّرَ، كَانَ ذَلِكَ أَفْخَمَ لَهُ مِنْ أَنْ يُذَكَّرَ مِنْ غَيْرِ تَقْدِيمِ إِصْمَارٍ^(١).

وَلَعَلَّ الْمَعْنَى الَّذِي أَرَدَهُ الْإِمَامُ عَبْدُ الْقَاهِرِ الْجَرْجَانِيُّ فِي قَوْلِهِ: (لَأَنَّ ذَلِكَ يَجْرِي مَجْرِي تَكْرِيرِ الإِعْلَامِ فِي التَّأكِيدِ وَالْإِحْكَامِ)، أَنَّهُ عِنْدَمَا يَقْدِمُ الْمَحْدُثُ عَنْهُ عَلَى الْفَعْلِ بِقَوْلِنَا مَثَلًا: (زَيْدٌ جَاءَ) فَقَدْ وَرَدَ ذَكْرُ الْفَاعِلِ هُنَّا مَرْتَيْنِ، الْمَرَّةُ الْأُولَى الْاسْمُ صَرَاحَةً بِقَوْلِنَا فِي الْبَدَائِيَّةِ (زَيْدٌ)، ثُمَّ تَكْرَارُهُ مَرَّةً أُخْرَى بِالضَّمِيرِ الَّذِي هُوَ فَاعِلُ الْفَعْلِ (جَاءَ) فَيَكُونُ الْفَاعِلُ مَكْرَرًا مَرْتَيْنِ وَبِذَلِكَ يَكُونُ أَكْثَرُ تَأكِيدًا وَأَقْوَى فِي ذَهَنِ السَّامِعِ.

وَمِنَ الْكَلِمَاتِ الَّتِي تَأْتِي مَقْدِمَةً لِغَرْضِ التَّأكِيدِ وَتَقوِيَّةِ الْحُكْمِ لَدِيِّ السَّامِعِ (مَثَلُ) وَ(غَيْرِهِ)، وَقَدْ أُورَدُهُمَا الْقَزوِينِيُّ فِي الإِيْضَاحِ وَمَثَلُ لِلْأُولَى بِقَوْلِ الْمَتَبَّنِيِّ:

مَثَلُكَ يَثْنِي الْمَزْنَ عنْ صُوبَهِ وَيَسْتَرِدُ الدَّمْعَ مِنْ غَرْبِهِ

وَمَثَلُ لِ(غَيْرِهِ) بِقَوْلِ الشَّاعِرِ:

غَيْرِي بِأَكْثَرِ هَذَا النَّاسِ يَنْخُدُونَ إِنْ قَاتَلُوا جَبَنُوا أَوْ حَدَثُوا شَجَعُوا

فَإِنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ أَنْ يَعْرُضَ بِوَاحِدٍ هَنَاكَ فِي صِفَتِهِ أَنَّهُ يَنْخُدُ بِلَ أَرَادَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ يَنْخُدُ... وَاسْتَعْمَالُ "مَثَلٌ" وَ"غَيْرُهُ" هَكَذَا مَرْكُوزٌ فِي الْطَّبَاعِ، وَإِذَا تَصَفَّحْتَ الْكَلَامَ وَجَدْتَهُمَا يَقْدِمَانِ أَبَدًا عَلَى الْفَعْلِ إِذَا نَحَى بِهِمَا نَحْوَ مَا ذَكَرْنَا، وَلَا يَسْتَقِيمُ الْمَعْنَى فِيهِمَا إِذَا لَمْ يَقْدِمَا وَالسَّرِّ فِي ذَلِكَ أَنْ تَقْدِيمَهُمَا يَفِيدُ تَقْوِيَةَ الْحُكْمِ بِهِ كَمَا سَبَقَ تَقْرِيرِهِ^(٢).

(١) دَلَائلُ الْاعْجَازِ: ١٣٢.

(٢) الإِيْضَاحُ: ٧٠-٧٣.

ومما جاء في القرآن من التقديم لأجل تقرير الكلام وتأكيده في ذهن السامع قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾^(١) آل عمران: ٨٣، قال صاحب أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾ وتقديم المفعول لأنّه المقصود بالإنكار^(٢).

ويُفهم من قول البيضاوي: (وتقديم المفعول لأنّه المقصود بالإنكار) أن تقديم (غير دين الله) على الفعل (يبغون) أكد وأكثر تقريراً مما لو أخرنا المفعول به فقلنا: (أبغون غير دين الله)، لأن الإنكار واقع على كل الآلهة والأديان التي تختلف دين الله عز وجل فهي خطأ وكفر من حيث أصلها، أما لو قدم الفعل فإنه إنكار للفعل فقط وليس إنكاراً للأديان التي تختلف دين الله ومن هنا كانت البلاغة في التقديم والتأخير.

ومما جاء من التقديم لغرض التأكيد وتقوية الحكم في ذهن السامع قوله علت كلمته: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِرُّ مَا هُمْ فِيهِ وَيَنْطَلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٣) الأعراف: ١٣٩، قال البيضاوي رحمه الله: وتقديم الخبرين في الجملتين الواقعتين خبراً لأن للتبيه على أن الدمار لاحق لما هم فيه لا محالة، وأن الإحباط الكلي لازب لما مضى عنهم تتفيراً وتحذيراً عمما طلبوا^(٤).

يُفهم من كلام البيضاوي أن تقديم الخبرين في (متبر ما هم فيه) و(وينطلل ما كانوا يعملون)، جاء لغرض التأكيد وذلك عند قوله: (على أن الدمار لاحق لما هم فيه لا محالة)، لأن أصل الجملتين قبل التقديم: (ما هم فيه متبر)، و(ما كانوا يعملون باطل).

٣. العناية والاهتمام:

تُقدم الكلمة الأهم وتؤخر الكلمة الأقل أهمية، ومعنى العناية والأهمية ذكره لنا الإمام عبد القاهر الجرجاني فقال: وقال النحويون: إنّ معنى ذلك أنه قد يكون من أغراض الناس في فعل ما أن يقع بإنسانٍ بعينه، ولا يُبالون مَنْ أَوْقَعَهُ، كمثل ما يعلم مِنْ حالِهِمْ في حالِ الْخَارِجِيِّ يَحْرُجُ فِي عِيْثٍ وَيُفْسِدُ، ويُكثُرُ بِهِ الْأَذْى، أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ قُتْلَهُ، ولا يُبالون مَنْ كَانَ القُتْلُ مِنْهُ، ولا يَعْنِيهِمْ مِنْهُ شَيْءٌ. فإذا قُتِلَ، وأرادَ مُرِيدُ الْإِخْبَارِ بِذَلِكَ، فَإِنَّهُ يُقْدِمُ ذِكْرَ الْخَارِجِيِّ فَيَقُولُ: "قُتِلَ الْخَارِجِيُّ زَيْدٌ"، ولا يقول: "قُتِلَ زَيْدُ الْخَارِجِيُّ"، لأنَّه يَعْلَمُ أَنَّ لِيْسَ لِلنَّاسِ فِي أَنَّ يَعْلَمُوا أَنَّ الْقَاتِلَ لَهُ "زَيْدٌ" جَدُوا وَفَانِدَةً، فَيَعْنِيهِمْ

(١) تفسير البيضاوي: ٢٧٤/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٥٦٩/١

ذَكْرُهُ وَيَهْمُمُهُ وَيَتَّسِعُ بِمَسْرِتِهِمْ وَيَعْلَمُ مِنْ حَالِهِمْ أَنَّ الَّذِي هُمْ مَتَوَقِّعُونَ لَهُ وَمُتَطَلِّعُونَ إِلَيْهِ مَا تَيَّبَّنُ، وَقَوْعُ الْقَتْلِ بِالْخَارِجِيِّ الْمُفْسِدِ، وَأَنَّهُمْ قَدْ كَفُوا شَرَّهُ وَتَخَلَّصُوا مِنْهُ.

ثم قالوا: فَإِنْ كَانَ رَجُلٌ لَيْسَ لَهُ بِأَسْنَى وَلَا يَقْدِرُ فِيهِ أَنْ يَقْتُلُ، فَقَتْلَ رَجُلًا، وَأَرَادَ الْمُخْبَرُ أَنْ يَخْبُرَ بِذَلِكَ، فَإِنَّهُ يُقْدِمُ ذِكْرَ الْقَاتِلِ فَيَقُولُ: "قَتَلَ زَيْدٌ رَجُلًا"، ذَاكَ لِأَنَّ الَّذِي يَغْنِيهِ وَيَعْنَيُ النَّاسَ مِنْ شَأْنِ هَذَا الْقَتْلِ، طَرَافَتُهُ وَمَوْضِعُ النَّذْرِ فِيهِ، وَبَعْدُهُ كَانَ مِنَ الظَّنِّ. وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَادِرًا وَبَعِيدًا مِنْ حَيْثُ كَانَ وَاقِعًا بِالذِّي وَقَعَ بِهِ، وَلَكُنْ مِنْ حَيْثُ كَانَ وَاقِعًا مِنَ الذِّي وَقَعَ مِنْهُ^(١).

فَالْأَهْمَى وَالْعَنْيَةُ تَعْنِي أَيِّ الْأَمْرَيْنِ أَهْمَ لِلنَّاسِ الْفَاعِلُ أَمَ الْمَفْعُولُ بِهِ، فَإِنْ كَانَ الْفَاعِلُ مِنْهُمْ لِلنَّاسِ بِعَضُ النَّظَرِ عَمَّنْ يَقُولُ بِهِ وَجْبُ تَقْدِيمِهِ، إِنْ كَانَ الْمَفْعُولُ بِهِ أَعْنَى وَأَهْمَ وَجْبُ تَقْدِيمِهِ لِيَكُونَ أَدْعَى إِلَى تَحْقِيقِ الْمَعْنَى وَأَوْقَعَ أثْرًا فِي نُفُوسِ الْمُسْتَعْمِنِينَ.

وَقَدْ جَاءَ سِيبِيُوِيْهُ عَلَى ذِكْرِ الْأَهْمَى وَالْعَنْيَةِ فِي كِتَابِهِ عِنْ تَقْدِيمِ الْمَفْعُولِ عَلَى الْفَاعِلِ فَقَالَ: كَأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَقْدِمُونَ الَّذِي بِبَيَانِهِ أَهْمَ لَهُمْ وَهُمْ بِبَيَانِهِ أَعْنَى، إِنْ كَانَا جَمِيعاً يُهْمَانُهُمْ وَيَعْنَيُنَاهُمْ^(٢).

لَكِنَّ الْإِمَامَ عَبْدَ الْقَاهِرِ الْجَرْجَانِيَّ عَلَقَ عَلَى قَوْلِ سِيبِيُوِيْهِ وَذَكَرَ أَنَّ قَوْلَنَا إِنَّ التَّقْدِيمَ وَالتَّأْخِيرَ جَاءَ لِأَجْلِ الْعَنْيَةِ وَالْإِهْتَمَامِ غَيْرَ كَافِ فَلَا بدَّ أَنْ نَشِيرَ إِلَى وَجْهِ الْعَنْيَةِ وَالْإِهْتَمَامِ الَّذِي أَرِيدَ مِنَ التَّقْدِيمِ، فَقَالَ رَحْمَةُ اللَّهِ: وَقَدْ وَقَعَ فِي ظَنُونِ النَّاسِ أَنَّهُ يَكْفِي أَنْ يَقُولَ: "إِنَّهُ قَدِمَ لِلْعَنْيَةِ، وَلَأَنَّ ذَكْرَهُ أَهْمُّ"، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُذَكِّرَ، مِنْ أَيْنَ كَانَتْ تِلْكَ الْعَنْيَةُ؟ وَبِمَا كَانَ أَهْمَّ؟ وَلِتَخْلِيلِهِمْ ذَلِكَ، قَدْ صَغَرَ أَمْرُ "الْتَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ" فِي نُفُوسِهِمْ، وَهَوَانُوا الْخَطْبَ فِيهِ، حَتَّى إِنَّكَ لَتَرَى أَكْثَرَهُمْ يَرِي تَتَبَعَّهُ وَالنَّظَرُ فِيهِ ضَرِيْبَاً مِنَ التَّكْلُفِ. وَلَمْ تَرَ ظَنَّاً أَزْرِي عَلَى صَاحِبِهِ مِنْ هَذَا وَشَبَهِه^(٣).

وَمِنَ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ الَّذِي جَاءَ لِأَجْلِ الْعَنْيَةِ وَالْإِهْتَمَامِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَرَفَعَ أَبُوئِلَهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرَأَ لَهُ مُسْجَدًا ﴾ يُوسُفُ: ١٠٠، قَالَ الْبَيْضَاوِي رَحْمَةُ اللَّهِ: تَحْيَةٌ وَتَكْرَمَةٌ لِهِ إِنَّ السُّجُودَ كَانَ عِنْهُمْ يَجْرِي مَجْرَاهَا... وَالرَّفْعُ مُؤْخِرٌ عَنِ الْخَرْرَوْرِ إِنْ قَدِمَ لِفَظًا لِلْإِهْتَمَامِ بِتَعْظِيمِهِ لَهُمَا^(٤).

(١) دلائل الاعجاز: ١٠٧-١٠٨.

(٢) الكتاب: لسيبوبيه: ١/٣٤.

(٣) دلائل الاعجاز: ١٠٧-١٠٨.

(٤) تفسير البيضاوي: ٢/١٩١، والخرر السقوط كما جاء في لسان العرب (مادة خرر) ٤/٢٣٥: (وَخَرَّ لِلَّهِ ساجِدًا يَخْرُجُ ثُرُورًا أَيْ سَقَطًا).

فخور إخوة يوسف مع أبيه سجداً كان أول قدومهم ودخولهم عليه لأنها سنة الدخول على الملوك، إذ كان القادر يعظم الملك ويحيييه عند دخوله بهذا الخرور، ومن ثم تكريمه يوسف عليه السلام لأبيه بأن رفعهم على العرش وأجلسهم بجواره، لكن الآية ذكرت الرفع على العرش قبل الخرور وهو مؤخر عنه زمانياً وذلك دلالة على أهمية تعظيم يوسف لأبيه وحبه لهما وبيره بهما، وكأن المراد من الآية: أن منزلة يوسف عليه السلام العظيمة في مصر، وفضله الذي ظهر على إخوته بعد ما فعلوه به، لم يُنسه عظيم فضل والديه عليه، وكأنه يريد أن يشير إلى أنه لولا والديه بعد الله لما وصل إليه، فهي الأخلاق العالية التي يجب أن يتحلى بها المؤمن في السراء وفي الضراء.

ونرى هذه الأخلاق تمتد من يوسف عليه السلام على إخوته في تناصيه لما فعلوا في قوله:

(وَقَدْ أَحَسَنَ بِإِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْرِ وَمَنْ بَعْدَ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِ وَيْنَ إِخْوَتِي) ﴿١٠﴾ يوسف: ١٠٠، فقد نسب يوسف عليه السلام ما فعله به إخوته من وضعه في البئر، وإبعاده عن أهله عشرات السنوات، كل ذلك تناصاه يوسف عليه السلام ونسب هذا العمل إلى الشيطان وزنه، وذلك تطبيباً لنفوس إخوانه، وجبراً لخواطرهم، وهو الذي قال لهم من قبل: (قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَعْفُرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) ﴿٩٩﴾ يوسف: ٩٩.

وننقى مع أنبياء الله عز وجل، وهذه المرة مع موسى عليه السلام، فقد حكى الله في القرآن دعاءه حين قال: (قَالَ رَبِّي أَشَحَّ لِي صَدَرِي ﴿٢٥﴾ وَبَرَّ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَأَحْلَلْتُ عَقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَقْهُمُوا فَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَأَجْعَلْتُ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ طه: ٢٥ - ٣٠، قال البيضاوي رحمه الله: ومفعولاً (اجعل) وَزِيرًا، وهارون، قدم ثانيهما للعناية به^(١).

وكان المفعولين في أصل ترتيبهما في الجملة: (واعجل هارون وزيراً)، لكن النظم القرآني جاء بتقديم المفعول الثاني وهو (وزيراً) على المفعول الأول (هارون) للعناية به، ووجه العناية به أن المعنى: أن موسى عليه السلام كان يريد وزيراً يساعدته في تحمل أعباء الدعوة، بغض النظر إن كان هذا هارون أو غيره بشرط أن توفر له صفات الوزير الذي يصلح لهذا المنصب، ولم يكن همه فقط أن ينزل أخيه هارون منصباً ومرتبة إذ لو كان ذلك كذلك لقدم هارون على الوزير، فدعا وقال: (اجعل هارون وزيراً)، ومن هنا تتضح لنا المعاني البدعة التي لا يمكن أن تظهر إلا في التقديم والتأخير ومدلولاته البلاغية.

(١) تفسير البيضاوي: ٣٨٩/٢

ومن التقديم والتأخير لأجل العناية والاهتمام ما جاء في دعاء سليمان عليه السلام ﷺ قال رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَابُ ﴿٢٥﴾ ص: ٣٥، قال البيضاوي رحمه الله: (قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي) لا يتسهل له ولا يكون معجزة لي مناسبة لحاله، أو لا ينبغي لأحد أن يسلبه مني بعد هذه السلبة، أو لا يصح لأحد من بعدي لعظمته... وتقديم الاستغفار على الاستيهاب لمزيد اهتمامه بأمر الدين ووجوب تقديم ما يجعل الدعاء بصدق الإجابة^(١).

ومنه قول إبراهيم عليه السلام حال دعوته قومه إلى الله عز وجل وإنكاره عبادتهم غير الله: ﴿إِذْ قَالَ لِآيِهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾٤٠﴿ أَيْفَكَا إِلَهَهُمْ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾٤١﴾ الصافات: ٨٥ - ٨٦، قال البيضاوي رحمه الله: (إِفْكًا إِلَهَهُمْ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ) أي تريدون آلهة دون الله إفكًا مقدماً المفعول للعناية ثم المفعول له لأن الأهم أن يقرر أنهم على الباطل ومبني أمرهم على الافاك^(٢).

ومن التقديم والتأخير لأجل العناية والاهتمام قوله تعالى: ﴿قُلْ أَسْبَدُوكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ صَرَاوَلَا نَقْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾٢٧﴾ المائدة: ٧٦، قال البيضاوي رحمه الله: وإنما قدم الضر لأن التحرز عنه أهم من تحري النفع^(٣).

٤. تقديم الكثير على ما دونه:

تقدم الكلمة وتؤخر أخرى إن كان المقدم أكثر من المؤخر، ولذلك أمثلة كثيرة، ومنها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقُونَ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾٢٩﴾ فاطر: ٣٢.

قال البيضاوي رحمه الله: (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ) حكمنا بتوريثه منك ... (الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا) يعني علماء الأمة من الصحابة ومن بعدهم، أو الأمة بأسرهم فإن الله اصطفاهم على سائر الأمم (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ) بالقصیر في العمل به. (وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ) يعمل به في غالب الأوقات. (وَمِنْهُمْ سَابِقُ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ) بضم التعليم والإرشاد إلى العمل... وقيل الظالم الكافر على أن الضمير للعباد، وتقديمه لكتلة الظالمين^(٤).

(١) تفسير البيضاوي: ١٧٤/٣

(٢) تفسير البيضاوي: ١٥٢/٣

(٣) تفسير البيضاوي: ٤٥٤/١

(٤) تفسير البيضاوي: ١٢٢/٣

وقد أورد ابن الأثير هذه الآية وعلق عليها بقوله: وإنما قدم الظالم لنفسه للإيذان بكثره، وأن معظم الخلق عليه، ثم أتى بعده بالمقتدين؛ لأنهم قليل بالإضافة إليه، ثم أتى بالسابقين وهو أقل من القليل -أعني من المقتدين- فقدم الأكثر، وبعده الأوسط، ثم ذكر الأقل آخرًا^(١).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿الرَّازِيَةُ وَالرَّازِيَ فَاجْلِدُوهُ كُلَّهُ وَجِدُوهُ مِنْهُمَا مَا نَهَا جَلَقُهُ وَلَا تَأْخُذُكُمْ بِهِمَا رَأْفَةً فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تَرْوِيْنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشَهَدَ عَذَابَهُمَا طَالِفَةً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ النور: ٢، قال القاضي البيضاوي: وإنما قدم الرازية لأن الزنا في الأغلب يكون بتعرضها للرجل وعرض نفسها عليه ولأن مفسدته تتحقق بالإضافة إليها^(٢).

فأكثر الزنى الحاصل في المجتمعات يكون سببه تعرض المرأة للرجل، أو إظهار مفاتنها، أو موافقتها عليه، وأنها رضيت بمقدماته من النظر، والخلوة، لأن الله أرشدنا إلى اجتناب المقدمات لأنها المفضية إلى النهاية الماحقة، فقال: ﴿وَلَا نَقْرُبُوا الرِّزْقَ إِنَّهُ كَانَ فَحْشَةً وَسَاءَةً سَيِّلَا﴾ الإسراء: ٣٢، فنهانا الله عن قربانه فقال: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْصُوْنَ مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَنَ لَمْنَ إِنَّ اللَّهَ حَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُبْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ النور: ٣٠ - ٣١

لأجل ذلك كان تقديم الرازية في هذه الآية أولى من تأخيرها لأن أكثر الزنى واقع برغبتهن أو بتساهمهن في مخالطة الرجال، وإلا فإن الرجل لا يتجرأ على هذا الفعل الفاحش إلا برضاء المرأة وتساهمها.

وفي المقابل عندما تحدث الله عز وجل عن السرقة في قوله: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوْا أَيْدِيهِمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَلَّا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ المائدة: ٣٨

قدم السارق على السارقة في هذه الآية أيضاً لاعتبار الكثرة فإن أكثر وقوعه يكون من الرجال لا من النساء وذلك لأن الرجل أقدر من المرأة على القيام بهذا العمل لأنه يحتاج إلى قوة وحركة واعتلاء للأسوار، وهذا ما لا يوجد عند المرأة في العموم الأغلب.

ومنه قوله تعالى: ﴿لَلَّهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهُبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِذَا وَيَهُبُ لِمَنْ يَشَاءُ الدُّكْرَ﴾ أو بزوجهم ذكرنا وإن شاء وجعل من يشاء عقيماً إله، عَلِيهِ قَدِيرٌ الشورى: ٤٩ - ٥٠

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين بن الأثير، ١٨٣/٢، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طباعة، دار نهضة مصر، القاهرة.

(٢) تفسير البيضاوي: ٤٨٤/٢.

قال البيضاوي رحمه الله: (أَوْ يُرَوِّجُهُمْ ذُكْرًا وَإِنَّا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا) والمعنى يجعل أحوال العباد في الأولاد مختلفة على مقتضى المشيئة فيهب لبعض إما صنفاً واحداً من ذكر أو أنثى أو الصنفين جميعاً ويعقم آخرين، ولعل تقديم الإناث لأنها أكثر لتكثر النسل^(١).

٥. تقدم الكلمة لتقديمها في الزمن:

تقدم الكلمة وتؤخر أخرى باعتبار الترتيب الزمني لكل منها، والآيات التي جاءت على هذا النحو كثيرة منها قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ الفاتحة: ٣، قال البيضاوي رحمه الله: و(الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) اسمان بنيا للمبالغة من رحم، كالغضبان من غضب، والعليم من علم، والرحمة في اللغة: رقة القلب، وانعطاف يقتضي التفضل والإحسان، ومنه الرَّحِيم لانعطافها على ما فيها. وأسماء الله تعالى إنما توخذ باعتبار الغايات التي هي أفعال دون المبادي التي تكون انفعالات. والرَّحْمَنُ أبلغ من الرَّحِيم، لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى كما في قطع وقطع وكبار وكبار، وذلك إنما يؤخذ تارة باعتبار الكمية، وأخرى باعتبار الكيفية، فعلى الأول قيل: يا رحمن الدنيا لأنه يعم المؤمن والكافر، ورحيم الآخرة لأنه يخص المؤمن، وعلى الثاني قيل: يا رحمن الدنيا والآخرة، ورحيم الدنيا، لأن النعم الأخرى كلها جسام، وأما النعم الدنيوية فجليلة ومحيرة، وإنما قدم والقياس يقتضي الترقى من الأدنى إلى الأعلى، لتقديم رحمة الدنيا^(٢).

ومن التقديم الذي جاء باعتبار الترتيب الزمني قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَقُّ الْقَيُومُ لَا تَأْخُذُهُ سَنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ البقرة: ٢٥٥، قال البيضاوي رحمه الله: (لَا تَأْخُذُهُ سَنَةٌ وَلَا نَوْمٌ) السنة فتور يتقدم النوم... والنوم حال تعرض للحيوان من استرخاء أعصاب الدماغ من رطوبات الأخرة المتتصاعدة، بحيث تقف الحواس الظاهرة عن الإحساس رأساً، وتقدم السنة عليه وقياس المبالغة عكسه على ترتيب الوجود^(٣).

ومعنى (ترتيب الوجود)، أي الترتيب الزمني إذ أن السنة تقدم النوم فهي سابقة عليه من حيث الحصول.

(١) تفسير البيضاوي: ٢٤٢/٣.

(٢) تفسير البيضاوي: ١١/١.

(٣) تفسير البيضاوي: ٢١٥/١.

٦. الترقى من الأدنى إلى الأعلى:

ومثاله قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفِي عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ ﴿٥﴾ آل عمران: ٥، قال البيضاوي رحمه الله: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفِي عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ) أي شيء كائن في العالم كلياً كان أو جزئياً، إيماناً أو كفراً. فعبر عنه بالسماء والأرض إذ الحس لا يتتجاوزهما، وإنما قدم الأرض ترقياً من الأدنى إلى الأعلى^(١).

٧. التقديم للرتبة والشرف:

تقديم الكلمة للدلالة على شرف ومكانة المقدم على المؤخر ، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَقَرُونَ وَفَرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُؤْمِنٰ بِالْيَتِينَتْ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَيِّقِينَ﴾ ﴿٢٩﴾ العنكبوت: ٣٩، قال صاحب أنوار التزيل: (وقارون وفرعون وهامان)... وتقديم قارون لشرف نسبه^(٢).

وشرف قارون أنه كان من قوم موسى قبل أن يبغي عليهم كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمٍ مُوسَىٰ بَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ القصص: ٧٦

ومثال التقديم الذي جاء للرتبة والشرف والفضل أيضاً قوله تعالى: ﴿فَاضْرِبْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَيَّعَ حِمَدَ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ أَنَّاَيِ الَّيْلَ فَسَيَّعَ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرَضَى﴾ ﴿١٣٠﴾ طه: ١٣٠، قال البيضاوي رحمه الله: (وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ) ومن ساعاته... (فَسَبِّحْ) يعني المغرب والعشاء وإنما قدم زمان الليل لاختصاصه بمزيد الفضل فإن القلب فيه أجمع والنفس أميل إلى الاستراحة فكانت العبادة فيه أحمز ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ نَاشِنَةَ الَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْكًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ ﴿٦١﴾ المزمول: ٦١.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمُتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَكْفُرُونَ﴾ ﴿١﴾ الأنعام: ١، قال البيضاوي رحمه الله: وجمع السموات دون الأرض وهي مثلهن لأن طبقاتها مختلفة بالذات متفاوتة الآثار والحركات، وقدمها لشرفها وعلو مكانها وتقدير وجودها^(٤).

(١) تفسير البيضاوي: ٢٤٣/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٣٦/٣

(٣) تفسير البيضاوي: ٤٠٩/٢

(٤) تفسير البيضاوي: ٤٧٧/١.

٨. المناسبة والسياق:

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿لَكِنَ الرَّسُولُونَ فِي الْعِلْمِ مُتَّهِمُونَ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْمُقْرِئِينَ الظَّلَوةُ وَالْمُؤْتَوْبُونَ الْرَّكْوَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَمَوَاتِهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ^(١) النساء : ١٦٢ ، قال البيضاوي رحمه الله: (والمؤمنون بالله واليوم الآخر) قدم عليه الإيمان بالأنبياء والكتب وما يصدقه من اتباع الشرائع لأن المقصود بالآلية ^(٢).

والمعنى أن الأصل أن يقدم الإيمان بالله واليوم الآخر على الإيمان بالأنبياء والكتب، لكن سياق الآيات السابقة لهذه الآية تتحدث عن أهل الكتاب ومحاولتهم صلب عيسى عليه السلام قبل أن يرفعه الله إليه، وتكتفي بهم للكتب والرسالة، فلأجل هذا السياق كان من الأبلغ أن يقدم الإيمان بالأنبياء والكتب على الإيمان بالله وبالاليوم الآخر، وكأن المعنى الذي أضافه هذا التقديم أن الذي لم يؤمن بالأنبياء والكتب مع كل الأدلة المحسوسة التي أتى بها الأنبياء من المعجزات وغيرها، فكيف له أن يؤمن بالله وبالاليوم الآخر، وهي من الغيبات.

ومن التقديم الذي جاء مراعياً السياق والمناسبة تقديم الأرض على السماء في كثير من الآيات التي جاءت في سياق الحديث عن الدنيا وأهلها، فمنها قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا نَتْلُو مِنْ قُرْءَانٍ وَلَا تَمَلَّوْنَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كَتَنَّا عَلَيْكُمْ شَهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزِبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالٍ ذَرَّةٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ ^(٣) يونس: ٦١ ، قال البيضاوي رحمه الله: (في الأرض ولا في السماء) وتقديم الأرض لأن الكلام في حال أهلها والمقصود منه البرهان على إحاطة علمه بها ^(٤).

فلأن الحديث في هذه الآية في حال أهلها لذلك كان من البلاغة أن تقدم الأرض على السماء للدلالة عليهم، ونرى كلام البيضاوي واقع على كثير من الآيات التي قدمت فيها الأرض على السماء كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو أَنْتَقامَرِ﴾ ^(٥) إن الله لا يخفى على شئ في الأرض ولا في السماء ^(٦) آل عمران: ٤ - ٥ ، فقد قدمت الأرض على السماء لأن جاءت في سياق الحديث عن الذين كفروا وهذا من حال أهل الأرض لذلك كان التقديم.

(١) تفسير البيضاوي: ٤٠٩/١

(٢) تفسير البيضاوي: ١٠٨/٢

ومنها قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا تَحْفَنِي وَمَا تَعْلَمُ وَمَا يَحْفَنَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾^{٣٨} إبراهيم: ٣٨، فقد قدمت الأرض هنا لأن الجملة واقعة بعد دعاء إبراهيم عليه السلام، الذي يتحدث فيه عن علم الله عز وجل لما يخفيه الناس وما يعلونه.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْشَدْتُ بِمُعْجِزِي فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾^{٣٩} العنكبوت: ٢٢

٩. تقديم الغاية على الوسيلة:

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتَلَوَّ عَلَيْكُمْ إِيمَانُنَا وَإِيمَانُكُمْ وَتَعْلَمُمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَتَعْلَمُمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾^{٤٠} البقرة: ١٥١، قال البيضاوي رحمه الله: (يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم) يحملكم على ما تصيرون به أركياء، قدمه باعتبار القصد وأخره في دعوة إبراهيم عليه السلام باعتبار الفعل^(١).

فقد قدم الله عز وجل التزكية على تعليم الكتاب والحكمة، أما الآية الأخرى التي أشار إليها البيضاوي فهي قوله تعالى حكاية عن دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَأَنْبَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتَلَوَّ عَلَيْهِمْ إِيمَانُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِيمَانُهُمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^{٤١} البقرة: ١٢٩.

فهي الآية الثانية قد قدم التعليم فيها على التزكية، أي أن السبيل إلى التزكية ووسائلها هو بالتعليم وتلاوة القرآن، وبذلك تكون قدّمت الغاية على الوسيلة في الآية الأولى، وقدّمت الوسيلة على الغاية في الآية الثانية، ولعل السر وراء تقديم التزكية على التعليم تارة وتقديم التعليم على التزكية تارة أخرى، أن الآية الأولى كانت تعداداً لنعم الله على المؤمنين بعد أن آمنوا، فجاءت الآية لتنكر تلك النعم والتي منها التزكية وهي قصد بذاتها وغاية ثم جاءت على ذكر الوسائل التي أوصلت إلى ذلك الهدف.

أما الآية الثانية فهو دعاء من إبراهيم عليه السلام لله عز وجل يطلب بعثة نبي يقوم بأعباء الدعوة من تلاوة لآيات وتعليم لكتاب وحكمة لتحقق بهذه الأعمال الغاية وهي التزكية، ومن هنا كان دعاء إبراهيم عليه السلام طلب له من الله لشيء لم يكن أن يكون، لذلك كان لا بد

(١) تفسير البيضاوي: ١٥٠/١

من وسائل تتحقق من خلالها هذه الغاية، لذلك قدمت الوسائل في دعاء إبراهيم -عليه السلام- على الهدف والقصد، وقدمت الغاية على الوسائل في تعداد نعم الله على المؤمنين.

١٠. تقديم الأشهر :

ومن أمثلته قوله تعالى: **أَمْ لَمْ يُبَأِ بِمَا فِي صُحْفِ مُوسَى، وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى** (النجم: ٣٧)، قال البيضاوي رحمه الله: وتقديم موسى عليه الصلاة والسلام لأن صحفه وهي التوراة كانت أشهر وأكبر عندهم^(١).

وقد علق الإمام فخر الدين الرازي على هذه الآية في مفاتيح الغيب فقال: قدم موسى هنا ولم يقل كما قال في سجح اسم ربك الأعلى: **صُحْفُ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى**^(٢) الأعلى: ١٩، فهل فيهفائدة؟ نقول: ... فلما كانت صحف موسى عند اليهود كثيرة الوجود قدمها، وأما صحف إبراهيم فكانت بعيدة وكانت المواعظ التي فيها غير مشهورة فيما بينهم كصحف موسى فأخر ذكرها^(٣).

١١. دفع التوهם :

وذلك إذا كان تأخير المقدم قد يوهم معنى غير المعنى المراد، فلأجل هذا يكون التقديم أبلغ للدلالة على المعنى المراد ودفع التوهם، وذلك كما في قوله تعالى: **فَالْقِيَ السَّحْرُهُ سُجَّدًا قَالُوا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى**^(٤) طه: ٧٠، قال البيضاوي رحمه الله: (قالوا آمنا برب هارون وموسى) قدم هارون لكتبه أو لروي الآية، أو لأن فرعون ربى موسى في صغره فلو اقتصر على موسى أو قدم ذكره لربما توهם أن المراد فرعون وذكر هارون على الاستبعاد^(٥).

١٢. تقديم السبب على المسبب :

ومثاله قوله تعالى: **وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّكَا أَفْرِغْ عَيْنَانِ صَبَرًا وَثَبَّتَ أَفْدَامَنَا وَأَنْصَرَنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**^(٦) البقرة: ٢٥٠، قال البيضاوي رحمه الله: (ولمّا برزوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ) أي ظهروا لهم ودنوا منهم. (قالوا ربنا أفرغ عيناً صبراً وثبت أفادمنا وانصرنا على الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) التجأوا إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء، وفيه ترتيب بلغ إذ سألوا أولاً إفراج الصبر

(١) تفسير البيضاوي: ٣٤١/٣

(٢) مفاتيح الغيب: فخر الدين الرازي، ٢٧٥/٢٩، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ، بيروت.

(٣) تفسير البيضاوي: ٣٩٧/٢

في قلوبهم الذي هو ملاك الأمر، ثم ثبات القدم في مداحض الحرب المسبب عنه، ثم النصر على العدو المترتب عليهما غالباً^(١).

١٣. تقديم الأقرب إلى الحس:

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿تَزِيلًا مِّنْ خَلْقَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾ طه: ٤ ، قال البيضاوي رحمة الله: (مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى) تخييم لشأن المنزل بفرط تعظيم المنزل بذكر أفعاله وصفاته على الترتيب الذي هو عند العقل، فبدأ بخلق الأرض والسموات التي هي أصول العالم، وقدم الأرض لأنها أقرب إلى الحس وأظهر عنده من السموات العلي^(٢).

١٤. تقديم الأبلغ:

ومثاله قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِإِلْمَوْمَنِيَّتِ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ التوبة: ١٢٨ ، قال البيضاوي رحمة الله: (رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) قدم الأبلغ منهم وهو الرؤوف لأن الرأفة شدة الرحمة^(٣).

والسر البلاغي وراء تقديم الأبلغ يكشفه لنا صاحب الكشاف عند تعرضه لقوله تعالى: ﴿أَرْجِعُنَّ إِلَيْجِرِي﴾ الفاتحة: ٣ ، قال: فإن قلت: فلم قدم ما هو أبلغ من الوصفين على ما هو دونه، «٢» والقياس الترقي من الأدنى إلى الأعلى كقولهم: فلان عالم نحير، وشجاع باسل، وجود فياض؟ قلت: لما قال الرَّحْمَنِ فتناول جلائل النعم وعظائمه وأصولها، أرده الرَّحِيمِ كالتنمية والرديف ليتناول ما دق منها ولطف^(٤).

وقد علق ابن المنير السكندرى على كلام الزمخشري فقال: إنما كان القياس تقديم أدنى الوصفين لأن في تقديم أعلىهما ثم الارداد بأدنىهما نوعاً من التكرار إذ يلزم من حصول الأبلغ حصول الأدنى فذكره بعده غير مفيد ولا كذلك العكس فإنه ترقٍ من الأدنى إلى مزيد بمزية الأعلى لم يتقدم ما يستلزم، ولذلك كان هذا الترتيب خاصاً بالإثبات. وأما النفي فعلى عكسه تقدم فيه الأعلى. تقول: ما فلان نحيراً ولا عالماً، ولو عكست لوقعت في التكرار إذ يلزم من نفي الأدنى

(١) تفسير البيضاوي: ٢١٢-٢١٣/١.

(٢) تفسير البيضاوي: ٣٨٣/٢.

(٣) تفسير البيضاوي: ٨٧/٢.

(٤) الكشاف: ٨/١.

عنه نفي الأعلى وكل ذلك مستمدٌ في عموم الأدنى وخصوص الأبلغ، وإثبات الأخص يستلزم ثبوت الأعم، ونفي الأعم يستلزم نفي الأخص^(١).

١٥. مراعاة الفوائل:

تقدم الكلمة وتؤخر الأخرى مراعاة للفوائل، أو محافظة على رؤوس الآي، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿لَّهُ مَلِكُ الْأَسْمَاءِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهْبِطُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّهَا وَيَهْبِطُ لِمَنْ يَشَاءُ الْذِكْرُ﴾ الشورى: ٤، قال البيضاوي رحمه الله: ولعل تقديم الإناث لأنها أكثر لتكرير النسل... أو للمحافظة على الفوائل ولذلك عرف الذكور^(٢).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَالآنَفَمَ حَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَفِعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴽ٥﴾ النحل: ٥، قال البيضاوي رحمه الله: (وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) أي تأكلون ما يؤكل منها من اللحوم والشحوم والألبان، وتقديم الظرف للمحافظة على رؤوس الآي^(٣).

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ نَعْمَدُ وَإِنَّكَ نَسْتَعِينُ ﴽ٦﴾ الفاتحة: ٥، قال البيضاوي رحمه الله: و قدّمت العبادة على الاستعانة ليتوافق رؤوس الآي^(٤).

ولا بد من الإشارة إلى أن مراعاة الفوائل أو انتقاد رؤوس الآي من السمات البلاغية الجميلة التي اتصف بها القرآن الكريم، وهو يقابل القافية في الشعر والسجع في النثر، مع أن بعض العلماء يسمون الفوائل سجعاً، مع اعتراض بعض العلماء على هذه التسمية وقد رأينا ابن سنان الخفاجي يفرق بين الفوائل والأسجاع بقوله: وأما الفوائل التي في القرآن فإنهم سموها فوائل ولم يسموها أنسجاعاً وفرقوا فقالوا: إن السجع هو الذي يقصد في نفسه ثم يحمل المعنى عليه والفوائل التي تتبع المعاني ولا تكون مقصودة في أنفسها وقال على بن عيسى الرمانى: إن الفوائل بلاغة والسجع عيب وعلل ذلك بما ذكرناه من أن السجع تتبعه المعاني والفوائل تتبع المعاني وهذا غير صحيح والذي يجب أن يحرر في ذلك أن يقال: إن الأسجاع حروف متماثلة في مقاطع الفصول على ما ذكرناه والفوائل على ضربين ضرب يكون سجعاً وهو ما تمثلت حروفه في المقاطع وضرب لا يكون سجعاً وهو ما تقابلت حروفه في المقاطع ولم تتماثل ولا يخلو كل واحد من هذين القسمين أعني المتماثل والمترافق من أن يكون يأتي طوعاً سهلاً وتاتياً للمعنى

(١) الأعلام للزركلي: ٢٢٠/١.

(٢) تفسير البيضاوي: ٢٤٢/٣.

(٣) تفسير البيضاوي: ٢٥٢/٢.

(٤) تفسير البيضاوي: ١٧/١.

وبالضد من ذلك حتى يكون متكلاً يتباهي المعنى فإن كان من القسم الأول فهو المحمود الدال على الفصاحة وحسن البيان وإن كان من الثاني فهو مذموم مرفوض.

فأما القرآن فلم يرد فيه إلا ما هو من القسم محمود لعلوه في الفصاحة... وأظن أن الذي دعا أصحابنا إلى تسمية كل ما في القرآن فوائل ولم يسموا ما تمثلت حروفه سجعاً رغبة في تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروى عن الكهنة وغيرهم وهذا غرض في التسمية قريب. فأما الحقيقة فما ذكرناه لأنه لا فرق بين مشاركة بعض القرآن لغيره من الكلام في كونه مسجوعاً وبين مشاركة جميعه في كونه عرضاً وصوتاً وحروفاً وعربياً ومؤلفاً وهذا مما لا يخفي فيحتاج إلى زيادة في البيان. ولا فرق بين الفوائل التي تمثل حروفها في المقاطع وبين السجع^(١).

وجمال الفوائل في القرآن بادٍ لا يخفى على أحد، فموقع الفاصلة في الآية لا يأتي اعتباطاً أو لمراجعة اللفظ فقط ولكنها تكمل معنى الآية، ويتم بها النغم الموسيقي للآية، فنراها أكثر ما تنتهي بالتون والميم وحروف المد، وتلك هي الحروف الطبيعية في الموسيقى نفسها^(٢).

وللفوائل القرآنية مكانها الذي لا يحيد من التأثير الموسيقي في النفس وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقاً عجيبة يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساير عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب، وترتها أكثر ما تنتهي بالتون والميم، وهذا الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها؛ أو بالمد، وهو كذلك طبيعي في القرآن، فإن لم تنته بواحدة من هذه، لأن انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى، كان ذلك متابعة لصوت الجملة وتقطيع كلماتها، ومناسبة للون المنطق بما هو أشبه وأليق بموضعه، وعلى أن ذلك لا يكون أكثر ما أنت واجده إلا في الجمل القصار، ولا يكون إلا بحرف قوي يستتبع القلقة أو الصفير أو نحوهما مما هو ضروب أخرى من النظم الموسيقية.

وهذه هي طريقة الاستهواء الصوتي في اللغة، وأثرها طبيعي في كل نفس، فهي تشبه في القرآن الكريم أن تكون صوت إعجازه الذي يخاطب به كل نفس تفهمه، وكل نفس لا تفهمه، ثم لا يجد من النفوس على أي حال إلا الإقرار والاستجابة؛ ولو نزل القرآن بغيرها لكان ضرباً من الكلام البليغ الذي يُطمع فيه أو في أكثره، ولما وجد فيه أثر يتعدى أهل هذه اللغة العربية إلى أهل اللغات الأخرى، ولكنه انفرد بهذا الوجه للعجز، فتألت كلماته من حروف لو سقط واحد منها أو أبدل بغيره أو أقحم معه حرف آخر، لكان ذلك خلاً بيناً، أو ضعفاً ظاهراً في نسق الوزن وجرس النغمة، وفي

(١) سر الفصاحة: عبد الله بن محمد الخفاجي الحلبي، ١٧٤-١٧٢، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ٢٠١٤، م.١٩٨٢.

(٢) من بلاغة القرآن لأحمد بدوي: ٦٥.

حسِّ السمع وذوق اللسان، وفي انسجام العبارة وبراعة المخرج وشأند الحروف وإفضاء بعضها إلى بعض، ولرأيت هُجنة في السمع، كالذي تتكره من كل مَرئي لم تقع أجزاؤه على ترتيبها، ولم تتفق على طبقاتها، وخرج بعضها طولاً وبعضها عرضاً، وذهب ما بقي منها إلى جهات متراكبة^(١).

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي، ص. ١٥٠، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثامنة، ٢٠٠٥ هـ، ١٤٢٥ م.

المبحث الرابع: الاعتراض

تعرض الإمام السّعّادِي للاعتراض فقال: الاعتراض: ويسمى الحشو وهو أن تدرج في الكلام ما يتم المعنى بدونه^(١).

وقد جاء ابن الأثير على ذكر الاعتراض في كتاب المثل السائر فقال: وبعضهم يسميه الحشو، وحده: كل كلام أدخل فيه لفظ مفرد أو مركب لو سقط ليفي الأول على حاله.

مثال ذلك أن تقول: زيد قائم، فهذا كلام مفيد، وهو مبتدأ وخبر، فإذا أدخلنا فيه لفظاً مفرداً قلنا: زيد والله قائم، ولو أزيلنا القسم منه بقي على حاله، وإذا أدخلنا في هذا الكلام لفظاً مركباً قلنا: زيد على ما به من المرض قائم، فأدخلنا بين المبتدأ والخبر لفظاً مركباً، وهو قولنا على ما به من المرض، فهذا هو الاعتراض، وهذا حده^(٢).

أما جلال الدين الفزوياني فقد قال عن الاعتراض: وهو أن يؤتى في أثناء الكلام، أو بين كلامين متصلين معنى جملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب لنكتة سوى ما ذكر في تعريف التكميل^(٣).

وقد أورد العلوي في الطراز كلاماً على الاعتراض فقال: وبعضهم يسميه الحشو... أما الاعتراض فهو كل كلام أدخل في غيره أجنبى بحيث لو أسقط لم تختل فائدة الكلام، وأما المعارض فيه فهو كل كلام أدخل فيه لفظ مفرد أو مركب بحيث لو أسقط ليفي الكلام على حاله في الإفاده^(٤).

وجملة القول أن الاعتراض يقع بين الكلام الذي يتصل ببعضه معنى، وحذف الاعتراض لو وقع لا يختل المعنى، وليس معنى هذا أن الاعتراض يكون حشوًّا لا فائدة منه وإنما يكون لأغراض بلاغية وفوائد عددها البلاغيون.

ونرى جمال الاعتراض بادٍ عند شيخ البلاغة الإمام عبد القاهر الجرجاني الذي يعتبره وجهاً من وجوه تحسين الكلام، فقد أورد في دلائل الاعجاز بيت ابن المعتز:

(١) مفتاح العلوم: ٤٢٨.

(٢) المثل السائر: ٤٠/٣.

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة: ٢١٤/٣.

(٤) الطراز: ٨٩/٢.

ولاني على إشراق عيني من العدى لتجمّح مني نظرة ثم أطرق

فتري أنَّ هذه الطُّلاؤة وهذا الظرف، إنَّما هو لأنَّ جعل النظر "يجمح" وليس هو لذلك، بل لأنَّ قال في أول البيت "ولاني" حتى دخل اللام في قوله "التجمُّح" ثم قوله: "مني" ثم لأنَّ قال "نظرة" ولم يقل "النظر" مثلاً ثم لم كان "ثم" في قوله: "ثم أطرق" وللطيفة أخرى نصرت هذه اللطائف، وهي اعتراضه بين اسم "إنَّ" وخبرها بقوله: "على إشراق عيني من العدى"^(١).

فقد عَدَ الإمام عبد القاهر الاعتراض من الأساليب التي تكسب اللفظ لطيفة بلاغية، لا تكون لو لم يكن هذا الاعتراض.

ومن هنا كان اعتراض بعضهم على تسمية الاعتراض بالخشوع، لأنَّ كلمة "خشوع" توحى بأنَّ الكلام المعتبر لا فائدة منه، ومن ذلك ما ذكره الرافعي في إعجاز القرآن فقال: ولما كان الأصل في نظم القرآن أن تعتبر الحروف بأصواتها وحركاتها ومواقعها من الدلالة المعنوية، استحال أن يقع في تركيبه ما يسوغ الحكم في كلمة زائدة أو حرف مضطرب أو ما يجري مجرى الخشوع والاعتراض، أو ما يقال فيه إنه تغوث واستراحة كما تجد من كل ذلك في أساليب البلاغة، بل نزلت كلماته منازلها على ما استقرت عليه طبيعة البلاغة، وما قد يشبه أن يكون من هذا النحو الذي تمكنت به مفردات النظام الشمسي وارتبطت به سائر أجزاء المخلوقات صفة مقابلة بحيث لو نزعت كلمة منه أو أزيلت عن وجهها، ثم أدير لسانُ العرب كله على أحسن منها في تأليفها وموقعها وسدادها، لم يتهيأ ذلك ولا اتسعت له اللغة بكلمة واحدة، كما سنبينه في موضع آخر، وهو سر من إعجازه قد أحس به العرب، لأنهم لا يذهبون مذهبًا غيره في منطقهم^(٢).

الأغراض البلاغية للاعتراض:

يأتي الاعتراض لأغراض بلاغية عديدة ذكرها العلماء في كتاباتهم وأوردها الإمام القاضي ناصر الدين البيضاوي في تفسيره، منها:

(١) دلائل الإعجاز: ٩٩-٩٨.

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي: ١٥٥.

١. التنزيه والتعظيم:

ومثاله قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قَيْنَمًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَنْقَسِّرُونَ فِي حَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّا مَا خَلَقْتَ هَذَا بِنِطْلَا سُبْحَانَكَ فَقَنَا عَذَابًا لَنَا﴾ (١٩١) آل عمران: ١٩١، قال البيضاوي رحمة الله: (سبحانك) تتنزيهاً لك من العبث وخلق الباطل وهو اعتراض^(١).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّكَ أَنْذِرَتَ اللَّهَ لَا حَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزُنُونَ﴾ (٦٣) الآية ^{٦٣} **الذين** أَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٤﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٦٤) يومن: ٦٤ - ٦٢، قال البيضاوي رحمة الله: و(الفوز العظيم) هذه الجملة والتي قبلها اعتراض لتحقيق المبشر به وتعظيم شأنه، وليس من شرطه أن يقع بعده كلام يتصل بما قبله^(٢).

ويقصد البيضاوي بما قبلها (لا تبديل لكلمات الله).

٢. التأكيد:

من ذلك قوله تعالى: ﴿أَتَيْعَ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٦) الأنعام: ١٠٦، قال البيضاوي رحمة الله: (لا إله إلا هو) اعتراض أكد به إيجاب الاتباع^(٣).

فقد جاءت جملة (لا إله إلا هو) انتراضية بين الأمر الأول: **أَتَيْعَ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ** وبين الأمر الثاني المعطوف عليه وهو **وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ**، وذلك تأكيداً لوجوب الاتباع لأنه لا معبود سوى الله، وهذا ما يفهم من كلمة التوحيد.

وقد علق السيوطي في نواهد الأباء على قول البيضاوي بالقول: قوله: ((لا إله إلا هو)) اعتراض أكد به إيجاب الاتباع). قال الطبيبي: لما في كلمة التوحيد من التمسك بحبل الله والاعتصام به والتبرى والإعراض عما سواه، ولأنَّ الموحى ليس إلا التوحيد.

ومن الاعتراض الذي جاء لغرض التأكيد قوله تعالى: ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ أَسْتِئْنَةَ تَحْنُ أَغْلَمَ بِمَا يَصِيفُونَ﴾ (١٦) وَقُلْ رَبِّيْ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَتِ الشَّقَّيْنِ طَيْنَ (١٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّيْ أَنْ يَحْضُرُونِ (١٨) حَقَّ إِذَا جَاءَهُمْ

(١) تفسير البيضاوي: ٣٢٣/١

(٢) تفسير البيضاوي: ١٠٨/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ٥١٠/١

الْمَوْتُ قَالَ رَبِّي أَنْجُونِي ﴿١١﴾ المؤمنون: ٩٦ - ٩٩، قال البيضاوي رحمه الله: (حتى إذا جاء أحدهم المؤوث) متعلق بـ (يصفون)، وما بينهما اعتراف لتأكيد الأغضاء بالاستعاذه بالله من الشيطان أن يزلا عن الحلم ويغيره على الانتقام أو بقوله إنهم لكاذبون^(١).

يعني أن جملتي: وَقُلْ رَبِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَتِ الشَّيْطَانِ ﴿١٢﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّي أَنْ يَحْضُرُونِ ، جملتان اعترافيتان جاءتا لتأكيد الأغضاء بالاستعاذه بالله من الشيطان الرجيم.

ومن الاعتراف لأجل التأكيد قوله تعالى: ﴿ وَصَنَّيْنَا لِلْأَنْسَنَ بِوَلَدِيهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهُنَّ عَلَى وَهْنٍ وَفَصَنَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴾١٤﴿ وَإِنْ جَهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطْعِهِمَا وَاصْبِرْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَأَتْبِعْ سَبِيلَ مَنْ آتَيْتَ إِلَيْهِ مَرْجِعَكُمْ فَإِنَّيْتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾١٥﴿ لقمان: ١٤ - ١٥ ، قال البيضاوي رحمه الله: والآياتان معتبرستان في تصاعيف وصية لقمان تأكيداً لما فيها من النهي عن الشرك كأنه قال: وقد وصينا بمثل ما وصى به^(٢).

ووجه كون هاتان الآياتان معتبرستان أنها كما قال البيضاوي جاءتا في تصاعيف وصية لقمان، فقد سبقت هاتين الآيتين بقوله تعالى: ﴿ وَلَذِكْرُ لُقْمَانَ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعْظُمُهُ يَبْيَقُ لَا شَرِكَ بِاللَّهِ إِنَّ أَلْشَرِكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾١٦﴿ لقمان: ١٣ ، وأتبعت الآياتان بقوله تعالى: ﴿ يَبْيَقُ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةِ مِنْ خَرَدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَحْرَاءٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ أَنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَيْرٌ ﴾١٧﴿ لقمان: ١٦ .

لذلك كان إيراد وصية الله في تصاعيف وصية لقمان اعتراضاً ليدل على تأكيد النهي عن الشرك.

ومثال الاعتراف الذي جاء للتأكيد قوله تعالى: ﴿ فَالْتَّقَطَهُمْ أَلْفِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُواً وَحَزَنَ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَنَ وَجْهُوَهُمَا كَانُوا خَدِيْعِينَ ﴾٨﴿ القصص: ٨ ، قال البيضاوي رحمه الله: (فَالْتَّقَطَهُمْ أَلْفِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُواً وَحَزَنَ) تعليل لالتقادتهم إياها بما هو عاقبتهم ومؤداتها تشبيهاً له بالغرض الحامل عليه... إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجْهُوَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ) في كل شيء فليس ببعد منهم أن قتلوا ألوفاً لأجله ثم أخذوه يربونه ليكبر وي فعل بهم ما كانوا يحدرون، أو مذنبين فعاقبهم

(١) تفسير البيضاوي: ٤٧٩/٢

(٢) تفسير البيضاوي: ٦٣/٣

الله تعالى بأن ربى عدوهم على أيديهم، فالجملة اعتراف لتأكيد خطئهم أو لبيان الموجب لما ابتلوا به^(١).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَصَّيْنَا الْأَنْسَنَ بِوَالِدِيهِ حَمَّلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَنْلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدِيكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴾^(٢) لقمان: ١٤، قال البيضاوي رحمه الله: (أن اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدِيكَ) تفسير لـ (صَّيْنَا) أو علة له أو بدل من والديه بدل الاشتغال، وذكر الحمل والفالصال في البين اعتراف مؤكّد للتوصية في حقها خصوصاً^(٣).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَرُرْ وَازِفَةً وَزَرَّ أَخْرَى وَلَنْ تَنْعِ مُنْفَلَةً إِلَى حِمْلَهَا لَا يُحَمَّلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَةً إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَلَقَاءُ الْمَصِيرِ ﴾^(٤) فاطر: ١٨، قال البيضاوي رحمه الله: (إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ) غائبين عن عذابه، أو عن الناس في خلواتهم، أو غائباً عنهم عذابه. (وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ) فإنهم المنقعون بالإذنار لا غير... (وَمَنْ تَرَكَ) ومن تطهر من دنس المعاصي. (فَإِنَّمَا يَتَرَكَ لِنَفْسِهِ) إذ نفعه لها... وهو اعتراف مؤكّد لخشيتهم وإقامتهم الصلاة لأنهما من جملة التزكي^(٥).

٣. الحث والترغيب:

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ مَا مَنُوا وَعَكِلُوا الْعَذَابَ حَتَّى لَا تُكَلِّفُ قَسْأًا إِلَّا وَسَعَهَا أَوْلَاهُكَ أَمْحَبُ الْجَنَّةَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾^(٦) الأعراف: ٤٢، قال البيضاوي رحمه الله: (فَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وَسَعَهَا) اعتراف بين المبتدأ وخبره للترغيب في اكتساب النعيم المقيم بما يسعه طاقتهم ويسهل عليهم^(٧).

وقد علق ابن عطية في المحرر الوجيز على هذه الآية فقال: هذه آية وعد مخبرة أن جميع المؤمنين هم أصحاب الجنة ولهم الخلد فيها، ثم اعترض أثناء القول بعقب الصفة، التي شرطها في المؤمنين باعتراض يخفف الشرط ويرجى في رحمة الله ويعلم أن دينه يسر وهذه الآية نص في أن الشريعة لا يتقرر من تكاليفها شيء لا يطاق^(٨).

(١) تفسير البيضاوي: ٧/٣

(٢) تفسير البيضااوي: ٦٢/٣

(٣) تفسير البيضااوي: ١١٩/٣

(٤) تفسير البيضااوي: ٥٤٤/١

(٥) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية الأندلسي، ٤٠١/٢، تحقيق عبد السلام محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.

ومن الاعتراض الذي جاء لغرض الحث والترغيب قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَائُوا وَأَفَامُوا الصَّلَاةَ وَإِنَّكُمْ فِي الَّذِينَ وَنَفَصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾١١﴾ وَإِنْ تَكُونُ أَيْمَنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَمُوا فِي دِينِكُمْ فَتَنَلُوا أَيْمَنَةَ الْكُفَّارِ إِنَّهُمْ لَا يَأْمَنُنَّ لَهُمْ لَعَاهُمْ يَنْهَوْنَ ﴾١٢﴾ التوبه: ١١ - ١٢، قال البيضاوي رحمه الله: (ونفصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) اعتراض للحث على تأمل ما فصل من أحكام المعاهدين أو خصال التائبين^(١).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أُمْرَأٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا شُوْرًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُضْلِلُهَا بَيْنَهُمَا صَلْحًا وَالصُّلُحُ حَيْثُ وَاحْسِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحُّ وَإِنْ تُخْسِنُوا وَتَنْعِثُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ حَسِيرًا﴾ النساء: ١٢٨، قال البيضاوي رحمه الله: (والصُّلُحُ حَيْثُّ) من الفرقه أو سوء العشره أو من الخصومة. ولا يجوز أن يراد به التفضيل بل بيان أنه من الخيور كما أن الخصومة من الشرور، وهو اعتراض وكذا قوله: (وَاحْسِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحُّ) ولذلك اغترف عدم مجانتهما، والأول للترغيب في المصالحة، والثاني لتمهيد العذر في المماكسة^(٢).

٤. البيان والتوضيح:

جاء في لسان العرب: والبيان: مَا بُيَّنَ بِهِ الشيءُ مِنَ الدَّلَالَةِ وَغَيْرِهَا. وبَيَانَ الشيءِ بَيَانًاً: اَنْضَحَ، فَهُوَ بَيَّنٌ^(٣).

يأتي الاعتراض للبيان والتوضيح وذلك تقسيراً للجمل السابقة للجملة المعتبرة ووذلك كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أُرِيَتِنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادَنَا فِيهِمْ طَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرِتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾٣٢﴾ فاطر: ٣٢، قال البيضاوي رحمه الله: (ثُمَّ أُرِيَتِنَا الْكِتَابَ) حكمنا بتوريته منك أو نورته فعبر عنه بالماضي لتحققه، أو أورثاه من الأمم السالفة، والعطف على (إِنَّ الَّذِينَ يَتَّلُونَ)، (وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) اعتراض لبيان كيفية التوريث^(٤).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُنَفَّعُونَ فِيهَا أَنْهَرٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ مَاسِنٍ وَأَنْهَرٌ مِنْ لَبَّرَلَةٍ يَنْغِزَرُ طَعْمَهُ وَأَنْهَرٌ مِنْ خَرَزٍ لَذَقَرٍ لِلشَّرِبِهِنَّ وَأَنْهَرٌ مِنْ عَسْلٍ مُّصَبَّى وَلَمَّا فِيهَا مِنْ كُلِّ الشَّرَبٍ وَمَغْفِرَةٍ مِنْ زَرَبِهِمْ كُنَّ هُوَ خَلِدٌ فِي الْأَنَارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾١٥﴾ محمد: ١٥، قال البيضاوي رحمه الله: (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ

(١) تفسير البيضاوي: ٤٠/٢

(٢) تفسير البيضاوي: ٣٩٧/١

(٣) لسان العرب مادة (بين): ٧٦/١٣

(٤) تفسير البيضاوي: ١٢٢-١٢١/٣

المُتَّقِونَ) أي فيما قصصنا عليك صفتها العجيبة. وقيل مبتدأ خبره: كمن هُوَ خالدٌ فِي النَّارِ، وتقدير الكلام أمثل أهل الجنة كمثل من هو خالد، أو أمثل الجنة كمثل جزء من هو خالد فعرى عن حرف الإنكار وحذف ما حذف استغناء يجري مثله تصويراً لمكابرة من يسوى بين المتمسك بالبينة والتابع للهوى، بمكابرة من يسوى بين الجنة والنار، وهو على الأول خبر مذوق تقديره: أفن هو خالد في هذه الجنة كمن هو خالد في النار، أو بدل من قوله: (كمن زُينَ) وما بينهما اعتراف لبيان ما يمتاز به من على بينة في الآخرة تغريراً لإنكار المساواة^(١).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: (وَاسْتَقْرِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأُولَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا) (الإسراء: ٦٤)، قال البيضاوي رحمة الله: (وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا) اعتراف لبيان مواعيده الباطلة^(٢).

٥. دفع التوهם:

يأتي الاعتراض لغرض دفع التوهם، فقد يكون المخاطب معتقداً اعتقاداً معيناً، هذا الاعتقاد ناشئ عن الجملة السابقة للجملة الاعتراضية، فتأتي الجملة الاعتراضية دافعة لهذا التوهם.

ومثاله قوله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسِكُمْ فَرْحٌ فَقَدْ مَسَ الْقَوْمَ فَرْحٌ مِثْلُهُ وَتَلَكَ الْأَيَامُ ثُدَّا وَلَهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شَهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (١٤٠) آل عمران: ١٤٠ ، قال البيضاوي رحمة الله: (إِنْ يَمْسِكُمْ فَرْحٌ فَقَدْ مَسَ الْقَوْمَ فَرْحٌ مِثْلُهُ) والمعنى إن أصابوا منكم يوم أحد فقد أصيبتم منهم يوم بدر منه، ثم إنهم لم يضعفوا ولم يجبنوا فأنتم أولى بأن لا تضعفوا، فإنكم (ترجون من الله ما لا يرجون)... (وَتَلَكَ الْأَيَامُ ثُدَّا وَلَهَا بَيْنَ النَّاسِ) نصرفها بينهم نديلاً لهؤلاء تارة ولهمؤلاء أخرى... (وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا) عطف على علة مذوقه أي نداولها ليكون كيت وكيت ولعلم الله إذاناً بأن العلة فيه غير واحدة، وإن ما يصيب المؤمن فيه من المصالح ما لا يعلم... (وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شَهَدَاءَ) ويكرم ناساً منكم بالشهادة يريد شهداء أحد، أو يتتخذ منكم شهوداً معدلين بما صودف منهم من الثبات والصبر على الشدائدين. (وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) الذين يضمرون خلاف ما يظهرون، أو الكافرين وهو اعتراض، وفيه تنبيه على أنه تعالى لا ينصر الكافرين على الحقيقة وإنما يغلبهم أحياناً استدراجاً لهم وابتلاء للمؤمنين^(٣).

(١) تفسير البيضاوي: ٢٨٧/٣

(٢) تفسير البيضاوي: ٣١٠/٢

(٣) تفسير البيضااوي: ٣٠٠/١

فيفهم من كلام البيضاوي رحمة الله أن هذا الاعتراض جاء لدفع توهם قد يقع عند البعض من أن الله قد نصر الكافرين حقيقة، وقد يتوهם متوجه أن نصر الله هو حب لهم فجاءت جملة الاعتراض لدفع هذا التوهם بقوله تعالى: (وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ).

٦. التعليل:

يأتي الاعتراض لغرض ذكر سبب أو علة للعبارة السابقة للجملة الاعترافية، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ البقرة: ٦، قال البيضاوي رحمة الله: إن الذين كفروا مستٍ عليهم إندارك وعدمه... (لا يؤمنون) جملة مفسرة لإجمال ما قبلها فيما فيه الاستواء فلا محل لها أو حال مؤكدة. أو بدل عنه. أو خبر إن والجملة قبلها اعتراض بما هو علة الحكم^(١).

فجملة (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ) جاءت معتبرضة للدلالة على علة الحكم الذي قرره تعالى وهو (أن الذين كفروا لا يؤمنون)، والسبب أنهم يستويون عندهم الإنذار وعدمه.

ومثال الاعتراض الذي جاء لغرض التعليل قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ حُرْمَةً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِيتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فَسَقاً أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ أَضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَابِرًا فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الأنعام: ١٤٥، قال البيضاوي رحمة الله: (قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ) أي في القرآن، أو فيما أوحى إلى مطلقاً... (محرماً) طعاماً محراً... قوله: (أَوْ دَمًا مَسْفُوحاً) عطف على أن مع ما في حيزه أي: إلا وجود ميتة أو دماً مسفوهاً، أي مصبوياً كالدم في العروق لا كالكبد والطحال. (أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ) فَإِنَّهُ رِجْسٌ فإن الخنزير أو لحمه قذر لتعوده أكل النجاسة أو خبيث مخبث (أَوْ فَسَقاً) عطف على لحم خنزير. وما بينهما اعتراض للتعليق^(٢).

يعني أن أصل الجملة قبل دخول الاعتراض عليها: (إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوهاً أو لحم خنزير أو فسقاً أهلاً لغير الله به)، فدخل الاعتراض (فإنه رجس) بعد (لحم خنزير)، ليدل على علة التحرير، وهو كونه رجس.

(١) تفسير البيضاوي: ٤١/١

(٢) تفسير البيضااوي: ٥٢٤/١

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِمَّا مُنْتَهُوا وَأَبْعَدُوهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانِ الْحَقَّاتِ يَهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ وَمَا أَنْتَمُ مِنْ عَلَيْهِمْ مِنْ شَفِيعٍ كُلُّ أَمْرٍ إِمَّا كَسَبَ رَهِينٌ﴾^(١) الطور: ٢١، قال البيضاوي رحمه الله: (وَاتَّبَعُهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانِ اعتراف للتعليل^(١)).

٧. الدعاء:

ذكر القزويني في الإيضاح هذا الغرض الذي يأتي الاعتراض لأجله، فقال: والدعاء في قول أبي الطيب:

وتحقر الدنيا احتقار مجرب يرى كل ما فيها - وحاشاك - فانيا

فإن قوله: "وحاشاك" دعاء حسن في موضعه، ونحوه قول عوف بن مسلم الشيباني:

إن الثنائيين وبلغتها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان^(٢).

ومما جاء في القرآن الكريم من الاعتراض لغرض الدعاء قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَلْغَرَ إِلَيْهِ مِنْ بَيْتَهُ مَا يُنْفِقُ مَغْرِمًا وَيَرْبَضُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلَيْهِمْ﴾^(٣) التوبة: ٩٨، قال البيضاوي رحمه الله: (وَمِنْ الْأَغْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ) يُعْدُ مَا يُنْفِقُ يصرفه في سبيل الله ويتصدق به. (مَغْرِمًا) غرامة وخسارناً إذ لا يحتسبه قربة عند الله ولا يرجو عليه ثواباً وإنما ينفق رباء أو تقية. (وَيَرْبَضُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ) دوائر الزمان ونوبه لينقلب الأمر عليكم فيتخلص من الانفاق. (عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ) اعتراض بالدعاء عليهم بنحو ما يتربصون أو الإخبار عن وقوع ما يتربصون عليهم^(٤).

ومعنى الدعاء من الله عز وجل هو إيجاب الشيء كما قال ابن عطية في تفسير هذه الآية: (عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ) وكل ما كان بلفظ دعاء من جهة الله عز وجل فإنما هو بمعنى إيجاب الشيء، لأن الله لا يدعوا على مخلوقاته وهي في قبضته... فهي كلها أحكام تامة تضمنها خبره تعالى^(٤).

(١) تفسير البيضاوي: ٣٣٠/٣

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة: ٢١٥/٣

(٣) تفسير البيضاوي: ٧٤/٢

(٤) المحرر الوجيز: ٧٤/٣

٨. التسلية:

يأتي الاعتراض لغرض رفع الهم والحزن، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمُّهُ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ العنكبوت: ١٨، قال البيضاوي رحمه الله: (وَإِنْ تُكَذِّبُوا) وإن تكذبوني. (فَقَدْ كَذَّبَ أُمُّهُ مِنْ قَبْلِكُمْ) من قبلي من الرسل فلم يضرهم تكذيبهم وإنما ضر أنفسهم حيث تسبب لما حل بهم من العذاب فكذا تكذيبكم. (وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) الذي يزال معه الشك وما عليه أن يصدق ولا يكذب، فالآلية وما بعدها من جملة قصة إبراهيم إلى قوله فما كان جواب قومه ويحتمل أن تكون اعترافاً بذكر شأن النبي صلى الله عليه وسلم وقرיש وهدم مذهبهم والوعيد على سوء صنيعهم، توسط بين طرفي قصته - قصة إبراهيم عليه السلام - من حيث إن مساقها لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم والتنفيس عنه، بأن آباء خليل الله صلوات الله عليهما كان ممناً بنحو ما مني به من شرك القوم وتکذيبهم وتشبيه حاله فيهم بحال إبراهيم في قومه^(١).

فهذه الآية ﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمُّهُ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ قد لا يفهم منها التسلية إذا أخذت بمعزل عن السياق الذي وجدت به، لكن وجودها كجملة معتبرة بين قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه أفادت تسلية النبي صلى الله عليه وسلم، بمعنى أنك لم تكن بداعاً من الرسل فيما جوبهت به من التكذيب والعداء، فاصبر كصبر من سبقك من الرسل، وستكون العاقبة نصرة دينك ودعوك.

٩. الحصر والاختصاص:

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَدَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ حِينَ الْوَصِيَّةِ أَئْنَاهُنَّ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ أَخْرَجُوكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فَأَصْبَرْتُكُمْ مُّؤْمِنَةً الْمَوْتَ تَحِسُّونَهُمَا مِّنْ بَعْدِ الْأَصْلَوَةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرْتَبْتُمْ لَا نَشْرَرِ بِهِ ثَمَنًا وَلَا كَنْكُثُ شَهَدَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمْنَا أَلْأَثْيَنِ﴾ المائدة: ١٠٦ ، قال البيضاوي رحمه الله: (فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرْتَبْتُمْ) إن ارتتاب الوارث منكم. لا نشترى به ثمناً مقصراً عليه، وإن ارتتبتم اعترافاً يفيد اختصاص القسم بحال الارتتاب^(٢).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَمَآمُنُوا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرُوا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بِالْهُنْمِ﴾ محمد: ٢ ، قال البيضاوي رحمه الله: (وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ)

(١) تفسير البيضاوي: ٣٢/٣

(٢) تفسير البيضاوي: ٤٦٩/١

تخصيص للمنزل عليه مما يجب الإيمان به تعظيماً له وإشعاراً بأن الإيمان لا يتم دونه، وأنه الأصل فيه ولذلك أكدته بقوله: (وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ) اعترافاً على طريقة الحصر^(١).

١٠. التوبیخ:

ومثاله قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلَنَا آيَةً مَكَانَهُ أَيْمَنَهُ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُرِيكُ فَالْمُؤْمِنُ بِهِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^(٢) النحل: ١٠١ ، قال البيضاوي رحمه الله: (إذا بدأنا آية مكان آية مفترىء بل أكثرهم لا يعلمون) بالنسخ فجعلنا الآية الناسخة مكان المنسوبة لفظاً أو حكماً. (والله أعلم بما ينزل) من المصالح فعل ما يكون مصالحة في وقت يصير مفسدة بعده فينسخه، وما لا يكون مصالحة حينئذ يكون مصالحة الآن فيثبته مكانه... قالوا أي الكفرة. (إنما أنت مفترىء) متقول على الله تأمر بشيء ثم يبدو لك فتنتهى عنه، وهو جواب إذا. (والله أعلم بما ينزل)، اعتراف لتوبیخ الكفار على قولهم والتبني على فساد سندهم^(٣).

ومنه قوله تعالى: ﴿ لَا تُحِرِّكِ بِهِ إِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمِيعَهُ وَقُوَّاتِنَا ﴾^(٤) ١٦ - ١٩ ، قال البيضاوي رحمه الله: (ثم إن علينا بيائمه بيان) ما أشكل عليك من معانيه... وهو اعتراف بما يؤكّد التوبیخ على حب العجلة لأن العجلة إذا كانت مذمومة فيما هو أهم الأمور وأصل الدين فكيف بها في غيره^(٥).

(١) تفسير البيضاوي: ٢٨٥/٣

(٢) تفسير البيضاوي: ٢٨٠/٢

(٣) تفسير البيضااوي: ٤٧٣/٣

المبحث الخامس: خروج الكلام عن مقتضى الظاهر

أولاً: الالتفات:

الالتفات لغة: لَفَتْ وَجْهَهُ عَنِ الْقَوْمِ: صَرَفَهُ... وَتَلَفَّتْ إِلَى الشَّيْءِ وَالتَّقَتْ إِلَيْهِ: صَرَفَ وَجْهَهُ إِلَيْهِ... وَاللَّفْتُ: لَيُ الشَّيْءُ عَنْ جَهَتِهِ^(١).

فالالتفات معناه اللغوي صرف الشيء عن جهة الأصلية إلى جهة أخرى، ومن هنا كان استخدام البلاغيين لهذه الكلمة لتناسب مصطلح الالتفات في البلاغة العربية، ونرى ابن الأثير، يشير إلى ذلك بقوله: "وهذا النوع وما يليه هو خلاصة علم البيان التي حولها يندنن، وإليها تستند البلاغة، وعنها يعنون".

وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله، فهو يقبل بوجهه تارة كذا وتارة كذا.

وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة؛ لأنّه ينتقل فيه عن صيغة، كانتقال من خطاب حاضر إلى غائب، أو من خطاب غائب إلى حاضر، أو من فعل ماض إلى مستقبل، أو من مستقبل إلى ماض، أو غير ذلك مما يأتي ذكره مفصلاً^(٢).

والالتفات اصطلاحاً: هو التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة بعد التعبير عنه بطريق آخر منها^(٣).

وعرفه ابن المعتز بقوله: وهو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك^(٤).

وقد أورد السّكاكـي في مفتاح العلوم حديثاً عن الالتفات، يذكر فيه فائدة وبلاغة الالتفات فيقول: واعلم أن هذا النوع: أعني نقل الكلام عن الحكاية على الغيبة لا يختص المسند إليه ولا هذا

(١) لسان العرب (لفت): ٨٤/٢

(٢) المثل السائر: ١٣٥/٢

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة: ٨٦/٢

(٤) البديع في البديع: ابن المعتز، ص ١٥٢، دار الجيل، الطبعة الأولى، ١٤١٠ هـ، ١٩٩٠ م.

القدر بل الحكاية والخطاب والغيبة ثلاثتها ينقل كل واحد منها على الآخر ويسمى هذا النقل التفatas عند علماء علم المعاني.

والعرب يستكثرون منه ويرون الكلام إذا انتقل من أسلوب على أسلوب أدخل في القبول عند السامع وأحسن تطريه لنشاطه وأملاً باستدراك إسقائه، وهم أحرياء بذلك أليس قوى الأضياف سجيتهم ونحر العشار للضييف دأبهم وهجيراهم لا مزقت أيدي الأدوار لهم أدبها ولا أباحت لهم حريراً أفتراهم يحسنون قوى الأشباح فيخالفون فيه بين لون ولون وطعم وطعم ولا يحسنون قوى الأرواح فلا يخالفون فيه بين أسلوب وأسلوب وإيراد وإيراد فإن الكلام المفيد عند الإنسان لكن بالمعنى لا بالصورة أشهى غذاء لروحه وأطيب قوى لها^(١).

فيظهر من كلام السّكاكِي رحمة الله ببلاغة الالتفات إذ إنه ينشط السامع ويزيد من قبول الكلام، واستدراك الإسقاء، لما فيه من تنوع للكلام وانتقاله من أسلوب لأسلوب، وقد شبهه بالطعام وأحسن في هذا التشبيه، إذ الحقيقة أن الطعام مهما كان شهيّاً ولذياً فإنه قد يعف عنه صاحبه إذا اعتاد عليه مراراً وتكراراً فلا بد من المراوحة بين الأطعمة وتنويعها كي لا تمله الأذواق ولا تعافه النفوس، فإذا كان هذا حاصل في غذاء الأجسام، فلا بد من صنع مثله في غذاء العقول من تنوع وتنشيط.

والالتفات من أجل علوم البلاغة وهو أمير جنودها، والواسطة في قلائدها وعقودها... وقد يلقب بشجاعة العربية، والسبب في تقديره بذلك، هو أن الشجاعة هي الإقدام، والرجل إذا كان شجاعاً فإنه يرد الموارد الصعبة، ويقتحم الورط العظيمة حيث لا يردها غيره، ولا يقتحمها سواه، ولا شك أن الالتفات مخصوص بهذه اللغة العربية دون غيرها^(٢).

الالتفات عند البيضاوي:

لم يأتِ البيضاوي بتعريفات اصطلاحية للأساليب البلاغية في أكثر تفسيره، لكننا نرى له حديثاً عن الفائدة البلاغية للالتفات عند تعرضه لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ تَمْذُّدُ وَإِنَّكَ تَسْعَيْتُ﴾ الفاتحة: ٥ ، فيقول: ثم إنه لما ذكر الحقائق بالحمد، ووصف بصفات عظام تميز بها عن سائر الذوات وتعلق العلم بمعلوم معين خطيب بذلك، أي: يا من هذا شأنه نخصك بالعبادة والاستعانة، ليكون أدل على الاختصاص، وللترقى من البرهان إلى العيان والانتقال من الغيبة إلى الشهود.

(١) مفتاح العلوم: ١٩٩

(٢) الطراز: ٧١/٢

فكان المعلوم صار عياناً والمعقول مشاهداً والغيبة حضوراً، بني أول الكلام على ما هو مبادي حال العارف من الذكر والفكر والتأمل في أسمائه والنظر في آياته والاستدلال بصنائعه على عظيم شأنه وباهر سلطانه، ثم قفّى بما هو متنه أمره وهو أن يخوض لجأة الوصول ويصير من أهل المشاهدة فيراه عياناً ويناجيه شفافاً.

اللهم اجعلنا من الواثقين للعين دون السامعين للأثر.

ومن عادة العرب التفنن في الكلام والعدول من أسلوب إلى آخر تطورية له وتنشيطاً للسامع، فيعدل من الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم وبالعكس، ك قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُتُمْ فِي الْفَلَكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ ﴾ يونس: ٢٢ و قوله: ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتَبَرَّحَابَا فَسَقَتْهُ ﴾ فاطر: ٩، قوله امرئ القيس:

تطاول ليك بالإثمد	ونام الخلي ولم ترقد
وبات وباتت له ليلة	كليناً ذي العابر الأرمد
وذلك من نبا جاءني	وخبرته عن أبي الأسود ^(١) .

من صور اللالفات في تفسير البيضاوي:

١. اللالفات من الغيبة إلى الخطاب:

وفيه ينتقل التعبير من طريق الغيبة إلى طريق المخاطبة المباشرة للمستمع، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَبْدُؤُ الْخَلْقَ مِمْ يُعِيْدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ الروم: ١١، قال البيضاوي رحمه الله: (الله يبدؤُ الْخَلْقَ) ينشئهم. (ثُمَّ يُعِيْدُهُ) يبعثهم. (ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) للجزاء والعدول إلى الخطاب للبالغة في المقصود، وقرأ أبو بكر وأبو عمرو بالياء على الأصل^(٢).

فالآلية إخبار من الله عن نفسه العليّة في ابتدائه الخلق وإعادته، وكان هذا الإخبار يقتضي أن تكون الخاتمة: (ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)، لكن النظم عدل عن الإخبار والغيبة إلى الخطاب المباشر (ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ).

(١) تفسير البيضاوي: ١٥/١. انظر أبيات امرئ القيس في ديوانه: ديوان امرئ القيس: ص ٨٧، عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

(٢) تفسير البيضاوي: ٤٧/٣

وقد قال الطاهر ابن عاشر في هذه الآية: فالخطاب في (ترجعون) للمشركين على طريقة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، وقرأ الجمهور ترجعون بتاء الخطاب. وقرأه أبو عمرو وأبو بكر عن عاصم وروح عن يعقوب بباء الغيبة على طريقة ما قبله^(١).

ومن الالتفات الذي جاء من الغيبة إلى الخطاب ما جاء في فاتحة الكتاب في قوله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْكَمَدُ لِلَّهِ نَعِيْتُ الْعَذَابَ ﴿٢﴾ الْرَّحْمَنُ الرَّجِيمُ ﴿٣﴾ مَلِكُ يَوْمِ الْبَيْنِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ ﴿٥﴾﴾ الفاتحة: ١ - ٥

قال البيضاوي رحمه الله: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ) ثم إنه لما ذكر الحقيق بالحمد، ووصف بصفات عظام تميز بها عن سائر الذوات وتعلق العلم بمعلوم معين خوطب بذلك، أي: يا من هذا شأنه نخصك بالعبادة والاستعانة، ليكون أدل على الاختصاص، وللترقي من البرهان إلى العيان والانتقال من الغيبة إلى الشهود، فكان المعلوم صار عياناً والمعقول مشاهداً والغيبة حضوراً^(٢).

فقد افتتحت سورة الفاتحة بالتعبير بطريق الغيبة عن الله عز وجل وحده، وذكر صفاته العلية وأسمائه الحسنى، بما هو لسان حال المسلم الذي يفتح هذه السورة في كل ركعة يصليها، ثم انتقل التعبير من طريق الغيبة إلى طريق الخطاب بقوله: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَتَحَلَّوْنَ بِمَا مَا أَتَتْهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌ لَّهُمْ سَيِطُوقُونَ مَا بَخْلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَلَّهُ مِرْثَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ حَسِيرٌ﴾^(٣) آل عمران: ١٨٠، قال البيضاوي رحمه الله: (وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ) من المنع والإعطاء. (خَيْرٌ) فمجازهم. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم ومحنة والكسائي بالتاء على الالتفات وهو أبلغ في الوعيد^(٤).

٢. الالتفات من الخطاب إلى الغيبة:

ومثاله قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١﴾﴾ آل عمران: ٩، قال البيضاوي رحمه الله: (رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ) لحساب يوم أو لجزائه. (لَا رَيْبَ فِيهِ) في وقوع اليوم وما فيه من الحشر والجزاء، نبهوا به على أن معظم غرضهم من الطلبتين ما

(١) التحرير والتقوير: ٦٢-٦١/٢١.

(٢) تفسير البيضاوي: ١٥/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٣١٦/١

يتعلق بالآخرة فإنها المقصود والمآل. (إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ) فإن الإلهية تنافيه وللإشعار به وتعظيم الموعود لون الخطاب^(١).

فتلوين الخطاب الذي أشار إليه البيضاوي في هذه الآية هو الالتفات من الخطاب في قوله: (ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه) إلى الغيبة في (إن الله لا يخلف الميعاد).

وفائدة الالتفات في هذه الآية وسره البلاغي يبرره لنا أبو السعود في تفسيره حيث يقول: {لا رَيْبَ فِيهِ} أي في وقوعه ووقوع ما فيه من الحشر والحساء والجزاء ومقصودهم بهذا عرض كمال افقارهم إلى الرحمة وأنها المقصود الأنسى عندهم والتأكيد لإظهار ما هم عليه من كمال الطمأنينة وقوة اليقين بأحوال الآخرة (إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ) تعليلاً لمضمون الجملة المؤكدة أو لانتفاء الريب والتأكيد لما مر بإظهار الاسم الجليل مع الالتفات لإبراز كمال التعظيم والإجلال الناشئ من ذكر اليوم المهيّب الهائل^(٢).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلُكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةً وَفَرِحُواٰ بِهَا جَاءَهُمْ مُؤْمِنُوْهُمْ مَكَانٌ وَظَنَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَمْ يُأْمِنُوكُمْ مِنْ هَذِهِ الْأُنْوَافِ لَنْ تَكُونُوكُمْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾^(٣) يونس: ٢٢، قال البيضاوي رحمه الله: (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ) يحملكم على السير ويمكنكم منه... (في البرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلُكِ) في السفن، (وَجَرَيْنَ بِهِمْ) بمن فيها، عدل عن الخطاب إلى الغيبة للمبالغة كأنه تذكرة لغيرهم ليتعجب من حالهم وينكر عليهم^(٤).

قال ابن الأثير عن الالتفات في هذه الآية: فإنه إنما صرف الكلام هنا من الخطاب إلى الغيبة لفائدة، وهي أنه ذكر لغيرهم حالهم، ليعجبهم منها كالمخبر لهم، ويستدعي منهم الإنكار عليهم، ولو قال: حتى إذا كنتم في الفلك، وجريناً بكم بريح طيبة فرحمتم بها، وساق الخطاب معهم إلى آخر الآية، لذهب تلك الفائدة التي أتجهها خطاب الغيبة، وليس ذلك بخاف عن نقدة الكلام^(٤).

(١) تفسير البيضاوي: ٢٤٦/١

(٢) تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم): أبو السعود العمادي، ٩/٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٣) تفسير البيضاوي: ٩٦/٢

(٤) المثل السائر: ١٤٣/٢

إن الخطاب كان موجهاً للذين يمكرون في آيات الله، لتحويلها عن دلالاتها الإيمانية، والمخاطبون عند نزول النص قد لا يكونون من الذين ركبوا الْبَحْرَ وتعرّضوا لمثل ما وصف النص بعد ذلك، لكنهم لو تعرضوا لمثله لكان حالُهُم مثل حال من وصفهم الله، نظراً إلى أن أهل الكفر أشباء في تصرّفاتِهم، إذ الفطرة تلِجُّهُم إلى الله عند الاضطرار وشدة الخوف، ثم إن كبرهم ورغبتهم في الفجور لتلبية مطالب شهواتهم وأهوائهم، مع تعليقِهم بالعاجلة وتشبيئِهم بزيتها، أمورٌ تردهم بعْدَ الأمان والاطمئنان والتَّعْمَة والرَّحَاء، إلى ما كانوا فيه من بُغْيٍ قبل ذلك.

فاقتضى تشبيه حالهم بحال أمثالهم السابقين لهم حكايةَ قِصَّةٍ مِنْ قِصَصِ الْكَافِرِينَ السَّابِقِينَ.

ولهذا توقف النص عند الفقرة الأولى المتعلقة بشأن المخاطبين إبان التزيل وبعده، وانتقلَ مُباشراً إلى تصوير مشهد قومٍ كافرين جرث بهم الْفَلَكُ بريح طيبة، فقال الله عز وجل بأسلوب حكاية خبرٍ عن حدثٍ مضى: (وَجَرَيْنَ بِهِمْ).

واكتفى النص بالمقدمة التي وجّهت للمخاطبين، عن ذكر نظيرها مما يخص المحدث عنهم بالغيبة، فكانه قال لهم: فسيكون حالُكُمْ كحال كافرين قبلكم ركبوا في الْفَلَكِ.

وحصل الاكتفاء بإشارة قول الله عز وجل للمخاطبين: (حتى إذا كُنْتُمْ فِي الْفَلَكِ) عن أن يقول لهم: إنكم لو تعرضتم لمثل ما تعرض له أصحاب هذه القصة لكنتم مثلكم، للتشابه بينكم وبينهم في أصلِ الفِطْرَةِ، وفي الدوافع إلى الكفر والبغى.

هذا فنٌ من الإبداع في الإيجاز بعرض المشاهد الماضية مع الإشارة التعريضية الضمنية إلى أن المخاطبين مثل أصحاب هذه المشاهد، غير فن الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، إنه من الصور الأدبية العجيبة في البيان^(١).

ومن الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطْكَأَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفِرُوكَ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَابًا رَّحِيمًا ﴾ النساء: ٦٤، قال البيضاوي رحمه الله: (واسْتَغْفِرَ لَهُمُ الرَّسُولُ) واعتذرنا إليك حتى

(١) البلاغة العربية: عبد الرحمن بن حسن الميداني الدمشقي، ٣٥٧/٢، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.

انتصبت لهم شفيعاً، وإنما عدل الخطاب تقحيمًا لشأنه وتنبيهاً على أن من حق الرسول أن يقبل اعتذار التائب وإن عظم جرمه ويشفع له، ومن منصبه أن يشفع في كبار الذنوب^(١).

فالالتفات حاصل من الخطاب في قوله: (جاءوك)، إلى الغيبة في قوله: (واستغفر لهم) والرسول (وكان الأصل أن يقال: (واستغفرت لهم)) .

وقد قال القرزياني عن فائدة الالتفات في هذه الآية: لم يقل: (واستغترت لهم) ، وعدل عنه إلى طريق الالتفات تقحيمًا لشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتعظيمًا لاستغفاره، وتنبيها على أن شفاعة من اسمه الرسول من الله بمكان^(٢).

٣. الالتفات من الغيبة إلى التكلم :

كما جاء في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَّكَنَا حَوْلَهُ لِتُرِيهُ مِنْ مَا يَنْبَغِي إِلَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾①﴿ الإسراء : ١ ، قال البيضاوي رحمه الله: وصرف الكلام من الغيبة إلى التكلم لتعظيم تلك البركات والآيات^(٣).

فالآلية واردة من بدايتها بطريق الغيبة المشار إليه بالضمائر الغائبة في (أسرى) إذ الفاعل ضميراً مستترًا غائباً، و(بعده)، ثم انتقل رب العزة إلى التكلم عن ذاته العلية فقال: (باركنا)، وقال: (لنريه)، وهذا الالتفات فائدته تعظيم تلك البركات لأن من باركتها ورعاها هو رب العزة خالق هذا الكون ومصوريه.

وقد تكلم ابن الأثير عن الالتفات في هذه الآية وأورد كلاماً حسناً إذ يقول: فقال أولاً: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى) بلفظ الواحد ثم قال: (الَّذِي بَارَكَنَا) بلفظ الجمع، ثم قال: (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) ، وهو خطاب غائب، ولو جاء الكلام على مساق الأول لكان: سبحان الذي أسرى بعده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بارك حوله لنريه من آياته إنه هو السميع البصير، وهذا جميعه معطوفاً "على أسري" ، فلما خولف بين المعطوف، والمعطوف عليه في الانقال من صيغة إلى صيغة كان ذلك اتساعاً، وتقينا في أساليب الكلام، ولمقصد آخر معنوي هو أعلى وأبلغ.

(١) تفسير البيضاوي: ٣٦٧/١

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة: ٩٣-٩٢/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ٢٩١/٢

لما بدأ الكلام بسبحان رده بقوله: (الذِّي أَسْرَى)، إذ لا يجوز أن يقال: الذي أسرينا، فلما جاء بلفظ الواحد والله تعالى أعظم العظماء، وهو أولى بخطاب العظيم في نفسه الذي هو بلفظ الجمع، استدرك الأول بالثاني، فقال: (بَارِكُنَا) ثم قال: (النَّرِيَةُ مِنْ آيَاتِنَا)، فجاء بذلك على نسق: (بَارِكُنَا)، ثم قال: (إِلَهُ هُوَ)، عطفاً على أسرى، وذلك موضع متوسط الصفة؛ لأن السمع والبصر صفتان يشاركا فيهما غيره، وتلك حال متوسطة، فخرج بهما عن خطاب العظيم، في نفسه إلى خطاب غائب.

فانظر إلى هذه الالتفاتات المترادفة في هذه الآية الواحدة التي جاءت لمعان اختصت بها، يعرفها من يعرفها، ويجهلها من يجهلها^(١).

ومثال الالتفات من الغيبة إلى التكلم قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَنْتَخُذُوا إِلَيْنَاهُنَّ أَنْتُمْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ
وَحْدَهُ فَإِنَّمَا فَارَهُوْنَ﴾ النحل: ٥١، قال البيضاوي رحمه الله: (فَإِيَّاهُ فَارَهُوْنَ) نقل من الغيبة إلى التكلم مبالغة في الترهيب وتصريحًا بالمقصود فكانه قال: فأنا ذلك الإله الواحد فإيادي فارهبون لا غير^(٢).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُّلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
فَأَخْرَجَنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَفَّى﴾ طه: ٥٣، قال البيضاوي رحمه الله: (فَأَخْرَجْنَا بِهِ) عدل به عن لفظ الغيبة إلى صيغة التكلم على الحكاية لكلام الله تعالى، تبييناً على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة وإيداناً بأنه مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لمشيئته^(٣).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿أَنَّمَا خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ
حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُنَّ أَنْ تُنْتَشِرَ شَجَرَهَا أَوْلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ النمل: ٦٠، قال البيضاوي رحمه الله: (مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ) عدل به من الغيبة إلى التكلم لتأكيد اختصاص الفعل بذاته، والتتباهي على أن إنبات الحدائق البهية المختلفة الأنواع المتباude الطياع من المواد المشابهة لا يقدر عليه غيره^(٤).

(١) المثل السائر: ١٣٩-١٣٨/٢

(٢) تفسير البيضاوي: ٢٦٥/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ٣٩٣/٢

(٤) تفسير البيضاوي: ٥٧١/٢

٤. الالتفات من التكلم إلى الغيبة:

كما في قوله تعالى: ﴿ طه ١ ﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْفَعَ ۝ إِلَّا نَذَكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى ۝ تَنْزِيلًا ۝ مَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلُوِّ ۝ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى ۝ ۝ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا يَمْتَهِنُ مَا وَمَا تَحْتَ الْأَرْضَ ۝ وَلَمْ يَجْعَلْ بِالْقَوْلِ فِي نَهَارٍ يَعْلَمُ السَّرَّ وَأَخْفَى ۝ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحَسَنَى ۝ طه: ١ - ٨ ، قال البيضاوي رحمه الله: والانتقال من التكلم إلى الغيبة للتفنن في الكلام وتقخيim المنزل من وجهين إسناد إنزاله إلى ضمير الواحد العظيم الشأن، ونسبته إلى المختص بصفات الجلال والإكرام والتبيه على أنه واجب الإيمان به والانقياد له من حيث أنه كلام من هذا شأنه^(١).

فالالتفات في هذه الآيات من التكلم في (ما أنزلنا) إلى الغيبة في: (تنزيلاً من خلق الأرض والسموات العلا).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَكَانُوا أَنَاسٌ إِذْ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَيَعًا أَلَيْهِ لَهُ مُلْكُ الْأَسْمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُعْلِمُ ۝ وَيَعْلَمُ فَقَامُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ أَلَيْهِ أَلْمِتَهُ أَلَيْهِ يَوْمٌ بِإِلَهٍ ۝ وَكَلِمَتِهِ ۝ وَأَتَيْعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهَدُونَ ۝ ۝ الأعراف: ١٥٨﴾ ، قال البيضاوي رحمه الله: وإنما عدل عن التكلم إلى الغيبة لإجراء هذه الصفات الداعية إلى الإيمان به والاتباع له^(٢).

فالالتفات من التكلم الذي يفهم من: (إنني رسول الله) إلى الغيبة في قوله: (فأمنوا بالله ورسوله). فإنه إنما قال: (فأمنوا بالله ورسوله)، ولم يقل: فأمنوا بالله وبني، عطفاً على قوله: (إنني رسول الله إليكم)؛ لكي تجري عليه الصفات التي أجريت عليه، ولتعليم أن الذي وجب الإيمان به، والاتباع له هو هذا الشخص الموصوف بأنه النبي الأمي الذي يؤمن بالله، وبكلماته كائناً من كان أنا أو غيري، إظهاراً للنصفة، وبعداً من التعصب لنفسه، فقدر أولًا في صدر الآية أنه رسول الله إلى الناس، ثم أخرج كلامه من الخطاب إلى معرض الغيبة لغرضين.

الأول منها: إجراء تلك الصفات عليه، والثاني: الخروج من تهمة التعصب لنفسه^(٣).

(١) تفسير البيضاوي: ٣٨٤/٢

(٢) تفسير البيضااوي: ٥٧٦/١

(٣) المثل السائر: ١٤٤/٢

باقي صور الالتفات:

وهناك صورتان آخران للالتفات ذكرهما البلاغيون، وهما: (الالتفات من الخطاب إلى التكلم ومن التكلم إلى الخطاب) لم أقف عليهما في تفسير البيضاوي، ولم يذكرهما البيضاوي حتى حين تعرض لأقسام الالتفات إذ نراه يقوله: ومن عادة العرب التفنن في الكلام والعدول من أسلوب إلى آخر تطيرية له وتشييطاً للسامع، فيعدل من الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم وبالعكس^(١).

فيكون قوله: فيعدل من الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم وبالعكس، قد جمع صور الالتفات الأربع التي وردت أمثلة عليها، ولم يذكر الصورتين الآخرين، ونرى الشهاب الخاجي في حاشيته على تفسير البيضاوي يشير إلى السبب من وراء عدم ذكر الصورتين المتبقيتين من صور الالتفات إذ يقول معلقاً على كلام البيضاوي السابق: وسكت عن قسمي العدول من الخطاب إلى التكلم، وبالعكس قيل لقلة وقوعهما في التراكيب، أو لأنهما يعلمان بالمقاييسة إلى ما ذكر بل بالأولى إذ القرب بين التكلم والخطاب أشد^(٢).

الفائدة البلاغية للالتفات:

يأتي الالتفات لفوائد بلاغية عديدة غير ما ذكرها البلاغيون من تشيشط السامع واستدرار إصغائه ودفع الملل الذي قد يصيبه من اعتماد طريقة وأسلوب واحد في الحديث، ومن هذه الأغراض البلاغية:

١. التعظيم والتخفيم:

تظهر هذه الفائدة البلاغية في الالتفات في قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَا شَاءَ فَأَخْرَجَنَا بِهِ أَرْوَاحَنَا مِنْ بَأْنَاتِ شَقَّ﴾ طه: ٥٣، قال البيضاوي رحمه الله: (فَأَخْرَجْنَا بِهِ) عدل به عن لفظ الغيبة إلى صيغة التكلم على الحكاية لكلام الله تعالى، تبيهاً على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة وإيدانًا بأنه مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لمشيئته^(٣).

(١) تفسير البيضاوي: ١٥/١

(٢) حاشية الشهاب: ١١٣/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٣٩٣/٢

فقول البيضاوي: (تبينهاً على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة)، فيه إشارة إلى أن فائدة الالتفات هنا هو تعظيم الله عز وجل وتقديره من خلال الانتقال من الغيبة إلى التكلم.

ومثال الالتفات الذي جاء لغرض التعظيم والتقدير أيضاً قوله تعالى: كما في قوله تعالى: كما في قوله تعالى: ﴿ طه ١٠ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتُشْفَعَ ١١ إِلَّا نَذِكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى ١٢ تَزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ ١٣ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْمُلْكَ ١٤ الْرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى ١٥ اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا يَنْهَا مَا مَا حَتَّى الْأَرْضَ ١٦ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ الْأَيْمَرَ وَأَخْفَى ١٧ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْمُعْسَنَ ١٨﴾ طه: ١ - ٨ ، قال البيضاوي رحمه الله: والانتقال من التكلم إلى الغيبة للتلفظ في الكلام وتقدير المنزل من وجهين إسناد إنزاله إلى ضمير الواحد العظيم الشأن، ونسبته إلى المختص بصفات الجلال والإكرام والتبيه على أنه واجب الإيمان به والانقياد له من حيث أنه كلام من هذا شأنه^(١)

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ شَبَّحَنَ الَّذِي أَسْرَى يَعْبُدُوهُ لَيَلَّا مِنَ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَّكَنَا حَوْلَهُ لَنْ يَرِيَهُ مِنْ مَا يَنْتَهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ١﴾ الإسراء: ١ ، قال البيضاوي رحمه الله: وصرف الكلام من الغيبة إلى التكلم لتعظيم تلك البركات والأيات^(٢).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَءَيْتُمْ مِنْ رِبَابًا لَيَرْبُوا فِي أَنْوَلِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا أَءَيْتُمْ مِنْ رُكْوَفَ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ٢﴾ الروم: ٣٩ ، قال البيضاوي رحمه الله: (فأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ) ذرو الأضعف من الثواب... أو الذين ضعفوا ثوابهم وأموالهم ببركة الزكاة، وقرئ بفتح العين وتغييره عن سُنن المقابلة عبارة ونظمًا للمبالغة، والالتفات فيه للتعظيم كأنه خاطب به الملائكة وخواص الخلق تعريفاً لحالهم^(٣).

٢. التهديد والتحذير:

يأتي الالتفات ويكون فائدته البلاغية التهديد، وذلك حين ينتقل بالتعبير من الغيبة مثلاً إلى التكلم، وطريق التكلم المباشر أوقع في التهديد والتذرييف، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مَلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا يَنْهَا مَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَمَوْنَ ٤٥﴾ الزخرف: ٨٥ ، قال البيضاوي رحمه الله: (وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مَلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا يَنْهَا مَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) كالهواء.

(١) تفسير البيضاوي: ٣٨٤/٢

(٢) تفسير البيضااوي: ٢٩١/٢

(٣) تفسير البيضااوي: ٥٣/٣

العلم بالساعة التي تقوم القيمة فيها. (وَإِنَّهُ يُرْجَفُونَ) للجزاء، وقرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وعاصم وروح بالباء على الالتفات للتهديد^(١).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَنَ لَيَطْغَىٰ٦ أَنَّ رَأَاهُ أَسْتَغْفِرُ٧ إِنَّ إِلَيْكَ الرُّجْعَى٨﴾ العق:
٦ - ٨، قال البيضاوي رحمه الله: (إِنَّ إِلَيْكَ الرُّجْعَى) الخطاب للإنسان على الالتفات تهديداً وتحذيراً من عاقبة الطغيان^(٢).

٣. الترهيب:

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَنْخِذُوا إِلَهَيْنِ أَنْتِينِ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ وَنَحْدُوْ فَإِنَّمَا فَارَهُبُونَ٥﴾ النحل: ٥١، قال البيضاوي رحمه الله: (فَإِيَّاهُ فَارَهُبُونَ) نقل من الغيبة إلى التكلم مبالغة في الترهيب وتصریحاً بالمقصود فكانه قال: فأنا ذلك الإله الواحد فإيماي فارهبون لا غير^(٣).

٤. التوبیخ والذم:

مثاله قوله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَاتُلُوا هَذَا إِنَّكُمْ مُّبِينُ٩﴾ النور: ١٢، قال البيضاوي رحمه الله: (لَوْلَا هَلَّ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا) بالذين منهم من المؤمنين والمؤمنات... وإنما عدل فيه من الخطاب إلى الغيبة مبالغة في التوبیخ وإشعاراً بأن الإيمان يقتضي ظن الخير بالمؤمنين والكف عن الطعن فيهم وذب الطاعنين عنهم كما يذبونهم عن أنفسهم^(٤).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَتَقْطَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ٩﴾ الأنبياء: ٩٣، قال البيضاوي رحمه الله: (وَتَقْطَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ) صرفه إلى الغيبة الالتفاتاً لينعى على الذين تفرقوا في الدين وجعلوا أمره قطعاً موزعة بقبح فعلهم إلى غيرهم^(٥).

فيفهم من قول البيضاوي: (لينعى على الذين تفرقوا في الدين وجعلوا أمره قطعاً موزعة بقبح فعلهم إلى غيرهم) أنه أراد توبیخهم، فيكون الغرض من الالتفات هنا التوبیخ.

(١) تفسير البيضاوي: ٢٥٨/٣

(٢) تفسير البيضاوي: ٥٥١/٣

(٣) تفسير البيضااوي: ٢٦٥/٢

(٤) تفسير البيضااوي: ٤٨٨/٢

(٥) تفسير البيضااوي: ٤٣٢/٢

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا أَنْحَذَ الْرَّحْمَنَ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴾٨٩﴿ ﴾ مريم: ٨٨ - ٨٩،
قال البيضاوي رحمه الله: (لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا) على الالتفات للبالغة في الذم والتسجيل عليهم
بالجراءة على الله تعالى^(١).

٥. المبالغة:

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَرِّكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلُكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طِينَةٍ
وَفَرِحُوا بِهَا جَاهَتْهَا بِرِيحٍ عَاصِفٍ وَجَاءَهُمْ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَطَنَوْا أَنْهَمُهُمْ أَحِيطَ بِهِمْ دَعَوْا اللَّهَ مُخَلِّصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَمْ
أَبْجِيدُنَا مِنْ هَذِهِ الْكُوْنَاتِ مِنَ الشَّكِّرِينَ ﴾٩٠﴿ يومنس: ٢٢ ، قال البيضاوي رحمه الله: (هُوَ الَّذِي يُسَرِّكُمْ)
يحملكم على السير ويمكنكم منه... (في البرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلُكِ) في السفن، (وَجَرَيْنَ
بِهِمْ) بمن فيها، عدل عن الخطاب إلى الغيبة للبالغة كأنه تذكرة لغيرهم ليتعجب من حالهم وينكر
عليهم^(٢).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ أَللَّهُ يَبْدُؤُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيْدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَمُونَ ﴾١١﴿ الروم: ١١ ، قال
البيضاوي رحمه الله: (اللَّهُ يَبْدُؤُ الْخَلْقَ) ينشئهم. (ثُمَّ يُعِيْدُهُ) يبعثهم. (ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) للجزاء والعدول
إلى الخطاب للبالغة في المقصود، وقرأ أبو بكر وأبو عمرو وروح بالياء على الأصل^(٣).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾٩١﴿ وَكَذَّبُوا بِإِيمَانِنَا كَذَّابًا ﴾٩٢﴿ وَكُلُّ شَفْعٍ
أَحَصَيْنَاهُ كَبَّابًا ﴾٩٣﴿ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدُكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾٩٤﴿ النَّبَأ: ٣٠ - ٢٧ ، قال البيضاوي رحمه الله:
(فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدُكُمْ إِلَّا عَذَابًا) مسبب عن كفرهم بالحساب وتذكيتهم بالآيات ومجيئه على طريقة
الالتفات للبالغة^(٤).

٦. الدلالة على الاختصاص:

ومثاله قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ① الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الْرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ③ مَلِكُ الْعَوْزِ
الْغَيْبِ ④ إِلَيْكَ نَبْتَهُ ⑤ إِلَيْكَ نَسْتَعِنُ ⑥ ① الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الْرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ③ مَلِكُ الْعَوْزِ
الْغَيْبِ ④ إِلَيْكَ نَبْتَهُ ⑤ إِلَيْكَ نَسْتَعِنُ ⑥﴾ الفاتحة: ١ - ٥ ، قال البيضاوي رحمه الله: (إِلَيْكَ نَعْبُدُ وَإِلَيْكَ
نَسْتَعِنُ) ثم إنه لما ذكر الحقيق بالحمد، ووصف بصفات عظام تميز بها عن سائر الذوات وتعلق
العلم بمعلوم معين خوطب بذلك، أي: يا من هذا شأنه نخصك بالعبادة والاستعانة، ليكون أدل

(١) تفسير البيضاوي: ٣٨٠/٢

(٢) تفسير البيضاوي: ٩٦/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ٤٧/٣

(٤) تفسير البيضااوي: ٤٩١/٣

على الاختصاص، وللترقي من البرهان إلى العيان والانتقال من الغيبة إلى الشهود، فكأن المعلوم صار عياناً والمعقول مشاهداً والغيبة حضوراً^(١).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا النَّيْنُ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي مَأْتَتْ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكْتَ بِيَمِنِكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَنْتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَلَنِكَ الَّتِي هَاجَرَنَّ مَعَكَ وَأُمَّةً مُؤْمِنَةً إِنَّ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنَّ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنِدَهُنَّا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عِلِّمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِنَّ وَمَا مَلَكْتَ أَيْمَانَهُنَّ لِكَيْنَلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرْجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ ﴿٥﴾ الأحزاب: ٥ ، قال البيضاوي رحمه الله: والعدول عن الخطاب إلى الغيبة بلفظ النبي مكرراً، ثم الرجوع إليه في قوله: خالصةً لكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ إذن بأنه مما خص به لشرف نبوته وتقرير لاستحقاق الكراهة لأجله^(٢).

٧. الوعيد:

مثاله قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَتَخَلُّونَ بِمَا أَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ حَرَجٌ لَهُمْ بَلْ هُوَ شُرٌّ لَهُمْ سَيِطَّوْفُونَ مَا يَعْلَمُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَلَّهُ مِرْثَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ إِنَّمَا تَعْمَلُونَ حَيْرٌ ﴾ ﴿٦﴾ آل عمران: ١٨٠ ، قال البيضاوي رحمه الله: (وَاللَّهُ إِنَّمَا يَعْمَلُونَ) من المنع والإعطاء. (حيير) فمجازاتهم. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي بالباء على الالتفات وهو أبلغ في الوعيد^(٣).

٨. العناية والاهتمام:

وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبِّكُمُ الَّذِي خَلَقُوكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقَوْنَ ﴾ ﴿٦١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَشًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْجَعَ بِهِ مِنَ الشَّرَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا يَحْمِلُوا اللَّهَ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٦٢﴾ البقرة: ٢١ - ٢٢ ، قال البيضاوي رحمه الله: (يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبِّكُمْ) لما عدد فرق المكاففين وذكر خواصهم ومصارف أمورهم، أقبل عليهم بالخطاب على سبيل الالتفات هرزاً للسامع وتشيطاً له واهتمامًا بأمر العبادة، وتقخيماً لشأنها، وجبراً لتكلفة العبادة بلذة المخاطبة^(٤).

(١) تفسير البيضاوي: ١٥/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٩٢/٣

(٣) تفسير البيضااوي: ٣١٦/١

(٤) تفسير البيضااوي: ٥٩/١

٩. الزجر:

يأتي الالتفات لغرض الزجر ومعناه: **المُنْهُعُ والنَّهِيُّ وَالْأَنْتَهَى**^(١).

ومما جاء من الالتفات لغرض الزجر قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَعَ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَنْقُونَ ١١﴾ الشعراة: ١٠ - ١١، قال البيضاوي في قوله تعالى: (قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَنْقُونَ) وقرئ بالباء على الالتفات إليهم زجراً لهم وغضباً عليهم، وهم وإن كان غيباً حينذاك أجروا مجرى الحاضرين في كلام المرسل إليهم من حيث إنه مبلغه إليهم وإسماعه مبدأ إسماعهم، مع ما فيه من مزيد الحث على التقوى لمن تدبره وتأمل مورده^(٢).

١٠. التعريم:

ومثاله قوله تعالى: ﴿وَمَا أَئْتَمِنْ رَبَّا لَيْبِرُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِبُّوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا أَئْتَمِنْ زَكْوَرَ تُرْبِيدُوكَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ٣٩﴾ الروم: ٣٩، قال البيضاوي رحمه الله: (فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ) ذنو الأضعف من الثواب... أو الذين ضعوا ثوابهم وأموالهم ببركة الزكاة، وقرئ بفتح العين وتغييره عن سسن المقابلة عبارة ونظمأ للمبالغة، والالتفات فيه للتعظيم كأنه خاطب به الملائكة وخواص الخلق تعريفاً لحالهم، أو للتعريم كأنه قال: فمن فعل ذلك فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ^(٣).

١١. المعايبة:

ومعنى المعايبة: لوم الرجل على إساءة كانت له إلينك، فاستعانته منها... **التعجب والماعتة** والعتاب: كُلُّ ذَلِكَ مُخَاطَبَةُ الْإِذْلَالِ وكلام المُذَلِّينَ أَخْلَاءُهُمْ طَالِبِينَ حُسْنَ مُراجعتهم، ومذكرة بعضهم بعضاً ما كرهوه مما كسبهم الموجدة^(٤).

ومثال الالتفات الذي جاء لغرض المعايبة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسْرَ أَنَّى إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيقَةٍ فَلَمَّا بَأْتَهُمْ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَيْتَهُ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهُمْ بِهِ قَالَ مَنْ أَبْنَاكَ هَذَا قَالَ نَبَأْنَاهُ اللَّهُمَّ أَلْخِرْ ٧ إِنْ تَنْوِي إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظْهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مُولَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَاحِبُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ

(١) لسان العرب (زجر): ٣١٨/٤

(٢) تقسيم البيضاوي: ٥٣٥/٢

(٣) تقسيم البيضاوي: ٥٣/٣

(٤) لسان العرب (عتب): ٥٧٧/١

طهير (٤) التحرير: ٣ - ٤، قال البيضاوي رحمه الله: (إِنْ تَشْوِبَا إِلَى اللَّهِ) خطاب لحصة وعائشة على الالتفات للمبالغة في المعايبة^(١).

ثانياً: التغليب:

التغليب لغة: غُلِبَ عَلَى صَاحِبِهِ: حُكِمَ لَهُ عَلَيْهِ بِالْغَلْبَةِ... وَتَغْلَبَ عَلَى بَلَدِ كَذَا: اسْتَوَى عَلَيْهِ قَهْرًا^(٢).

أما التغليب أصطلاحاً فقد قال عنه الزكريسي: وَحْقِيقَتُهُ إِعْطَاءُ الشَّيْءِ حُكْمَ غَيْرِهِ. وَقِيلَ تَرْجِيحُ أَحَدِ الْمَغْلُوبَيْنِ عَلَى الْآخَرِ أَوْ إِطْلَاقُ لَفْظِهِ عَلَيْهِمَا إِجْرَاءً لِلْمُخْتَلِفَيْنِ مَجْرِيَ الْمُتَقَرِّبَيْنِ^(٣).

وقيل أيضاً في تعريف التغليب: هو أن يكون الثان مُختلفاً للفظ يثنيان على لفظ أحدهما تارة لشرفه وتارة لشرته وتارة لخفته وتارة لغير ذلك كالأبوين والعمرين أبي بكر وعمر رضي الله عنهمَا والقررين الشمس والقمر والمصعيين مصعب بن الزبير وأبنته والخبيبين أبي خبيب عبد الله بن الزبير وأخيه مصعب وغير ذلك^(٤).

وقد عرفه الشريف الجرجاني بأنه: ترجيح أحد المعلومين على الآخر وإطلاقه عليهما، وقيدوا إطلاقه عليهما للاحتراز عن المشاكلا^(٥).

واللغيب فن بديع من الفنون البلاغية عند العرب جاء على ذكره كثير من العلماء، فنرى ابن الأثير يعلق على قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا يَنْخِسَفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ، وَلَا لِحَيَاةِ"^(٦)، فيقول ابن الأثير: وقد ورد الخسوف في الحديث كثيراً للشمس، والمعروف لها

(١) تفسير البيضاوي: ٤٢٠/٣

(٢) لسان العرب (غلب): ٦٥١/١

(٣) البرهان في علوم القرآن: ٣٠٢/٣

(٤) تحرير ألفاظ التتبية: محيي الدين النووي، ص ١٣٤-١٣٥، تحقيق عبد الغني الدقر، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ٥١٤٠٨.

(٥) كتاب التعريفات: علي بن محمد الجرجاني، ص ٦٣، تحقيق جماعة من العلماء، الناشر دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م، هـ ١٤٠٣.

(٦) السنن الكبرى: أحمد بن شعيب النسائي، ٣٥٢/٢، تحقيق حسن شلبي، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الأولى، هـ ١٤٢١، م ٢٠٠١.

في اللغة الكسوف لا الخسوف، فأماماً إطلاقه في مثل هذا الحديث فتغليباً للقمر لذكره على تأنيث الشمس، فجمع بينهما فيما يخص القمر^(١).

وقد أشار شيخ البلاغة عبد القاهر الجرجاني إلى التغليب بعد أن أورد قول المتنبي:

فَأَرْتَنِي الْقَمَرُ فِي وَقْتٍ مَعَا
وَاسْتَقْبَلْتُ قَمَرَ السَّمَاءِ بِوَجْهِهَا

فَقَالَ: أَرَادَ فَأَرْتَنِي الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، ثُمَّ غَلَبَ اسْمَ الْقَمَرِ كَوْلُ الْفَرْزَدقُ:

لَنَا قَمَرًا هَا وَالنُّجُومُ الطَّوَالُ^(٢).
أَخْذَنَا بِأَفَاقِ السَّمَاءِ عَلَيْكُمْ

ونرى التعالبي في فقه اللغة قد أفرد فصلاً يشير فيه إلى التغليب فقال: الفصل الرابع والثلاثون: (في الخطاب الشامل للذكران والإنااث وما يفرق بينهم).

قال في هذا الفصل: قال الله عزّ وجلّ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَتَقْنُو اللَّهَ﴾ آل عمران: ١٠٢ ، وقال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكُوْنَ﴾ البقرة: ٤٣ ، فعمّ بهذا الخطاب الرجال والنساء وغلب الرجال وتغليبهم من سنن العرب. وكان ثعلب يقول العرب تقول: امرؤٌ وامرأٌ قومٌ وامرأةٌ وامرأتان ونسوة، لا يقال للنساء قوم وإنما سمّي الرجال دون النساء قوماً لأنهم يقومون في الأمور كما قال عزّ ذكره: ﴿الرِّجَالُ قَوَّمُنَّ عَلَى النِّسَاءِ﴾ النساء: ٣٤...ومما يدل على أنّ القوم رجال دون النساء قول الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ الحجرات: ١١^(٣).

من أقسام التغليب عند الإمام البيضاوي:

١. تغليب المخاطب على الغائب:

مثاله قوله تعالى: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَمِ أَزْوَاجًا يَدْرُؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ أَسْمَاعُ الْجَحَّابِ﴾ الشورى: ١١ ، قال البيضاوي رحمه الله: (منْ أَنفُسِكُمْ) من جنسكم. (أَزْوَاجًا) نساء. (وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا) أي وخلق للأنعام من جنسها

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر: مجـد الدين ابن الأثير، ٣١/٢، تحقيق طـاهر الـزاـوي وـمـحمد الطـناـحي، المـكتـبة الـعلمـية، بيـرـوت، ١٣٩٩ـهـ، ١٩٩٧ـمـ.

(٢) أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني، ٣١٥، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدنـي بالـقـاهـرة ودار المـدنـي بـجـدـة.

(٣) فـقهـ اللغةـ وـسرـ العـربـيـةـ: عبدـ المـلكـ الـتعـالـيـ، صـ ٢٣٤ـ، تـحـقـيقـ عـبدـ الرـزـاقـ الـمـهـديـ، إـحـيـاءـ التـرـاثـ الـعـربـيـ، الـطـبـعـةـ الـأـولـيـ،

٢٠٠٢ـهـ، ١٤٢٢ـمـ.

أزواجاً، أو خلق لكم من الأنعام أصنافاً أو ذكوراً وإناثاً. (يَذْرُؤُكُمْ) يذكركم من الذرع وهو البث وفي معناه الذر والذرو، والضمير على الأول للناس والأنعام على تغليب المخاطبين العقلاء^(١).

فالضمير في (يَذْرُؤُكُمْ) ضمير جمع للمخاطب، والأصل أن يقال: (يَذْرُؤُكُمْ وَيَذْرُؤُهَا)، ليجمع بذلك ضمير المخاطب وضمير الغائب اللذين ورد ذكرهما في الآية السابقة، ولكن البلاغة القرآنية أنت بـ(يَذْرُؤُكُمْ) التي هي للمخاطب على سبيل التغليب.

ولعل فائدة التغليب في مثل هذه الآية هو (الإيجاز) إذ أن (يَذْرُؤُكُمْ) أكثر إيجازاً وأقل لفظاً من (يَذْرُؤُكُمْ وَيَذْرُؤُهُمْ).

ولعل في التغليب في هذه الآية نكتةً بلاغيةً أخرى، فقوله: (يَذْرُؤُكُمْ) بدلاً من (يَذْرُؤُكُمْ وَيَذْرُؤُهَا)، إشارة إلى تفضيل الله عز وجل للإنسان على كافة المخلوقات وأنه خليفة الله له في الأرض، وهي إشارة إلى أن كل ما في هذه الأرض بما فيها من الأنعام وسائر المخلوقات هي مخلوقة ومسخرة لخدمة الإنسان لعمارة الأرض، وطاعة الله، كما جاء في قوله تعالى: ﴿أَنَّتُرَوْاْ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَةً طَهِيرَةً وَبِكِيلَنَةً﴾ لقمان: ٢٠، وقال في حق الأنعام وتسخيرها للإنسان: ﴿وَالْبَدْنَكَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعْبَرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُواْ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَئْتُمُ جُنُوبَهَا فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعُمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعَرَّكَذِلَّكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ شَكُورُونَ﴾ الحج: ٣٦، لأجل هذا كان التغليب في هذا الآية بـ(يَذْرُؤُكُمْ).

ويقول السكاكي عن الآية السابقة التي جاءت على تغليب المخاطبين على الغائبين وهي قوله تعالى: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَمِ أَزْوَاجًا يَذْرُؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كِمْثِيلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ الشورى: ١١، قال: خطاباً شاملًا للعقلاء والأنعام مغلباً فيه المخاطبون على الغيب والعقلاء على ما لا يعقل^(٢).

ومن تغليب المخاطب على الغائب قوله تعالى: (وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَاقْمِتْ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقْمِمُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَاخْذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ) النساء: ١٠٢، قال البيضاوي

(١) تفسير البيضاوي: ٢٣٣/٣

(٢) مفتاح العلوم: ٢٤٢.

رحمه الله: (فَإِذَا سَجَدُوا) يعني المصلين. (فَلَيَكُونُوا) أي غير المصلين. (مِنْ وَرَائِكُمْ) يحرسونكم يعني النبي صلى الله عليه وسلم ومن يصلي معه، فغلب المخاطب على الغائب^(١).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَعْبُدُ وَارْبِكُمُ الَّذِي خَلَقْتُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمْ تَعْلَمُمْ تَعْقُونَ﴾ البقرة: ٢١، قال البيضاوي رحمه الله: (الْعَلَمُ تَعْقُونَ) حال من الضمير في اعبدوا كأنه قال: اعبدوا ربكم راجين أن تخرطوا في سلك المتقين الفائزين بالهدى والغلاح، المستوجبين جوار الله تعالى... وغلب المخاطبين على الغائبين في اللفظ، والمعنى على إرادتهم جمياً^(٢).

فالخطاب والنداء في هذه الآية لكل الناس سواء من وجد منهم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم أو من سبقوهم، وكان حق النظم أن يكون: (العلم تتعرون، ولعلمهم يتقدون)، إلا أنه غالب المخاطبين على الغائبين.

ومثاله أيضاً قوله تعالى لإبليس بعد أن أمره بالسجود لأدم فاستكبر وعصا : ﴿قَالَ أَذْهَبْ فَمَنْ تَعْكِ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ حَرَاؤُكُمْ جَزَاءٌ مَوْفُورًا﴾ الإسراء: ٦٣ ، قال البيضاوي رحمه الله: (قال أذهب) امض لما قصدته وهو طرد وتخلية بينه وبين ما سولت له نفسه. (فَمَنْ تَعْكِ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ) جزاؤك وجراوهم فغلب المخاطب على الغائب^(٣).

٢. تغليب المذكر على المؤنث

ومثاله قوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ بَنْتَ عِمْرَنَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلْمَنَتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ التحرير: ١٢ ، قال البيضاوي رحمه الله: (وكانت من القانتين) من عدد المواظيبين على الطاعة، والتذكير للتغليب والإشعار بأن طاعتها لم تقصر عن طاعة الرجال الكاملين حتى عدت من جملتهم^(٤).

فمن المعلوم أن الرجال أقدر على تحمل مشاق العبادة من صيام وطول صلاة وقيام، ودعوة وجهاد من النساء، فلما كان الرجال أقدر على هذه الأمور من النساء، جاء التغليب هنا

(١) تفسير البيضاوي: ٣٨٧/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٦١/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٣٠٩/٢

(٤) تفسير البيضااوي: ٤٢٣/٣

للدلالة على عظم طاعتها وعبادتها لله عز وجل حتى وصفت بأنها (من القانتين)، ولم توصف بأنها (من القانتات).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَنِ﴾ النساء: ١٧٦، قال البيضاوي رحمه الله: (وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَنِ) أصله وإن كانوا إخوة وأخوات فغلب المذكر^(١).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْثَيَنِ خَالِصَةٌ لِذُكْرَنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءٌ سَيَجْزِيَهُمْ وَصَفْهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلَيْهِ﴾ الأنعام: ١٣٩، قال البيضاوي رحمه الله: (وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءٌ) فالذكور والإناث فيه سواء... والتذكير في فيه لأن المراد بالميئنة ما يعم الذكر والأنثى فغلب الذكر^(٢).

ومن تغليب الذكور على الإناث قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِلَيْسْتُمْ كُمُّ الَّذِينَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ النور: ٥٨، قال البيضاوي رحمه الله: والمراد به خطاب الرجال والنساء غالب فيه الرجال لما روي أن غلام أسماء بنت أبي مرثد دخل عليها في وقت كرهته فنزلت^(٣).

فالاستئذان واجب على الذكور والإناث لكنه جاء باسم الموصول (الذين) الذي هو للذكور تغليباً للذكور على الإناث.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَجْمَعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ القيامة: ٩، قال البيضاوي رحمه الله: (وَجْمَعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ) في ذهاب الضوء أو الطلوع من المغرب، ولا ينافي الخسوف فإنه مستعار للمحاق... وتذكير الفعل لنقدمه وتغليب المعطوف^(٤).

٣. تغليب العاقل على غير العاقل:

مثاله قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الفاتحة: ٢، قال البيضاوي رحمه الله في (رب العالمين): وإنما جمعه ليشمل ما تحته من الأجناس المختلفة، وغلب العقلاء منهم فجمعه

(١) تفسير البيضاوي: ٤١٤/١.

(٢) تفسير البيضاوي: ٥٢١/١.

(٣) تفسير البيضاوي: ٥٠٦/٢.

(٤) تفسير البيضاوي: ٤٧٢/٣.

بالياء والنون كسائر أوصافهم. وقيل: اسم وضع لذوي العلم من الملائكة والثقلين، وتناوله لغيرهم على سبيل الاستتباع^(١).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَيِّعُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالظَّيْرُ صَفَقَتِ كُلُّ قَدْ عَلَمَ صَلَّاهُ وَسَيِّدَهُ وَاللَّهُ عَلِيهِ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ النور: ٤، قال البيضاوي رحمه الله: (أَنَّ اللَّهَ يُسَيِّعُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) ينزله ذاته عن كل نقص وآفة أهل السموات والأرض، ومن لتغليب العقلاء أو الملائكة والثقلان بما يدل عليه من مقال أو دلالة حال^(٢).

ومن تغليب العقلاء أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوَ النَّاقَةِ فَنَنَّهُ لَهُمْ فَأَرْتَقُهُمْ وَأَصْطَرُهُمْ وَبَيْنَهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرِبٍ مُحْضَرٌ﴾ القمر: ٢٧ - ٢٨، قال البيضاوي رحمه الله: (وَبَيْنَهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ) مقسم لها يوم ولهم يوم، وبينهم لتغليب العقلاء^(٣).

أراد أن الماء قسمة بين قوم صالح عليه السلام وبين الناقة، وكان السياق يقتضي (قسمة بينهم وبينها) لكنه قال (بينهم) تغليباً للعقلاء على غير العاقل وهي الناقة هنا.

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَنَّهُدَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهُ قَدْنُونَ﴾ البقرة: ١١٦، قال البيضاوي رحمه الله: وإنما جاء بـ(ما) الذي لغير أولي العلم، وقال (قانتون) على تغليب أولي العلم تحيراً لشأنهم^(٤).

٤. تغليب الجماعة على الواحد:

ومثاله قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِرْسَلَهُمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى لِتَهْمِمُ رَهْمَنَ كَثِيرَكُنَّ الظَّالِمِينَ﴾ إبراهيم: ١٣، قال البيضاوي رحمه الله: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرَسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا) حلفوا على أن يكون أحد الأمرين، إما إخراجهم للرسل أو عودهم إلى ملتهم، وهو بمعنى الصيرورة لأنهم لم يكونوا على ملتهم قط، ويجوز أن يكون الخطاب لكل رسول ومن آمن معه فغلبوا الجماعة على الواحد^(٥).

(١) تفسير البيضاوي: ١٣/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٥٠١/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ٣٤٨/٣

(٤) تفسير البيضاوي: ١٣١/١

(٥) تفسير البيضااوي: ٢١٧/٢

ومن تغليب الجماعة أيضاً قوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ أَلَا الَّذِينَ أَسْتَكَبُرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكُمْ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ مَأْمَنُوا مَعَكُمْ مِنْ قَرْبَتِنَا أَوْ لَنَعُودُنَّ فِي مَلَيْتَنَا قَالَ أُولَئِكُمْ كَاكِرِهِنَ﴾ ^(١) الأعراف: ٨٨، قال البيضاوي رحمة الله: أي ليكون أحد الأمرين إما إخراجكم من القرية أو عودكم في الكفر، وشعيب عليه الصلاة والسلام لم يكن في ملتهم قط لأن الأنبياء لا يجوز عليهم الكفر مطلقاً، لكن غلبو الجماعة على الواحد فخوطب هو وقومه بخطابهم ^(٢).

٥. تغليب الموجود على ما لم يوجد:

مثاله قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ إِمَّا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ^(٣) البقرة: ٤، قال البيضاوي رحمة الله: والمراد ^{بـ(ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ)} القرآن بأسره والشريعة عن آخرها، وإنما عبر عنه بلفظ الماضي وإن كان بعضه متربقاً تغليباً للموجود على ما لم يوجد. أو تنزيلاً للمنتظر منزلة الواقع، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ ^(٤) الأحقاف: ٣٠. فإن الجن لم يسمعوا جميعه ولم يكن الكتاب كله ^{مُنْزَلًا} حينئذ ^(٥).

٦. تغليب الأشهر:

ومثاله قوله تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقِيْنَ فِي الْقَرْبَيْنَ﴾ ^(٦) الزخرف: ٣٨، قال البيضاوي رحمة الله: (يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقِيْنَ) بُعد المشرق من المغرب، فغلب المشرق وثنى وأضيف البعد إليهما ^(٧).

فتغليب الشرق أو المشرق لأنه أشهر، والدليل على شهرته أنه ورد ذكر الشرق والمشرق في القرآن أكثر من الغرب والمغرب.

٧. تغليب المتعدي بنفسه على المتعدي بغيره:

وذلك كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلُّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفَلَكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ ^(٨) الزخرف: ١٢، قال البيضاوي رحمة الله: (والَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلُّهَا) أصناف المخلوقات. (وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفَلَكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ) ما تركبونه على تغليب المتعدي بنفسه على المتعدي بغيره إذ

(١) تفسير البيضاوي: ٥٥٨/١

(٢) تفسير البيضااوي: ٣٧/١

(٣) تفسير البيضااوي: ٢٥١/٣

يقال: ركبت الدابة وركبت في السفينة، أو المخلوق للركوب على المصنوع له أو الغالب على النادر ولذلك قال: ﴿لَسْتُو أَعَلَ ظُهُورِهِ﴾ الزخرف: ١٣، أي ظهر ما تركبون^(١).

٨. تخلص الثواب على العقاب:

مثاله قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِوَقِيهِمْ أَمْنًا لَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الأحقاف: ١٩
قال البيضاوي رحمه الله: (ولكل) من الفريقين. (درجات مما عملوا) مرتب من جزاء ما عملوا من الخير والشر، أو من أجل ما عملوا والدرجات غالبة في المثوبةوها هنا جاءت على التغليب^(٢).

(١) تفسير البيضاوي: ٢٤٦/٣

(٢) تفسير البيضااوي: ٢٧٩/٣

ثالثاً: التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي:

يُعَرِّف عن المستقبل بلفظ الماضي في كثير من الآيات القرآنية، وفائدةه أن الفعل الماضي إذا أُخْبِرَ به عن الفعل المستقبل الذي لم يوجد بعد كان ذلك أبلغ، وأوْكَد في تحقيق الفعل وإيجاده؛ لأن الفعل الماضي يعطي من المعنى أنه قد كان ووجد، وإنما يفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التي يستعظم وجودها^(١).

وأمثلته كثيرة في القرآن الكريم، ومنها قوله تعالى: ﴿ وَبَرَزُوا لِللهِ جَمِيعًا فَقَالَ الْمُبْصَرُ فَتَوَلَّ لِلَّذِينَ أَسْتَكَبُرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ بَعْدًا فَهَلْ أَنْتُ مُغْنِيًّا عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَذَا نَاهِيَةٌ هَذِهِ مَهْدِيَّةٌ كُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْزَءُنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴾٢١﴿ إِبْرَاهِيمٌ ﴾^(٢) قال البيضاوي رحمه الله: (وبَرَزُوا لِللهِ جَمِيعًا) أي يبرزون من قبورهم يوم القيمة لأمر الله تعالى ومحاسبته... وإنما ذكر بلفظ الماضي لتحقق وقوعه^(٣).

ومما جاء في القرآن أيضاً على هذا قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَنَنِي بِالصَّلَاةِ وَالَّذِكْرُ مَا دَمَتُ حَيَاً ﴾٣١﴿ مريمٌ ﴾، قال البيضاوي رحمه الله: (وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا) نفاعاً معلماً للخير، والتعبير بلفظ الماضي إما باعتبار ما سبق في قضائه، أو بجعل المحقق وقوعه كالواقع وقيل أكمل الله عقله واستتبأه طفلاً^(٤).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَخْرَجْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَّا أُمْلَأُ مَعْدُودَةً لَيَقُولُنَّ مَا يَحِسْسُهُمْ أَلَا يَوْمٌ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهِنُونَ ﴾٨﴿ هودٌ ﴾، قال البيضاوي رحمه الله: (وَحَاقَ بِهِمْ) وأحاط بهم وضع الماضي موضع المستقبل تحقيقاً ومباغة في التهديد^(٥).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾١﴿ الفتحٌ ﴾، قال البيضاوي رحمه الله: (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَثَحًا مُبِينًا) وعد بفتح مكة، والتعبير عنه بالماضي لتحققه.

وقد تكلم السيوطي في نواهد الأباء عن هذه الآية في معرض حديثه عن امتنان الله على الناس بأشياء لم تقع بعد فقد قال: وأي مانع من تقدم الامتنان على الإيتاء تعظيمًا للمؤتى وتقخيما

(١) المثل السائر: ١٤٩/٢ (بتصرف)

(٢) تفسير البيضاوي: ٢٢٠/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ٣٦٦/٢

(٤) تفسير البيضاوي: ١٢٢/٢

لشأنه؛ لتشوف النفس إلى حصوله، ولتنتفى عند حصوله بغية الإقبال والقبول ما كما امتنّ عليه بأمور قبل إيتائه إياها، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحَنَّكَ فَتَحَمَّبَنَا﴾ الفتح: ١، وذلك قبل حصول الفتح بستين، والتعبير بالماضي في المقيس والمقيس عليه تحقيقاً للواقع^(١).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ مَحِيدٌ﴾ ق: ١٩، قال البيضاوي رحمه الله: (وجاءت سكرة الموت بالحق) لما ذكر استبعادهم البعث للجزاء وأزاح ذلك بتحقيق قدرته وعلمه بأنهم يلاقون ذلك عن قريب عند الموت وقيام الساعة، ونبه على اقترابه بأن عبر عنه بلفظ الماضي^(٢).

رابعاً: التعبير عن الماضي بلفظ المضارع أو المستقبل:

مثاله قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا يَهْوَى أَنْشَكُمُ أَسْتَكْبِرُّمْ فَقَرِيقًا كَذَبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ البقرة: ٨٧، قال البيضاوي رحمه الله: (فَقَرِيقًا كَذَبْتُم) كموسى وعيسي عليهما السلام، والفاء للسببية أو للتفصيل (وَفَرِيقًا تَقْتُلُون) كزكريا ويعيى عليهما السلام، وإنما ذكر بلفظ المضارع على حكاية الحال الماضية استحضاراً لها في النقوس، فإن الأمر فظيع^(٣).

وقد علق السكاكي على هذه الآية فقال: (فَقَرِيقًا كَذَبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُون) أي فريقاً كذبتموه على التمام وفرغتم من تكذيبه ما بقي منه غير مكذب (وَفَرِيقًا تَقْتُلُون) ما تيسر لكم قتلها على التمام وإنما تبذلون جهودكم أن تثموا قتلها فتحوموه حول قتل محمد فأنتم بعد على القتل^(٤).

فالتعبير بلفظ المستقبل أو المضارع في هذه الآية عن الماضي للدلالة على الاستمرار في الفعل فهم قتلوا في السابق وما زالوا مبيتين نية القتل لمن بقي من الرسل والأنبياء، ولعل من فوائد التعبير بالمضارع عن الماضي في هذه الآية هو استحضار الفعلة البشعة التي فعلوها في قتلهم للأنبياء، وكان هذه الفعلة ماثلة في هذا الوقت رغم تراخي الأزمان وتعاقب العصور.

(١) نواهد الأباء: ٥١/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٣١٥/٣

(٣) تفسير البيضاوي: ١١٨/١

(٤) مفتاح العلوم: ٢٠٨

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَصْنَعُونَ قَدْ كُنْتَ فِي نَارٍ مَرْجُوا قَبْلَ هَذَا أَنْتَهَنَا أَنْ تَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ إِبْرَاهِيمَ وَإِنَّا لَفِي شَكٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾ (٦٢) هود: ٦٢، قال البيضاوي رحمه الله: (أَتَهَا أَنْ تَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آباؤنا) على حكاية الحال الماضية^(١).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿فَرِحِينٌ بِمَا مَاءَتْهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبِشُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَظُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْرَثُونَ﴾ (٧٠) آل عمران: ٧٠، قال البيضاوي رحمه الله: وإنما وصفوا به في الحال لتحققه ودنوه أو أحياه بالذكر أو بالإيمان. وفيها حث على الجهاد وترغيب في الشهادة وبعث على ازدياد الطاعة وإحتماد لمن يتمنى لإخوانه مثل ما أنعم عليه، وبشري للمؤمنين بالفالح^(٢).

فالفعل في (آتاهم) ماضي لفظاً لكنه مستقبل معنى أي أنه أمر محقق لا ريب ولا شك فيه لذلك عبر عنه بالماضي وكأنه حصل وانتهى للدلالة على حتمية وقوعه.

خامساً: وضع المفرد موضع المبني:

ومثاله قوله تعالى: ﴿فَأَتَيْا فِرْعَوْنَ فَقَوْلًا إِنَّ رَسُولَ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦) الشعراء: ١٦، قال البيضاوي رحمه الله: أفرد الرسول لأنه مصدر وصف به فإنه مشترك بين المرسل والرسالة... ولذلك ثني تارة وأفرد أخرى، أو لاتحادهما للأخوة أو لوحدة المرسل والمرسل به، أو لأنه أراد أن كل واحد منا^(٣).

فقوله تعالى: (إنما رسول) وكان مقتضى الظاهر أن يقول: (إنما رسولا) جرياً على التثنية السابقة في قوله: (أتاي)، لكنه عدل عن التثنية إلى الإفراد ليدل على الملازمة والمصاحبة بينهما حتى كأنهما صارا كالشيء الواحد لا شئين مختلفين.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (١٥) يهدي به الله من أتَيَ بِرَضْوَانِكُمْ﴾ المائدة: ١٥ - ١٦ المائدة: ١٥ - ١٦، قال البيضاوي رحمه الله: (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين) يعني القرآن فإنه الكاشف لظلمات الشك والضلال والكتاب الواضح

(١) تفسير البيضاوي: ١٣٧/٢

(٢) تفسير البيضاوي: ٣١١/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٥٣٦/٢

الإعجاز. وقيل يريد بالنور محمد صلى الله عليه وسلم. (يهدي به الله) وحد الضمير لأن المراد بهما واحد، أو لأنهما كواحد في الحكم^(١).

فقوله جلت كلمته: (فَذَجَأْتُكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ)، يراد بالنور النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ويراد بالكتاب المبين القرآن الكريم، فيكون مقتضى الظاهر أن يأتي النظم بعدهما: (يهدي بهما الله من اتبع رضوانه)، لكنه جعل المثنى مفرداً فقال: (يهدي به الله) لأنهما متلازمان وكأنهما واحد، لأن أقوال النبي وأفعاله كلها من هدي القرآن، وأن مصدر النور ومصدر الكتاب هو من الله عز وجل، فأقوال النبي كلها من الله كما قال: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْمَوْعِدِ﴾ إِنَّهُ مُؤَلِّفٌ وَهُوَ يُوحَىٰ^(٢).

النجم: ٣ - ٤.

ومن وضع المفرد موضع المثنى قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ إِنَّ اللَّهَ لَكُمْ لِرِضْوَةِكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ التوبة: ٦٢، قال البيضاوي رحمه الله: (وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ) أحق بالإرضاء بالطاعة والوفاق، وتوحيد الضمير لتلازم الرضاين أو لأن الكلام في إبداء الرسول صلى الله عليه وسلم وإرضائه، أو لأن التقدير والله أحق أن يرضوه والرسول كذلك. إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ صدقًا^(٢).

وقد علق الخطيب القزويني على هذه الآية بقوله: وتوحيد الضمير؛ لأنه لا تقاوت بين رضا الله ورضا رسوله، فكانا في حكم مرضيٍ واحد^(٣).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿فَقَتَلَنَا يَعَادُمْ إِنْ هَذَا عَدُوُّكَ وَلَرَوْجَكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىَ طه: ١١٧﴾، قال البيضاوي رحمه الله: (مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىَ) أفرده بإسناد الشقاء إليه بعد إشراكهما في الخروج اكتفاء باستلزم شقاءها من حيث إنه قيم عليها ومحافظة على الفواصل، أو لأن المراد بالشقاء التعب في طلب المعاش وذلك وظيفة الرجال^(٤).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَطْنَعْتُكَ أَنْ تَبِدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ الكهف: ٣٥، فقد سبقت هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وَأَضَرَتْ لَكُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبِ

(١) تفسير البيضاوي: ٤٢٧/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٦١/٢

(٣) الإيضاح: ١٠٤/٢

(٤) تفسير البيضاوي: ٤٠٦/٢

وَحَفَّتْهُمْ بِنَغْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٢٢﴾ الكهف: ٣٢، فهما جنتان وليس جنة واحدة، لكن الله قال: (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ) فجعلهما جنة واحدة.

فيقول البيضاوي رحمه الله في هذه الآية: (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ) بصاحبه يطوف به فيها ويفارقه بها، وإفراد الجنة لأن المراد ما هو جنته وما متع به من الدنيا تتبعها على أن لا جنة له غيرها ولا حظ له في الجنة التي وعد المتقون، أو لاتصال كل واحدة من جنتيه بالأخرى^(١).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْاْكَ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلُهُ مَعَكُمْ لِيَقْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ المائدة: ٣٦، قال البيضاوي رحمه الله: وتوحيد الضمير في به والمذكور شيئاً إما لإجرائه مجرى اسم الإشارة في نحو قوله تعالى: ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ البقرة: ٦٨. أو لأن الواو ومثله بمعنى مع^(٢).

سادساً: وضع المثنى موضع المفرد:

مثاله قوله تعالى: ﴿أَلَقِيَافِ جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَارٍ عَيْنِي﴾ ق: ٢٤، قال البيضاوي رحمه الله: (أَلَقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَارٍ) خطاب من الله تعالى للسائق والشهيد، أو لملكين من خزنة النار، أو واحد وتشبيه الفاعل منزلة تشبيه الفعل وتكريره كقوله:

فَإِنْ تَرْجُرَنِي يَا ابْنَ عَقَانَ أَنْزِرْجِرَ
وَإِنْ تَدْعَانِي أَحْمِ عِرْضًا مُمْنَعًا^(٣)

سابعاً: وضع المفرد موضع الجموع:

مثاله قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هُبَّ لَنَا مِنْ أَرْوَاحِنَا وَذَرِّيَّنَا فُرَّةَ أَغْيُنِ وَجَعَلْنَا لِلْمُقْيِنِ إِمَاماً﴾ الفرقان: ٧٤، قال البيضاوي رحمه الله: (الْمُتَقِّينَ إِمَاماً) يقتدون بنا في أمر الدين بإضافة العلم والتوفيق للعمل، وتوحيده إما للدلالة على الجنس وعدم اللبس كقوله: ﴿قُمْ يُخْرِجُكُمْ طَفَلًا﴾ غافر: ٦٧، أو لأنه مصدر في أصله، أو لأن المراد واجعل كل واحد منا، أو لأنهم نفس واحدة لاتحاد طريقتهم واتفاق كلمتهم^(٤).

(١) تفسير البيضاوي: ٣٣٩/٢

(٢) تفسير البيضاوي: ٤٣٥/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٣١٦/٣

(٤) تفسير البيضاوي: ٥٣٢/٢

ومثاله أيضا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتَنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِنَّهُمْ كُمُّ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٧﴾ وَلَنَ جُنَاحَنَا لَهُمُ الْغَلِيلُونَ ﴿١٧٨﴾ الصافات: ١٧١ - ١٧٣، قال البيضاوي رحمه الله في قوله: (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين): وإنما سماه كلمة وهي كلمات لانتظامهم في معنى واحد^(١).

ثامناً: وضع الجمجمة موضع المفرد:

مثاله قوله تعالى: ﴿فَمَا أَمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةُ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى حَوْفِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِيْهِمْ أَنْ يَقْتَلُنَّهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالِيٌّ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ يونس: ٨٣، قال البيضاوي رحمه الله: (على حَوْفِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِيْهِمْ) أي مع خوف منهم، والضمير ل (فِرْعَوْنَ) وجمعه على ما هو المعتاد في ضمير الظماء، أو على أن المراد ب (فِرْعَوْنَ) الله كما يقال: ربعة ومضر، أو للذرية أو للقوم^(٢).

ومما جاء على هذا قوله تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُوهُنَّ ﴿٩٩﴾ المؤمنون: ٩٩، قال البيضاوي رحمه الله: (رَبِّ ارْجِعُوهُنَّ) دوني إلى الدنيا والواو لتعظيم المخاطب وقيل لتكير قوله ارجعوني كما قيل في قفا وأطرقا^(٣).

تاسعاً: وضع الجمجمة موضع المثنى:

مثاله قوله تبارك اسمه: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوْنَ ﴿١٨﴾ السجدة: ١٨، قال البيضاوي رحمه الله: (أَفَمْنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمْنْ كَانَ فَاسِقاً) خارجاً عن الإيمان (لا يستوون) في الشرف والمثوبة تأكيد وتصريح والجمع للحمل على المعنى^(٤).

(١) تفسير البيضاوي: ١٦٢/٣

(٢) تفسير البيضاوي: ١١٣/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ٤٧٩/٢

(٤) تفسير البيضاوي: ٧٣/٣

عاشرًا: وضع الظاهر موضع المضمر:

هذا لون بديع آخر من ألوان البلاغة العربية، وهو من صور خروج الكلام عن مقتضى الظاهر، وهو كثير في القرآن الكريم، حيث يأتي الظاهر في مكان يكون مقتضى الظاهر أن يحل محله الضمير، إلا أنه يعدل عن الضمير إلى إعادة ذكر الظاهر الذي تقدم وذلك لمعنى بلاغي.

فالضمائر مهمة في لغتنا العربية يؤتى بها لأنها "الكلمات مختصرة موجزة يستغني بها ظاهراً أو مضمرة عن الكلمات تحتاج عند النطق أزماناً وجهداً أطول وأكثر" ^(١).

ومن الضمائر، ضمائر الغيبة والخطاب والكلام، وهي كثيرة مفصلة في كتب النحوين، ومنها الضمائر المتصلة: مثل: (شربه، كتابك) أو المفصلة مثل: (هي، هو، أنت، أنا).

وفائدة الاختصار والإيجاز التي توفره لنا هذه الضمائر، قد يستغني عنها ويعاد الاسم مرة ثانية بالاسم الظاهر، وهو كثير في القرآن الكريم، وخاصة في إعادة الاسم الأعظم اسم الله عز وجل في مواضع يمكن أن يأتي الضمير فيها، لكنه يأتي باسم الجلالة للتعظيم، كما في الآية التي يذكرها البلاغيون كثيراً كمثال على هذا اللون من البلاغة وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ^(٢) ﴿الإخلاص: ١ - ٢﴾.

فقد قال: (الله الصمد) بعد قوله: (قل هو الله أحد) ومقتضى الظاهر أن يقال: (قل هو الله أحد، هو الصمد) آثر المظاهر على الضمير؛ لأن للفظ الجلالة بمدلوله الكريم وقعًا عظيمًا في القلوب، والمراد تمكين الألوهية، وإشاعة هيمنتها في الضمائر، وخذ المصحف واقرأ فيه من أي موضع شاء تجد هذا الأسلوب، وكأنه أصل من أصول البلاغة القرآنية، تجد أسماء الله الحسنى، وخصوصاً هذا الاسم الأعظم يقع هذا الموضع في كثير من الجمل القرآنية ليناسب نورها الغامر في القلوب، وتشيع مدلولاتها فتتمكن من النفوس زيادة تمكن، وتتقرر في السرائر أحسن قرار، وبذلك تربى مهابة الحق وحده في الأمة التي يربيها القرآن، فلا يكن في صدرها خشية إلا الله وللحق ^(٢).

(١) البلاغة العربية: عبد الرحمن بن حسن خبطة الميداني المشقي، ٤١١/١، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

(٢) خصائص التراكيب: ٢٤٧.

وقد تحدث ابن الأثير في المثل السائر عن هذا اللون البلاغي البديع فكتب عنواناً لهذا اللون قال فيه: النوع السادس: في عطف المظهر على ضميره، والإفصاح به بعده، وهذا إنما يعمد إليه لفائدة، وهي تعظيم شأن الأمر الذي أظهر عنده الاسم المضمر أولاً^(١).

وساق ابن الأثير أمثلة لوضع الظاهر موضع المضمر منها قوله تعالى: ﴿أَوْمَّ يَرْقُأَ كَيْفَ يَبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعِيْدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ^{١٦} ﴿فَلَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَا الْخَلْقُ ثُمَّ اللَّهُ يُشْعِثُ النَّشَأَةَ الْآخِرَةَ﴾ العنكبوت: ١٩ - ٢٠، ثم قال: ألا ترى كيف صرح باسمه في قوله: (ثُمَّ اللَّهُ يُشْعِثُ النَّشَأَةَ الْآخِرَةَ)، مع إيقاعه المبتدأ في قوله: (كَيْفَ يَبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ) ، وقد كان القياس أن يقول: كيف يبدئ الله الخلق، ثم ينشئ النشأة الآخرة.

والفائدة في ذلك أنه لما كانت الإعادة عندهم من الأمور العظيمة، وكان صدر الكلام واقعاً معهم في الإبداء، وقررهم أن ذلك من الله، احتج عليهم بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء، وإذا كان الله الذي لا يعجزه شيء هو الذي لا يعجزه الإبداء، فوجب أن لا تعجزه الإعادة، فللدلالة والتتبّيه على عظم هذا الأمر الذي هو الإعادة أبرز اسمه تعالى، وأوقعه مبتدأ ثانياً^(٢).

وقد نوه شيخ البلاغة الإمام عبد القاهر الجرجاني إلى أهمية وضع الظاهر موضع المضمر وأنه يأتي تأكيداً وتقوية للحكم عندما استحسن قول الشاعر:

رَعَمَ الْعَوَادِلُ أَنَّ نَافَةَ جُنْدِبٍ
بِجَنْوِبِ حَبْتِ عُرَيْتُ وَأَجْمَتِ

كَذَبَ الْعَوَادِلُ لَوْ رَأَيْنَ مُنَاحَنَا
بِالْقَادِسِيَّةِ قَلْنَ لَجَ وَذَلتِ

قال الإمام الجرجاني: وقد زاد هذا أمر القطع والاستئناف وتقدير الجواب، تأكيد بأنّ وضع الظاهر موضع المضمر، فقال: "كذب العوادل" ولم يقل: "كذبن"، وذلك لأنّه لما أعاد ذكر "العوادل" ظاهراً، كان ذلك أبين وأقوى، لكونه كلاماً مستأنفاً من حيث وضعه وضعاً لا يحتاج فيه إلى ما قبله، وأتى به مائة ما ليس قبله كلام^(٣).

(١) المثل السائر: ١٥٧/٢

(٢) المثل السائر: ١٥٨-١٥٧/٢

(٣) دلائل الإعجاز: ٢٣٦

وتعرض السكاكي في مفتاح العلوم لهذا الفن، وذكر الأغراض البلاغية لوضع الظاهر موضع المضمر، وساق أمثلة على ذلك حيث يقول: كما يوضع المظهر موضع المضمر إذا أريد تمكين نفسه زيادة تمكين كقوله: إن تسألو الحق نعط الحق سائله^(١).

وقوله عز قائلًا: "﴿أَللّٰهُ الصَّمَدُ﴾" الإخلاص: ٢ ، بعد قوله ﴿قُلْ هُوَ اللّٰهُ أَحَدٌ﴾ الإخلاص: ١ ، ونظيره خارج باب المسند إليه ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ﴾ الإسراء: ١٠٥ ، وكذا ﴿فَبَدَلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ البقرة: ٥٩.

وتترك الحكاية على المظهر إذا تعلق به غرض فعل الخلفاء حيث يقولون: (أمير المؤمنين يرسم لك) مكان: (أنا أرسم) وهو إدخال الروعة في ضمير السامع وتربية المهابة أو تقوية داعي المأمور، وعليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَّمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ﴾ آل عمران: ١٥٩.

أو فعل المستعطف حيث يقول أسيرك يتضرع إليك مكان أنا أتضرع إليك ليكون أدخل في الاستعطاف وعليه قوله: (إلهي عبدي العاصي أناكاكا)^(٢)

الأغراض البلاغية لوضع الظاهر موضع المضمر عند البيضاوي:

١. التشبيه والوصف:

مثاله قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْنَدُنَا لِكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ النساء: ٣٧، قال البيضاوي رحمه الله: (وأعندنا للكافرين عذاباً مهيناً) وضع الظاهر فيه موضع المضمر إشعاراً بأن من هذا شأنه فهو كافر لنعمة الله، ومن كان كافراً لنعمة الله فله عذاب يهينه كما أهان النعمة بالبخل والإخفاء^(٣).

أي أن القياس كان يقتضي أن يقال: (وأعندنا لهم عذاباً مهيناً)، ولكنه عدل عن الإضمار إلى الاسم المظهر وذلك ليشبه فعلهم بفعل الكافر، ويصفهم بأنهم مثلهم في الحكم والخاتمة.

(١) هذا شطر بيت للشاعر: عبد الله بن عنمة الضبي، وتمامه: (والدرع مُخْبَثةُ والسَّيْفُ مَقْرُوبٌ)، والبيت في: المفضليات: المفضل بن محمد الضبي، ص ٣٨٢، تحقيق: أحمد محمد شاكر و عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السادسة.

(٢) مفتاح العلوم: ١٩٩-١٩٨

(٣) تفسير البيضاوي: ٣٥٦/١

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمْسِكُونَ بِالْكِتَبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (١٧٠) الأعراف: ١٧٠، قال البيضاوي رحمه الله: (إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ) على تقدير منهم، أو وضع الظاهر موضع المضرر تبيهاً على أن الإصلاح كالمانع من التضييع^(١).

فيكون قول البيضاوي: (تبيهاً على أن الإصلاح كالمانع من التضييع) إشارة إلى الغرض البلاغي من وراء وضع الظاهر موضع المضرر في هذه الآية وهي تشبيه عمل المصلحين بالمانعين من التضييع.

ويأتي وضع الظاهر موضع المضرر لغرض الوصف والذم كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَسْتُضْعِفُونَ لِلَّذِينَ أَسْتَكْبِرُوا إِنْ مَكْرُ أَئِنِّي وَالنَّهَارِ إِذَا تَمُورُونَا أَنْ تَكْفُرُ بِاللَّهِ وَمَنْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَاءَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هُلْ يَجِزُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣٢) سبا: ٣٣، قال البيضاوي رحمه الله: (وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا) أي في أعناقهم فجاء بالظاهر تنويهاً بذمهم وإشعاراً بموجب أغلالهم^(٢).

ومثال الذم أيضاً قوله تعالى: ﴿مَا أَشَدُ ثُمُّتُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذًا لِلْمُضِلِّينَ عَصْدًا﴾ (٥١) الكهف: ٥١، قال البيضاوي رحمه الله: (وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذًا لِلْمُضِلِّينَ عَصْدًا) أي أعواناً ردأ لاتخاذهم أولئك من دون الله شركاء له في العبادة، فإن استحقاق العبادة من توابع الخالية والاشتراك فيه يستلزم الاشتراك فيها، فوضع المضليلين موضع الضمير ذماً لهم واستبعاداً للاعتراض بهم^(٣).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الظَّاهِرُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ (٧٦) المائدة: ٧٦، قال البيضاوي رحمه الله: (وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ) أي وما لهم أحد ينصرهم من النار، فوضع الظاهر موضع المضرر تسجيلاً على أنهم ظلموا بالإشراك وعدلوا عن طريق الحق^(٤).

(١) تفسير البيضاوي: ٥٨١/١

(٢) تفسير البيضاوي: ١٠٨/٣

(٣) تفسير البيضاوي: ٣٤٣/٢

(٤) تفسير البيضاوي: ٤٥٣/١

٢. التعظيم:

مثاله قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ ثُوَّدُونَ وَتَصْدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ مَاءَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عَوْجًا وَأَذْكَرُوا إِذْ كُسْتُمْ قَيْلًا فَكَثُرَ كُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَيْنَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾^(١) الأعراف: ٨٦، قال البيضاوي رحمه الله: (ولَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ ثُوَّدُونَ) بكل طريق من طرق الدين كالشيطان، وصراط الحق وإن كان واحداً لكنه يتشعب إلى معارف وحدود وأحكام، وكانوا إذا رأوا أحداً يسعى في شيء منها منعوه. وقيل كانوا يجلسون على المراسد فيقولون لمن يريد شيئاً إنه كذاب فلا يفتنه عن دينك ويوعدون لمن آمن به. وقيل كانوا يقطعون الطريق. (وَتَصْدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) يعني الذي قدوا عليه فوضع الظاهر موضع المضرم بياناً لكل صراط، ودلالة على عظم ما يصدون عنه وتقييحاً لما كانوا عليه أو الإيمان بالله^(٢).

ومن وضع الظاهر موضع المضرم الذي يأتي لغرض تعظيم الاسم المظهر قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكَنَا الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَافُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجِزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾^(٣) يونس: ١٣، قال البيضاوي رحمه الله: (كذلك) مثل ذلك الجزء وهو إهلاكم بسبب تكذيبهم للرسل وإصرارهم عليه بحيث تحقق أنه لا فائدة في إمهالهم (أَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ) نجزي كل مجرم أو نجزيكم فوضع المظهر موضع الضمير للدلالة على كمال جرمهم وأنهم أعلام فيه^(٤).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ سَكُنْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَرْعَبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِإِلَلَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانَنَا وَمَا وَهُمْ أَنَّا وَبِئْسَ مَتْوَى الظَّالِمِينَ ﴾^(٥) آل عمران: ١٥١، قال البيضاوي رحمه الله: (وَمَا وَاهُمُ النَّازُ وَبِئْسَ مَتْوَى الظَّالِمِينَ) أي مثواهم، فوضع الظاهر موضع المضرم للتغليظ والتعليق^(٦).

ومعنى التغليظ الذي جاء لأجله وضع الظاهر موضع المضرم، هو الدلالة على عظم جرمهم ومن ثم استحقوا أن يكون العقاب والمنفى عظيماً ليناسب هذا الجرم، ومن هنا يكون معنى التغليظ هو التعظيم.

(١) تفسير البيضاوي: ٥٥٨/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٩٣/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ٣٠٣/١

٣. الاختصاص:

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمْ رُمَّ حَقَّ إِذَا جَاءُوهَا فُتُحِتَ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَهَا أَلَمْ يَأْتُكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يُنَذِّرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمَكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَّ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكُفَّارِينَ ﴾٧١﴿ الزمر: ٧١، قال البيضاوي رحمه الله: (قالوا بلٰ ولكن حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ) كلمة الله بالعذاب علينا وهو الحكم عليهم بالشقاوة، وأنهم من أهل النار ووضع الظاهر فيه موضع الضمير للدلالة على اختصاص ذلك بالكفرة^(١).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْمَ شَهَادَةُكُمُ الَّذِينَ يَشَهُدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَمَ هَذَا إِنْ شَهَدُوا فَلَا شَهَدَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَنْتَعِي أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِعَيْنِتَهَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدُونَ ﴾١٥٠﴿ الأنعام: ١٥٠، قال البيضاوي رحمه الله: (ولَا تَنْتَعِي أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِعَيْنِتَهَا) من وضع المظہر موضع المضمر للدلالة على أن مكذب الآيات متبع الهوى لا غير، وأن متبع الحجة لا يكون إلا مصدقاً بها^(٢).

فيفهم من قول البيضاوي: (للدلالة على أن مكذب الآيات متبع الهوى لا غير، وأن متبع الحجة لا يكون إلا مصدقاً بها) أن الغرض من وضع الظاهر موضع المضمر في هذه الآية هو تخصيص التكذيب بآيات الله أنه من عمل المتبع الهوى وليس له سبب آخر، لأن الفطرة ، والدلائل العقلية والنقلية، كلها تشير إلى الخالق الذي يجب عبادته وإحلال ما أحل وتحريم ما حرم، فمن جاوز ذلك فهو مكذب بآيات الله ومتبع لهواه.

٤. التعميم:

مثاله قوله جل اسمه: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا أَفْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكُفَّارِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾٢٥﴿ غافر: ٢٥، قال البيضاوي رحمه الله: (فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا أَفْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ) أي أعادوا عليهم ما كنتم تعلون بهم أولاً كي يصدوا عن مظاهرة موسى عليه السلام. (وَمَا كَيْدُ الْكُفَّارِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ) في ضياع، ووضع الظاهر فيه موضع الضمير لعميم الحكم والدلالة على العلة^(٣).

(١) تفسير البيضاوي: ١٩٨/٣

(٢) تفسير البيضاوي: ٥٢٦/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٢٠٦/٣

أي أن كل من شأنه مثل فرعون في قتل أصحاب الدعوات ومعاداتهم سيكون كيده وبالاً عليه وسيكون تدبيره تدميراً له، فهو تعميم للحكم مستفاد من هذا الفن البديع وهو وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: (وما كيد الكافرين إلا في ضلال).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿قُلْ يَقُولُ أَغْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُونُ
لَهُ عِنْقَبَةُ الدَّارِ إِنَّمَا لَا يُقْنِعُ الظَّالِمُونَ﴾ (١٣٥) الأنعام: قال البيضاوي رحمه الله: (إِنَّمَا لَا يُقْنِعُ
الظَّالِمُونَ) وضع الظالمين موضع الكافرين لأنه أعم وأكثر فائدة^(١).

٥. التهويل:

مثاله قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ أَذْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفَّفُ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ
﴾ غافر: ٤٩، قال البيضاوي رحمه الله: (وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ) أي لخزنتها،
وضع جَهَنَّمَ موضع الضمير للتهويل أو لبيان محلهم فيها^(٢).

٦. التعليل والبرهان:

مثاله قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١١٥) هود: ١١٥ ، قال البيضاوي
رحمه الله: (وَاصْبِرْ) على الطاعات وعن المعاصي. (فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) عدول
عن الضمير ليكون كالبرهان على المقصود ودليلًا على أن الصلاة والصبر إحسان وإيماء بأنه لا
يعتد بهما دون الإخلاص^(٣).

فوضع الظاهر (أجر المحسنين) موضع الضمير (أجركم) ليتحقق بذلك أن السبب والعلة
من عدم إضاعة الأجر هو أنك من المحسنين لأنهم عرفوا الحق واستقاموا عليه فكان ذلك استحقاقاً
لهم وجزاء لهم على إحسانهم.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (٥٦) المائدة:
٥٦، قال البيضاوي رحمه الله: (وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا) ومن يتخذهم أولياء. (فَإِنَّ
حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ) أي فإنهم هم الغالبون، ولكن وضع الظاهر موضع المضمر تبيئاً على

(١) تفسير البيضاوي: ٥٢٠/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٢١٢/٣

(٣) تفسير البيضاوي: ١٥٥/٢

البرهان عليه فكأنه قيل: ومن يتول هؤلاء فهم حزب الله وحزب الله هم الغالبون وتتويها بذكرهم وتعظيمًا لشأنهم وتشريفاً لهم بهذا الاسم، وتعريفاً لمن يوالى غير هؤلاء بأنه حزب الشيطان^(١).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَسْأَلْ صَدَرَهُ إِلَّا سُلْطَنٌ وَمَنْ يُرِدُ أَنْ يُضْلِلَهُ يَجْعَلْ صَدَرَهُ ضَيْقَا حَرَبَةً كَانَمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجُسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٢٥) الأنعام: ١٢٥ ، قال البيضاوي رحمه الله: (يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجُسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) يجعل العذاب أو الخذلان عليهم، فوضع الظاهر موضع المضمر للتعليق^(٢).

٧. الدلالة على الاستحقاق:

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ شَكَوُا إِيمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُو أَهْمَةَ الْكُفَّارِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعْنَهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ (١٣) التوبه: ١٢ ، قال البيضاوي رحمه الله: (فَقَاتِلُوا أَهْمَةَ الْكُفَّارِ) أي فقاتلواهم، فوضع أئمة الكفر موضع الضمير للدلالة على أنهم صاروا بذلك ذوي الرئاسة والتقدم في الكفر أحقاء بالقتل^(٣).

٨. التعريف:

مثاله قوله تعالى: ﴿قَالَ الْأَنْكَارُ لَأَنَّ يُوسُفَ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَرَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٤) يوسف: ٩٠ ، قال البيضاوي رحمه الله: (إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ) أي يتقي الله. (وَيَصْبِرْ) على البلاءات أو على الطاعات وعن المعاصي. (فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) وضع المحسنين موضع الضمير للتنبيه على أن المحسن من جمع بين النقوى والصبر^(٤).

وكان مجيء الاسم ظاهراً بدلاً من المضمر جاء لتعريف صفة الإحسان، فمن أراد أن يعرف من هم المحسنون، فهم الذين جمعوا بين النقوى والصبر، وإلا فلن يعتبر محسناً إلا بهذا العمل.

وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ (١٤) الفتح: ١٣ ، قال البيضاوي رحمه الله: (وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا) وضع الكافرين

(١) تفسير البيضاوي: ٤٤٦/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٥١٧/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٤٠/٢

(٤) تفسير البيضاوي: ١٨٩/٢

موضع الضمير إيداناً بأن من لم يجمع بين الإيمان بالله ورسوله فهو كافر وأنه مستوجب للسعي
بكفره^(١).

٩. زيادة التقرير والتمكين:

مثاله قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَأْوُنَ الْسِنَتُهُمْ بِالْكِتَابِ لَتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكَافِرِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكَافِرِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ آل عمران: ٧٨، قال البيضاوي رحمه الله: (ويقولون هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) تأكيد لقوله: (وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ) وتشنيع عليهم وبين لأنهم يزعمون ذلك تصريحاً لا تعريضاً^(٢).

١٠. تربية المهابة وإدخال الروع على ضمير المتكلّم:

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشَاءَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ العنكبوت: ٢٠، قال البيضاوي رحمه الله: (ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشَاءَ الْآخِرَةَ) بعد النشأة الأولى التي هي الإبداء، فإنه والإعادة نشأتان من حيث أن كلاً اختراع وإخراج من العدم، والإفصاح باسم الله مع إيقاعه مبتدأ بعد إضماره في بدأ والقياس الاقتصار عليه للدلالة على أن المقصود بيان الإعادة، وأن من عرف بالقدرة على الإبداء ينبغي أن يحكم له بالقدرة على الإعادة لأنها أهون^(٣).

(١) تفسير البيضاوي: ٢٩٦/٣

(٢) تفسير البيضاوي: ٢٧٢/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٣٣/٣

المبحث السادس: الإيجاز والإطناب والمساواة

يُعدُّ هذا الباب من الأبواب المهمة في علم البلاغة إذ إنه يعتبر ركناً ركيناً لا غنى عنه لمن أراد أن يبلغ من البلاغة مبلغها، ذلك لأن البلاغة تدور حول مناسبة الكلام لمقتضى حال المخاطب.

وحال المخاطب هو الذي يستدعي أن يأتي الكلام إما موجزاً أو إطناياً أو مساوياً، كما نرى الخطيب القزويني يقول في مقدمته عن بلاغة الكلام: فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته، ومقتضى الحال مختلف، فإن مقامات الكلام متباينة... ومقام الإيجاز بيان مقام الإطناب والمساواة، وكذا خطاب الذكي بيان خطاب الغبي^(١)

لذلك فإن كل معنى يطوف في خاطر الإنسان وعقله يمكن أن يُعبر عنه بوحدة من الطرق الثلاثة، الإيجاز أو الإطناب أو المساواة، والفرق بين هذه الطرق الثلاثة نراه يوضحه لنا العلوي في الطراز إذ يقول: اعلم أن الكلام بالإضافة إلى معناه كالقميص بالإضافة إلى قِد من هو له، فربما كان على قدر قِد من غير زيادة ولا نقصان، وهذا هو المساواة، وتارة يكون زائداً على قِد وهذا هو الإطناب، وربما نقص عن قده، وهذا هو الإيجاز، فإذاً الكلام لا يخلو عن هذه الأنواع الثلاثة^(٢).

المطلب الأول: الإيجاز:

عدّ العلماء الإيجاز ركناً مهماً من أركان البلاغة فنرى كثيراً منهم يوليه أهمية بالغة، ويذكر في هذا الباب أقوال كثيرة.

فقد عَدَ ابن سنان الخفاجي الإيجاز من شروط الفصاحة والبلاغة حيث يقول: ومن شروط الفصاحة والبلاغة: الإيجاز والاختصار وحذف فضول الكلام حتى يُعبر عن المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة. وهذا الباب من أشهر دلائل الفصاحة وبلاغة الكلام عند أكثر الناس حتى أنهم إنما يستحسنون من كتاب الله تعالى ما كان بهذه الصفة^(٣)

(١) الإيضاح: ٤١/٤٣

(٢) الطراز: ٣/١٧٦

(٣) سر الفصاحة: ١/٥٠٢

وقد أورد الجاحظ في البيان والتبيين حواراً بين أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان وصهار بن عياش العبدى، فسأل معاوية رضي الله عنه صهاراً: ما تدعون البلاغة فيكم؟ قال: الإيجاز. قال له معاوية: وما الإيجاز؟ قال صهار: أن تجib فلا تبليء، وتقول فلا تخطئ^(١).

وقال المفضل الضبي: قلت لأعرابي منا: ما البلاغة؟ قال لي: الإيجاز في غير عجز، والإطناب في غير خطل. قال ابن الأعرابي: فقلت للمفضل: ما الإيجاز عندك؟ قال: حذف الفضول، وتقريب البعيد^(٢).

وقد عَدَّ شيخ البلاغة عبد القاهر الجرجاني الإيجاز من شروط فصاحة الألفاظ حيث يقول: لا شبّهَةَ على مَن نَظَرَ فِي كِتَابٍ ثُدْكَرَ فِيهِ الْفَصَاحَةُ، أَنَّ الْاسْتِعَارَةَ عَنْوَانُ مَا يُجْعَلُ بِهِ الْفَظُّ فَصِيحًا، وَأَنَّ الْمَجَازَ جَمْلَتَهُ، وَالْإِيجَازُ مِنْ مُعْظَمِ مَا يُوجَبُ لِلْفَظِ الْفَصَاحَةَ^(٣).

كما أنه اعتبر الإيجاز من أقطاب البلاغة التي لا يمكن الاستغناء عنها، وأنها من الدلائل على إعجاز القرآن فقال وهو يفنى حجج القائلين أن الفصاحة والبلاغة تكون بسبب اللفظ لا بسبب المعنى: فإنه يكفي في الدلالة على سقوطه وقلة تمييز القائل به، أنه يقتضي إسقاط "الكنایة" و"الاستعارة" و"التمثيل" و"المجاز" و"الإيجاز" جملةً، واطراح جميعها رأساً، مع أنها الأقطاب التي تدور البلاغة عليها، والأعضاد التي تستند الفصاحة إليها، والطلبة التي يتشارعها المحسنوN، والرهان الذي تُجرب فيه الجياد، والنصال الذي تُعرف به الأيدي الشداد، وهي التي نَوَّهَ بذكرها البلاغة، ورفع من أقدارها العلماء، وصنفوا فيها الكتب، ووكلوا بها الهم، وصرفوا إليها الخواطر، حتى صار الكلام فيها نوعاً من العلم مفردأ، وصناعة على حدة، ولم يتعاط أحد من الناس القول في الإعجاز إلا ذكرها وجعلها العمدة والأركان فيما يوجب الفضل والمزية، وخصوصاً "الاستعارة" و"الإيجاز"، فإنك تراهم يجعلونهما عنواناً ما يذكرون، وأول ما يوردون... وتراهم على لسان واحد في أن "المجاز" و "الإيجاز" من الأركان في أمر الإعجاز^(٤).

أما ابن الأثير فقد أسهب في الحديث عن الإيجاز ومكانته من البلاغة حيث يقول: وهذا نوع من الكلام شريف، لا يتعلّق به إلا فرسان البلاغة من سبق إلى غايتها وما صلّى، وضرب في أعلى درجاتها بالقدح المعلى، وذلك لعلو مكانه، وتعدّ إمكانه.

(١) البيان والتبيين: ٩٨/١.

(٢) البيان والتبيين: ٩٩/١

(٣) دلائل الإعجاز: ٤٦٠

(٤) دلائل الإعجاز: ٥٢١-٥٢٠

والنظر فيه إنما هو إلى المعاني لا إلى الألفاظ، ولست أعني بذلك أن تهمل الألفاظ، بحيث تعرى عن أوصافها الحسنة، بل أعني أن مدار النظر في هذا النوع إنما يختص بالمعاني، فرب لفظ قليل يدل على معنى كثير، ورب لفظ كثير يدل على معنى قليل^(١).

تعريف الإيجاز:

الإيجاز لغة: وجَرْ: وجَرْ الْكَلَامُ وَجَارَهُ وَجْزًا، وَأَوْجَرَ: قَلَ فِي بَلَاغَةٍ، وَأَوْجَرَهُ: احْتَصَرَهُ... وَأَوْجَرْتُ الْكَلَامَ: قَصَرْتُهُ^(٢)

الإيجاز اصطلاحاً: عَرْفُه السكاكي بأنه: أداء المقصود من الكلام بأقل من عبارات متعارف الأوساط^(٣).

أما ابن الأثير فقال عنه: هو حذف زياادات الألفاظ^(٤).

وابن سنان الخفاجي فقد سماه الإشارة وقال عنه: وهو أن يكون المعنى زائداً على اللفظ. أي أنه لفظ موجز يدل على معنى طويل على وجه الإشارة واللمحة^(٥).

وقال عنه في موضع آخر: هو إيضاح المعنى بأقل ما يمكن من اللفظ^(٦).

أما العلوى فقد عرفه بأنه: اندراج المعاني المتكررة تحت اللفظ القليل^(٧)

ومن أدق من عَرْفِ الإيجاز وحدده عن الطريقيين الآخرين من طرق تأدية الكلام الخطيب القزويني حيث يقول: المقبول من طرق التعبير عن المعنى هو تأدية أصل المراد بلفظ مساو له أو ناقص عنه واف أو زائد عليه، لفائدة المراد بالمساواة أن يكون اللفظ بمقدار أصل المراد لا ناقصاً عنه بحذف أو غيره^(٨)

(١) المثل السائر: ٢٠٩/٢

(٢) لسان العرب: (وجز) ٤٢٧/٥

(٣) مفتاح العلوم: ٢٧٧

(٤) المثل السائر: ٢٠٩/٢

(٥) سر الفصاحة: ٢٠٧

(٦) سر الفصاحة: ٢١١

(٧) الطراز: ٤٩/٢

(٨) الإيضاح: ١٧٣/٣

وقيل أيضاً في تعريف الإيجاز اصطلاحاً بأنه: هو التعبير عن معانٍ كثيرة بألفاظ قليلة مع الإبادة والإفصاح، وهو قسمان: إيجاز حذف وإيجاز قصر^(١)

أولاً: إيجاز الحذف:

يُعرَّف بأنه: ما يحذف منه المفرد والجملة؛ لدلالة فحوى الكلام على المحذوف، ولا يكون فيما زاد معناه على لفظه^(٢).

وقبيل: هو التعبير عن المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة، وذلك بحذف شيء من الجملة مع عدم الإخلال بالمعنى^(٣)

وإيجاز الحذف يأتي بحذف مسند أو مسند إليه أو حرف أو صفة أو اسم مضارف، وغيره الكثير.

وقد أشار القاضي البيضاوي في تفسيره إلى الإيجاز في كثير من الموارد وذكر أنواعاً من إيجاز الحذف.

إيجاز الحذف عند البيضاوي:

١. حذف المسند:

ومن أمثلته التي جاءت في كتاب الله قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْنَا مُؤْمِنٌ إِذَا سَتَّسَقَهُ قَوْمُهُ، أَنْ أَصْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَأَنْبَجَسْتَ مِنْهُ أَنْتَ عَشَرَةَ عَيْنًا﴾ الأعراف: ١٦٠، قال البيضاوي رحمة الله: (وَأَوْحَيْنَا إِلَيْ مُوسَى إِذَا سَتَّسَقَهُ قَوْمُهُ) في التيه. (أَنْ أَصْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَأَنْبَجَسْتْ) أي: ضرب فانجست، وحذفه للإيماء على أن موسى صلى الله عليه وسلم لم يتوقف في الامتنال، وأن ضربه لم يكن مؤثراً يتوقف عليه الفعل في ذاته^(٤).

وهنا نكتة بلاغية توضح الغرض البلاغي من الحذف في قوله: (فانجست) إذ القياس أن يقال: (ضرب فانجست)، ليدل على أن موسى عليه السلام كان سريع الامتنال في تنفيذ ما أمره الله به من الضرب، وكأن هذه السرعة أوجبت حذف الفعل.

(١) من بлага القرآن: د. محمد ود. نعمان علوان: ص ١٣٧

(٢) المثل السائر: ٢١٦/٢

(٣) من بagara القرآن: د. محمد ود. نعمان علوان: ص ١٣٧

(٤) تفسير البيضاوي: ٥٧٧/١

ويمكن أن يكون حذف المسند في هذه الآية دلالة على سرعة استجابة وطاعة موسى عليه السلام في مقابل تلك بني إسرائيل وأسئلتهم الكثيرة التي سألوها عندما طلب الله منهم أن يذبحوا بقرة عندما قال الله لهم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾ البقرة: ٦٧، فقالوا في البداية: ﴿قَالُوا أَذْعُ لَنَارِكَ يُبَيِّنَ لَنَا مَا هِيَ﴾ البقرة: ٦٨، ثم قالوا: ﴿قَالُوا أَذْعُ لَنَارِكَ يُبَيِّنَ لَنَا مَا لَوْنَاهَا﴾ البقرة: ٦٩، ثم قالوا: ﴿قَالُوا أَذْعُ لَنَارِكَ يُبَيِّنَ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَّهَ عَلَيْنَا﴾ البقرة: ٧٠، وكان يكفيهم أن يذبحوا أي بقرة، لكنهم جبلوا على الجدال والمخاومة.

فكان إيراد هذه الآية مع حذف المسند دلالة على سرعة استجابة موسى عليه السلام لأمر الله، وكأن الله ينصب لبني إسرائيل قدوة لهم من أنفسهم ليرشدهم إلى طاعة الله والامتثال لأمره بعيداً عن المماحكة والمجادلة.

ومن حذف المسند أيضاً قوله تعالى: ﴿إِذْ يَلْقَى الْمُتَّقِيَّانَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَاءِ قَعِيدٌ﴾ (١٧) ق: ١٧، قال القاضي البيضاوي غفر الله له: (عن اليمين وعن الشمال قعيد) أي عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، أي مقاعد كالجلisy فحذف الأول لدلالة الثاني عليه كقوله: فإني وقيار بها لغريب (١).

وشطر البيت الذي ماثل به البيضاوي هذه الآية هو لضابئ البرجمي، وقد استشهد به العلماء كثيراً على حذف المسند، والبيت بتمامه:

ومن يك أمسى بالمدينة رحله فإنني وقيار بها لغريب

فقد أراد أن يصف إحساسه بالغرابة والوحشة، فذكر أن هذه الغربة الكثيبة قد أحسها بعيده كما أحسها هو، وأصل الكلام أن يقول: فإني لغريب بها وقيار غريب، ولكنه حذف المسند في الجملة الثانية؛ لأن ذكره في العبارة بعد دلالة القرينة عليه عبث يذهب بطلاوة الشعر؛ ولأن نفسه الضائقه بهذه الغربة تنزع إلى اللمح والإيجاز، وقيار اسم جمل الشاعر (٢).

(١) تفسير البيضاوي: ٣١٥/٣

(٢) خصائص التراكيب: ٢٧٣

٢. حذف المسند إليه:

مثاله قوله جلت كلمته: ﴿وَيُنذِرُ الَّذِينَ قَالُوا أَنْخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ الكهف: ٤، قال البيضاوي رحمه الله: (وَيُنذِرُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا) خصمهم بالذكر وكرر الإنذار متعلقاً بهم استعظاماً لکفرهم، وإنما لم يذكر المنذر به استغناء بتقدم ذكره^(١).

فقد تقدم ذكر المنذر به في قوله تعالى: ﴿فَيَمَّا لَيْنَذِرَ بَاسَادِيدَا مِنْ لَدُنْهُ﴾ الكهف: ٢

٣. حذف المتعلقات:

حذف جواب لولا:

مثاله قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضَلَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةً وَأَنَّ اللَّهَ تَوَابٌ حَكِيمٌ﴾ النور: ١٠، قال البيضاوي رحمه الله: (ولولا فضل الله عليكم ورحمةه وأن الله تواب حكيم) مترونک الجواب للتعظيم أي لفضحكم وعاجلكم بالعقوبة^(٢).

وقد استدل ابن الأثير بهذه الآية في المثل السائر على حذف جواب لولا وقال: جواب "لولا" هنا ممحوف، تقديره: لما أنزل عليكم هذا الحكم بطريق التلاعن، وستر عليكم هذه الفاحشة بسببه^(٣).

حذف متعلق الفعل:

مثاله قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلْ اللَّهُ يَقْتِيْكُمْ فِي الْكَلَّةِ﴾ النساء: ١٧٦، قال البيضاوي رحمه الله: (يسْتَفْتُونَك) أي في الكللة حذفت لدلالة الجواب عليه^(٤).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلْلٍ مِّنَ الْفَمَاءِ وَالْمَكَّةَ وَقَضَىَ الْأَمْرَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ البقرة: ٢١٠، قال البيضاوي رحمه الله: (إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ) أي يأتيهم أمره أو بأسه... أو يأتيهم الله ببأسه فحذف المأتي به للدلالة عليه بقوله تعالى: (أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)^(٥).

(١) تفسير البيضاوي: ٣٢٧/٢

(٢) تفسير البيضاوي: ٤٨٨/٢

(٣) المثل السائر: ٢٥٤/٢

(٤) تفسير البيضاوي: ٤١٣/١

(٥) تفسير البيضاوي: ١٨٢/١

حذف المضاف:

مثاله قوله تعالى: ﴿لَا خَيْرٌ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَجْوَتْهُمْ إِلَّا مَنْ أَمْرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ يَبْتَأِنُ
النَّاسُ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ أَبْتِغَاهُ مَرْضَاتٍ اللَّهُ فَسَوْفَ تُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١٦) النساء: ١١٤، قال البيضاوي
رحمه الله: (إِلَّا مَنْ أَمْرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ) على حذف مضاف أي: ((لا نجوى من أمر) أو على
الانقطاع بمعنى ولكن من أمر بصدقة ففي نجواه الخير^(١).

ومن أمثلته أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنَكِّحُوا الْمُشْرِكَتْ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ وَلَآمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ حَيْرٌ مِّنْ مُشْرِكَةٍ
وَلَوْ أَعْجَبْتُمُّ وَلَا تُنَكِّحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ حَيْرٌ مِّنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبْتُمُّ
أَوْتَيْكُمْ يَدْعُونَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَبَيْنَ يَدَيْهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٢١) البقرة: ٢٢١، قال البيضاوي
رحمه الله: (أولئك) إشارة إلى المذكورين من المشركين والمشركات. (يدعون إلى النار) أي الكفر
المؤدي إلى النار فلا يليق مواطتهم ومصادرتهم. (والله) أي وأولياؤه يعني المؤمنين حذف المضاف
وأقام المضاف إليه مقامه تقخيماً لشأنهم^(٢).

أي أن السياق كان يقتضي مقابلة الذين يدعون إلى النار بالذين يدعون إلى الله، فيكون
القياس: (أولئك يدعون إلى النار وأولياء الله يدعون إلى الجنة والمغفرة بإذنه)، لكنه حذف المضاف
وأقام المضاف إليه مقامة تقخيماً لشأن المؤمنين كما قال البيضاوي.

ومن حذف المضاف قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَبِيبَتِ مَا كَسَبُتُمْ وَمِمَّا
أَنْفَقْتُمُ الْكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ﴾ البقرة: ٢٦٧، قال البيضاوي رحمه الله: (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات
ما كسبتم) من حاله أو جياده. (وممما أحرجنا لكم من الأرض) أي ومن طيبات ما أخرجنا لكم من
الحبوب والثمرات والمعادن، فحذف المضاف لتقدم ذكره^(٣).

حذف المضاف إليه:

كما يحذف المضاف ويقام المضاف إليه مقامه، يحدث العكس، كما في قوله تعالى:
﴿وَعَلِمَ إِدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضُهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْتُمْ فِي أَسْمَاءَ هُؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٦) البقرة: ٣١، قال البيضاوي رحمه الله: (ثُمَّ عَرَضُهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ) الضمير فيه للسميات المدلول عليها
ضمناً إذ التقدير أسماء السميات، فحذف المضاف إليه لدلالة المضاف عليه وعوض عنه اللام

(١) تفسير البيضاوي: ١٣٩٠-٣٩١

(٢) تفسير البيضاوي: ١٩١/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٢٢٦/١

ك قوله تعالى: ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ مريم: ٤، لأن العرض للسؤال عن أسماء المعرضات فلا يكون المعرض نفس الأشياء بينما إن أريد به الألفاظ، والمراد به ذوات الأشياء، أو مدلولات الألفاظ^(١).

حذف «لا»:

مثاله قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَالِهِ تَقْتُلُونَنَّدْكُرْ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَصًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْمَلِكِينَ﴾ يوسف: ٨٥، قال البيضاوي رحمه الله: (قالوا تاله تقتلون نذكر يوسف) أي لا تقتلونه ولا تزال تذكره تجاهلاً عليه، فحذف لا كما في قوله: ﴿فَقُلْتُ يَمِينَ اللَّهِ أَبْرَحْ قَاعِدًا﴾^(٢) لأنه لا يلتبس بالإثبات، فإن القسم إذا لم يكن معه علامات الإثبات كان على النفي^(٣).

وهذا السياق الذي تتزاحم فيه الكلمات الغريبة مشيعةً جوًّا الغرابة، والوحشة مناسب لمقصودهم الذي يريدون حمل أبيتهم عليهم، فهم يريدون أن ينسى يعقوب عليه السلام ولده، وليس في الغرائب أغرب من هذا، وحذف حرف النفي، وهو خلاف الأصل يأتي متلائماً مع هذا السياق الغريب، ويرمز في خفاء إلى حاجتهم، وهي نسيان يوسف، وإبعاده من قلب أبيتهم الذي صاق بهم، وتولى عنهم من أجل يوسف^(٤).

حذف الشرط:

مثاله قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّهُ مِنْ أَيَّامِ أُخْرَ﴾ البقرة: ١٨٤، قال البيضاوي رحمه الله: (فَعِدَّهُ مِنْ أَيَّامِ أُخْرَ) أي فعله صوم عدد أيام المرض، أو السفر من أيام آخر إن أفتر، فحذف الشرط والمضاف والمضاف إليه للعلم بها^(٥).

والتقدير قبل الحذف: (فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فأفطر فعدة من أيام آخر)، فالشرط هو الإفطار حذف للعلم به ودلالة السياق عليه.

(١) تفسير البيضاوي: ٨٤/١

(٢) هذا شطر بيت لامرئ القيس في ديوانه. ديوان امرئ القيس، ص ١٦٥، تحقيق: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ٤٢٠٠٤م. وتمام البيت: (وَلَوْ قَطَعُوا رَأْسِي لَدَيْكِ وَأَوْصَالِي).

(٣) تفسير البيضاوي: ١٨٨/٢

(٤) خصائص التراكيب: ١٥٧

(٥) تفسير البيضاوي: ١٦٦/١

حذف جواب الطلب:

يُحذف جواب الطلب للإيجاز كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَرِهِمْ وَهُمُ الْأُولُو حَدَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُؤْمِنُو ثُمَّ أَخْيَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ البقرة: ٢٤٣، قال الإمام البيضاوي رحمه الله: . (فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُؤْمِنُو) أي قال لهم موتوا فماتوا قوله: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ البقرة: ١١٧، والمعنى أنهم ماتوا ميتة رجل واحد من غير علة، بأمر الله تعالى ومشيئته^(١).

فأمر الله واجب الكون والتنفيذ فلا حاجة لذكر جواب الطلب لأنه طلب وأمر من العظيم القادر الذي لا يُرُدُ أمره ولا يُغَلِّبُ جنده، فحذف جواب الطلب هنا للإيجاز كما تقدم وللدلالة على سرعة الاستجابة والانقياد لله تعالى.

حذف المعطوف:

كما في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي الَّيلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ الأنعام: ١٣، قال البيضاوي رحمه الله: (مَا سَكَنَ فِي الَّيلِ وَالنَّهَارِ) من السكنى وتعديته بفي كما في قوله تعالى: ﴿وَسَكَنَتُمْ فِي مَسَكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ إبراهيم: ٤٥، والمعنى ما اشتتملا عليه، أو من السكون أي ما سكن فيما وتحرك فاكتفى بأحد الضدين عن الآخر^(٢).

فالله عز وجل له ما سكن وما تحرك، فحذف المعطوف اكتفاء بأحد الضدين وذلك على سبيل الإيجاز.

وقد أشار الشهاب الخفاجي في حاشيته على تفسير البيضاوي إلى السر وراء اختيار السكون دون الحركة فقال: وإنما اكتفى بالسكن عن ضده دون العكس لأن السكون أكثر وجودا... فإن السكون مع ضده كناية عن جميع التغيرات والتصرفات الواقعة في الليل والنهر، فناسب المقام... ثم إنه قيل إن ما سكن يعم جميع المخلوقات إذ ليس شيء منها غير متصف بالسكن حتى المتحرك حال حركته على ما حقق في الكلام من أن تفاوت الحركات بالسرعة والبطء لقلة السكنات المتخللة^(٣)

(١) تفسير البيضاوي: ٢٠٨/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٤٨١/١

(٣) حاشية الشهاب: ٣٠/٤

ونظير ما سبق من حذف المعطوف قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْوَافِ
كُلَّمَا حَلَّ أَنْتُمْ نَنْهَا وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيمُكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيمُكُمْ بَاسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ فِيمَا
عَلَيْكُمْ لِعَالَمُكُمْ شَلِيمُونَ﴾ النحل: ٨١، قال البيضاوي رحمه الله: (وجعل لكم سرابيل) ثياباً
من الصوف والكتان والقطن وغيرها. (تقيمكم الحر) خصه بالذكر اكتفاء بأحد الضدين أو لأن وقاية
الحر كانت أهم عندهم^(١).

وقد استدل بها السيوطي في نواهد الأبار على حذف المعطوف حين أتى على قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِذْ أَلْهَتَ لَكُمْ هِيَمَةُ الْأَنْعَمِ إِلَّا مَا مَنَعَنِي عَلَيْكُمْ غَيْرُ حُلْلِ الْصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُمُومٌ
إِنَّ اللَّهَ يَحِكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ المائدة: ١، قال السيوطي في (غير محل الصيد): وحذف المعطوف للدلالة
عليه، وهو كثير وقدرها: غير محل الصيد ومحليه كما قال تعالى: (سرابيل تقيمكم الحر) أي
والبرد^(٢).

حذف المفعول به:

تكلم شيخ البلاغة الإمام عبد القاهر الجرجاني عن حذف المفعول به فقال: حذف مفعول
مقصود، لدلالة الحال عليه، وهو قسمان، أولهما الجلي وهو أن يكون له مفعول مقصوداً قصده
معلوم، إلا أنه يُحذف من اللفظ لدليل الحال عليه... فمثال الجلي قولهم: "أصغينت إليه"، وهم يريدون
أذني"، و "أغضبت عليه"، والمعنى "جفني"^(٣)

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَقِ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا
مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ المائدة: ١٩، قال
البيضاوي رحمه الله: (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم) أي الدين، وحذف لظهوره، أو ما
كتمتم وحذف لقدم ذكره ويجوز أن لا يقدر مفعول على معنى يبذل لكم البيان والجملة في موضع
الحال أي جاءكم رسولنا مبيناً لكم^(٤).

ومن بديع إيجاز حذف المفعول ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدِينَةِ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً
قِنْ أَنْتَاسٍ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ أَمْرَاتٍ تَذُو دَانَ قَالَ مَا خَطَبُكُمْ قَالَتَا لَا سَقَى حَقَّ يُصْدِرُ الرِّعَاةُ وَأَبُونَا
قِنْ أَنْتَاسٍ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ أَمْرَاتٍ تَذُو دَانَ قَالَ مَا خَطَبُكُمْ قَالَتَا لَا سَقَى حَقَّ يُصْدِرُ الرِّعَاةُ وَأَبُونَا

(١) تفسير البيضاوي: ٢٧٤/٢

(٢) نواهد الأبار: ٢٣٥/٣

(٣) دلائل الإعجاز: ١٥٥

(٤) تفسير البيضاوي: ٤٢٨/١

شيخ كبير (٢٣) **القصص**: ٢٣، قال البيضاوي رحمه الله: (أَمَّةً مِنَ النَّاسِ) جماعة كثيرة مختلفين. (يُسْقُونَ) مواشיהם. (وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ) في مكان أسفل من مكانهم. (اَمْرَاتِنِ تَذُودَانِ) تمنعن أغنامهما عن الماء لئلا تختلط بأغنامهم. (قَالَ مَا حَطَبُكُمَا) ما شأنكم تذودان. (قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ) تصرف الرعاة مواشיהם عن الماء حذراً عن مزاحمة الرجال، وحذف المفعول لأن الغرض هو بيان ما يدل على عفتهم ويدعوه إلى السقي لهم ثم دونه^(١).

ففي هذه الآية حذف المفعول به في مواضع عدة، ذكرها ابن الأثير فقال: حذف المفعول به في أربعة أماكن، إذ المعنى: وجد أمة من الناس يسقون مواشיהם، وامرأتين تذودان مواشيهما، وقالتا: لا نسقي مواشينا، فسقى لها مواشيهما؛ لأن الغرض أن يعلم أنه كان من الناس سُقِيٌّ ومن الامرتين ذُؤْدُ، وأنهما قالتا: لا يكون منا سقي حتى يصدر الرعاء، وأنه كان من موسى عليه السلام بعد ذلك السقي، فأما كون المسمى غنما، وإبلأ أو غير ذلك فخارج عن الغرض^(٢).

حذف أحد المتلازمين:

كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَدِمَ إِذَا هُوَ أَنَّهُ مُوَلَّتُ الْأَرْضِ﴾ البقرة: ٣٧، قال البيضاوي رحمه الله: (فَتَابَ عَلَيْهِ) رجع عليه بالرحمة وقبول التوبة... واكتفى بذكر آدم لأن حواء كانت تتبعاً له في الحكم ولذلك طوي ذكر النساء في أكثر القرآن والسنن^(٣).

فلما كانت حواء ملزمة لآدم في كل شؤونه مصاحبة له في التوبة كما قال الله: ﴿قَالَ رَبُّنَا طَلَّقَنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَرَحْمَتْنَا أَنْكُونَنَّ مِنَ الْخَسِيرِينَ﴾ الأعراف: ٢٣، كان قبول التوبة من الله عليهما جميعاً، وكان القياس أن يقول جلت كلمته: (فتاب عليهما)، لكن لما كانت حواء تابعة لآدم في الحكم كانت داخلة في حكم التوبة دخولاً بدھياً لذلك كان من الأبلغ أن تحذف إيجازاً واختصاراً.

ومن حذف المتلازمين إيجازاً قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيْهِ هَذَا الْقُرْآنُ لِأَنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ يَنْهَا﴾ الأنعام: ١٩، قال البيضاوي رحمه الله: (وَأُوحِيَ إِلَيْهِ هَذَا الْقُرْآنُ لِأَنذِرَكُمْ بِهِ) أي بالقرآن، واكتفى بذكر الإنذار عن ذكر البشرة^(٤).

(١) تفسير البيضاوي: ١٠/٣

(٢) المثل السائر: ٢٣٩/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ٩١/١

(٤) تفسير البيضاوي: ٤٨٢/١

حذف المُفضل عليه:

مثاله قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَأَتَقَوْا لِمَتْوِيَةٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠٣) البقرة: ١٠٣ ، قال البيضاوي رحمه الله: (ولَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا) بالرسول والكتاب. (وَاتَّقَوْا) بترك المعاشي، كنبد كتاب الله واتباع السحر لمتوبية من عند الله خير جواب لو، وأصله لأنثبووا متوبة من عند الله خيراً مما شروا به أنفسهم... حذف المفضل عليه إجلالاً للمفضل من أن ينسب إليه^(١).

حذف جملة:

مثاله قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذُولٌ شَيْرُ الْأَرْضِ وَلَا سَقِيَ الْمَرْزَقُ مُسَلَّمٌ لَا شَيْئَةٌ فِيهَا قَالُوا أَكَنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٧١) البقرة: ٧١ ، قال البيضاوي رحمه الله: (قالوا لأنَّ جِئْتَ بِالْحَقِّ) أي بحقيقة وصف البقرة وحققتها لنا... (فَذَبَحُوهَا) فيه اختصار ، والتقدير: فحصلوا البقرة المنعوتة فذبحوها^(٢).

ومن حذف الجملة قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِعَصْنِهَا كَذَلِكَ يُعْنِي اللَّهُ الْمَوْقَنَ وَيُرِيكُمْ مَا يَتَبَيَّنُ لَكُلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٧٣) البقرة: ٧٣ ، قال البيضاوي رحمه الله: (فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ) عطف على ادارتهم وما بينها اعتراف ، والضمير للنفس... (كَذَلِكَ يُعْنِي اللَّهُ الْمَوْقَنَ) يدل على ما حذف وهو فضريوه فحيي^(٣).

ومن حذف الجملة قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَجَدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ أَنْبِيَاءً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مِنْهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ يَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ (٢١٣) البقرة: ٢١٣ ، قال البيضاوي رحمه الله: (فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ) أي فاختلفوا فبعث الله، وإنما حذف لدلالة قوله فيما اختلفوا فيه^(٤).

ثانياً: إيجاز القصر:

يُعرَفُ إيجاز القصر بأنه: التعبير عن المعاني الكثيرة بلفاظ قليلة من غير حذف^(٥)، وقيل هو: ما تزيد فيه المعاني على الألفاظ الدالة عليها بلا حذف^(٦)

(١) تفسير البيضاوي: ١٢٦/١

(٢) تفسير البيضاوي: ١١١/١

(٣) تفسير البيضاوي: ١١١/١

(٤) تفسير البيضاوي: ١٨٤/١

(٥) من بلاغة القرآن: د. محمد ود. نعمان علوان: ص ١٣٨

(٦) علوم البلاغة للمراغي: ١٨٨

وهذا النوع من الإيجاز أبلغ وهو أخفى وأدق من إيجاز الحذف "فإن التتبه له عسر؛ لأنه يحتاج إلى فضل تأمل، وطول فكرة، لخفاء ما يستدل عليه، ولا يستتبع ذلك إلا من رسخت قدمه في ممارسة علم البيان، وصار له خلية وملكة"^(١).

وإيجاز القصر "هو الذي لا يمكن التعبير عن ألفاظه بألفاظ أخرى مثلاً وفي عدتها، وهو أعلى طبقات الإيجاز مكاناً، وأعوزها إمكاناً، وإذا وجد في كلام بعض البلاغة، فإنما يوجد شادداً نادراً"^(٢).

إيجاز القصر عند البيضاوي:

ومن الشواهد التي أكثر البلاغيون من الاستشهاد بها على هذا النوع من الإيجاز، وعدوها أبلغ آية في كتاب الله في باب الإيجاز قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَنْأُلُ الْأَبْيَبِ تَعَلَّمُونَ﴾ البقرة: ١٧٩، قال البيضاوي رحمه الله: (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ) كلام في غاية الفصاحه والبلاغة من حيث جعل الشيء محل ضده، وعرف القصاص ونكر الحياة، ليدل على أن في هذا الجنس من الحكم نوعاً من الحياة عظيماً، وذلك لأن العلم به يردع القاتل عن القتل، فيكون سبب حياة نفسيين. ولأنهم كانوا يقتلون غير القاتل، والجماعة بالواحد، فتثور الفتنة بينهم. فإذا اقتضى من القاتل سلم الباقيون فيكون ذلك سبباً لحياتهم. وعلى الأول فيه إضمamar وعلى الثاني تخصيص^(٣).

فقول البيضاوي رحمه الله: (على الأول فيه إضمamar) إشارة إلى إيجاز القصر الذي حمل معانى كثيرةً بألفاظ قليلة.

فإن قوله تعالى: (الْقِصَاصِ حَيَاةٌ)، لا يمكن التعبير عنه إلا بألفاظ كثيرة؛ لأن معناه أنه إذا قتل القاتل امتنع غيره عن القتل، فأوجب ذلك حياة للناس^(٤).

وقد ذكر الخطيب القزويني أن العرب كانوا يأتون بنحو هذا المعنى بقولهم: القتل أنفي للقتل إلا أن كلام الله أبلغ وأوجز وذلك لوجوه عدة^(٥):

(١) المثل السائر: ٢١٦/٢

(٢) المثل السائر: ٢٧٥/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ١٦٤/١

(٤) المثل السائر: ٢٧٥/٢

(٥) الإيضاح: ١٨٢/٣

أحدهما: أن عدة حروف ما يناظره منه وهو في القصاص حياة عشرة في التلفظ وعدة حروفه أربعة عشر.

و ثانيهما: ما فيه التصريح بالمطلوب الذي هو الحياة بالنص عليها فيكون أرجح عن القتل بغير حق لكونه أدعى إلى الاقتصاص.

وثالثها: ما يفيده تكير حياة من التعظيم أو النوعية.

ورابعها: إصراره بخلاف قولهم، فإن القتل الذي ينفي القتل هو ما كان على وجه القصاص لا غيره متعلق بثبوته نفياً الملزم بنفي اللازم.

وقد جمع الزركشي في البرهان كثيراً من وجوه البلاغة والفصاحة في الآية الكريمة في مقابلة ما يناظره من كلام العرب، فقال: **وَجُمِلَهُ مَا ذَكَرُوا فِي ذَلِكُوْجُوهَةٍ^(١)**:

أَحَدُهَا: أَنْ قَوْلَهُ: {الْقِصَاصِ حَيَاةٌ} أَوْجَرْ فَإِنْ حُرْوَفُهُ عَشْرَةُ وَحُرْوَفُ "الْقَتْلُ أَنْفِي لِلْقَتْلِ"
أَرْبَعَةُ عَشَرَ حَرْفًا وَالثَّاءُ وَالْأَفْلُونَ وَالْأَفْلُونَ سَاقِطًا وَكَذَا التَّنْوِينُ لِتَكَامِ الْكَلَامِ الْمُقْتَضِي لِلْوَقْفِ.

الثَّانِي: أَنْ قَوْلُهُمْ فِيهِ كَلْفَهُ بِتَكْرِيرِ الْقَتْلِ وَلَا تَكْرِيرَ فِي الْآيَةِ.

الثَّالِثُ: أَنْ لَفْظَ الْقِصَاصِ فِيهِ حُرْوَفٌ مُتَلَائِمَةٌ لِمَا فِيهِ مِنَ الْخُرُوجِ مِنَ الْقَافِ إِلَى الصَّادِ
إِذَا الْقَافُ مِنْ حُرْوَفِ الْإِسْتِعْلَاءِ وَالصَّادُ مِنْ حُرْوَفِ الْإِسْتِعْلَاءِ وَالْإِطْبَاقِ بِخَلَافِ الْخُرُوجِ مِنَ الْقَافِ
إِلَى الثَّاءِ الَّتِي هِي حُرفٌ مُنْخَضٌ فَهُوَ غَيْرُ مَلِئٍ وَكَذَا الْخُرُوجُ مِنَ الصَّادِ إِلَى الْحَاءِ أَحْسَنُ مِنَ
الْخُرُوجِ مِنَ الْلَّامِ إِلَى الْهَمْزَةِ لِبَعْدِ مَادِونِ طَرَفِ الْلِسَانِ وَأَقْصِي الْحَلْقِ.

الرَّابِعُ: فِي النُّطْقِ بِالصَّادِ وَالْحَاءِ وَالثَّاءِ حُسْنُ الصَّوْتِ وَلَا كَذَلِكَ تَكْرِيرُ الْقَافِ وَالْفَاءِ.

الخَامِسُ: تَكْرِيرُ ذَلِكَ فِي كَلِمَتَيْنِ مُتَمَاثِلَتَيْنِ بَعْدَ فَصْلٍ طَوِيلٍ وَهُوَ ثِقلٌ فِي الْخُرُوفِ أَوِ
الْكَلِمَاتِ.

السَّادِسُ: الْإِثْبَاثُ أَوَّلُ وَالنَّفْيُ ثَانٍ عَنْهُ وَالْإِثْبَاثُ أَشْرَفُ.

(١) البرهان في علوم القرآن: ٢٢٢-٢٢٥/٣.

السابع: أن القصاص المبني على المساواة أوزن في المعاذلة من مطلق القتل ولذلك يلزم التخصيص بخلاف الآية.

الثامن: الطباع أقبل للفظ الحياة من الكلمة القتل لما فيه من الاختصار وعدم تكرار الكلمة وعدم تناول الحروف وعدم تكرار الحرفين وقبول الطبع للفظ "الحياة" وصحة الإطلاق.

التاسع: أن نفي القتل لا يستلزم الحياة والأية ناصحة على ثبوتها التي هي الغرض المطلوب منه.

العاشر: أن قولهم لا يكاد يفهم إلا بعد فهم أن القصاص هو الحياة وقوله في القصاص حياة مفهوم لأول وهلة.

الحادي عشر: أن قولهم خطأ فإن القتل كله ليس نافيا للقتل فإن القتل العدوانى لا ينفي القتل وكذا القتل في الردة والرثى لا ينفيه وإنما ينفيه قتل خاص. وهو قتل القصاص الذي في الآية تخصيص على المقصود والذي في المثل لا يمكن حمله على ظاهره.

الثاني عشر: فيه دلالة على ربط المقادير بالأسباب وإن كانت الأسباب أيضا بالمقادير وكلام العرب يتضمنه إلا أن فيه زيادة وهي الدلالة على ربط الأجل في الحياة بالسبب لا من مجرد نفي القتل.

الثالث عشر: في تكير "حياة" نوع تعظيم يدل على أن في القصاص حياة متطاولة كقوله: {ولاحذئهم أحراص الناس على حياة} ولا كذلك المثل فإن اللام فيه للجنس ولهذا فسروا الحياة فيها بالبقاء.

الرابع عشر: فيه بناء أفعال التفضيل من متعد والأية سالمه منه.

الخامس عشر: أن أ فعل في الغالب تقتضي الاستراك فيكون ترك القصاص نافيا للقتل ولكن القصاص أكثر نفيا وليس الأمر كذلك والأية سالمه من هذا.

السادس عشر: أن اللقط المأمول به إذا توالى حركاته تمكنت اللسان من النطق وظهرت فصاحته بخلافه إذا تعقب كل حركة سكون والحركات تتقطع بالسكنات نظيره إذا تحركت الدابة أذى حركة فحسنت ثم تحركت فحسنت لا يتبين انطلاقها ولا تمكنت من حركتها على ما تحترأ وهي كالمعيبة وقولهم: "القتل أنفي للقتل" حركاته متعاقبة بالسكون بخلاف الآية.

السابع عشر: الآية اشتملت على فنٍ بدبيعٍ وهو جعل أحد الصدرين الذي هو الفناء والموت محلاً ومكاناً لضدِّه الذي هو الحياة واستئثارُ الحياة في الموت مبالغة عظيمة ذكره في الكشاف.

الثامن عشر: أن في الآية طباقاً لأنَّ القصاص مُشعرٌ بِضدِّ الحياة بخلاف المثل.

التاسع عشر: القصاص في الأعضاء والتفوس وقد جعل في الكل حياة فيكون جمعاً بين حياة النفس والأطراف وإنْ فرض قصاص بما لا حياة فيه كالسِّين فإنَّ مصلحة الحياة تتقدُّم بذها به ويَصِيرُ كَوْنَع آخر وهذه اللطيفة لا يتضمنُها المثل.

العشرون: أنها أكثر فائدة لتضمنه القصاص في الأعضاء وأنَّه نَبَّهَ على حياة النفس من وجهين من وجْهِهِ القصاص صريحاً ومن وجْهِهِ القصاص في الطرف لأنَّ أحد أحوالها أن يُسرى إلى النفس فَيُزِيلُها ولا كذلك المثل.

ومن الآيات التي جاءت على إيجاز القصر قوله تعالى: ﴿فَالرَّبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُمْ هَدَى﴾ طه: ٥٠، قال البيضاوي رحمه الله: (قال ربنا الذي أعطى كل شيء) من الأنواع (خلقه) صورته وشكله الذي يطابق كماله الممكن له، أو أعطى خليقته كل شيء يحتاجون إليه ويرتقون به... وقيل أعطى كل حيوان نظيره في الخلق والصورة زوجاً... (ثم هدى) ثم عرفه كيف يرتفق بما أعطي وكيف يتوصل به إلى بقائه وكماله اختياراً أو طبعاً، وهو جواب في غاية البلاغة لاختصاره وإعرابه عن الموجودات بأسرها على مراتبها، دلالته على أن الغني قادر بالذات المنعم على الإطلاق هو الله تعالى وأن جميع ما عاد مفتقر إليه منع عليه في حد ذاته وصفاته وأفعاله، ولذلك بهت الذي كفر وأفحى عن الدخل عليه فلم ير إلا صرف الكلام عنه^(١).

فقول البيضاوي: (وهو جواب في غاية البلاغة لاختصاره وإعرابه عن الموجودات بأسرها على مراتبها) إشارة إلى إيجاز القصر حيث الآية على قلة ألفاظها تحمل معاني كثيرة تشير إلى جميل عطاء الله الذي لا يحصى لكل مخلوقاته على اختلاف أشكالها وأجناسها، ودلّ بقوله: (أعطى كل شيء خلقه) على النعم المادية التي هي تلبية لاحتياجات الجسد من طعام وشراب وملابس وغيرها، وبقوله: (ثم هدى) على نعمة الهدایة التي هي نعم معنوية تشير إلى ما يسعد روح الإنسان ويطمئنه، فيكون بهاتين الكلمتين قد جمع النعم كلها للإنسان والسعادة بأقل الألفاظ وأكثر المعاني على سبيل الإيجاز.

(١) تفسير البيضاوي: ٣٩٢/٢

ومن إيجاز القصر قوله جلت كلمته: ﴿إِنَّمَا مِنْ شَرِيكَنِي وَإِنَّهُ يُسَمِّي اللَّهَ أَرْحَمَنَ الرَّحِيمَ﴾ (٢٠) **أَلَا تَعْلَمُ**
عَلَىٰ وَأَتُنَزِّلُ مُسْلِمِينَ (٢١) النمل: ٣٠ - ٣١ ، قال البيضاوي رحمه الله: (وَأَتُنَزِّلُ مُسْلِمِينَ) مؤمنين أو منقادين، وهذا كلام في غاية الوجازة مع كمال الدلالة على المقصود، لاشتماله على البسمة الدالة على ذات الصانع تعالى وصفاته صريحاً أو التزاماً، والنهي عن الترفع الذي هو أم الرذائل والأمر بالإسلام الجامع لأهميات الفضائل، وليس الأمر فيه بالانقياد قبل إقامة الحجة على رسالته حتى يكون استدعاء للتقليد فإن إلقاء الكتاب إليها على تلك الحالة من أعظم الدلالة^(١).

ومن إيجاز القصر قوله تعالى: ﴿فَأَنْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بْنُو دَرِي، فَغَشَّيْهِمْ مِنْ أَلْيَمِ مَا غَشَّيْهِمْ﴾ (٧٨) طه:
 ، قال البيضاوي رحمه الله: (فَغَشَّيْهِمْ مِنْ أَلْيَمِ مَا عَشَّيْهُمْ) الضمير لجنوده أو له ولهم، وفيه مبالغة ووجازة أي: غشיהם ما سمعت قصته ولا يعرف كنهه إلا الله^(٢).

وقد قال السكاكي عن هذه الآية: قوله: (فَغَشَّيْهِمْ مِنْ أَلْيَمِ مَا عَشَّيْهُمْ) أظهر من أن يخفي حاله في الوجازة نظراً على ما ناب عنه^(٣)

وقال ابن الأثير: قوله: (فَغَشَّيْهِمْ مِنْ أَلْيَمِ مَا عَشَّيْهُمْ) من جوامع الكلم التي يستدل على قلتها بالمعنى الكثيرة، أي غشיהם من الأمور الهائلة، والخطوب الفادحة ما لا يعلم كنهه إلا الله،
 ولا يحيط به غيره^(٤)

ومن إيجاز القصر قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَتَأَرَضُ أَبَلَّيْ مَاءَكِ وَكَسَّمَاهُ أَقْلَعِي وَغَيْضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُبُودِي وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٤) هود: ٤٤ ، قال البيضاوي رحمه الله: (وَقِيلَ يَا أَرْضُ أَبَلَّيْ مَاءَكِ وَيَا سَمَاءَ أَقْلَعِي) نوديا بما ينادي به أولو العلم وأمرا بما يؤمرون به، تمثيلاً لكمال قدرته وانقيادهما لما يشاء تكوينه فيما بالأمر المطاع الذي يأمر المنقاد لحكمه المبادر إلى امتنال أمره، مهابة من عظمته وخشية من أليم عقابه، والبلع النشف والإقلاع الإمساك. (وَغَيْضَ الْمَاءِ) نقص. (وَقُضِيَ الْأَمْرُ) وأنجز ما وعد من إهلاك الكافرين وإنجاء المؤمنين. (وَأَسْتَوَتْ) واستقرت السفينة. (عَلَى الْجُبُودِي) جبل بالموصى وقيل بالشام وقيل بأمل... (وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

(١) تفسير البيضاوي: ٥٦٦/٢

(٢) تفسير البيضاوي: ٣٩٩/٢

(٣) مفتاح العلوم: ٢٧٧

(٤) المثل السائر: ٢٧٣/٢

هلاكاً لهم... والآية في غاية الفصاحة لفخامة لفظها وحسن نظمها والدلالة على كنه الحال مع الإيجاز الخالي عن الإخلال^(١)

ولا بد من الإشارة إلى أن هذه الآية قد عدها البلاغيون والعلماء أبلغ غاية في كتاب الله على الإطلاق.

لذا فقد أسهب السكاكي في الإشارة إلى مواضع الإيجاز في الآية السابقة فقال: وأما النظر فيها من حيث علم المعاني وهو النظر في فائدة كل كلمة منها وجهة كل تقديم وتأخير فيما بين جملها.

مواضع الإيجاز في الآية كما ذكرها السكاكي^(٢):

١. اختيار يا دون أخواتها: ذلك أنه اختير يا دون أخواتها لكونها أكثر في الاستعمال وأنها دالة على بعد المنادي الذي يستدعيه مقام إظهار العظمة وإبداء شأن العزة والجبروت وهو تبعيد المنادي المؤذن بالتهاون به ولم يقل يا أرض بالكسر لإمداد التهاون ولم يقل يا أيتها الأرض لقصد الاختصار مع الاحتراز عم في أيتها من تكلف التتبّيه غير المناسب بالمقام.
٢. اختيار "ابليع" دون ابتعلعي: واختير لفظ ابليع على ابتعلعي لكونه أخص ولجميء خط التجانس بينه وبين اقلعي أوفر.
٣. اختصار الكلام من "أقلعي": وقيل ماؤك بالإفراد دون الجمع لما كان في الجمع من صورة الاستكثار المتأبي عنها مقام إظهار الكبرياء والجبروت وهو الوجه في إفراد الأرض والسماء وإنما لم يقل ابليع بدون المفعول أن لا يستلزم تركه ما ليس بمراد من تعليم الابتلاء للجبال والتلال والبحار وساكنات الماء بأسرهن نظرا على مقام ورود الأمر الذي هو مقام عظمة وكبرباء، ثم إذا بين المراد اختصر الكلام من أقلعي احترازا عن الحشو المستغنى عنه وهو الوجه في أن لم يقل، قيل يا أرض ابليع ماءك فبلغت ويا سماء أقلعي فأقلعت.
٤. اختيار "غيس" على غيَّض: واختير غيَّض على غيَّض المشدد لكونه أخص.
٥. اختيار "الأمر" دون "أمر نوح": وقيل الماء دون أن يقال ماء طوفان السماء، وكذلك الأمر دون أن يقال أمر نوح وهو إنجاز ما كان الله وعد نوحا من إهلاك قومه لقصد الاختصار والاستغناء بحرف التعريف عن ذلك.

(١) تفسير البيضاوي: ١٣٢/٢

(٢) مفتاح العلوم: ٤١٩

٦. اختيار "استَوْت" دون "سوَيْت": ولم يقل سوَيْت على الجودي بمعنى أُفِرت على نحو قيل وغِيَضٍ وقضى في البناء للمفعول اعتبار البناء الفعل للفاعل مع السفينة في قوله " وهي تجري بهم في موج " مع قصد الاختصار في اللفظ.
٧. اختيار "بعْدًا" دون "لَيَبْعَدُ الْقَوْم": ثم قيل بعْدَ القوم دون أن يقال ليَبْعَدُ الْقَوْم طلباً للتأكيد مع الاختصار وهو نزول بعْدَ منزلة ليَبْعَدُوا بعْدَ فائدة أخرى وهو استعمال اللام بعْدَ الدال على معنى أن البعد حق لهم.

المطلب الثاني: الإطناب

الإطناب لغة: والإطناب: البَلَاغَةُ فِي الْمَنْطَقِ وَالْوَصْفِ، مَذْحًا كَانَ أَوْ ذَمًّا. وأَطْنَبَ فِي الْكَلَامِ بِالْأَعْلَمِ. والإطناب: الْمُبَالَغَةُ فِي مَدْحٍ أَوْ ذَمٍّ وَالْإِكْثَارُ فِيهِ. والمُطْنِبُ: الْمَدَاحُ لِكُلِّ أَحَدٍ. ابنُ الأنباري: أَطْنَبَ فِي الْوَصْفِ إِذَا بَالَّغَ وَاجْتَهَدَ؛ وَأَطْنَبَ فِي عَذْوَهِ إِذَا مَضَى فِيهِ بِاجْتِهَادٍ وَمُبَالَغَةٍ^(١) أمَّا في اصطلاح البلاغيين فقد عرَّفَهُ العلوى بأنه: زيادة اللفظ على المعنى لفائدة جديدة^(٢)

صور الإطناب في تفسير البيضاوي:

أولاً: الإيضاح بعد الإبهام:

وفائدة هذا النوع من الإطناب هو أن يُرى المعنى في صورتين مختلفتين، ليتمكن في النفس فضل تمكن فإن المعنى إذا ألقى على سبيل الإجمال والإبهام تشوقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح فتتوجه إلى ما يريد بعد ذلك فإذا ألقى كذلك تمكن فيها فضل تمكن وكان شعورها به أتم، أو لتمكن اللذة بالعلم به فإن الشيء إذا حصل كمال العلم به دفعه لم يتقدم حصول اللذة به ألم، وإذا حصل الشعور به من وجه دون وجه تشوقت النفس إلى العلم بالجهول، فيحصل لها بسبب المعلوم لذة، وبسبب حرمانها من الباقي ألم، ثم إذا حصل لها العلم به حصلت لها لذة أخرى، وللذة عقيب الألم أقوى من اللذة التي لم يتقدمها ألم^(٣)

وقد ذكر البيضاوي في تفسيره مواضع كثيرة من كتاب الله جاء فيها الإطناب بطريق الإيضاح بعد الإبهام وذكر أغراضًا وفوائد لمجيء الإطناب بهذه الصورة، من هذه الأغراض:

١. التوكيد والبالغة:

مثاله قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّي أَشْرَخَ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ طه: ٢٥ - ٢٦، قال البيضاوي رحمه الله: (قال رب اشرخ لي صدري ويسر لي أمري) لما أمره الله بخطب عظيم وأمر جسيم سأله أن يشرح صدره ويفسح قلبه لتحمل أعبائه والصبر على مشاقه، والتلقي لما ينزل عليه

(١) لسان العرب مادة (طنب): ٥٦٢/١

(٢) الطراز: ١٢٣/٢

(٣) الإيضاح: ١٩٦-١٩٧/٣ (بتصرف)

ويسهل الأمر له بإحداث الأسباب ورفع الموانع، وفائدة (لي) إبهام المشروح والميسر أولاً، ثم رفعه بذكر الصدر والأمر تأكيداً ومبالغاً^(١).

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿أَمْدِنَا أَصْرَطَ الْمُسْتَقِيمَ ① صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا أَصْنَالَيْنَ ②﴾ الفاتحة: ٦ - ٧، قال البيضاوي رحمه الله: (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) بدل من الأول بدل الكل، وهو في حكم تكرير العامل من حيث إنه المقصود بالنسبة، وفائدة التوكيد والتنصيص على أن طريق المسلمين هو المشهود عليه بالاستقامة على آكد وجه وأبلغه لأنه جعل كالتفسير والبيان له فكانه من البين الذي لا خفاء فيه أن الطريق المستقيم ما يكون طريق المؤمنين^(٢).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاكَ ذِكْرَكَ ③﴾ الشرح: ٤، قال البيضاوي رحمه الله: (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) بالنبوة وغيرها، وأي رفع مثل أن قرن اسمه باسمه تعالى في كلمتي الشهادة وجعل طاعته طاعته، وصلى عليه في ملائكته وأمر المؤمنين بالصلاحة عليه وخاطبه بالألقاب، وإنما زاد لك ليكون إبهاماً قبل إيضاح فيفيد المبالغة^(٣).

والزيادة التي تكلم عنها البيضاوي بقوله: (إنما زاد لك ليكون إبهاماً قبل إيضاح) هي (لك)، فإنه لو قال: (رفعنا ذكرك) لكان المعنى واضحاً دالاً على المقصود، ولقد زدت هذه اللفظة لتدل على المبالغة كما أوضح البيضاوي وهي مشابهة لما مر في قوله تعالى: (رب اشرح لي صدري).

٢. تسويق السامع:

مثاله قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ أَبِنِي لِصَرْحًا لَعَلَيْهِ أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ④ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطْلَعَ إِلَيْهِ إِلَهَ مُوسَى وَإِلَيْهِ لَأَطْلَعْتُكَ نَذِبًا ⑤﴾ غافر: ٣٦ - ٣٧، قال البيضاوي رحمه الله: (لَعَلَيْهِ أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ) الطرق. (أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ) بيان لها وفي إبهامها ثم إيضاحها تخييم لشأنها وتسويق للسامع إلى معرفتها^(٤).

(١) تفسير البيضاوي: ٣٨٨/٢

(٢) تفسير البيضاوي: ١٨/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٥٤٦/٣

(٤) تفسير البيضاوي: ٢٠٩/٣

٣. تفخيم المبهم:

وذلك كما في قوله تعالى: (كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ) ^(٣) ثمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ^(٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ^(٥) لَتَرَوْنَ الْجَحِيمَ (التكاثر: ٦-٣).

قال البيضاوي رحمه الله: (لَتَرَوْنَ الْجَحِيمَ) جواباً له لأنَّه محقق الواقع بل هو جواب قسم محفوظ أكَدَ به الوعيد وأوضح به ما أنذرهم منه بعد إبهامه تفخيمًا ^(١).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِنْزَهُمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْعَادِيْلُ رَبِّنَا لَقَبَلَ مِنَا إِنَّكَ أَنْتَ أَسْمَيْعُ الْعَلِيْمُ﴾ ^(٢) البقرة: ١٢٧، قال البيضاوي رحمه الله: وفي إبهام القواعد وتبيينها تفخيم لشأنها ^(٣).

ثانياً: ذِكرُ الْخَاصِ بَعْدَ الْعَامِ:

وفائدته هذا النوع من الإطناب هو التتبُّه على فضل الخاص ^(٤)

ومثاله من كتاب الله قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلَاةَ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَقْتُلُوا الْزَكَوَةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ^(٥) البقرة: ٢٧٧، قال البيضاوي رحمه الله: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا) بالله ورسوله وبما جاءهم منه. (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ) عطفهما على ما يعمهما لِنافتهما على سائر الأعمال الصالحة ^(٦).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْفُقَرَاءِ وَالْمُسِرِّيِّ وَيَصُدُّكُمْ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ ^(٧) المائدة: ٩١، قال القاضي البيضاوي رحمه الله: وخص الصلاة من الذكر بالإفراد للتعظيم، والإشعار بأن الصاد عنها كالصاد عن الإيمان من حيث إنها عماده والفارق بينه وبين الكفر ^(٨).

(١) تفسير البيضاوي: ٥٦٥/٣

(٢) تفسير البيضاوي: ١٣٧/١

(٣) انظر: الإيضاح: ٢٠٠/٣

(٤) تفسير البيضاوي: ٢٣١/١

(٥) تفسير البيضاوي: ٤٦٠/١

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾^(١) آل عمران: ١٠٤، قال البيضاوي رحمه الله: وعطف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عطف الخاص على العام للإيدان بفضله^(٢)

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ حَفِظُوا عَلَى الصَّلَاةِ وَالصَّلَاةُ أُوْسَطُنَّ وَقُومُوا لِلَّهِ قَنِيتِيَ ﴾^(٣) البقرة: ٢٣٨، قال البيضاوي رحمه الله: (والصلوة الوسطى) أي الوسطى بينها، أو الفضلي منها خصوصاً وهي صلاة العصر... وفضليها لكثرة اشتغال الناس في وقتها، واجتماع الملائكة... فتكون صلاة من الأربع خصت بالذكر مع العصر لأنفرادهما بالفضل^(٤).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ يَكَبِّهَا الَّذِينَ مَامَنُوا لَا يُحِلُّو شَعْرَرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرُ الْحَرَامُ وَلَا الْمَهْدَى وَلَا الْقَلَّى ﴾^(٥) المائدة: ٢، قال البيضاوي رحمه الله: (وَلَا الْهَدَى) ما أهدى إلى الكعبة، جمع هدية... (وَلَا الْقَلَّى) أي ذوات القلائد من الهدي، وعطفها على الهدي للاختصاص فإنها أشرف الهدي^(٦).

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِمَا رَأَيْنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فَقِيلَ الْخَيْرَتِ وَلِقَاءَ الْصَّلَاةِ وَلِيَسَاءَ الْزَّكَوَةِ وَكَانُوا لَنَا عَنِيدِينَ ﴾^(٧) الأنبياء: ٧٣، قال البيضاوي رحمه الله: (وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ) ليبحثوهم عليها فيما ينتمون كمالهم بانضمام العمل إلى العلم... وكذلك قوله: (وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ) وهو من عطف الخاص على العام للتفصيل^(٨)

ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّنَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْنَاهُمْ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَى وَأَيُوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاءَيَّنَا دَاؤِدَ زَبُورًا ﴾^(٩) النساء: ١٦٣، قال البيضاوي رحمه الله: (وَأَوْحَيْنَا إِلَيْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ) خصهم بالذكر مع اشتمال النبيين عليهم تعظيمياً لهم، فإن إبراهيم أول أولي العزم منهم وعيسى آخرهم، والباقين أشرف الأنبياء ومشاهيرهم^(١٠)

(١) تفسير البيضاوي: ٢٨٥/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٢٠٦/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٤١٧/١

(٤) تفسير البيضاوي: ٤٢٧/٢

(٥) تفسير البيضاوي: ٤٠٩/١

ثالثاً: ذكر العام بعد الخاص:

يأتي الإطناب على هذه الصورة لافادة العموم والتبيه على فضل الخاص^(١)

ومن شواهد هذا الضرب من الإطناب قوله جلت كلمته: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِنَّ بِحَرَةٍ وَلَا يَبْغُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَلَا قَارِبُ الْمُسَلَّةِ وَلِيَنْلُو الْأَزْكَرُ بِخَافُونَ يَوْمًا لَنْفَلُبُ فِيَهُ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَرُ﴾ النور : ٣٧، قال البيضاوي رحمه الله: (رجال لَا تُلْهِيهِنَّ بِحَرَةٍ) لا تشغلهن معاولة رابحة. (ولَا يَبْغُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ) وبالغة بالتعيم بعد التخصيص إن أريد به مطلق المعارضة، أو بإفراد ما هو الأهم من قسمي التجارة فإن الربح يتحقق بالبيع ويتحقق بالشراء^(٢).

ومثاله قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَمَ رَبِّ الْفَوْحَشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَإِلَّا مُتَّبِغٌ لِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِإِلَهٍ مَا لَمْ يُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ الأعراف: ٣٣، قال البيضاوي رحمه الله: (قل إِنَّمَا حَرَمَ رَبِّ الْفَوْحَشَ) ما تزايد قبحه، وقيل ما يتعلق بالغروج. (مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ) جهرها وسرها. (وَإِلَّا مُتَّبِغٌ لِغَيْرِ الْحَقِّ) وما يوجب الإثم تعيم بعد تخصيص^(٣)

ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطْلِقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ الطلاق: ١، قال البيضاوي رحمه الله: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ) خص النساء وعم الخطاب بالحكم لأنه أمام أمته فنداوته كندائهم، أو لأن الكلام معه والحكم يعمهم^(٤).

رابعاً: التكرار:

عُرِفَهُ ابن الأثير بأنه: دلالة اللفظ على المعنى مرددا^(٥)

أغراض التكرار في تفسير البيضاوي:**١. التعظيم والترغيب:**

مثاله قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَعْدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَئِكَ الْمُصَرِّرُ وَالْمُجَهِّدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَأْمُولُهُمْ وَأَنْفَسِهِمْ فَضَلَّ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِإِمْوَالِهِمْ وَأَنْفَسِهِمْ عَلَى الْقَعْدِينَ دَرَجَةٌ وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَ وَفَضَلَّ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَعْدِينَ﴾

(١) من بلاغة القرآن: أ.د. محمد علوان، وأ.د. نعمان علوان، ص ١٤١

(٢) تفسير البيضاوي: ٥٠٠/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ٥٤٢/١

(٤) تفسير البيضاوي: ٤١٤/٣

(٥) المثل السائر: ٣/٣



أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ النساء: ٩٥، قال البيضاوي رحمه الله: كرر تفضيل المجاهدين، وبالغ فيه إجمالاً وتفصيلاً تعظيمًا للجهاد وترغيباً فيه^(١)

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هاجَرُوا وَجَهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿٢١٨﴾ البقرة: ٢١٨، قال البيضاوي رحمه الله: (والَّذِينَ هاجَرُوا وَجَهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) كرر الموصول لتعظيم الهجرة والجهاد كأنهما مستقلان في تحقيق الرجاء^(٢)

٢. التأكيد:

كما في قوله تعالى: ﴿يَكَانُوا إِذَا ضَرَبُوكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا نَقُولُ لِمَنْ أَنْقَعَ إِلَيْكُمْ أَسْلَكَمْ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَعُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الْأُذْنِيَّةِ فَوْنَادَ اللَّهُ مَعَانِيَ كَثِيرَةٍ كَذَلِكَ كُنْتُمْ إِنْ قَبْلَ فَمَرَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ قَبَيْنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ يُمَاكِنُ مَوْلَوْنَ خَيْرًا﴾ ﴿٩٤﴾ النساء: ٩٤ قال البيضاوي رحمه الله: وتكريره (أي فتبينوا) تأكيد لتعظيم الأمر وترتيب الحكم على ما ذكر من حالهم^(٣)

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَا تُعِجبَكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿٨٥﴾ التوبه: ٨٥، قال البيضاوي رحمه الله: (ولا تُعِجبَكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ) تكرير للتأكيد والأمر حقيق به فإن الأ بصار طامحة إلى الأموال والأولاد والنفوس مغبطة عليها^(٤).

ووجه التكرير الذي أشار إليه البيضاوي أن هذه الآية سبقت بآية مشابهة لها مع اختلاف دقيق وهي قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعِجبَكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الْأُذْنِيَّةِ وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ التوبه: ٥٥، فيكون تكرارها تأكيداً لهذه الآية.

٣. مزيد الاعتناء:

مثاله قوله تعالى: ﴿شَهَدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولَئِكُمْ قَلِيلٌ فَإِنَّمَا يَالْقَسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿١٨﴾ آل عمران: ١٨، قال البيضاوي رحمه الله: (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) كرره للتأكيد ومزيد

(١) تفسير البيضاوي: ٣٨٣/١

(٢) تفسير البيضاوي: ١٨٧/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٣٨١/١

(٤) تفسير البيضاوي: ٧١/٢

الاعتناء بمعرفة أدلة التوحيد والحكم به بعد إقامة الحجة ولبني عليه قوله: **الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** فيعلم أنه الموصوف بهما^(١).

٤. الدلالة على تكرار الفعل:

وذلك كما في قوله تعالى: (فَبِمَا نَصَصْنَاهُ مِنْ أَثَابِهِمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا) (١٥٥) وَقَوْلِهِمْ وَكُفْرِهِمْ عَلَى مَرْءَيْمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا النساء ١٥٥-١٥٦، قال البيضاوي رحمه الله: (بِكُفْرِهِمْ) بعيسي عليه الصلاة والسلام، وهو معطوف على بکفرهم لأنه من أسباب الطبع... ويكون تكرير ذكر الكفر إذاناً بتكرر كفرهم، فإنهم كفروا بموسى ثم بعيسي ثم بمحمد عليهم الصلاة والسلام^(٢).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿لَوْ يَسْتَأْنُوكُمْ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّهِ لَا يُجَلِّيهَا لَوْقَهَا إِلَّا هُوَ شَقَّلَتِ الْسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ إِلَّا بِغَنَّهِ يَسْتَأْنُوكُمْ كَانَكُمْ حَفِظْتُمْ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلِكُنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الأعراف: ١٨٧، قال البيضاوي رحمه الله: (فُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ) كرهه لتكرير يسألونك لما نيط به من هذه الزيادة وللمبالغة^(٣).

٥. التفخيم:

كما في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ ، قال البيضاوي رحمه الله: (كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ) كرهه ثلثاً لمزيد التأكيد وتخييم الأحكام المختتمة به^(٤)

والمواضع الثلاثة التي أشار إليها البيضاوي هي ما جاء في سورة النور، وهي على الترتيب: ﴿يَكَانُهَا الظَّلَيْلُ إِذَا مَأْمُوا لِلْسَّتْعُونِكُمُ اللَّهُمَّ مَلَكَتْ أَيْمَنَكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَتَلَمُّغُوا الْحَلْمُ مِنْكُمْ مَلَكَتْ مَرْأَتِي مِنْ قِلِّ صَلَاةِ الظَّفَرِ وَجِئَنَ تَضَعُونَ شَيَابِكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَتِي لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جَنَاحٌ بَعْدَهُنَّ مَطْوَرُتْ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ النور: ٥٨

(١) تفسير البيضاوي: ٢٤٩/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٤٠٧/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٥٨٧/١

(٤) تفسير البيضاوي: ٥٠٩/٢

والآلية الثانية: ﴿وَإِذَا كَانَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُولُ فَيُسْتَغْفِرُوا كَمَا أُسْتَغْفَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَثِّنُ
اللَّهُ لَكُمْ مَا إِيَّتُهُ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حِكْمَةٌ﴾ النور: ٥٩

أما الآية الثالثة فهي: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حِجَّ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حِجَّ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حِجَّ وَلَا عَلَى
أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ مَابَاءِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَمْهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْرَاجِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
أَغْوَتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَدِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَنْتَرِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْرَلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَلَاتِكُمْ أَوْ مَا
مَلَكْتُمْ مَفَاسِقَهُ أَوْ صَدِيقَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَوِيعًا أَوْ أَشْتَانًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتَنا
فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحْيَةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَرَّكَةً طَيْبَةً كَذَلِكَ يُبَثِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَتِ لَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ﴾ النور: ٦١ و واضح أن كل آية من هذه الآيات اختص ببيان حكم معين، فجيء
بهذه الخاتمة مكررة في ختام كل آية للإشارة إلى تخييم هذا الحكم.

٦. الاختصاص:

كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَصْدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَعْرُجُونَهَا عَوْجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾
١٦ هود: ١٩، قال البيضاوي رحمه الله: (وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) والحال أنهم كافرون بالآخرة
وتكريرهم لتأكيد كفرهم واحتياطاتهم به^(١).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿الَّهُ أَلَّا يَرِيَ جَعَلَ لَكُمُ الْيَلَى لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَأَنَهَا رَمَادٌ إِنَّ اللَّهَ لَذُو
فَضْلِ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾^(٢) غافر: ٦١، قال البيضاوي رحمه الله: (ولَكِنَّ
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) لجهة عدم إغفالهم موقع النعم، وتكرير الناس لتخسيص الكفران
بهم^(٣).

٧. التذكير:

كما في قوله تعالى: ﴿وَالْبَذَنْ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا
صَوَافٌ فَإِذَا وَجَّهْتَ جُنُوبَهَا فَكُلُّوا مِنْهَا وَأَطْعُمُوا الْقَانِيْنَ وَالْمُعَرَّبَ كَذَلِكَ سَخَرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٤) لَئِنْ يَنَالَ اللَّهُ
لُؤْمَهَا وَلَا يَمْأُلُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ الْنَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَرْهَا لَكُمْ إِشْكَرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَكُمْ وَبَشَرُ الْمُخْسِنِينَ

(١) تفسير البيضاوي: ١٢٦/٢

(٢) تفسير البيضاوي: ٢١٤/٣

الحج: ٣٦ - ٣٧، قال البيضاوي رحمه الله: (كذلك سحرها لكم) كرره تذكيراً للنعمة وتعليلاً له بقوله: (لتكبروا الله) أي لتعرفوا عظمته باقداره على ما لا يقدر عليه غيره فتوحدوه بالكبرياء^(١).

ووجه التكرار هو أنه قال في الآية الأولى: (كذلك سخناها لكم)، وفي الآية الثانية: (كذلك سخرها لكم)، فهو تكرار وإن اختلف إسناد (التسيير) تارة لضمير المتكلم وتارة لضمير الغائب، لكنه تدل على المسخر وهو الله عز وجل، وذلك على سبيل تذكيرهم بنعمه عليهم حتى يكون ذلك أدعى لشكراً لهم له.

ومن التكرار لأجل التأكيد قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّخَصَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ شُوَّقٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمْدَأْ بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَوْفٌ بِالْعَبَادِ﴾ آل عمران: ٣٠، قال البيضاوي رحمه الله: (وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ) كرره للتأكيد والتذكير^(٢)

ووجه التكرار هو أن الآية سبقت بآية هي قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكُفَّارَ أَوْلَيَةً مِّنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيَسْ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَكْفُوا مِنْهُ مُنْفَعَةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ آل عمران: ٢٨، فيكون قوله: (ويحذركم الله نفسه) تكراراً لأجل التذكير كما أوضح البيضاوي رحمه الله.

٨. منع الفصل:

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعَظَمَمَا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ المؤمنون: ٣٥، قال البيضاوي رحمه الله: (أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعَظَمَمَا) مجردة عن اللحوم والأعصاب. (أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ) من الأحداث أو من العدم تارة أخرى إلى الوجود، و(أَنَّكُمْ) تكرير للأول أكد به لما طال الفصل بينه وبين خبره^(٣)

(١) تفسير البيضاوي: ٤٤٩/٢

(٢) تفسير البيضاوي: ٢٥٥/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٤٦٩/٢

٩. منع التوهم:

كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِمَّا بَرِّ الْعَالَمِينَ ۖ رَبُّ مُوسَى وَهَارُونَ ۚ﴾ الأعراف: ١٢١ - ١٢٢، قال البيضاوي رحمه الله: (قالوا آمَّا بَرِّ الْعَالَمِينَ. رَبُّ مُوسَى وَهَارُونَ) أبدلوا الثاني من الأول لئلا يتوهם أنهم أرادوا به فرعون^(١).

فعلمون أن فرعون كان يعد نفسه إلهًا فلما قالوا آمنا برب العالمين قد يتوهם أنهم أرادوه بهذا القول فكان تكرارهم للمعنى بلفظ مختلف وهو (رب موسى وهارون) مانعاً من هذا التوهم دالاً على أنهم أرادوا إظهار إيمانهم بالله الحق غير خائفين من فرعون وبطشه حتى أنهم أبانوا وجه إيمانهم من دون مداهنة ولا مواربة.

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِغَايَةِ مَمْلَكَتِكُمْ لَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ كَيْفَيَّةَ الْطَّيْرِ فَأَنْتُمْ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَنْتُ أَكْثَرُ الْأَكْثَرَ وَأَنْتِ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَنْتِشُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَخَّلُونَ فِي يُؤْتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَكَيْدَ لَكُمْ إِنْ كَتَمْتُ مُؤْمِنِينَ ۚ﴾ آل عمران: ٤٩، قال البيضاوي رحمه الله: (وَأَحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ) كرر بإذن الله دفعاً لتوهم الألوهية، فإن الإحياء ليس من جنس الأفعال البشرية^(٢)

١٠. الدلالة على اختلاف الحال:

كما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِمَّا مُؤْمِنٌ بِهِ وَإِمَّا لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أَنْوَاهُمُ الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يَسْأَلُ عَلَيْهِمْ يَنْجُزُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجْدًا ۚ وَيَقُولُونَ شُبَحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۚ وَيَخْرُجُونَ لِلْأَذْقَانِ يَنْكُونُ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۚ﴾ الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩، قال البيضاوي رحمه الله: (وَيَخْرُجُونَ لِلْأَذْقَانِ يَنْكُونُ) كره لاختلاف الحال والسبب فإن الأول للشكرا عند إنجاز الوعد والثاني لما أثر فيهم من مواضع القرآن حال كونهم باكين من خشية الله^(٣).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا إِذَا مَا أَتَقَوْا وَمَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ أَتَقَوْا وَمَآمَنُوا ثُمَّ أَتَقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۚ﴾ المائدة: ٩٣، قال البيضاوي رحمه الله: ويحمل أن يكون هذا التكرير باعتبار الأوقات الثلاثة، أو باعتبار الحالات الثلاث استعمال الإنسان التقوى والإيمان بينه وبين نفسه وبين الناس وبينه وبين الله تعالى، ولذلك

(١) تفسير البيضاوي: ٥٦٤/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٢٦٢/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٣٢٤/٢

بدل الإيمان بالإحسان في الكرة الثالثة إشارة إلى ما قاله عليه الصلاة والسلام في تفسيره، أو باعتبار المراتب الثلاث المبدأ والوسط والمنتهى، أو باعتبار ما يتقي فإنه ينبغي أن يترك المحرمات توقياً من العقاب والشبهات تحرازاً عن الواقع في الحرام، وبعض المباحثات تحفظاً للنفس عن الخسارة وتهذيباً لها عن دنس الطبيعة^(١).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَأَقْرَأُوا اللَّهَ وَيُعَكِّرُونَ كُمُّ اللَّهِ وَاللَّهُ يُكَلِّ شَنَّ وَعَلِيهِ﴾ البقرة: ٢٨٢، قال البيضاوي رحمه الله: كرر لفظه الله في الجمل الثلاث لاستقلالها، فإن الأولى حث على التقوى، والثانية وعد بإنعامه، والثالثة تعظيم لشأنه. ولأنه أدخل في التعظيم من الكناية^(٢).

١١. الدلالة على اختلاف الطرق والتنويع:

كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ إِمَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَّا لِآخِرَةٍ هُرْمُونَ﴾ البقرة: ٤، قال البيضاوي رحمه الله: على معنى أنهم الجامعون بين الإيمان بما يدركه العقل جملة والإيمان بما يصدقه من العبادات البدنية والمالية وبين الإيمان بما لا طريق إليه عبر السمع. وكرر الموصول تتبيناً على تغایر القبليين وتباین السبليين^(٣).

ف(ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ) هو القرآن الكريم، و(ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ)، هي الشرائع التي نزلت قبل النبي محمد صلى الله عليه وسلم وهي مختلفة عن القرآن، كما قال الله عز وجل: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرِعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ المائدة: ٤٨، لذلك كان تكرار الموصول (ما أُنْزِلَ) إشعاراً باختلاف المنهج والطريق.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَقْنُوْ فِي دِينِكُمْ غَيْرُ الْحَقِّ وَلَا تَتَنَاهُواْ أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلَّوْ مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلَّوْ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ المائدة: ٧٧ ، قال البيضاوي رحمه الله: قيل الأول (أي ضلوا من قبل) إشارة إلى ضلالهم عن مقتضى العقل والثاني (أي ضلوا عن سواء السبيل) إشارة إلى ضلالهم عمما جاء به الشرع^(٤).

فيكون تكرار كلمة (ضلوا) جاء لغرض التنويع فإن ضلالهم الأول كان ضلالاً عن ما تشير إليه عقولهم، والثاني ضلال عن الشرع.

(١) تفسير البيضاوي: ٤٦٢-٤٦١/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٢٣٦/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٣٧/١

(٤) تفسير البيضااوي: ٤٥٤-٤٥٥/١

١٢. المبالغة في التحذير:

كما جاء في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُشَأْلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ البقرة: ١٤١، قال البيضاوي رحمه الله: (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُشَأْلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) تكرير للمبالغة في التحذير والزجر بما استحكم في الطياع من الافتخار بالآباء والاتكال عليهم^(١).

ووجه التكرار أن هذه الآية قد سبقت بمثلها وهي قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُشَأْلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ البقرة: ١٣٤.

١٣. المبالغة في التوصية:

كما في قوله تعالى: ﴿أَلَا تَطْغُوا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَرْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ الرحمن: ٨ - ٩، قال البيضاوي رحمه الله: (وَأَقِيمُوا الْوَرْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ) ولا تقصصوه فإن من حقه أن يسوى لأن المقصود من وضعه، وتكريره مبالغة في التوصية به وزيادة حتى على استعماله^(٢).

١٤. المبالغة في التقرير:

مثاله قوله تعالى: ﴿قُلْ يَأْهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِعِيَادَتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ قُلْ يَأْهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تَصْدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ أَمَنَ تَبْغُونَهَا عَوْجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِعَنِّيْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ آل عمران: ٩٨ - ٩٩، قال البيضاوي رحمه الله: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصْدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ) كرر الخطاب والاستفهام مبالغة في التقرير ونفي العذر لهم، وإشعاراً بأن كل واحد من الأمرين مستنجب في نفسه مستقل باستجلاب العذاب^(٣).

١٥. المبالغة في الابتهاج:

مثاله قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ رَبَّنَا إِنَّا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيَا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنَّ مَا إِيمَنَا بِرَبِّكُمْ فَهَامَنَا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِرْ عَنَّا سَيِّعَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَتْرَارِ رَبَّنَا وَإِنَّا مَا وَعَدْدَشَاعَلَنْ رُسُلَكَ وَلَا خَيْرَنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا غُلْفُ لِلْيَعَادِ﴾ آل عمران: ١٩٢ - ١٩٤

(١) تفسير البيضاوي: ١٤٤/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٣٥٢/٣

(٣) تفسير البيضااوي: ٢٨٢/١

قال البيضاوي رحمه الله: وتكرير ربنا للبالغة في الابتهاج والدلالة على استقلال المطالب وعلو شأنها^(١).

١٦. التعليل:

كما في قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا أَلَّهَ وَأَطْبِعُونَ﴾^(٢) و﴿أَنْقُلُوا الَّذِي أَمْدَكُ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣) الشعراء : ١٣١ - ١٣٢ ، قال البيضاوي رحمه الله: (وأَنْقُلُوا الَّذِي أَمْدَكُ بِمَا تَعْلَمُونَ) كرره مرتبًا على إمداد الله تعالى إياهم بما يعرفونه من أنواع النعم تعليلاً وتبيهاً على الوعد عليه بدوام الإمداد والوعيد على تركه بالانقطاع^(٤).

والتكرار الذي يشير إليه البيضاوي هو في (فاقتوا الله وأطعون)، و(وانقوا الذي أمدكم بما تعلمون)^٥، فقد جاء هذا التكرار لبيان العلة من التقوى ليحثهم على عبادته وطاعته لأنه هو المنع عليهم بما أدمهم به.

١٧. التهويل:

كما في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِ وَنُذُرِ﴾^(٦) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرِصِرًا فِي يَوْمٍ مَّخْرِبٍ مُّسْتَمِرٍ^(٧) تَنْزِعُ الْأَنَامَ كَائِنَهُمْ أَشْجَاعٌ تَخْلِ شَنَعِي^(٨) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِ وَنُذُرِ^(٩) القمر: ١٨ - ٢١ ، قال البيضاوي رحمه الله: (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ) كرره للتلهوين^(١٠).

١٨. الذم:

كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْهَذَ قَوْمٌ مُّوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِمْ مِّنْ حُكْمِهِمْ عَجَلًا جَسَدًا لَّمْ يَرُوا أَنَّهُ لَا يُكْلِمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سِيَلًا أَنْهَذُوهُ وَكَانُوا ظَلَمِيْنَ﴾^(١١) الأعراف: ١٤٨ ، قال البيضاوي رحمه الله: (أَنْهَذُوهُ) تكرير للذم أي اتخاذ إلهًا^(١٢)

١٩. المدح:

مثاله قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ الْتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾^(١٣) مِنْ قَبْلِ هُدَى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْقُرْآنَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعِيَادَتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو أَنْتِقامَةٍ^(١٤) آل عمران: ٣ - ٤ ، قال

(١) تفسير البيضاوي: ٣٢٤/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٥٤٨/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ٣٤٧/٣

(٤) تفسير البيضاوي: ٥٧٢/١

البيضاوي رحمه الله: (وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ) يريد به جنس الكتب الإلهية، فإنّها فارقة بين الحق والباطل. ذكر ذلك بعد ذكر الكتب الثلاثة ليعم ما عدّها، كأنه قال: وأنزل سائر ما يفرق به بين الحق والباطل، أو الزبور أو القرآن. وكرر ذكره بما هو نعت له مدحًا وتعظيمًا، وإظهاراً لفضله من حيث إنه يشاركهما في كونه وحيًا منزلًا ويتميز بأنه معجز يفرق بين الحق والمبطل^(١).

٢٠. الاستعطاف:

مثاله قوله تعالى: ﴿إِذَا قَالَ لِأَبِيهِ يَتَابَتْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبَصِّرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ مريم: ٤٤، قال البيضاوي رحمه الله: (إذ قال لأبيه يا أبتي) التاء مفعوضة من ياء الإضافة ولذلك لا يقال يا أبتي ويقال يا أبنا، وإنما تذكر للاستعطاف ولذلك كررها^(٢).

فقد كرر (يا أبتي) في الآيات التي تليها وهي: ﴿يَتَابَتِ إِلَيَّ فَقَدْ جَاءَنِي مِنْ أَعْلَمِ مَا أَنْمَى يَأْتِكَ فَأَتَيْتُعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ يتابت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيًّا ﴿يَتَابَتِ إِلَيَّ أَخَافُ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابًا مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ مريم: ٤٣ - ٤٥.

(١) تفسير البيضاوي: ٢٤٣/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٣٦٨/٢

الفصل الثالث

”مباحث علم البيان في تفسير البيضاوي“

- المبحث الأول: التشبيه.
- المبحث الثاني: المجاز.
- المبحث الثالث: الاستعارة.
- المبحث الرابع: الكنية والتعريض.

الفصل الثالث: مباحث علم البيان في تفسير البيضاوي

البيان لغة: مَا بَيِّنَ بِهِ الشَّيْءُ مِنَ الدَّلَالَةِ وَغَيْرِهَا، وَبَيَانُ الشَّيْءِ بَيَانًاً: أَتَصْحَحُ، فَهُوَ بَيِّنٌ... وَأَبْنَثُهُ أَنَا أَيُّ أَوْضَحُهُ. وَاسْتَبَانَ الشَّيْءُ: ظَهَرَ. وَاسْتَبَثْتُهُ أَنَا: عَرَفْتُهُ. وَتَبَيَّنَ الشَّيْءُ: ظَهَرَ... وَالبَيَانُ: الْفَصَاحَةُ وَاللَّسْنُ، وَكَلَامٌ بَيْنَ فَصِيحٍ. وَالبَيَانُ: الإِفْصَاحُ مَعَ ذَكَاءٍ. وَالبَيْنُ مِنَ الرِّجَالِ: الْفَصِيحُ... رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لِسْحَرًا وَإِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لِحَكَمًا؛ قَالَ: الْبَيَانُ إِظْهَارُ الْمُقْصُودِ بِالْأَلْفَاظِ، وَهُوَ مِنَ الْفَهْمِ وَذَكَاءِ الْقَلْبِ مَعَ اللَّسْنِ، وَأَصْلُهُ الْكَشْفُ وَالظَّهُورُ^(١).

وعلم البيان يرد عند علماء البلاغة للدلالة تارة على علم البلاغة بشكل عام ليشمل بهذا علم المعاني والبيان والبديع، وتارة أخرى يرد للدلالة على علم البيان الخاص والذي يهتم بالبحث في التشبيه والاستعارة والمجاز والكلنائية والتعريض.

فالمتقدمون من أئمة البلاغة يطلقون على فنون البلاغة الثلاثة البيان من باب تسمية الكل باسم البعض، وخصه المتأخرون بالعلم الباحث عن المجاز والاستعارة والتشبيه والكلنائية^(٢)

والبيان اصطلاحاً: عَرَفَهُ العلوى بِأَنَّهُ: إِيْرَادُ الْمَعْنَى الْوَاحِدِ بِطُرُقٍ مُخْتَلِفةٍ فِي وَضْحِ الدَّلَالَةِ عَلَيْهِ كَالْإِسْتِعَارَةِ وَالْكَلْنَاءِ وَالْتَّشْبِيهِ وَغَيْرِهَا^(٣).

وعَرَفَهُ السَّكَاكِيُّ بِأَنَّهُ: مَعْرِفَةُ إِيْرَادِ الْمَعْنَى الْوَاحِدِ فِي طُرُقٍ مُخْتَلِفةٍ بِالْزِيَادَةِ فِي وَضْحِ الدَّلَالَةِ عَلَيْهِ وَبِالنَّقْصَانِ لِيَحْتَرِزَ بِالْوَقْفِ عَلَى ذَلِكَ عَنِ الْخَطَأِ فِي مَطْابِقِ الْكَلَامِ لِتَمَامِ الْمَرَادِ مِنْهُ^(٤)

أما شيخ البلاغة عبد القاهر الجرجاني فقد تحدث عن البيان، وقسم الكلام إلى ضربين: "ضرب أنت تصيل منه إلى الغرض بدلاله اللفظ وحده، وذلك إذا قصدت أن تخبر عن "زيد" مثلاً بالخروج على الحقيقة، فقلت: "خرج زيد"، وبالانطلاق عن "عمرو" فقلت: "عمرو منطبق"، وعلى هذا القياس. وضرب آخر أنت لا تصيل منه إلى الغرض بدلاله اللفظ وحده، ولكن يدل ذلك اللفظ على

(١) لسان العرب (بين): ٦٧-٦٩/١٣

(٢) انظر: جواهر البلاغة ١/٦٦

(٣) الطراز: ١/١٠

(٤) مفتاح العلوم: ٦٦٢

معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجذب لذلك المعنى دلالة ثانية تصلّ بها إلى الغرض.
ومدار هذا الأمر على "الكناية" و"الاستعارة" و"التمثيل"^(١).

ويسمى عبد القاهر الجرجاني البيان بمعنى المعنى فيقول: وإن قد عرفت هذه الجملة، فههنا عبارة مختصرة وهي أن تقول: "المعنى"، و "معنى المعنى"، تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذى تصلّ إليه بغير واسطة و "معنى المعنى"، أن تتعقل من اللفظ معنى، ثم يُفضي بذلك المعنى إلى معنى آخر... وإن قد عرفت ذلك، فإذا رأيتم يجعلون الألفاظ زينةً للمعاني وحليةً عليها أو يجعلون المعاني كالجواري، والألفاظ كالمعارض لها، وكالوشي المحبّر والباس الفاخر والكسوة الرائقة، إلى أشباء ذلك مما يُفخّمون به أمر اللفظ، ويجعلون المعنى يُنبَل به ويُشرُف فاعلم أنهم يضعون كلاماً قد أعطاكم أغراضه فيه من طريق معنى المعنى، فكأنّى وعرّض، ومثلّ واستعار، ثم أحْسَن في ذلك كله وأصاب، ووضع كل شيء منه في موضعه، وأصاب به شاكته، وعمد فيما كنّى به وشبّه ومثلّ، لما حسّن مأخذـه، ودقـ مسلـكه، ولطفـ إشارـته، وأن المعرض وما في معناه، ليس في اللـفـظـ المنـطـوقـ بهـ، ولكنـ معـنىـ الـلـفـظـ الـذـيـ دـلـلـتـ بـهـ عـلـىـ المعـنىـ الثـانـيـ^(٢).

إذاً علم البيان يدرس توظيف المعاني للوصول إلى المعاني سواء كان هذا التوظيف من طريق التشبيه أو الاستعارة أو المجاز أو الكناية أو التعريض، هذا ما يفهم من كلام شيخ البلاغة.

وواضع علم البيان هو أبو عبيدة، فقد دون مسائل هذا العلم في كتابه المسمى «مجاز القرآن» وما زال ينمو شيئاً فشيئاً، حتى وصل إلى الإمام «عبد القاهر» فأحكم أساسه، وشيد بناءه، ورتب قواعده^(٣)

ويروى عن سبب وضع أبي عبيدة لعلم البيان أنه سئل في مجلس الفضل بن الريبع عن معنى قوله تعالى في شجرة الزقوم: ﴿ طَلَعَهَا كَانَهُ رَهُوْنُ الشَّيَاطِينِ ﴾^(٤) الصافات: ٦٥، وكيف شبه الطلح برؤوس الشياطين وهي لم تُعرف بعد؟ وينبغي التشبيه بشيء معروف حتى يتبيّن المشبه ويتبّع، فأجاب أبو عبيدة بأنه على حد قول الشاعر:

أيقتنـيـ والمـشـرـفـيـ مـضـاجـعـيـ
وـمـسـنـوـنـةـ زـرـقـ كـأـنـيـابـ أـغـوـالـ

(١) دلائل الإعجاز: ٢٦٢

(٢) دلائل الإعجاز: ٢٦٣

(٣) جواهر البلاغة: ٢١٧

يريد: أن المشبه به هنا غير معروف كذلك، وأن الغرض من التشبيه عرض المشبه في صورة مستقطعة مخوفة، والعرب تشبه قبيح الصورة بالشيطان أو الغول، فيقولون: كأنه وجه الشيطان، أو كأنه رأس الغول، وإن لم يروهما لاعتقادهم أنهما شر محض، لا يخالطهما خير، فيرتسم في خيالهم بأيقونة صورة.

ثم قام أبو عبيدة من فوره، وتقصد ما ورد في القرآن من الألفاظ التي أريد بها غير معناها الأول في اللغة، وجمعها في هذا الكتاب، وسماه "مجاز القرآن". وأبو عبيدة هذا هو معمراً بن المثنى اللغوي البصري، تلميذ يونس بن حبيب^(١)

وموضوع علم البيان ذلك التصوير، الذي يهب الفكرة وضوها وقوتها فيزيد تأثيرها في نفس المخاطب، أو القارئ، بالاتجاه إلى الخيال المصور، ومن أجل هذا كان موضوع درسه التشبيه، والاستعارة، والكناية، والمجاز، وهي صور توحى بالتجربة الشعرية أتم إيحاء^(٢).

هذا وقد جاء الإمام البيضاوي في تفسيره على ذكر أبواب من علم البيان سندكراها ونبوبها على ما استقر عند البلاغيين من مسائل هذا العلم.

(١) المنهاج الواضح للبلاغة: حامد عوني، ١/ص ٥، المكتبة الأزهرية للتراث. انظر لترجمة أبو عبيدة في: الأعلام للزرکلي:

٢٧٢/٧

(٢) من بلاغة القرآن لأحمد البدوي: ٢١

المبحث الأول: التشبيه

التشبيه لغة كما جاء في لسان العرب: **الشَّبَهُ وَالشَّبَهَةُ وَالشَّبِيهُ:** المِثْلُ، وَالْجَمْعُ أَشْبَاهٌ. وَأَشْبَهَ
الشيءُ الشيءَ: مَائِلٌ... وَالشَّبِيهُ: التَّمَثِيلُ^(١).

أما التشبيه اصطلاحاً فقد عرفه كثيرون من العلماء، ونجد تعريفاً ووصفاً له عند قدامة بن
جعفر في نقد الشعر إذ يقول: التشبيه إنما يقع بين شيئاً وبينهما اشتراك في معانٍ تعمهما ويوصفان
بها، وافتراق في أشياء ينفرد كل واحد منها عن صاحبه بصفتها، وإذا كان الأمر كذلك، فحسن
التشبيه هو ما وقع بين الشيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيها، حتى يدنى بهما
إلى حال الاتحاد^(٢).

أمّا ابن رشيق القيرواني فقال: **التشبيه:** صفة الشيء بما قاربه وشاكله، من جهة واحدة أو
جهات كثيرة لا من جميع جهاته؛ لأنّه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه^(٣)

وعرّفه صاحب نهاية الأرب بأنه: الدّلالة على اشتراك شيئاً في وصف هو من أوصاف
الشيء في نفسه، كالشجاعة في الأسد، والتور في الشمس^(٤).

وقد قال السكاكبي في التشبيه: لا يخفى عليك أن التشبيه مستدعاً طرفيين مشبهاً ومشبهاً به
واشتراكاً بينهما من وجه وافتراقاً من آخر مثل أن يشتركا في الحقيقة ويختلفا في الصفة أو
بالعكس^(٥).

وعرّفه العلوي في الطراز بقوله: هو الجمع بين الشيئين، أو الأشياء بمعنى ما بواسطة
الكاف ونحوها^(٦)

(١) لسان العرب (شبه): ٥٠٣/١٣-٥٠٤.

(٢) نقد الشعر: قدامة بن جعفر، ص ٣٧، مطبعة الجواب، قسطنطينية، الطبعة الأولى، هـ ١٣٠٢.

(٣) العمدة في محاسن الشعر وأدبها: ابن رشيق القيرواني، ١/ص ٢٨٦، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الحيل،
الطبعة الخامسة، هـ ١٤٠١، م ١٩٨١

(٤) نهاية الأرب في فنون الأدب: شهاب الدين النويري، ج ٧/ص ٣٨، دار الكتاب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة الأولى،
هـ ١٤٢٣.

(٥) مفتاح العلوم: ٣٣٢

(٦) الطراز: ١٣٦/١



وأشهر تعريف للتشبيه تعريف الخطيب القرزياني إذ يقول فيه: التشبيه الدلالة على مشاركة أمرٍ آخر في معنى^(١)

فائدة التشبيه وأهميته:

وقد كان مبحث التشبيه من المباحث المهمة في بلاغتنا العربية لذلك نرى القرآن الكريم قد حفل بكثير من التشبيهات ليوضح الصورة ويزيدها بهاءً أو يزيدوها وضوحاً، وكذلك نرى في التشبيه من الفنون التي أولاها الشعراء أهمية بالغة.

ففن التشبيه بين الأشعار علي القدر، نابه الذكر، لا يمكن كل الناس سلوك جادته، ولا يقدر إلا اليسير منهم على إجادته، حتى استهوله أكثر الشعراء واستصعبه، وأبى بعضهم أن يجده بأن يروض مصعبه، وقالوا إذا قال الشاعر "كأن" فقد ظهر فضله أو جهله^(٢)

ففن التشبيه فن مهم يدور عليه علم البيان وهو من أهم وجوه تحسين الكلام كما يقول شيخ البلاغة الإمام عبد القاهر الجرجاني إذ تكلم عن أهمية التشبيه في أسرار البلاغة فقال: التشبيه والتمثيل والاستعارة، فإن هذه أصولٌ كبيرة، كأن جلَّ محسن الكلام إن لم نقل: كُلُّها متفرعة عنها، وراجعة إليها، وكأنها أقطابٌ تدور عليها المعاني في مُتصرّفاتها، وأقطابٌ تحيط بها من جهاتها، ولا يقنع طالب التحقيق أن يقتصر فيها على أمثلة ذكر، ونظائرٌ ثُعد^(٣)

وللتتشبيه فوائد عديدة منها أنه يجمع صفات ثلاثة، هي: المبالغة والبيان والإيجاز، ومن فوائدِه أيضاً أنك إذا مثلت الشيء بالشيء، فإنما تقصد به إثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به أو معناه، وذلك أوكد في طرفي الترغيب فيه، أو التنفير عنه^(٤).

فائدة التشبيه عند البيضاوي:

ونجد البيضاوي رحمة الله في تفسيره يأتي على ذكر فائدة التشبيه إذ يقول مُعقباً على قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثْلِ الَّذِي أَسْتَوْدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَرَكَّبُهُمْ فِي ظُلْمَنْتٍ لَا يَبْصِرُونَ﴾^(٥)
البقرة: ١٧، قال البيضاوي: لما جاء بحقيقة حالهم عقبها بضرب المثل زيادة في التوضيح

(١) الإيضاح: ١٦٤

(٢) غرائب التبيهات على عجائب التبيهات: علي بن ظافر الأزدي المصري، ص ٧، تحقيق: دكتور محمد زغلول سلام، دكتور مصطفى الصاوي الجوني، دار المعارف القاهرة.

(٣) أسرار البلاغة: ٢٧

(٤) انظر: المثل السائر: ٩٨/٩٩

والقرير، فإنه أوقع في القلب وأقمع للخصم الأد، لأنه يريك المتخيل محققاً والمعقول محسوساً، ولأمر ما أكثر الله في كتبه الأمثال، وفشت في كلام الأنبياء والحكماء^(١).

وقال البيضاوي رحمه الله أيضاً في أهمية التشبيه عندما تعرض لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَخِنُ بِأَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا يَعْوَذُهُ فَمَا فَوَّهَا﴾ البقرة: ٢٦، قال: لما كانت الآيات السابقة متضمنة لأنواع من التمثيل، عقب ذلك ببيان حسنها، وما هو الحق له والشرط فيه، وهو أن يكون على وفق الممثل له من الجهة التي تعلق بها التمثيل في العظم والصغر والخسة والشرف دون الممثل، فإن التمثيل إنما يصار إليه لكشف المعنى الممثل له ورفع الحجاب عنه وإبرازه في صورة المشاهد المحسوس، ليساعد فيه الوهم العقل ويصالحه عليه فإن المعنى الصرف إنما يدركه العقل مع منازعة من الوهم، لأن من طبعه الميل إلى الحس وحب المحاكاة، ولذلك شاعت الأمثال في الكتب الإلهية وفشت في عبارات البلاغة، وإشارات الحكماء، فيتمثل الحقير بالحقير كما يمثل العظيم بالعظيم، وإن كان المثل أعظم من كل عظيم^(٢)

وأركان التشبيه أربعة هي: المشبه، والمشبه به، والأداة، ووجه الشبه^(٣)

وقد كثرت التشبيهات في القرآن الكريم لذلك نرى البيضاوي رحمه الله يأتي في تفسيره على أنواع كثيرة من هذه التشبيهات ويوضح جمالها ويأتي على أسرار كثير منها، فمن أنواع التشبيه التي أتى على ذكرها البيضاوي في تفسيره ما يلي:

أنواع التشبيه باعتبار طرفيه في تفسير البيضاوى:

١. تشبيه المحسوس بالمحسوس:

وهذا النوع من التشبيه يكون باعتبار الطرفين إذ يكون المشبه والمشبه به أمران مُدركين بأحد الحواس الخمسة.

(١) تفسير البيضاوي: ٥٢/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٧٢/١

(٣) من بلاغة القرآن: أ.د. محمد علوان، وأ.د. نعمان علوان ، ص ١٤٩



من ذلك قوله تعالى: ﴿وَعِنْهُمْ قَصَرَتِ الظَّرْفُ عِنْهُ﴾ (٤٨) ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ (٤٩) الصافات: ٤٨ - ٤٩ ، قال البيضاوي رحمه الله: (كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ) شبهم ببيض النعام المصنون عن الغبار ونحوه في الصفاء والبياض المخلوط بأدني صفرة فإنه أحسن ألوان الأبدان^(١).

فالحور العين مخلوقات محسوسة ترى بالعين المجردة، والبيض المكنون الذي هو بيض النعام أيضاً يدرك بالحس، لذلك يكون هذا التشبيه من نوع المحسوس بالمحسوس.

ولم يأتِ تشبيه الحور ببيض النعام هنا لمجرد اشتراكهما في بياض اللون بل لأنه مصنون أيضاً عن المساس والغبار، فالصلة التي تربطهن بالبيض المكنون، فضلاً عن نقاء اللون، فهي هذا الرفق والحضر الذي يجب أن يعامل به كلاهما^(٢).

٢. تشبيه المعقول بالمعقول:

وهو ما يكون طرفي التشبيه فيه لا يدركان بالحس وإنما يُعرفان بالعقل، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيَّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ تُورًا يَمْتَئِنُ بِهِ فِي الْأَنْتَارِسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلْمَاتِ لَيْسَ بِحَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيْنَ لِلْكُفَّارِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢٢) الأنعام: ١٢٢ ، قال البيضاوي رحمه الله: مثل به من هداه الله سبحانه وتعالى وأنقذه من الضلال وجعل له نور الحجج والآيات يتأمل بها في الأشياء، فيميز بين الحق والباطل والمحق والمبطل... (كمَنْ مَثَلُهُ صفتُه... (في الظُّلْمَاتِ)... وهو مثل لمن بقي على الضلال^(٣).

إذن فقد شبه الله الهداية وهي ليست حسيبة بل معقولة بالحياة للإنسان وهي أيضاً معقولة، وكذلك شبه الضلال بالموت، وهو عقليان.

ويقول العلوي في هذه الآية: فالإحياء، والإماتة، هنا مجاز في العلم والجهل، وأن المقصود من الآية، تقاوست ما بين الحالتين، وبين من أحياه الله تعالى بالعلم، وبين من أماته الله تعالى بالجهل، كما أن من كان في الظلمة ليس حاله كحال من هو في النور، يتصرف ويتقرب^(٤)

(١) تفسير البيضاوي: ١٤٨/٣

(٢) من بلاغة القرآن للبدوي: ١٤٩.

(٣) تفسير البيضاوي: ٥١٥/١

(٤) الطراز: ١٨٤/٣

٣. تشبيه المحسوس بالمعقول:

من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ۖ طَلَعُهَا كَانَهُ، رُؤُسُ الشَّيَاطِينِ﴾^(١)
 الصافات: ٦٤ - ٦٥، قال البيضاوي رحمه الله: (كأنه رؤس الشياطين) في تناهي القبح والمهول،
 وهو تشبيه بالتخيل كتشبيه الفائق الحسن بالملك^(٢).

فقول البيضاوي: (تشبيه بالتخيل) إشارة إلى أن هذا التشبيه من تشبيه المحسوس بالمعقول، إذ إن الشجرة وهي من الأشياء التي تدرك بالحس سُبْهَت برؤوس الشياطين وهي غير محسوسة بل معقولة، وهنا نذكر أن عمر بن المثنى قد سُئل في مجلس الفضل بن الربيع عن معنى هذه الآية وكيف شبه الطلع برؤوس الشياطين وهي لم تُعرف بعد؟ وينبغي التشبيه بشيء معروف حتى يتبيّن المشبه ويُتضَّح، فأجاب أبو عبيدة بأنه على حد قول الشاعر:

أيقتنني والمشرفي مضاجعي ومنسونة زرق كأنباب أغوال

يريد: أن المشبه به هنا غير معروف كذلك، وأن الغرض من التشبيه عرض المشبه في صورة مستقطعة مَخْوَفة، والعرب تشبه قبيح الصورة بالشيطان أو الغول، فيقولون: كأنه وجه الشيطان، أو كأنه رأس الغول، وإن لم يروهما لاعتقادهم أنهما شر محض، لا يخالطهما خير، فيرتسم في خيالهم بأقبح صورة^(٣).

ونعود لكلام البيضاوي السابق إذ يقول: (وهو تشبيه بالتخيل كتشبيه الفائق الحسن بالملك)، فقول البيضاوي: كتشبيه الفائق الحسن بالملك، هو من تشبيه المحسوس بالمعقول لأن الملك غير محسوس، وذلك على نحو ما جاء في قوله تعالى: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾^(٤)
 يوسف: ٣١

قال البيضاوي رحمه الله في الآية السابقة: (إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) فإن الجمع بين الجمال الرائق والكمال الفائق والعصمة البالغة من خواص الملائكة، أو لأن جماله فوق جمال البشر ولا يفوقه فيه إلا الملك^(٥).

(١) تفسير البيضاوي: ١٥٠/٣

(٢) منهاج الواضح للبلغة: ٥/١

(٣) تفسير البيضاوي: ١٧١/٢

فقد حسن التشبيه بالملائكة عند إرادة تعرير الكمال والفضيلة والحاصل أن هذا من باب التشبيه لا بالمحسوس بل بالمتخيل^(١)

٤. تشبيه المعقول بالحسوس:

ومثال هذا النوع من التشبيه قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورٌ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَشْكُوفٌ فِيهَا مَضَبَّعُ الْمُصَبِّحِ فِي نَجَاحِ الرُّجَاجَةِ كَانَهَا كَوْكِبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةِ مِيزَرَكَةٍ زَيْقَنَةٍ لَا شَرِيقَةٍ وَلَا غَرِيقَةٍ يَكَادُ زَيْنَهَا يُخْسِرُهُ وَلَوْ لَمْ تَمَسَّسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ يُكْلِ شَغْلَ عَلِيمٌ﴾
٢٥

أو تشبيه للهدى من حيث إنه محفوف بظلمات أوهام الناس وخيالاتهم بالمصباح، وإنما ولـي الكاف المشكاة لاشتمالها عليه، وتشبيهـه به أوفق من تشبيـهـه بالشمس.

أو تمثيل لما نور الله به قلب المؤمن من المعارف والعلوم بنور المشكاة المنبث فيها من مصباحها^(٢).

فالهـى أو نور الله الذى يقذـه فى قلب المؤمن هي أمور عقلية شـبهـها الله فى هذه الآية بالـمـصـبـاحـ، وهو مـحسـوسـ، لتـكونـ هـذهـ الآـيـةـ مـثـالـ علىـ تـشـبـيهـ الـمـعـقـولـ بـالـمـحـسـوسـ.

ويقول أبو السعود عن قوله تعالى: (وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالُ لِلنَّاسِ) التي ختم الله بها الآية السابقة: وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالُ لِلنَّاسِ في تضاعيف الهدایة حسبما يقتضي حآلهم فإنَّ له دخلاً عظيماً في باب الإرشاد لأنَّه إبراز لِلْمَعْقُولِ في هيئة المحسوس وتصوير لِأَوَابِدِ المعاني بصورة المأْنوس ولذلك مُثُلَّ نورُه المعبر به عن القرآن المُبَيِّن بنور المشكاة^(٣).

(١) انظر: مفاتيح الغيب: ٢٦/٣٣٧

(٢) تفسير البيضاوى: ٤٩٨/٢

(٣) تفسير أبي السعود: ٦/١٧٧

٥. تشبيه المفرد بالفرد:

والمراد بقولنا مفرد ومركب: أن المفرد يكون تشبيه شيء واحد بشيء واحد، وهو من التشبيه الذي يأتي باعتبار طرفي التشبيه إذ ينقسم إلى: (تشبيه مفرد بمفرد، ومفرد بمركب، ومركب بمركب، ومركب بمفرد).

فمن تشبيه المفرد بالمفرد قوله تعالى: ﴿مَنَّاهُمْ كَمَنِلَ الَّذِي أَسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَرَكَبُهُمْ فِي ظُلْمَتِ لَا يَبْصِرُونَ﴾ البقرة: ١٧ قال البيضاوي رحمه الله: والظاهر أن التمثيلين من جملة التمثيلات المؤلفة، وهو أن يشبه كيفية منتزعة من مجموع تضامن أجزاؤه وتلاصقت حتى صارت شيئاً واحداً بأخرى مثلاً... والغرض منها تمثيل حال المنافقين من الحيرة والشدة، بما يكابد من انطفأ ناره بعد إيقادها في ظلمة... ويمكن جعلهما من قبيل التمثيل المفرد، وهو أن تأخذ أشياء فرادى فتشبهها بأمثالها كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظَّلَمَنْتُ وَلَا الْثُورُ﴾ فاطر: ١٩ - ٢١ ، وقول أمرى القيس:

لَدَى وَكِرْهَا العَنَّابُ وَالْحَسْفُ الْبَالِي
كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا

بأن يشبه في الأول: ذوات المنافقين بالمستوقدin، وإظهارهم الإيمان باستيقاد النار وما انتقعوا به من حقن الدماء وسلامة الأموال والأولاد وغير ذلك بإضاءة النار ما حول المستوقدin، وزوال ذلك عنهم على القرب بإهلاكهم وبإفشاء حالهم وإيقائهم في الخسار الدائم، والعذاب السرمد بإطفاء نارهم والذهاب بنورهم^(١).

فالبيضاوي رحمه الله يرى أن هذه الآية هي من التشبيه المركب الذي سماه (بالتشبيهات المؤلفة) فالله عز وجل شبه المنافقين بحال الذين استوقدوا ناراً، وكان من صفتهم أنهم في النهاية ذهب الله بنورهم، والمشبه به هنا مركب.

ويرى كذلك أن الآية تحتمل أن تكون من تشبيه المفرد بالمفرد إذ يقول: أنه شبه (ذوات المنافقين بالمستوقدin)، دون النظر إلى صورة وحالة هؤلاء المستوقدin، وهنا يصح أن يكون من تشبيه المفرد بالمفرد على هذا التأويل.

ويعتبر البيضاوي قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظَّلَمَنْتُ وَلَا الْثُورُ﴾ فاطر: ١٩ - ٢١، من التشبيه المفرد، ويقول في تعليقه على هذه الآية: (وما

(١) تفسير البيضاوي: ٥٨/١

يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ) الكافر والمؤمن... (وَلَا الظُّلْمَاتُ وَلَا النُّورُ) ولا الباطل ولا الحق. (وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ) ولا الثواب ولا العقاب (وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ) تمثيل آخر للمؤمنين والكافرين أبلغ من الأول ولذلك كرر الفعل^(١).

قد يسأل سائل كيف يعتبر البيضاوي هذه التشبيهات كلها من تشبيه المفرد بالمفرد، وقد طُوي ذكر المشبهات، وصرّح بالمشبهات بها، فوجب لذلك أن نعتبرها استعارات تصريحية لا تشبيهات مفردة.

والصحيح أن التشبيه الذي يُحذف منه المشبه يشتبه بالاستعارة التصريحية حقيقة، لكن شيخ البلاغة الإمام عبد القاهر الجرجاني وضح لنا الفرق بينهما ومتي نعتبر التشبيه المحذوف منه المشبه تشبيهاً بلغاً ومتي نعتبره استعارة تصريحية، ووضع لذلك أساساً للتقرير بينهما وهي^(٢):

أولاً: إن حسن دخول أدوات التشبيه على المشبه به، بأن يكون معرفة، فإنه يكون تشبيهاً بلغاً ولا يكون استعارة البتة، مثل: زيد الأسد، وهي شمس النهار.

ثانياً: إن حسن دخول بعض أدوات التشبيه على المشبه به، وتعذر دخول البعض الآخر، وكان المشبه به نكرة، فإنه جاز عده من الاستعارة، نحو: زيد أسد، وهي شمس، فإنه لا يحسن أن يقال: زيد كأسد، وحسن أن نقول: كأن زيداً أسد.

ثالثاً: وإذا لم يحسن دخول شيء منها على المشبه به بأن يكون نكرة موصوفة بما لا يلائم المشبه به كان عده من الاستعارة أحسن كقولك: فلان بدر يسكن الأرض، وشمس لا تغيب، فإنه لا يحسن دخول شيء من الأدوات فيها إلا بتغيير صورته كقولك: فلان كالبدر إلا أن يسكن الأرض، وهي كالشمس إلا أنها لا تغيب.

وواضح أن المشبهات بها في آية: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾١﴿ وَلَا الظُّلْمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴾٢﴿ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴾٣﴿ فاطر: ١٩ - ٢١، كلها معارف يحسن دخول أدوات التشبيه عليها فيجب عدها حينها من التشبيهات المفردة كما أوضح البيضاوي وليس من الاستعارة، وبهذا يكون قد زال الاشتباه ورفع الالتباس.

(١) تفسير البيضاوي: ١١٩/٣

(٢) من بلاغة القرآن: أ.د. محمد علوان، وأ.د. نعمان علوان ، ص ٢٢٨-٢٢٩ . راجع أسرار البلاغة: ٣٢٠ وما بعدها.

والبيضاوي نفسه يتطرق إلى قضية التشبيه والاستعارة وأنهما وإن اشتباها عند حذف المشبه إلا أنه يمكن فض الاشتباه وذلك إذا أمكن تقدير المشبه وكان في حكم المنطوق كما أشار عبد القاهر الجرجاني فيما تقدم، ونرى ذلك عند البيضاوي في قوله تعالى: ﴿صُّمْ بَكُّمْ عُمِّيْ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ البقرة: ١٨.

قال البيضاوي رحمه الله: (صُّمْ بَكُّمْ عُمِّيْ) لما سدوا مسامعهم عن الإصاحة إلى الحق وأبوا أن ينطقوا به ألسنتهم ويتبرصوا الآيات بأبصارهم، جعلوا لأنما أيفت مشاعرهم وانتفت قواهم... وإطلاقها عليهم على طريقة التمثيل، لا الاستعارة إذ من شرطها أن يطوي ذكر المستعار له، بحيث يمكن حمل الكلام على المستعار منه لو لا القرينة كقول زهير:

لَهُ لِبْدٌ أَطْفَارُهُ لَمْ تُقْلِمْ
أَدَى أَسِدٍ شَاكِي السِّلَاحِ مُقْدَّفٍ

وها هنا وإن طوى ذكره بحذف المبتدأ لكنه في حكم المنطوق به، ونظيره:

أَسَدٌ عَلَيَّ وَفِي الْحُرُوبِ نَعَامَة
فَتْخَاءُ تَنَفَّرُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ^(١).

٦. تشبيه المركب بالمركب:

وهو من التشبيه الذي يقسم باعتبار الإفراد والتركيب والتعدد، ويسميه البيضاوي بـ(التشبيه المؤلف)، حيث يقول عند تعرضه لقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثْلِ الَّذِي أَسْتَوْدَ نَارًا فَلَمَّا أَصَابَهُنَّ مَا حَوَلَهُمْ
ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَرَجَعُوكُمْ فِي ظُلْمَدَنٍ لَا يَبْصِرُونَ﴾ البقرة: ١٧، ولقوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَبَبْتِ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ
ظُلْمَدَنٍ وَرَغْدَ وَرَبْقٍ يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِي إِذَا هُمْ مِنَ الضَّوْعِي حَذَرَ الْمَوْتَ وَاللَّهُ يُحِيطُ بِالْكَافِرِونَ﴾ البقرة: ١٩.

يقول البيضاوي رحمه الله: الظاهر أن التمثيلين من جملة التمثيلات المؤلفة، وهو أن يشبه كيفية منترعة من مجموع تضامت أجزاءه وتلاصقت حتى صارت شيئاً واحداً بأخرى منها، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حَمِلُوا الْتَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ الآية. الجمعة: ٥.^(٢)

ونأخذ من كلام القاضي البيضاوي رحمه الله تعريفاً لتشبيه المركب بالمركب إذ يعرفه بأنه: (أن يشبه كيفية منترعة من مجموع تضامت أجزاءه وتلاصقت حتى صارت شيئاً واحداً بأخرى منها).

(١) تفسير البيضاوي: ٥٤/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٥٨/١

أما فيما يخص الآية التي مثل بها البيضاوي لتشبيه المركب بالمركب وهي قوله تعالى:

﴿مَثُلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرِيدَةَ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثْلِ الْحَمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا لَنْسَ مَثُلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَيْنِتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّلَمِينَ﴾ الجمعة: ٥، قال البيضاوي عنها: فإنه تشبيه حال اليهود في جهلهم بما معهم من التوراة، بحال الحمار في جهله بما يحمل من أسفار الحكمة. والغرض منها تمثيل حال المنافقين من الحيرة والشدة، بما يكابد من انطفأفات ناره بعد إيقادها في ظلمة، أو بحال من أخذته السماء في ليلة مظلمة مع رعد قاسف وبرق خاطف وخوف من الصواعق^(١).

ومن تشبيه المركب بالمركب قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثُلُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا كَمَثْلِ أَنْزَلَنَا مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْنَطَ بِهِ بَأْثَرَ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَمُ حَتَّى إِذَا أَخْدَتِ الْأَرْضُ زُمْرُفَهَا وَأَزْيَّنَتْ وَظَرَبَ أَهْلَهَا أَنَّهُمْ قَدْرُونَ عَلَيْهَا أَنَّهَا أَمْرٌ نَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَانَ لَمْ تَفْنِ إِلَّا أَنْتِسَ كَذَلِكَ فَنَصَّلُ الْآيَتِ لِقَوْمٍ يَنْفَكِّرُونَ﴾ يومن: ٢٤.

قال البيضاوي رحمه الله: هو مثُل في الوقت القريب والمُمثَّل به مضمون الحكاية وهو زوال خضرة النبات فجأة وذهابه حطاماً بعد ما كان غضاً والنف، وزين الأرض حتى طمع فيه أهله وظنوا أنه قد سلم من الجواب لا الماء وإن وليه حرف التشبيه لأنَّه من التشبيه المركب^(٢).

وقد علق ابن الأثير على التشبيه في هذه الآية فقال: فشيَّهَتْ حال الدنيا في سرعة زوالها، وانقراض نعيمها بعد الإقبال بحال نبات الأرض في جفافه، وذهابه حطاماً بعدما التفت وتکائف، وزين الأرض. وذاك تشبيه صورة بصورة، وهو من أبدع ما يجيء في بابه^(٣).

من أنواع التشبيه في تفسير البيضاوي:

١. التشبيه البليغ:

وهو تشبيه خُذف منه الأداة ووجه الشبه، ويُعتبر من أكثر الأنواع بلاغة^(٤)

مثاله قوله تعالى: ﴿وَبَيْرِ الَّذِينَ مَا مَنُوا وَعَمِلُوا الصَّدَقَاتِ أَنَّهُمْ جَنَّتُتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا أَلَانَهُرُ كُلَّمَا رُزْقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنْتُمْ بِهِ مُتَشَبِّهُمَا وَلَهُمْ فِيهَا آزْوَاجٌ مُطْهَرَةٌ وَهُنْ

(١) تفسير البيضاوي: ٤٠٥/٣

(٢) تفسير البيضاوي: ٩٧/٢

(٣) المثل السائر: ١١٠/٢

(٤) من بلاغة القرآن: أ.د. محمد علوان، وأ.د. نعمان علوان ، ص ١٧٦ بتصريف

فِيهَا خَلَدُوكَ ﴿٢٥﴾ البقرة: ٢٥، قال البيضاوي رحمه الله: فالمعنى هذا مثل رزقنا ولكن لما استحکم الشبه بينهما جعل ذاته ذاته كقولك: أبو يوسف أبو حنيفة^(١).

فالبيضاوي رحمه الله بقوله: (ولكن لما استحکم الشبه بينهما جعل ذاته ذاته كقولك: أبو يوسف أبو حنيفة)، يشير إلى التشبيه البليغ، وهو لاستحکام الشبه بين المشبه والمشبه به تحذف أداة التشبيه حتى يصيران كأنهما شيئاً واحداً، لذلك يُعد هذا النوع أبلغ أنواع التشبيه.

ونرى السيوطي في حاشيته على تفسير البيضاوي يُعلق على كلام البيضاوي السابق بقوله: والذي ذهب إليه المصنف تشبيه بلغ بحذف الأداة ووجه الشبه^(٢).

والسبب في كون التشبيه البليغ أبلغ أنواع التشبيه لأنه يشير إلى اتفاق كامل بين المشبه والمشبه به كأنهما شيء واحد كما عبر عنه البيضاوي بقوله: (جعل ذاته ذاته)، ولهذا يقول العلوي في الطراز: "اعلم أن التشبيه المضرمر الأداة أبلغ وأوجز من التشبيه الذي ظهرت أداته، أما كونه أبلغ فلأنك إذا قلت: زيد الأسد، فقد جعلته نفس هذه الحقيقة، من غير واسطة، بخلاف قولك زيد كالأسد، فليس يفيد إلا مطلق المشابهة لا غير، وأما كونه أوجز، فلأن أداة التشبيه محذوفة منه، فلهذا كان أقصر من جهة لفظه"^(٣).

ومن التشبيه البليغ قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعَدَتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ آل عمران: ١٣٣، قال البيضاوي رحمه الله: (وَجَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ) أي عرضها كعرضهما، وذكر العرض للبالغة في وصفها بالسعة على طريقة التمثيل، لأنه دون الطول^(٤).

فهذا تشبيه بلغ أشار إليه البيضاوي بقوله: (عرضها كعرضهما)، "فلما كان العرض عادة أضيق من الطول ترك للخيال أمر تصور طول يكون عرضه السماوات والأرض"^(٥).

(١) تفسير البيضاوي: ٧٠/١

(٢) نوادر الأباء: ١٣٢/٢

(٣) الطراز: ١٦١/١

(٤) تفسير البيضاوي: ٢٩٦/١

(٥) من بلاغة القرآن لأحمد البدوي: ٢٢٧

٢. التشبيه الضمني:

هو ما لم يُصرّح فيه بأركان التشبيه على الطريقة المعلومة، بل يفهم من معنى الكلام وسياق الحديث^(١).

ومما جاء في القرآن على هذا النوع من التشبيهات قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ الَّذِينَ شَقَّوْا فِي النَّارِ لَمْ يُمْكِنْ فِيهَا رَفِرْ وَسَهِيقٌ﴾^(٢) ١٦٦ حَدَّلَهُ اللَّهُ عَزَّ ذَلِكَ عَلَى مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾^(٣) ١٧٧ هود: ١٠٦ - ١٠٧ ، قال البيضاوي رحمه الله: (خالدٰينٰ فيهما ما دامت السماوات والأرض) ليس لارتباط دوامهم في النار بدوامهما فإن النصوص دالة على تأييد دوامهم وانقطاع دوامهما. بل التعبير عن التأييد والمبالغة بما كانت العرب يعبرون به عنه على سبيل التمثيل... لأنه تشبيه بما لا يعرف أكثر الخلق وجوده ودوامه، ومن عرفه فإنما يعرفه بما يدل على دوام الثواب والعقباب^(٤).

وقد علق الشهاب الخاجي في حاشيته على قول البيضاوي: (لأنه تشبيه بما لا يعرف أكثر الخلق وجوده ودوامه)، قال الشهاب: قيل إنه يعني أن في الكلام تشبيهاً ضمنياً لدوامهم بدوامهما، وإن كان بحسب الإعراب ظرفاً لخالدين، ولا بد أن يكون المشبه به أعرف ليفيد التشبيه، ويحصل الغرض منه^(٥)

أما ابن عاشور فقد قال في هذه الآية: ومعنى (ما دامت السماوات والأرض) التأييد لأنه جرى مجرى المثل، وإلا فإن السماوات والأرض المعروفة تضمحل يومئذ، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾^(٦) إبراهيم: ٤٨

ومن التشبيه الضمني قوله تعالى: ﴿يَكَاهُهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَجْتَبُوا كَيْرًا مِنَ الظُّنُنِ إِنَّ بَعْضَ الظُّنُنِ إِنَّمَا وَلَا يَعْلَمُوا وَلَا يَنْتَبِطُ بِمَضْكُمْ بَعْضًا أَيْحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلْ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتَانَ كَهْرِبَهُتُوهُ وَلَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾^(٧) الحجرات: ١٢ ، قال البيضاوي رحمه الله: (أَيْحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلْ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتَانَ) تمثيل لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفحش وجه مع مبالغات الاستفهام المقرر، وإسناد الفعل

(١) علوم البلاغة للمراغي: ٢٣٤

(٢) تفسير البيضاوي: ١٥٠/٢

(٣) حاشية الشهاب: ١٣٧/٥

(٤) التحرير والتوكير: ١٦٥/١٢

إلى أحد للتعريم وتعليق المحبة بما هو في غاية الكراهة، وتمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان وجعل المأكول أخاً وميتاً وتعقيب ذلك بقوله: (فَكَرْهُتُمُوهُ) تقريراً وتحقيقاً لذلك^(١).

فالبيضاوي رحمة الله يشير إلى أن في الآية تشبيهاً وإن لم يصرح بكونه ضمنياً لكنه لما كان التشبيه من التشبيهات التي تقهم بالتمييز دون وجود الأداة كان من التشبيه الضمني.

٣. التشبيه المقلوب:

التشبيه المقلوب: ويسمى المنعكش، هو ما رجع فيه وجه الشبيه إلى المشبه به وذلك حين يراد تشبيه الزائد بالناقص ويلحق الأصل بالفرع للمبالغة، وهذا النوع جار على خلاف العادة في التشبيه، ووارد على سبل الندور وإنما يحسن في عكس المعنى المتعارف كقول البحترى:

في طلعة البدر شيء من محاسنها وللقضيب نصيب من تثنيها

والمتعارف تشبيه الوجوه الحسنة بالبدور، والقامات بالقضيب في الاستقامة، والتّتّي لكنه عكس ذلك مبالغة^(٢)

فعاقد التشبيه قد يحلو له أحياناً أن يجعل المشبه في كلامه مشبهًا به، ويجعل المشبه به مُشبّهًا، ليُدلّ بصنعيه هذا على أنّ وجود وجہ الشبّه في المشبه أقوى وأظہر من وجوده في المشبه به^(٣).

ومن التشبيه المقلوب قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يُؤْمِنُنَّ إِلَّا كَمَا يَأْكُلُونَ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ أَشَيَّطُلُنَّ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مُوَعِّظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَأَنْهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ الْنَّارِ هُمْ فِيهَا خَلِيلُوْنَ﴾ البقرة: ٢٧٥.

قال القاضي البيضاوي رحمة الله: (ذلك بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا) أي ذلك العقاب بسبب أنهم نظموا الربا والبيع في سلك واحد لإفضائهم إلى الربح فاستحلوا استحلاله. وكان الأصل إنما الربا مثل البيع ولكن عكس للمبالغة، لأنهم جعلوا الربا أصلاً وقادوا به البيع^(٤).

(١) تفسير البيضاوي: ٣٠٩-٣٠٨/٣

(٢) جواهر البلاغة: ٢٣٩

(٣) البلاغة العربية لعبد الرحمن الدمشقي: ٢٠١/٢

(٤) تفسير البيضاوي: ٢٣٠/١

فالبيضاوي رحمه الله بقوله: (وكان الأصل إنما الربا مثل البيع ولكن عكس للمبالغة)، يشير إلى التشبيه الذي عُرف بالتشبيه المقلوب، فمن المعلوم أن المشبه به يكون هو الأصل وهو الأتم والأكمل صفة لذلك يُعد إلى التشبيه به، فهم لاعتقادهم أن الربا أتم وأكمل من البيع وأنه هو الأصل عكسوا فقايسوا البيع به ولم يقيسوا بالبيع، وكأنه هو الأصل والبيع هو الفرع، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وقال العلوي في الطراز في هذه الآية: وكان القياس في قولهم: إنما الربا مثل البيع، في تحليله إغراقاً منهم في المبالغة، وذهبوا إلى أن الربا في باب الحل أدخل من البيع وأقوى حالاً، وهذا من أنواع التشبيه يلقب بالمعكوس، ولهذا يقال: صبح كفراً الفرس، ويقال في عكسه أيضاً: غرة كالصبح^(١)

ومن التشبيه المقلوب في كتاب الله عز وجل قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَدَّكِرُونَ﴾ النحل: ١٧ ، قال البيضاوي رحمه الله: وكان حق الكلام (أفمن لا يخلق كمن يخلق)، لكنه عكس تتبيناً على أنهم بالإشراك بالله سبحانه وتعالى جعلوه من جنس المخلوقات العجزة شبيهاً بها^(٢).

فإن مقتضى الظاهر العكس؛ لأن الخطاب للذين عبدوا الأوثان وسمّوها آلهة تشبيهها بالله سبحانه وتعالى؛ فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق، فخولف في خطابهم؛ لأنهم بالغوا في عبادتها؛ وغلوا حتى صارت عندهم أصلاً في العبادة والخالق سبحانه وتعالى فرعاً، فجاء الإنكار على وفق ذلك^(٣).

(١) الطراز: ١٤٦/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٢٥٦/٢

(٣) بغية الإيضاح: ٤٢٠-٤١٩/٣

المبحث الثاني: المجاز

الماهِرُ لِغَةً:

الماهِرُ لِغَةً: جُرْثُ الطَّرِيقِ وجَازَ المَوْضِعَ جَوْزًا وَجُوْزًا وَجَوَازًا وَمَجَازًا وجَازَ بِهِ وجَوَازُهُ جَوَازًا وأَجَازَهُ وَأَجَازَهُ عِيَّرَهُ وجَازَهُ سَارَ فِيهِ وَسَلَكَهُ^(١)

والماهِرُ اسْمَ الْمَكَانِ الَّذِي يَجَازُ فِيهِ كَالْمَعَاجِ وَالْمَزَارِ وَأَشْبَاهِهِمَا، وَحَقِيقَتُهُ هِيَ الانتِقالُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرٍ. وَقَدْ تَحدَثَ الْبَلَاغِيُونَ وَالنَّقَادُ عَنْ هَذَا الْفَنِ فِي كِتَابِهِمْ وَسَمِيَّ أَبُو عَبِيدَةَ أَحَدَ كُتُبِهِ "ماهِرُ الْقُرْآنِ" وَعَالَجَ فِيهِ كِيفِيَّةَ التَّوْصِلِ إِلَى فَهْمِ الْمَعَانِي الْقُرْآنِيَّةِ بِاحْتِنَاءِ أَسَالِيبِ الْعَرَبِ فِي كَلَامِهِمْ وَسَنَنِهِمْ فِي وَسَائِلِ الإِبَانَةِ عَنِ الْمَعَانِيِّ، وَلَمْ يَعْنِ بِالْمَجَازِ مَا هُوَ قَسِيمُ الْحَقِيقَةِ وَإِنَّمَا عَنِ بِمَجَازِ الْآيَةِ مَا يَعْبُرُ بِهِ عَنِ الْآيَةِ^(٢).

وَقَدْ تَكلَّمَ عَبْدُ الْقَاهِرِ الْجَرجَانِيَّ عَنِ الْمَجَازِ فَقَالَ: الْمَجَازُ مَفْعَلٌ مِنْ جَازَ الشَّيْءَ يَجُوزُهُ، إِذَا تَعَدَّاهُ، وَإِذَا عُدَلَّ بِاللِّفْظِ عَمَّا يَوْجِبُهُ أَصْلُ الْلِّغَةِ، وُصُفِّ بِأَنَّهُ مَجَازٌ، عَلَى مَعْنَى أَنَّهُمْ جَازُوا بِهِ مَوْضِعَهُ الْأَصْلِيِّ، أَوْ جَازَ هُوَ مَكَانُهُ الَّذِي وُضِعَ فِيهِ أَوَّلًا^(٣).

الماهِرُ اصطلاحًا:

وَالتعريفاتُ السَّابِقةُ لِلْمَجَازِ هِيَ تَعرِيفَاتٌ يُقصَدُ بِهَا الْمَجَازَ بِمَعْنَاهُ الْلُّغُوِيِّ لَا الْاصْطَلاحيِّ، فَالْمَجَازُ الْاصْطَلاحيُّ نَرَى الشِّيخُ عَبْدُ الْقَاهِرِ الْجَرجَانِيَّ يَعْرِفُهُ بِأَنَّهُ: فَكُلُّ كَلْمَةٍ أُرِيدُ بِهَا غَيْرَ مَا وَقَعَتْ لَهُ فِي وَضْعِ وَاضْعَافِهَا، لِمَلَاحِظَةِ بَيْنِ الثَّانِيِّ وَالْأَوَّلِ، فَهِيَ مَجَازٌ وَإِنْ شَئْتَ قُلْتَ: كُلُّ كَلْمَةٍ جُرْثُ بِهَا مَا وَقَعَتْ بِهِ فِي وَضْعِ الْوَاسِعِ إِلَى مَا لَمْ تَوَضَّعْ لَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ تَسْتَأْنَفَ فِيهَا وَضِعَاءً، لِمَلَاحِظَةِ بَيْنِ مَا تُجُوزُ بِهَا إِلَيْهِ، وَبَيْنِ أَصْلَهَا الَّذِي وُضِعَتْ لَهُ فِي وَضْعِهَا، فَهِيَ مَجَازٌ^(٤).

أَمَّا السَّكَاكِيُّ فَقَدْ عَرَفَهُ بِأَنَّهُ: الْكَلْمَةُ الْمُسْتَعْمَلَةُ فِي غَيْرِ مَا هِيَ مَوْضِعُهُ لَهُ بِالْتَّحْقِيقِ اسْتَعْمَالًا فِي الْغَيْرِ بِالنَّسَبَةِ عَلَى نَوْعِ حَقِيقَتِهَا مَعَ قَرِينَةٍ مَانِعَةٍ عَنِ إِرَادَةِ مَعْنَاهَا فِي ذَلِكَ النَّوْعِ...

(١) لسان العرب (جوز): ٣٢٦/٥

(٢) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: أحمد مطرب: ٣/ص ١٩٣، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٧ هـ، ١٩٨٧ م.

(٣) أسرار البلاغة: ٣٩٥

(٤) أسرار البلاغة: ٣٥٢



ولك أن تقول المجاز هو الكلمة المستعملة في غير ما تدل عليه بنفسها دلالة ظاهرة استعمالاً في الغير بالنسبة على نوع حقيقتها مع قرينة مانعة عن إرادة ما تدل عليه بنفسها في ذلك النوع^(١)

أما العلوى فقال: وأحسن ما قيل فيه: ما أفاد معنى غير مصطلح عليه في الوضع الذي وقع فيه التخاطب لعلاقة بين الأول والثاني^(٢)

وخلاصة القول فإن المجاز: هو استخدام الكلمة في غير ما وضعت له علاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي^(٣)

ويقسم المجاز إلى مجاز عقلي ومجاز مرسل.

المطلب الأول: المجاز العقلي:

ويسمى بمجاز الإسناد، ويعرف بأنه: إسناد الفعل أو معناه إلى ملابس له غير ما هو له بتاؤل^(٤)

وقيل هو: إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له في الظاهر من حال المتكلم لملابسية مع قرينة صارفة عن أن يكون الإسناد إلى ما هو له^(٥)

وقد أشار البيضاوي في تفسيره أنوار التزييل وأسرار التأويل إلى المجاز العقلي، وسمّاه بـ"الإسناد المجازي" وبين كثيراً من العلاقات والملابسات التي يأتي عليها

علاقات المجاز العقلي في تفسير البيضاوي:

١. الزمانية:

حيث يُسند الفعل أو ما في معناه إلى الزمن الذي وقع فيه، وذلك كقول الله تعالى: ﴿تَنِّي يَوْمَ الْبَيْتِ﴾ الفاتحة: ٤، قال البيضاوي رحمه الله: أضاف اسم الفاعل إلى الظرف إجراء له

(١) مفتاح العلوم: ٣٥٩-٣٦٠

(٢) الطراز: ٣٦/١

(٣) من بلاغة القرآن: أ.د. محمد علوان، وأ.د. نعمان علوان، ص ١٩٨

(٤) الإيضاح: ٨٢-٨٦/١

(٥) علوم البلاغة للمراغي: ٢٩١

جرى المفعول به على الاتساع كقولهم: يا سارق الليلة أهل الدار، ومعناه: (ملك الأمور يوم الدين) ^(١).

ومن الإسناد المجازي لعلاقة الزمان قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شَدَادٌ يَأْكُلُنَّ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مَّا تَحْصِنُونَ﴾ ^(٤٨) يوسف: ٤٨، قال البيضاوي رحمه الله: (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شَدَادٌ يَأْكُلُنَّ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ) أي يأكل أهلهن ما أدخلتم لأجلهن فأنسد إليهن على المجاز تطبيقاً بين المعبر والمعبر به ^(٢).

فقال: (يأكلن) والمعنى يأكل الناس فيهن، فأنسد الفعل إلى الزمن، وهو السنوات السبعة، على المجاز العقلي لعلاقة الزمانية.

ومنه قوله تعالى: ﴿الَّهُ أَذْنِى جَعَلَ لَكُمْ أَيْلَلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ ^(٦١) غافر: ٦١، قال البيضاوي رحمه الله: (وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا) يبصر فيه أو به، وإسناد الإبصار إليه مجاز فيه مبالغة ^(٣).

٢. المكانية:

يسند الفعل أو ما في معناه إلى المكان الذي وقع فيه، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَلْمُوسُنَّ لَنَ تَضِيرَ عَلَى طَعَامِ وَجِدِ فَانْدُ لَنَارِيَكَ يُخْرِجُ لَنَارِيَكَ مِمَّا تُنْتِي لَأَرْضُ مِنْ بَقِيلِهَا وَقَشَابِهَا وَفُورِمَهَا وَعَدَسَهَا وَبَعَصِيلَهَا﴾ ^(٦٢) البقرة: ٦١، قال البيضاوي رحمه الله: (مِمَّا تُنْتِي لَأَرْضُ) من الإسناد المجازي، وإقامة القابل مقام الفاعل ^(٤).

فالأرض وإن كانت مكاناً للزرع والإنبات لكنها ليست هي المنبطة على الحقيقة، بدليل أن كثيراً من الأراضي جرداً قاحلة، لا تنبت ولا تتمر، لذلك فهو إسناد مجاري أنسد فيه الفعل إلى الأرض، والمنبت الحقيقي هو الله عز وجل لقوله: ﴿وَالأَرْضَ مَدَدَنَاهَا وَأَنْتَنَا فِيهَا رَوْسَى وَأَنْبَتَنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْرِنِ﴾ ^(٦٣) الحجر: ١٩، وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاهِهَ مُبَرِّكًا فَأَنْبَتَنَا بِهِ جَنَّتِ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ ^(٦٤) ق: ٩.

(١) تفسير البيضاوي: ١٤/١

(٢) تفسير البيضاوي: ١٧٦/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ٢١٤/٣

(٤) تفسير البيضاوي: ١٠٥/١

ومنه قوله تعالى: ﴿يَصَدِّحُونَ السِّجْنَ مَأْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أُمَّةُ اللَّهِ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٢٩) يوسف: ٣٩، قال البيضاوي رحمه الله: (يا صاحبِي السِّجْنِ) أي يا ساكنيه، أو يا صاحبي فيه فأضافهما إليه على الاتساع كقوله: يا سارِقَ اللَّيْلَةَ أَهْلَ الدَّارِ^(١).

فقد أنسد الأصحاب إلى السجن وقصد أن يسند نفسه إلى الأصحاب، فيقول: (يا صاحبَي في السجن)، فعدل عن ذلك إلى الإسناد إلى السجن لأن المكان الذي اجتمعوا فيه.

ومن الإسناد إلى المكان قوله تعالى: ﴿فَالَّرَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظُمُ مَنِي وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَكِيبًا وَأَمَّ أَكْثُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّي شَقِيقًا﴾ (٤) مريم: ٤، قال البيضاوي رحمه الله: أنسد الاشتغال إلى الرأس الذي هو مكان الشيب مبالغة^(٢)

ومنه قوله تعالى: ﴿وَبَيْتُرَ الَّذِينَ أَمْتَنُوا وَعَمِلُوا الصَّدَقَاتِ أَنَّهُمْ جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ البقرة: ٢٥، قال البيضاوي رحمه الله: (تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) أي من تحت أشجارها، كما تراها جارية تحت الأشجار النابتة على شواطئها... والنهر بالفتح والسكون: المجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر، كالنيل والفرات، والتركيب للسعة، والمراد بها ما ورثها على الإضمار، أو المجاز، أو المجرى أنفسها. وإن سند الجري إليها مجاز كما في قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَنْقَالَهَا﴾ (٦) الزلزلة: ٦

فأسند الجري إلى الأنهر، والنهر هو المكان الذي يجري فيه الماء، فذلك فالماء هو الذي يجري، وليس النهر، فيكون هذا إسناداً مجازياً علاقته المكانية.

٣. المصدرية:

حيث يُسند الفعل إلى المصدر بدلاً من الفاعل، وذلك كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُتِّلَ فِي الصُّورِ نَفَخْتُهُ وَجِدَةً﴾ (١٣) الحاقة: ١٣، قال البيضاوي رحمه الله: (فَإِذَا قُتِّلَ فِي الصُّورِ نَفَخْتُهُ وَاحِدَةً) لما بالغ في تهويل القيامة وذكر مآل المكذبين بها تقحيمًا لشأنها وتتببيها على مكانها عاد إلى شرحها، وإنما حسن إسناد الفعل إلى المصدر لتقيده^(٤).

(١) تفسير البيضاوي: ١٧٣/٢

(٢) تفسير البيضاوي: ٣٦٠/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ٧٠-٦٩/١

(٤) تفسير البيضاوي: ٤٤٠/٣

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿قَالَ يَنْتَنِجُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ هود: ٤٦ ، قال البيضاوي رحمه الله: (إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ) فإنه تعلييل لنفي كونه من أهله، وأصله إنه ذو عمل فاسد فجعل ذاته ذات العمل للمبالغة كقول النساء تصف ناقة:

ترتع مَا رتعت حَتَىٰ إِذَا اذْكَرْتَ فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ^(١).

فابن نوح عليه السلام كان مغرقاً في الفساد وفي العمل غير الصالح لذلك أسنده إلى المصدر والمقصود به ابن نوح عليه السلام، لإفادته كونه ليس فيه صلاحاً البتة، مما يستوجب هلاكه.

والبيت الذي استشهد به البيضاوي الشاهد فيه: (فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ)، استشهد به شيخ البلاغة عبد القاهر الجرجاني على المجاز وقال: وذاك أنها لم تُرِدْ بالإقبال والإدبار غير معناهما، فتكون قد تجوزت في نفس الكلمة، وإنما تجوزت في أن جعلتها لكتراً ما تُقْبَلُ وَتُدْبَرُ، ولغلبة ذاك عليها واتصاله منها، وإنه لم يكن لها حال غيرها، لأنها قد تجسست من الإقبال والإدبار^(٢).

٤. المفعولية:

وذلك نحو قوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ الحاقة: ٢١ والقارعة: ٧، قال البيضاوي رحمه الله في آية الحاقة: (فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ) ذات رضا على النسبة بالصيغة. أو جعل الفعل لها مجازاً وذلك لكونها صافية عن الشوائب دائمة مقرونة بالتعظيم^(٣).

وقال البيضاوي في موضع سورة القارعة: (فَهُوَ فِي عِيشَةٍ) في عيش. (رَاضِيَةٍ) ذات رضا أو مرضية.

فقد تم الإسناد إلى صيغة اسم الفاعل وقصد أن يسند إلى اسم المفعول وذلك على سبيل المجاز، "ف(راضية)": اسم فاعل، وقد جاء في هذا التعبير القرآني إسناد الرضا في كلمة "راضية" إلى العيشة، مع أن الراضي هو صاحب العيشة، إذ يرضى عن عيشه الحسنة، فالعيشة في الحقيقة مرضية. والعلاقة التي صحّت استخدام هذا المجاز العقلي كون العيشة محطة بحياة صاحبها، ورضاها بها يُشيع الرضا في كلّ ما يحيط به.

(١) تفسير البيضاوي: ١٣٣/٢

(٢) دلائل الإعجاز: ٣٠١

(٣) تفسير البيضاوي: ٤٤٢/٣

والتحليل النفسي لهذا يكشف أنَّ من كان سعيداً فإنَّه يرى الدنيا كلَّها من حوله سعيدة، ومن كان حزيناً فإنَّه يرى الدنيا كلَّها من حوله حزينة، وهكذا^(١).

ومثال الاسناد المجازي إلى صيغة اسم الفاعل ويقصد بها اسم المفعول قوله تعالى: ﴿قَالَ سَوَاءٌ إِلَى جَبَلٍ يَعْصُمُ فِي مِنَ الْكُلِّ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ هود: ٤٣، قال البيضاوي رحمه الله: (قال لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ) رد بذلك أن يكون اليوم معتصم من جبل ونحوه يعصم اللائذ به إلا معتصم المؤمنين وهو السفينة. وقيل: (لا عاصم) بمعنى لا ذا عصمة كقوله: (في عيشة راضية)^(٢).

٥. الفاعلية:

حيث يُسند الفعل إلى صيغة اسم المفعول ويراد اسم الفاعل وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأَتَ الْقُرْآنَ جَعَلَنَا بَيِّنَكَ وَبَيِّنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ الإسراء: ٤٥، قال البيضاوي رحمه الله: (مستوراً) ذا ستراً كقوله تعالى: (وَعَدْهُ مَأْتِيًّا) وقولهم: سيل مفعم، أو مستوراً عن الحس^(٣).

فقد أُسند الفعل إلى صيغة اسم المفعول (مستوراً)، وأراد اسم الفاعل (ساتراً).

٦. السببية:

حيث يُسند الفعل إلى السبب الذي أدى إلى الفعل، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتَ شُورَةً فِيهِمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَامَّا الَّذِينَ مَاءَمُوا فَزَادُوهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبِّشُونَ﴾ التوبة: ١٢٤، وكقوله تعالى أيضاً: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءً إِلَّا فِرَارًا﴾ نوح: ٦.

قال البيضاوي رحمه الله: (فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا) عن الإيمان والطاعة، وإسناد الزيادة إلى الدعاء على السببية كقوله: (فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا)^(٤).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَا جَعَلْنَا عَنْهُمَا سَافَّهَا وَأَنْطَزْنَا عَنْهُمَا حِجَارَةً مِنْ سِجِيلٍ مَنْضُودٍ﴾ هود: ٨٢، قال البيضاوي رحمه الله: (فلما جاء أمرنا) عذابنا أو أمرنا به... وكان

(١) البلاغة العربية لعبد الرحمن الدمشقي: ١٩٨/١

(٢) تفسير البيضاوي: ١٣٢/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ٣٠٥/٢

(٤) تفسير البيضاوي: ٤٥١/٣

حقه: (جعلوا عاليها سافلها) أي الملائكة المأمورون به، فأُسند إلى نفسه من حيث إنه المسبب تعظيمًا للأمر^(١).

ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿إِلَّا نَصْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذَا أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ التوبة: ٤، قال البيضاوي رحمه الله: وإن سبب الإخراج إلى الكفرة لأن همهم بإخراجه أو قتله تسبب لإذن الله له بالخروج^(٢).

والمعنى الذي يشير إليه البيضاوي أن ما تعرض له النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين قبل الهجرة في مكة، من تعذيب وشتم وقتل لأصحابه، لم يكن السبب المباشر لإخراجه من مكة، وإنما خرج منها بسبب أن الله أمره بذلك، ولذلك يكون (أخرجه الذين كفروا) إسنادًا مجازيًّا فقد أُسند الإخراج إلى كفار مكة، وهم سبب فيه لكنهم ليسوا المخرجين للنبي على الحقيقة.

وهنا لفتة بديعة إلى مدى الصبر والاحتساب الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم قد وطّن نفسه عليه، ترشدنا إليها بلاغة المجاز العقلي في هذه الآية، فالنبي رغم كل ما تعرض له من سب وشتم وقتل لأصحابه أمم ناظريه، وتعذيب وحرق وكبي، حتى نفسه الشريفة تعرضت للأذى ووضع عليه سلا الجذور، رغم كل هذا لم تكن هذه أسبابًا تدفع النبي للهجرة بل كان مستعدًا للصبر أكثر في سبيل الدعوة، إلا أن هذه كانت أسبابًا غير مباشرة، إذ كان السبب المباشر هو أمر الله له بالهجرة والخروج إلى المدينة.

ومن المجاز العقلي الذي علاقته السببية قوله تعالى: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنِّي خَرَابِنَ اللَّهُ وَلَا آعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَالِكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزَدَّرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِهِمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنَّمَا إِذَا لَيْنَ الظَّالِمِينَ﴾ هود: ٣١، قال البيضاوي رحمه الله: (ولا أقول للذين تزدرى أعينكم) والإزراء به افتعال من زرى عليه إذا عابه... وإن سببه إلى الأعين للبالغة، والتتبّي على أنهم استرزلوهم بادي الرؤية من غير رؤية بما عاينوا من رثاثة حالهم وقلة مثالهم دون تأمل في معانيهم وكمالاتهم^(٣).

فالعيون لا تزدرى ولا تحقر ولا تقل من شأن أحد، لكنها هي السبب وهي التي بواسطتها تحول المشاهدات إلى أفعال قلوب من ازدراء واحقار، وذلك عند من يهتمون بالهياكل والمناظر، وييتاسون البواطن والدخائل، فيكشف لنا المجاز العقلي في هذه الآية إلى أن أهل الدنيا والمشتغلين

(١) تفسير البيضاوي: ١٤٣/٢

(٢) تفسير البيضاوي: ٥٣/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ١٢٩/٢

بها لا يحكمون على الناس إلا بما تراه أعينهم من الظواهر، وما تبدو عليهم من زخارف الدنيا ومتاعها، فهي حث من الله عز وجل لأن يكون المسلم مثالم في الحكم على الناس.

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ أَيَّمٌ قَلْبُهُ﴾ البقرة: ٢٨٣، قال البيضاوي رحمه الله: (وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ أَيَّمٌ قَلْبُهُ) أي يأثم قلبه أو قلبه يأثم... وإن سند الإثم إلى القلب لأن الكتمان مقترفة ونظيره: العين زانية والأذن زانية. أو للبالغة فإنه رئيس الأعضاء وأفعاله أعظم الأفعال، وكأنه قيل: تمكن الإثم في نفسه وأخذ أشرف أجزائه، وفاق سائر ذنوبه^(١).

٧. المحلية:

وفيها يُسند الفعل إلى المحل ويكون المقصود أن يُسند إلى الحال كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ المؤمنون: ١٣، قال البيضاوي رحمه الله: (في قرار مكين) مستقر حسين يعني الرحيم، وهو في الأصل صفة للمستقر وصف به المحل للبالغة كما عبر عنه بالقرار^(٢).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَقْيَضُ مِنْ الدَّمْعِ مَنَاعَهُ قُوَّا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَمَّا فَكَنْتَ بِاَعْلَمَ الْشَّهِيدِينَ﴾ المائدة: ٨٣، قال البيضاوي رحمه الله: (وَإِذَا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَقْيَضُ مِنْ الدَّمْعِ) عطف على لا يَسْتَكْبِرُونَ وهو بيان لرقة قلوبهم وشدة خشيتهم ومسارعتهم إلى قبول الحق وعدم تأييدهم عنه، والفيض انصباب عن امتلاء، فوضع موضع الامتلاء للبالغة، أو جعلت أعينهم من فرط البكاء كأنها تقىض بأنفسها^(٣).

فالعين لا تقىض لأن الفيض معناه انصباب الماء خارجاً، والحقيقة أن الدموع هو الذي يقىض، لذلك كان القياس أن يقال: (ترى أعينهم تقىض بالدموع)، لكنه جاء بما جاء به النظم على سبيل المجاز العقلي الذي علاقته المحلية حيث أُسند فعل الفيضان إلى المحل وهو (العين)، وأراد الحال وهو (الدموع)، وواضح ما فيه من مبالغة والإشارة إلى فرط وشدة خشوع أولئك النفر.

٨. الممالة والموافقة:

حيث يُسند الفعل إلى الذي يرضي به وإن لم يكن هو فعله على الحقيقة، ومعنى الممالة في لسان العرب: وَقَدْ مَا لَأْتُهُ عَلَى الْأَمْرِ مُمَالَةً: سَاعَدْتُهُ عَلَيْهِ وَشَايَعْتُهُ، وَتَمَالَأْنَا عَلَيْهِ: اجْتَمَعْنَا،

(١) تفسير البيضاوي: ٢٣٧/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٤٦٤/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ٤٥٦/١

وَتَمَالُؤُوا عَلَيْهِ: اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ... قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: يُقَالُ لِلنَّاسِ إِذَا تَتَابَعُوا بِرَأْيِهِمْ عَلَى أَمْرٍ قَدْ تَمَالَؤُوا عَلَيْهِ^(١).

ومما جاء من المجاز العقلي على هذه العلاقة أو الملاقبة قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ إِنَّمَا تَنْوِيُوا بِمَا آتَنَّا اللَّهُ قَاتِلُوا نُؤْمِنُ بِمَا آتَنَا اللَّهُ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا أَوْرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ فَلَمْ يَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلٍ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾١١﴾ البقرة: ٩١

قال البيضاوي رحمه الله: (قُلْ فَلَمْ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلٍ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ) اعترض عليهم بقتل الأنبياء مع ادعاء الإيمان بالتوراة والتوراة لا تسوغه، وإنما أسنده إليهم لأنه فعل آبائهم، وأنهم راضون به عازمون عليه^(٢).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهَنَّمَ ﴾ النساء: ١٥٣ ، قال البيضاوي رحمه الله: (فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ) وهذا السؤال وإن كان من آبائهم أسند إليهم لأنهم كانوا آخذين بمذهبهم تابعين لهديهم^(٣).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَّوْا عَنْ أَنْرِيَبِهِمْ وَقَالُوا يَنْصَلِحُ أَثْنَانَا بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ الأعراف: ٧٧ ، قال البيضاوي رحمه الله: (فَعَقَرُوا النَّاقَةَ) فنحروها. أسند إلى جميعهم فعل بعضهم للملقبة، أو لأنه كان برضاههم^(٤).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَفْتُلُوهُ أَوْ حَرِثُوهُ فَأَنْجَهَهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِيَّتَ لِقَوْمٍ يَوْمَئِنُونَ ﴾ العنكبوت: ٢٤ ، قال البيضاوي رحمه الله: (إِلَّا أَنْ قَالُوا افْتُلُوهُ أَوْ حَرِثُوهُ) وكان ذلك قول بعضهم لكن لما قيل فيهم ورضي به الباقيون أسند إلى كلهم^(٥).

٩. الملاقبة:

ومعنى الملاقبة: المُخالطة، واللَّبُسُ واللَّبُسُ: اخْتِلَاطُ الْأَمْرِ^(٦).

(١) لسان العرب (ملا): ١٥٩-١٦٠

(٢) تفسير البيضاوي: ١١٩/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٤٠٦/١

(٤) تفسير البيضاوي: ٥٥٤/١

(٥) تفسير البيضاوي: ٣٣/٣

(٦) لسان العرب (لبس): ٢٠٣-٢٠٤

ويأتي إسناد الفعل إلى غير ما هو له لعلاقة الملاسة أي أن الذي أسنده إليه الفعل ليس هو المسند الحقيقى، وإنما مخالطته ومصاحبته وعلاقته بالمسند أوجبت إسناد الفعل إليه، لصحته وعلاقته القوية بالمسند الحقيقى.

ومثاله قوله تعالى: ﴿يَبْقَىٰ إِنْرَوِيلَ قَدْ أَنْجَيْتُكُمْ مِّنْ عَذَابٍ فَوَاعْدَنَّكُمْ جَانِبَ الظُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلَوَىٰ﴾ طه: ٨٠، قال البيضاوى رحمه الله: (وَوَاعْدَنَاكُمْ جَانِبَ الظُّورِ الْأَيْمَنَ) بمناجة موسى وإنزال التوراة عليه، وإنما عد الموعدة إليهم وهي لموسى، أو له وللسبعين المختارين للملائكة^(١).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿أَتَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طَبَاقًا١٥ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الْشَّمْسَ سَرَّاجًا١٦﴾ نوح: ١٥ - ١٦ ، قال البيضاوى رحمه الله: (أَلَمْ تَرَوا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طَبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا) أي في السماوات وهو في السماء الدنيا وإنما نسب إليهن لما بينهن من الملاسة^(٢).

فالقمر في السماء الدنيا وليس في السماوات أجمع لكن لما كان بين السماوات من اتحاد وكانت كأنها شيء واحد صح الإسناد إلى السماوات أجمعها مجازياً.

١٠. الوصفية:

يسند الفعل أو ما في معناه إلى الوصف ويقصد به المتصف به.

ونذلك قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرِيفًا أَيَّارٍ نَّحَسَاتٍ لِتُذِيقُهُمْ عَذَابَ الْخَزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابَ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾ فصلت: ١٦ ، قال البيضاوى رحمه الله: (لِتُذِيقُهُمْ عَذَابَ الْخَزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أضاف العذاب إلى الخزي وهو الذل على قصد وصفة به لقوله: (ولعذاب الآخرة أخرى) وهو في الأصل صفة المعدب وإنما وصف به العذاب على الإسناد المجازى للمبالغة^(٣).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْتَجِثُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصْنُدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عَوْجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ إبراهيم: ٣ ، قال البيضاوى رحمه الله: (أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ

(١) تفسير البيضاوى: ٣٩٩/٢

(٢) تفسير البيضاوى: ٤٥٢/٣

(٣) تفسير البيضاوى: ٢٢٣/٣

بعيدٍ أي ضلوا عن الحق ووقعوا عنه بمراحل، والبعد في الحقيقة للضلال فوصف به فعله للبالغة، أو للأمر الذي به الضلال فوصف به لملابسته^(١).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُحْشِرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَيِّلًا﴾ الفرقان: ٣٤، قال البيضاوي رحمه الله: ووصف السبيل بالضلال من الإسناد المجازي للبالغة^(٢).

وكذا قوله تعالى: ﴿أَن لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيَسِيرِ﴾ هود: ٢٦ قال البيضاوي رحمه الله: (إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيَسِيرِ) مؤلم وهو في الحقيقة صفة المعدن لكن يوصف به العذاب وزمانه على طريقة جد جده ونهاره صائم للبالغة^(٣).

(١) تفسير البيضاوي: ٢١٤/٢

(٢) تفسير البيضاوي: ٥٢٢/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ١٢٧/٢

المطلب الثاني: المجاز المرسل:

تعريفه: هو ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضع له ملائمة ومناسبة غير المشابهة^(١).

وأقبل: هو الكلام المستعمل في غير المعنى الذي وضع له، لعلاقة غير المشابهة: مع قرينة مانعة من إرادة معناه الوضعي^(٢).

علاقات المجاز المرسل في تفسير البيضاوي:

١. السُّبْبَيْة:

وهي أن يذكر السبب وأراد المسبب كقوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهِزُونَ﴾ النحل: ٣٤، قال البيضاوي رحمه الله: (فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا عَمِلُوا) أي جزاء سيئات أعمالهم على حذف المضاف، أو تسمية الجزاء باسمها^(٣).

فالآلية واردة في سياق الحديث عن الكافرين وما يحدث لهم في نار جهنم، فيقول الله أن السيئات أصابتهم، والحقيقة أنه ليست السيئات والآثام التي افتروها هي التي أصابتهم وأوردتهم ذلك المورد، وإنما جزاء وعواقب تلك السيئات.

فقد أطلق السبب وهي (السيئات)، وأراد المسبب وهي (الجزاء والعاقبة) على سبيل المجاز المرسل الذي علاقته السُّبْبَيْة.

وقد علق الشهاب على كلام البيضاوي السابق بقوله: فإذا أنت يُقدّر المضاف أو يجعل من المشكلة كما في الكشاف، أو من إطلاق اسم السبب على المسبب على ما أشار إليه المصنف رحمه الله تعالى^(٤).

(١) علوم البلاغة للمراغي: ٢٤٩

(٢) جواهر البلاغة: ٢٧٤

(٣) تفسير البيضاوي: ٢٦٠/٢

(٤) حاشية الشهاب: ٣٢٩/٥

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ صَرَّاً وَلَا رَشَداً﴾^(٦) الجن: ٢١، قال البيضاوي رحمة الله: (قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ صَرَّاً وَلَا رَشَداً) ولا نفعاً أو غيّاً، عبر عن أحدهما باسمه وعن الآخر باسم سببه أو مسببه إشعاراً بالمعنين.

فالبيضاوي يشير إلى أن الآية تحتمل أن تكون مجازاً مرسلاً علاقته السببية أو المسببية.

إذا افترضنا أن الآية سيقت أصلاً للتحدث عن المنافع والمضار التي أمر الله نبيه أن ينفي استطاعته منحها لهم، يكون قد أطلق (الرّشد) وهو الهدى وأراد ما يترتب عليه وهو (النفع)، ويكون مجازاً مرسلاً علاقته السببية، حيث أطلق السبب وهو (الرّشد)، وأراد المسبب وهو ما يقابل الضر وهو (النفع).

وإن افترضنا أن الآية سيقت للتحدث عن الهدى والغواية، يكون قد أطلق (الضر)، الذي هو مسبب، وأراد السبب وهو (الغواية) في مقابل الرشد، على سبيل المجاز المرسل الذي علاقته المسببية.

٢. المسببية:

وهي أن يطلق المسبب ويراد السبب كما في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ البقرة: ٢٢١، قال البيضاوي رحمة الله: (يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ) أي الكفر المؤدي إلى النار فلا يليق موالاتهم ومصايرتهم... (يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ) أي إلى الاعتقاد والعمل المؤصلين إليهما فهم الأحقاء بالمواصلة^(١).

فالكافرون والمشركون لا يدعون إلى النار على الحقيقة، ولكنه مجاز مرسل فهم يدعون إلى الكفر الذي هو سبب لدخول النار، وبهذا تكون النار مسببة عن الكفر، وبهذا يكون أطلق المسبب وأراد السبب على سبيل المجاز المرسل، وكذا الحال في دعوة الله الناس إلى الجنة وإلى المغفرة والمقصود أنها دعوة إلى الأسباب التي تحصل من خلالها الجنة والمغفرة.

(١) تفسير البيضاوي: ١٩١/١

ومثله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَكْفُلُ أَثْدَنَ لَيْ وَلَا نَقْتِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لِمُحِيطَةٍ بِالْكَافِرِينَ﴾ التوبة: ٤٩، قال البيضاوي رحمه الله: (وَإِنَّ جَهَنَّمَ لِمُحِيطَةٍ بِالْكَافِرِينَ) جامعاً لهم يوم القيمة، أو الآن لأن إحاطة أسبابها بهم كوجودها^(١).

فأسباب النار التي هي الكفر بالله عز وجل والوقوف في وجه دعوته ومحاربة ومعاداة أوليائه، كل هذه أسباب تحيط بالكافرين عبر عنها بالسبب وهي جهنم على سبيل المجاز المرسل الذي علاقته المسببية.

ومن المجاز المرسل الذي علاقته المسببية قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَهَلْ لَا قُلْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَقْرُبُونَ﴾ يونس: ٥٩، قال البيضاوي رحمه الله: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ) جعل الرزق منزلة لأنّه مقدر في السماء محصل بأسباب منها^(٢)

فقد سمى الله ما ينزله من السماء رزقاً والحقيقة أن ما ينزل من السماء هو المطر الذي هو أسباب للرزق، فيكون أطلق المسبّب وأراد السبب على سبيل المجاز المرسل الذي علاقته المسببية.

ويشبه الآية السابقة أيضاً قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ أَيْنَهُ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ غافر: ١٣، قال البيضاوي رحمه الله: (وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا) أسباب رزق كالنطر مراعاة لمعاشكم^(٣).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مَدِينَةَ أَخَاهُمْ شَعِيبَاقَاتَ يَقْوَمُ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْنَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ العنكبوت: ٣٦، قال البيضاوي رحمه الله: (وَأَرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ) وافعلوا ما ترجون به ثوابه، فأقيم المسبّب مقام السبب^(٤).

(١) تفسير البيضاوي: ٥٧/٢

(٢) تفسير البيضاوي: ١٠٧/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ٢٠٤/٣

(٤) تفسير البيضاوي: ٣٦/٣

٣. الحطية:

حيث يسمى الحال باسم المحل، أي يطلق المحل ويراد الحال فيه، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَلَّمُوكُمْ عَنِ الْقَرِيَّةِ﴾ الأعراف: ١٦٣، البيضاوي رحمه الله: (عن الغزية) عن خبرها وما وقع بأهلها^(١).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذَ رَبَّكَ إِذَا أَخْذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ طَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ هود: ١٠٢، قال البيضاوي رحمه الله: (وَهِيَ ظَالِمَةٌ) حال من القرى وهي في الحقيقة لأهلها لكنها لما أقيمت مقامه أجريت عليها^(٢).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿فَلَيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ العلق: ١٧، قال البيضاوي رحمه الله: (فَلَيَدْعُ نَادِيَهُ) أي أهل ناديه ليعينوه وهو المجلس الذي ينتدي فيه القوم^(٣).

ومن المجاز المرسل الذي علاقته المحلية أيضاً قوله تعالى: ﴿يَتَنَزَّلُونَ فِيهَا كَأسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا كُثْبٌ﴾ الطور: ٢٣، قال البيضاوي رحمه الله: (يَتَنَزَّلُونَ فِيهَا) يتعاطون هم وجلساوهم بتجاذب. (كأساً) خمراً سماها باسم محلها^(٤).

فقد جعل الله من أحوال المؤمنين في الجنة أنهم يشربون الكؤوس، والكؤوس لا تشرب وإنما يشرب ما فيها من خمر وغيره، لذلك فهي من المجاز المرسل الذي علاقته المحلية.

وهنا إشارة إلى لذة ذلك الخمر، وطيب طعمه، إذ يكاد الشراب له بعد أن ينتهي ما في الكأس من الشراب أن يشرب الكأس نفسه، تتبعاً لما يعلق بالكأس من بقايا ذلك الخمر.

٤. الحالية:

وهي عكس المحلية حيث يطلق الحال ويراد المحل، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَيَّضُّتْ مُجُوْهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ آل عمران: ١٠٧، قال البيضاوي رحمه الله: (وَأَمَّا الَّذِينَ

(١) تفسير البيضاوي: ٥٧٨/١

(٢) تفسير البيضاوي: ١٤٩/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ٥٥٢/٣

(٤) تفسير البيضاوي: ٣٣١/٣

ابيضُتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ يعني الجنة والثواب المخلد، عبر عن ذلك بالرحمة تتبيناً على أن المؤمن وإن استغرق عمره في طاعة الله تعالى لا يدخل الجنة إلا برحمته وفضله^(١).

فَرَحْمَةُ اللَّهِ تبين حال أهل الجنة وما هم فيه من نعيم، وهذا الحال ورد في الآية بمعنى مجازي والدليل على كونه مجازاً أنه قال: **(فِي رَحْمَةِ اللَّهِ)**، وفي حرف دال على الظرفية المكانية، لكن المعنى أنه في الجنة التي دخلها برحمة الله، ولذلك يتبيّن لنا أن المجاز أتى لإفاده معنى دقيق مع إيجاز بلigh.

ومنها قوله تعالى: ﴿يَبْيَأَ إَدَمَ حُدُوا زِينَتُهُ عِنْدَكُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُّوا وَشَرُّوا وَلَا شُرُّوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسَرِّفِينَ﴾^(٢) الأعراف: ٣١، قال البيضاوي رحمه الله: (يا بني آدم حُدو زينتكم) ثيابكم لمواراء عورتكم^(٣).

فالزينة حالة هنا، ومحلها التي تحصل بها الزينة هي الثياب، لذلك فقد أطلق الحال وأراد المحل من باب المجاز المرسل.

٥. اعتبار ما كان:

حيث يذكر الشيء ويراد به ما كان قبل ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنُوا الْيَتَامَةَ أَمْوَالَهُمْ﴾ النساء: ٢، قال البيضاوي رحمه الله: **(وَأَنُوا الْيَتَامَةَ أَمْوَالَهُمْ)** أي إذا بلغوا... والاشتقاق يقتضي وقوعه على الصغار والكبار، لكن العرف خصصه بمن لم يبلغ. ووروده في الآية إما للبالغ على الأصل أو الاتساع لقرب عهدهم بالصغر، حثاً على أن يدفع إليهم أموالهم أول بلوغهم قبل أن يزول عنهم هذا الاسم إن أونس منهم الرشد^(٤).

فالأمر في هذه الآية أن يؤتى اليتيم ماله، واليتيت هنا مجاز وليس على الحقيقة، والقرينة التي تدلنا على ذلك، هي قوله تعالى: ﴿وَبَثَلُوا الْيَتَامَةَ حَقَّ إِذَا بَلَغُوا الْتَّكَاحَ فَإِنْ مَا أَنْسَمْتُمْ مَمْبُمْ رُشْدًا فَأَذْفَغُوكُمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ النساء: ٦، فلما كان دفع المال إلى اليتيم بشرط إيناس الرشد، والرشد حالة مغايرة لحالة اليتيم التي هي فقد أحد الأبوين أو كلاهما دون سن الرشد، تبيّن أن المقصود من اليتيم هنا، ليس اليتيم في الحال، وإنما من كان يتيمًا.

(١) تفسير البيضاوي: ٢٨٦/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٥٤١/١

(٣) تفسير البيضااوي: ٣٣٠/١

والإشارة البلاغية والمعنى الدقيق الذي يفيده هذا المجاز في هذه الآية، كما أوضحتها لنا البيضاوي، أن الله يريد منا أن لا نتأخر في دفع أموال اليتامى إليهم بمجرد إيناس الرشد، ولقرب عهدهم باليتم سماهم يتامى.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ تَرِيكَ فِي نَاوِيلِدَا وَلَيْتَ فِي نَائِمٍ غُمِرَكَ سِنِينَ﴾^(١) الشعراة: ١٨، قال البيضاوي رحمه الله: (أَلْمَ تُرِيكَ فِينَا) في منازلنا. (وليداً) طفلاً سمي به لقربه من الولادة^(٢).

فموسى عليه السلام عندما أخذه فرعون من البحر وضمه إلى بيته لم يكن وليداً، بل كان طفلاً، فالوليد كما جاء في لسان العرب: هو الصبي حين يولد^(٣)، لذلك فهو من المجاز المرسل باعتبار ما كان.

وفائدة المجاز المرسل هنا هي الإشارة إلى غاية الامتنان من فرعون على موسى عليه السلام، إذ أن موسى كان في غاية الضعف، فلم يكن طفلاً فقط رغم أنها مرحلة ضعف تحتاج إلى رعاية واهتمام، بل كان أكثر من ذلك، وهي مرحلة (الوليد)

٦. اعتبار ما سيكون:

حيث يذكر الشيء ويراد ما سيكون عليه في المستقبل كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرْيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقْبِلُوا أَصْلَهُ فَاجْعَلْ أَقْدَهُ مِنْ كُلِّ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الْثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾^(٤) إبراهيم: ٣٧

قال البيضاوي رحمه الله: (بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ) يعني وادي مكة فإنها حجرية لا تنبت. (عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ) الذي حرمت التعرض له والتهاون به، أو لم ينزل معظمًا ممنعاً يهابه الجبار، أو منع منه الطوفان فلم يستول عليه ولذلك سمي عتيقاً أي أعتقد منه. ولو دعا بهذا الدعاء أول ما قدم فعلمه قال ذلك باعتبار ما كان أو ما سيؤول إليه^(٥).

فالمكان الذي أسكن فيه إبراهيم عليه السلام أهله مكان غير ذي زرع ولم يكن قد بني البيت الحرام بعد، ولكنه قال: (عند بيتك المحرم) على سبيل المجاز المرسل باعتبار ما سيكون في المستقبل.

(١) تفسير البيضاوي: ٥٣٦/٢

(٢) لسان العرب (ولد): ٤٦٧/٣

(٣) تفسير البيضاوي: ٢٢٦/٢

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ أَسِيْجَنَ فَتَّيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَبَّيْتُ أَغْصَرَ حَمَرًا ﴾^١ يوسف: ٣٦،
قال البيضاوي رحمه الله: (أَغْصَرَ حَمَرًا) أي عنباً وسماء خمراً باعتبار ما يقول إليه^(١).

ومنه قوله تعالى: ﴿ إِذَا وَحَيْنَا إِلَّا أُمَّكَ مَا يُوحَى ﴾^٢ ﴿ أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي أَثَابُوتٍ فَاقْنِفِيهِ فِي الْيَرِ فَلِيلَقِهِ أَلَيْمٌ ﴾^٣
إِلَّا سَاحِلٍ يَأْخُذُهُ عَدُوُّهُ وَعَدُولَهُ وَالْقَيْمُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِنِّي وَلَتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾^٤ طه: ٣٨ - ٣٩، قال البيضاوي
رحمه الله: (يَأْخُذُهُ عَدُوُّ لِي وَعَدُوُّ لَهُ) جواب (فليلقه) وتكرير عدو للمبالغة، أو لأن الأول باعتبار
الواقع والثاني باعتبار المتوقع^(٢).

فرعون لم يكن عدواً لموسى عليه السلام لأنه ما زال وليداً، ولكنه سيكون كذلك في المستقبل، فهي مجاز مرسل باعتبار ما سيكون.

والإشارة البلاعية البدعة التي قد تفهم من هذا المجاز المرسل في قوله تعالى: (عدو له)، هي البشرة من الله لأم موسى، أن لا تخافي عليه فسنجعلهنبياً وسيكون له مكانة عظيمة، يكون من شأنها أن يعاديه هذا الفرعون، وببشرة النبوة تفهم من أن فرعون عدو لله، من قبل أن يكون عدواً لموسى، ولا يمكن أن يجمع فرعون بين العادوتين، إلا إذا اتفق موسى مع منهج الله، حينها يصبح عدو الله هو عدو لموسى بالتبعية.

٧. الآلية:

ويكون المجاز المرسل علاقته الآلية إذا سمي الشيء باسم آله^(٣)، أو كون الشيء آلة لإيصال أثر شيء إلى آخر^(٤).

ومثاله من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ وَهَبَّنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَنِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلَيْا ﴾^٥
مريم: ٥٠، قال البيضاوي رحمه الله: (وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلَيْا) يفخر بهم الناس ويثنون عليهم، استجابة لدعوه^(٦) ﴿ وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْأَخْرَى ﴾^٦ الشعراة: ٨٤ والمراد باللسان ما يوجد به، ولسان العرب لغتهم^(٥).

(١) تفسير البيضاوي: ١٧٣/٢

(٢) تفسير البيضاوي: ٣٩٠/٢

(٣) بغية الإيضاح: ٤٧١/٣

(٤) علوم البلاغة للمراغي: ٢٥٢

(٥) تفسير البيضاوي: ٣٧٠/٢

فالمعنى من الذكر هنا الحسن بين الناس، فيفخر الناس بهم ويثنون عليهم، ويقولون فيه القول الحسن، فقد عبر في الآية عن القول والكلام باللسان الذي هو آله، الذي بدون لا تكون اللغة، فهو مجاز مرسل علاقته الآية.

ومثال اللسان أيضاً القدم الذي هو آلة المشي والسعى كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرُوا إِلَّاَذِينَ مَا مَنَّا لَهُمْ قَدْمًا صِدْقٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يومن: ٢، قال البيضاوي رحمه الله: (بأن لهم قدم صدق عند ربهم) سابقة ومنزلة رفيعة سميت قدما لأن السبق بها كما سميت النعمة يدا لأنها تعطى باليد^(١).

فالأعمال التي يتحصل من خلالها المؤمن على رحمة الله وعلى المنزلة الرفيعة في الجنة عبر عنها بـ(القدم)، لأن أكثر الأعمال تؤدي بواسطتها ومن خلالها، فلا صلاة إلا بالسعى والقيام، وكذا الحج وكذا الجهاد، وكثير من أمور الدين إن لم يكن كلها تؤدي بهذه الجارحة المهمة.

وكان المجاز المرسل في هذه الآية بتسمية الأعمال باسم آيتها (القدم)، إشارة من الله عز وجل للمؤمن إلى السعي والحركة والإيجابية، والابتعاد عن الكسل والقعود والخمول والسلبية، لأن ديننا دين عمل ونشاط، لا دين زوايا واعتزاليات، ولهذا اعتبر الله أن السعي والمشي من أجل الرزق فريضة وواجب على المسلم فقال: ﴿فَامْشُوا فِي سَارِكُمْ وَلَا كُوْنِيْنَ رَزْقَهُ﴾ الملك: ١٥.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَّنُوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴽ٤٥﴾ البقرة: ٩٥، قال البيضاوي رحمه الله: ولما كانت اليد العاملة مختصة بالإنسان، آلة لقدرته بها عامة صنائعه ومنها أكثر منافعه، عبر بها عن النفس تارة والقدرة أخرى^(٢).

قال ابن عاشور في التحرير والتتوير: والمراد بـ(ما قدمت أيديهم) ما أتوه من المعاصي سواء كان باليد أم بغيرها بقرينة المقام، فقيل عبر باليد هنا عن الذات مجازاً كما في قوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا أَيْدِيهِكُمْ إِلَى الْهَلَكَةِ﴾ البقرة: ١٩٥^(٣).

٨. الجزئية:

ويطلق في هذه العلاقة الجزء ويراد الكل، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَلَّ مُؤْمِنًا حَطَّافًا فَتَحْرِيرُ رَبَّهُ مُؤْمِنًا﴾ النساء: ٩٢، قال البيضاوي رحمه الله في هذه الآية: (ومن قلل مؤمناً حطاً فتحريراً

(١) تفسير البيضاوي: ٨٨/٢

(٢) تفسير البيضاوي: ١٢١/١

(٣) التحرير والتتوير: ٦٦٦/١

رَقْبَةٍ) أي فعليه أو فواجبه تحرير رقبة، والتحرير الإعتاق... والرقبة عبر بها عن النسمة كما عبر عنها بالرأس^(١).

فالمقصود بالرقبة في هذه الآية أي تحرير نفسٍ مؤمنة، عبر عنها بالرقبة على سبيل المجاز المرسل الذي علاقته الجزئية، حيث أطلق الرقبة وهي جزء من الجسم وأراد كل الإنسان، روحًا وجسداً.

وفائدـة هذا الإطلاق المجازي الإيجـاز في التعبـير من جهة، لأنـ الرقبـة تكون بعضـ كـلـ من الذـكر والـأثـنى، والإـشـارـة إـلـى أـنـ الأـرـقاء كـانـوا يـغـلـون مـنـ أـعـنـاقـهـمـ، فـإـذـا أـعـنـفـوا حـرـزـوا مـنـ هـذـهـ الأـغـالـلـ^(٢).

وكما يـعـبر عنـ النـفـسـ بـالـرـقـبـةـ، يـعـبر عنـهاـ بـالـوـجـهـ كـمـاـ فـيـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُبَرَّوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ النـمـ: ٩٠، قالـ البيـضاـويـ رـحـمـهـ اللهـ: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ فـكـبـواـ فـيـهـاـ عـلـىـ وـجـوـهـهـمـ، ويـجـوزـ أنـ يـرـادـ بـالـوـجـهـ أـنـفـسـهـمـ كـمـاـ أـرـيدـتـ بـالـأـيـديـ فـيـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ: ﴿وَلَا تُلْقُوا يَدِيْكُمْ إِلَى الْتَّهْلِكَةِ﴾ البـقـرةـ: ١٩٥ـ^(٣).

فـأـطـلـقـ (ـالـوـجـهـ)ـ وـهـوـ جـزـءـ مـنـ جـسـمـ الإـنـسـانـ، وـأـرـادـ (ـذـوـهـمـ كـامـلـةـ)،ـ أـجـسـادـهـمـ وـأـرـوـاحـهـمـ،ـ وـهـيـ إـشـارـةـ إـلـىـ ذـلـكـ الـكـافـرـينـ،ـ إـذـ مـنـ الـمـعـلـومـ أـنـ الـوـجـهــ هوـ مـوـضـعـ الـشـرـفـ وـالـتـكـرـيمـ لـلـإـنـسـانـ،ـ وـمـنـ هـنـاـ يـتـضـحـ أـنـ التـعـبـيرـ عـنـ النـفـسـ تـارـةـ بـالـرـقـبـةـ،ـ وـتـارـةـ بـالـوـجـهـ،ـ يـنـاسـبـ كـلـ مـنـهـمـ السـيـاقـ الـذـيـ جـاءـ فـيـهـ،ـ فـعـبـرـ عـنـ النـفـسـ بـالـرـقـبـةـ فـيـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ:ـ (ـفـتـحـرـيرـ رـقـبـةـ)،ـ لـأـنـ الـكـلـامـ فـيـ الرـقـ،ـ وـهـيـ إـشـارـةـ إـلـىـ أـنـ الـعـبـيدـ كـانـواـ يـرـبـطـونـ مـنـ أـعـنـاقـهـمـ إـذـلـاـلـهـمـ.

أـمـاـ التـعـبـيرـ عـنـ النـفـسـ بـالـوـجـهــ فـقـدـ جـاءـ فـيـ مـعـرـضـ الـحـدـيـثـ عـنـ حـالـ الـكـافـرـينـ فـيـ النـارــ وـمـاـ بـهـمـ مـنـ ذـلـةـ،ـ إـذـ أـنـ هـذـهـ الـوـجـهــ الـتـيـ كـانـتـ تـعـدـ نـفـسـهـاـ كـرـيمـةـ وـمـتـرـفـعـةـ عـنـ الـمـسـلـمـينـ وـضـعـفـاءــ الـمـجـمـعـ كـمـاـ حـكـيـ اللـهـ عـنـهـاـ فـيـ أـكـثـرـ مـوـضـعـ فـقـالـ:ـ ﴿فَأَلَوْا أَقْوَمْنَ لَكَ وَأَتَبَعَكَ الْأَرَذَلُونَ﴾ الـشـعـراءـ: ١١١ـ،ـ وـقـالـ:ـ ﴿مَا زَرَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا زَرَكَ أَتَبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَذَلُنَا﴾ هـودـ: ٢٧ـ،ـ وـقـالـ:ـ ﴿يُؤْلُونَ لَيْنَ رَبَّعَنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخَرِّجَنَّ الْأَعْزَمَ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ الـمـنـافـقـونـ: ٨ـ،ـ هـذـاـ التـكـبـرـ وـهـذـاـ

(١) تفسير البيضاوي: ٣٧٩/١ - ٣٨٠

(٢) البلاغة العربية لعبد الرحمن الدمشقي: ٢٧٦/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ٥٧٧/٢

الشرف المُصطنع والمُدعى من هذه الفئة، كان من المناسب أن يأتي التعبير عن (تعذيب أنفسهم) في النار (بتتعذيب وجوههم)، إذ لا لأنشرف ما في الإنسان وهو الوجه.

٩. الكلية:

في هذه العلاقة من علاقات المجاز المرسل، يُطلق الكل وأراد الجزء، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِي مَآذِنِهِمْ مِنَ الْقَوْعَدِ حَذَرَ الْمَوْتَ﴾ البقرة: ١٩، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُلَّا مَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْبَعَهُمْ فِي مَآذِنِهِمْ﴾ نوح: ٧ قال البيضاوي رحمه الله: وإنما أطلق الأصابع موضع الأنامل للمبالغة^(١).

فمن المعلوم أنه لا يمكن للإنسان أن يضع أصبعه كاملاً في أذنه، لذلك كانت هذه قرينة تدلنا أن المقصود بالأصابع هنا أطرافها أو الأنامل، فذلك فهو مجاز مرسل علاقته الكلية، أطلق الكل وهي (الأصابع)، وأراد الجزء وهي (الأنامل).

وفائدة هذا المجاز هي المبالغة كما أشار القاضي رحمه الله، فهم لكونهم بغضهم لسماع الحق، ونفورهم عنه، كانوا يحاولون إغلاق آذانهم إغلاقاً كاملاً، ولو استطاعوا إدخال أصابعهم كلها لا أطرافها لفعلوا.

(١) تفسير البيضاوي: ٥٦/١

المبحث الثالث: الاستعارة:

أهمية الاستعارة:

فن الاستعارة من الفنون المهمة والدقيقة في البلاغة العربية، فقد أولى البلاغيون هذا الفن عناية خاصة، وبحثاً دقيقاً، ووقفوا على أهميته كثيراً في كتاباتهم ورسائلهم.

فمن ذلك ما حكاه شيخ البلاغة عبد القاهر الجرجاني إذ يقول في الاستعارة: اعلم أنّ الاستعارة أمد ميداناً، وأشد افتناناً، وأكثر جرياناً، وأعجب حسناً وإحساناً، وأوسع سعةً وأبعد غوراً، وأذهب تجداً في الصناعة وغوراً، من أن تجمع شعبها وشعوبها، وتحصر فنونها وضروبها، نعم، وأسحر سحرًا، وأملأ بكل ما يملأ صدرًا، ويُمتع عقلاً، ويؤنس نفساً، ويُوفِر أنساً، وأهدي إلى أن تُهدي إليك أبداً عذارى قد تُحَرِّر لها الجمال، وعني بها الكمال وأن تخرج لك من بحرها جواهر إن باهتها الجوائز مدّت في الشرف والفضيلة باعاً لا يقصُّ، وأبدت من الأوصاف الجليلة محاسن لا تُنكر، وردت تلك بصفة الخجل، ووكلتها إلى نسبتها من الحجر وأن تشير من معدها تبرأ لم تر مثله، ثم تصوغ فيها صياغاتٍ تعطل الخلائق، وترىك الخلقي الحقيقى وأن تأتيك على الجملة بعقال يأنس إليها الدين والدنيا، وفضائل لها من الشرف الرئبة العليا، وهي أجمل من أن تأتي الصفة على حقيقة حالها، وتستوفي جملة جمالها، ومن الفضيلة الجامدة فيها أنها تُبرز هذا البيان أبداً في صورة مُستجدةٍ تزيد قدره نبلاً، وتوجب له بعد الفضل فضلاً^(١).

أما ابن الأثير فقد عدّ الاستعارة ركناً ركياناً في الفصاحة والبلاغة فقال: اعلم أن للفصاحة والبلاغة أوصافاً خاصة، وأوصافاً عامة، فالخاصة: كالتجنيس فيما يرجع إلى اللفظ، وكالمطابقة فيما يرجع إلى المعنى، وأما العامة فكالسجع فيما يرجع إلى اللفظ، وكالاستعارة فيما يرجع إلى المعنى^(٢).

الاستعارة لغة:

والعارية والعارة: ما تداوله الناس بينهم؛ وقد أعاره الشيء وأعاره منه وعاوره إياه. والمعاورة والتعاون: شبّه المُداولة والتداول في الشيء يكون بين اثنين... وتعاون واستئثار: طلب العارية^(٣).

(١) أسرار البلاغة: ٤٢ بتصريف.

(٢) المثل السائر: ٥٧/٢

(٣) لسان العرب (عور): ٦١٨/٤



الاستعارة اصطلاحاً:

تعددت تعريفات الاستعارة عند علماء البلاغة وإن كانت كلها ترجع إلى معنى وتعريف متقارب، فمن ذلك تعريف ثعلب حيث يقول: الاستعارة: أن يُستعار للشيء اسمُ غيره، أو معنى سواه^(١)، وأشار الجاحظ إلى أن الاستعارة هي: **تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه**^(٢).

وقد عَرَفَ ابن المعتز الاستعارة ويسميها "البديع": وإنما هو استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء قد عرف بها^(٣).

أما العلوى في الطراز فقال عن الاستعارة: تصييرك الشيء الشيء وليس به، وجعلك الشيء للشيء وليس له، بحيث لا يلحظ فيه معنى التشبيه صورة ولا حكماً^(٤).

وعرَفَ أبو هلال العسكري الاستعارة فقال: الاستعارة: نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض، وذلك الغرض إما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه، أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ، أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه^(٥).

وقال ابن الأثير عن الاستعارة: حد الاستعارة نقل المعنى من لفظ إلى لفظ لمشاركة بينهما، مع طي ذكر المنقول إليه^(٦).

وقال السكاكي: الاستعارة هي أن تنكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر مدعيا دخول المشبه في جنس المشبه به دالا على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به^(٧).

(١) قواعد الشعر: ٥٣

(٢) البيان والتبيين: ١٤٢/١

(٣) البديع لابن المعتز: ٧٥

(٤) الطراز: ١٠٦/١

(٥) الصناعتين: أبو هلال العسكري، ص ٢٦٨، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت،

٩١٤١٩

(٦) المثل السائر: ٦٧/٢

(٧) مفتاح العلوم: ٣٦٩



وقال الإمام عبد القاهر الجرجاني في الاستعارة: اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون للفظ أصلٌ في الوضع اللغوي معروفٌ تدلُّ الشواهد على أنه احْتَصَّ به حين وُضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقاًلاً غير لازمٍ، فيكون هناك كالعارضية^(١).

وبعد التعريفات السابقة يتضح أن تعريف الاستعارة تعددت عند العلماء وإن كانت كلها تجتمع على نقل المعنى الحقيقي إلى معنى مجازي لوجود علاقة بين المعنيين.

ومن هنا صح أن يكون التعريف العام للاستعارة أنها: "استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى الأصلي للكلمة، والمعنى الذي نقلت إليه الكلمة مع وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي"^(٢).

فالاستعارة نوع من أنواع المجاز، لأن المجاز "هو استخدام الكلمة في غير ما وضعت له علاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي"^(٣)، فإذا كانت العلاقة بين المعنى الأصلي والمعنى المجازي المشابهة كان المجاز استعارة.

وهناك صلة وثيقة بين الاستعارة والتشبيه إذ أن الاستعارة مبنية على التشبيه "فأصل الاستعارة: تشبيه حذف أحد طرفيه، ووجه شبهه، وأداته، ولكنها أبلغ منه، لأن التشبيه مهما تناهى في المبالغة، فلا بد فيه من ذكر المشبه، والمتشبه به وهذا اعتراف بتباينهما، وأن العلاقة ليس إلا التشابه والتدايني، فلا تصل إلى حد الاتحاد بخلاف الاستعارة ففيها دعوى الاتحاد والامتناد، وأن المشبه والمتشبه به صارا معنى واحداً، يصدق عليهما لفظ واحد"^(٤)

وقفة على التعريفين اللغوي والاصطلاحي:

يُلاحظ مدى العلاقة بين التعريفين اللغوي والاصطلاحي للاستعارة، إذ أن معنى الاستعارة في اللغة يشير إلى التداول والنقل والطلب، وهو معنى موجود في الاصطلاح لأن نقل للألفاظ وتدالوها من معناها الحقيقي إلى معناها المجازي لعلاقة المشابهة.

ومن هنا نرى ابن الأثير يقول: الأصل في الاستعارة المجازية مأخوذة من العارية الحقيقية التي هي ضرب من المعاملة، وهي أن يستعير بعض الناس من بعض شيئاً من الأشياء، ولا يقع

(١) أسرار البلاغة: ٣٠

(٢) من بلاغة القرآن: أ.د. محمد علوان، وأ.د. نعمان علوان ، ص ٢١٥

(٣) من بلاغة القرآن: أ.د. محمد علوان، وأ.د. نعمان علوان ، ص ١٩٨

(٤) جواهر البلاغة: ٢٥٨



ذلك إلا من شخصين بينهما سبب معرفة، ما يقتضي استعارة أحدهما من الآخر شيئاً، وإذا لم يكن بينهما سبب معرفة بوجه من الوجه، فلا يستعير أحدهما من الآخر شيئاً؛ إذ لا يعرفه حتى يستعير منه، وهذا الحكم جارٍ في استعارة الألفاظ بعضها من بعض، فالمشاركة بين اللفظين في نقل المعنى من أحدهما إلى الآخر كالمعرفة بين الشخصين في نقل الشيء المستعار من أحدهما الآخر^(١).

أركان الاستعارة:

لما كانت الاستعارة في الأصل تشبيهاً ونوعاً منه كما يقول الجرجاني: أما الاستعارة، فهي ضربٌ من التشبيه، ونَمَطٌ من التمثيل^(٢)، لما كانت كذلك كان لا بد من دعائم وأركان للاستعارة، وهي:

١. المستعار: وهو اللفظ المنقول.
٢. والمستعار منه: وهو المشبه به.
٣. والمستعار له: وهو المشبه.

شرط الاستعارة عند البيضاوي:

وأشار البيضاوي إلى شرط الاستعارة عند تعرّضه لقوله تعالى: ﴿صُمْ بِكُمْ عَمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ البقرة: ١٨، قال البيضاوي رحمه الله: لما سدوا مسامعهم عن الإصاحة إلى الحق وأبوا أن ينطقو بها ألسنتهم ويتبرّأوا الآيات بأبصارهم، جعلوا لأنما أيفت مشاعرهم وانتقدت قواهم... وإطلاقها عليهم على طريقة التمثيل، لا الاستعارة إذ من شرطها أن يطوي ذكر المستعار له، بحيث يمكن حمل الكلام على المستعار منه لو لا القرينة كقول زهير:

لَدَى أَسِدٍ شاكِي السِّلاحِ مُقْدَّفٌ لَمْ لِبَدْ أَظْفَارُهُ لَمْ ثَقَلْمٌ^(٣).

فالبيضاوي رحمه الله بقوله: (إطلاقها عليهم على طريقة التمثيل، لا الاستعارة إذ من شرطها أن يطوي ذكر المستعار له، بحيث يمكن حمل الكلام على المستعار منه لو لا القرينة)، يشير إلى شرط الاستعارة وما تفترق به الاستعارة عن التشبيه وهي (حذف المشبه أو المشبه به)، مع ضرورة وجود القرينة حتى لا يُحمل الكلام على الحقيقة.

(١) المثل السائر: ٦٣/٢

(٢) أسرار البلاغة: ٢٠

(٣) تفسير البيضاوي: ٥٤/١

أنواع الاستعارة:

نُقسمُ الاستعارة إلى مكنية وتصريحية، والبيضاوي رحمه الله في تفسيره (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، لا يقسمها إلى هذين القسمين بل يتركها على إطلاقها ويسميها استعارة دون تحديدها، وسنقسم الاستعارات في تفسير البيضاوي إلى هذين النوعين مما نفهمه من قول البيضاوي عند إجرائه للاستعارات.

أولاً: الاستعارة المكنية:

الاستعارة المكنية هي ما حذف منها المشبه به (المستعار منه)، وبقيت صفة من صفاته،
أو لازمه من لوازمه^(١)

من الاستعارات المكنية قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَذَمُ مِيقٌ وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ يُدْعَلِكَ رَبِّ شَيْقًا ﴾ مريم: ٤، قال البيضاوي رحمه الله: (واشتغل الرأس شيباً) شبه الشيب في بياضه وإنارتة بشواطئ النار وانتشاره وفسوه في الشعر باشتعالها، ثم أخرجه مخرج الاستعارة وأسند الاشتعال إلى الرأس الذي هو مكان الشيب مبالغة، وجعله مميزاً إيجاباً للمقصود^(٢).

ففي هذه الآية شبه الله الشيب في الرأس بشواطئ النار، فيكون الشيب مشبهأً، وشواطئ النار مشبهأً به، لكنه لم يذكر (الشواطئ) الذي هو المشبه به، بل أتى بصفة من صفات الشواطئ لازم من لوازمه وهو الاشتعال، وبذلك تكون استعارة مكنية.

فهنا لا تقف الكلمة (اشتعل) عند معنى انتشار فحسب، ولكنها تحمل معنى دبيب الشيب في الرأس في بطيء وثبات، كما تدب النار في الفحم مبطئة، ولكن في دأب واستمرار، حتى إذا تمكنت من الوقود اشتعلت في قوة لا تبقى ولا تذر، كما يحرق الشيب ما يجاوره من شعر الشباب، حتى لا يذر شيئاً إلا التهمه، وأتى عليه^(٣).

وقد مثل الخفاجي بهذه الآية على الاستعارة فقال: (واشتغل الرأس شيباً) استعارة لأن الاشتعال للنار ولم يوضع في أصل اللغة للشيب فلما نقل إليه بان المعنى لما اكتسبه من التشبيه

(١) من بлага القرأن: أ.د. محمد علوان، وأ.د. نعمان علوان ، ٢١٧

(٢) تفسير البيضاوي: ٣٦٠/٢

(٣) من بлага القرأن لأحمد البدوي: ١٦٧

لأن الشيب لما كان يأخذ في الرأس ويسعى فيه شيئاً فشيئاً حتى يحيله إلى غير لونه الأول كان منزلة النار التي تشتعل في الخشب وتسرى حتى تحيله إلى غير حاله المتقدمة^(١).

أمّا العلوى فقد رأى في الآية دقائق بлагوية بالإضافة إلى الاستعارة فقال: وهي – يقصد الآية- من محسن المجاز، ومن مثمرات البلاغة، وبلاعتها قد ظهرت من جهات ثلاثة.

الجهة الأولى: إسناد الاشتعال إلى الرأس لإفادته شمول الاشتعال بجميع الرأس، بخلاف ما لو قال: اشتعل شيب رأسي، فإنه لا يؤدي هذا المعنى بحال.

الجهة الثانية: الإجمال والتقصيل في نصب التمييز، فإنك إذا نصبت شيئاً كان المعنى مخالفًا لما إذا رفعته، فقلت: اشتعل شيب رأسي، لما في النصب من المبالغة دون غيره.

الجهة الثالثة: تكير قوله شيئاً، لإفادته المبالغة، ثم إنه ترك لفظ (مني) في قوله واحتفل بالرأس شيئاً، اتكالاً على قوله: (وَهَنَ الْعَظُمُ مِنِي)^(٢).

ومثال الاستعارة المكنية في القرآن الكريم أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلَوَاحَ وَفِي نُسُخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾^(٣) الأعراف: ١٥٤.

قال البيضاوى رحمه الله: (ولما سكت) سكن وقد قرئ به. (عن موسى الغضب) باعتذار هارون، أو بتوبتهم وفي هذا الكلام مبالغة وبلاعنة من حيث أنه جعل الغضب الحامل له على ما فعل كالامر به والمغرى عليه حتى عبر عن سكونه بالسكتوت^(٣).

فيشير البيضاوى رحمه الله بقوله السابق إلى وجود استعارة، حيث جعل الغضب كإنسان الذي يأمر ويغري ويسكت، فقد شبه الغضب بالإنسان، وحذف المشبه به الذي هو (الإنسان)، وأتى بصفة من صفاته وهي السكتوت على سبيل الاستعارة المكنية.

(١) سر الفصاحة: ١١٨

(٢) الطراز: ٢٣١/٣ بتصرف

(٣) تفسير البيضاوى: ٥٧٤/١

قال العلوي في كتاب الطراز في هذه الآية: فوصف الغضب بالسكتوت على جهة الاستعارة، فالمستعار هو السكتوت، والمستعار له هو الغضب، والجامع بينهما هو زوال الغضب، كما أن السكتوت زوال الكلام^(١).

ومن الاستعارات المكنية أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَإِيَّاهُ لَهُمْ أَيْلُ سَلَخْ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ۝ ﴾^(٢) يس: ٣٧، قال البيضاوي رحمه الله: (وَإِيَّاهُ لَهُمُ الَّذِينُ نَسْلَخْ مِنْهُ النَّهَارَ) نزيله ونكشفه عن مكانه مستعار من سلخ الجلد^(٣).

السلخ في اللغة معناه كشط الإهاب عن ذيه. سلخ الإهاب يسلخه ويسلخه سلخاً: كشطه. والسلخ: ما سلخ عنه... وشاة سليخ: كشط عنها جلدتها^(٤).

والبيضاوي نفسه يشير إلى معنى السلخ في آية أخرى وهي قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا أَنْسَلَحَ الْأَشْهُرُ لِلْحُمُرِ فَاقْتُلُوا الْمُشَرِّكِينَ حَيْثُ وَجَدُوكُمْ ۝ ﴾ التوبية: ٥، قال البيضاوي رحمه الله: (فإذا أنسلاخ) انقضى، وأصل الانسلاخ خروج الشيء مما لا يسعه من سلخ الشاة^(٥).

لما كان السلخ في الأصل كشط الجلد عن اللحم، كان استعماله في هذه الآية على سبيل الاستعارة المكنية وذلك لأنه شبه الليل والنهر في التصاقهما ببعضهما واتحادهما بالجلد واللحم في الشاة حيث يكونان في كامل الالتصاق والاتحاد، وحذف المشبه به وهو الجلد واللحم وأتى بصفة من صفاتهما وهي السلخ على سبيل الاستعارة المكنية.

ولذلك فإن التعبير بـ(سلخ)، جاء لإفاده معانٍ بلاغية غاية في الدقة والجمال، منها كما اتضح سابقاً شدة الالتحام والاندماج بين الليل والنهر ومن هنا صح استخدام (سلخ)، وفي هذا يقول العلوي: فشبه انفصال الليل من النهر بسلخ الأديم عن الشاة، وهذا يدل على عظم اتصال الليل بالنهر وشدة التحامه به، ولهذا فإنك ترى الفجر عند طلوعه، نوره في غاية الامتناع والاختلاط بظلام الليل، فلا يزال النهر في قوة، وغلبة، وظهور، حتى يستولى عليه بالإنارة فيما يحيوه ويزيله،

(١) الطراز: ١٨٧/٣

(٢) تفسير البيضاوي: ١٣٢/٣

(٣) لسان العرب (سلخ): ٢٥-٢٤/٣

(٤) تفسير البيضاوي: ٣٧/٢

فالسلخ مؤذن بشدة الالتحام، كالجلد، والغشيان مؤذن بعظم الاستيلاء والاشتمال، وكلاهما مشعر بالاتصال البالغ^(١).

ومن المعاني التي تشير إليها الاستعارة في (سلخ)، معنى التدرج في التحول والانتقال من الليل إلى النهار، "لأن انسلاخ الشيء عن الشيء هو أن يتبرأ منه ويزول عنه حالاً فحالاً وكذلك انفصال النهار عن الليل والانسلاخ أبلغ من الانفصال لما فيه من زيادة البيان"^(٢).

فكلمة (سلخ) تصور للعين انحسار الضوء عن الكون قليلاً قليلاً، ودبب الظلام إلى هذا الكون في بطيء، حتى إذا تراجع الضوء ظهر ما كان مختفياً من ظلمة الليل^(٣).

ومن الاستعارات المكنية في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿أَفَيُطِعُونَ إِنَّكُمْ تَأْثِنُهُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الدِّلْلَةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِعَذَابٍ وَّبَغَسِبُ مِنَ اللَّهِ﴾ البقرة: ٦١، وقوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الدِّلْلَةُ أَبْيَنَ مَا تُفْقِدُوا إِلَّا يُجْبِلُ مِنَ اللَّهِ وَحْدَهُ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِعَذَابٍ وَّبَغَسِبُ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ آل عمران: ١١٢.

قال البيضاوي رحمه الله: (وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الدِّلْلَةُ وَالْمَسْكَنَةُ) أحاطت بهم إحاطة القبة بمن ضربت عليه، أو الصقت بهم، من ضرب الطين على الحائط^(٤).

وقال أيضاً: (وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ) فهي محطة بهم إحاطة البيت المضروب على أهلها^(٥).

فقد شبه الله عز وجل الذلة والمسكنة التي فرضها على بنى إسرائيل بسبب عنادهم وعتوهم، شبهها بالخيمة أو القبة التي تُضرب فتحيط بأهلها إحاطة كاملة، وحذف الخيمة وأتى بصفة من صفاتها ولازمة من لوازماها على سبيل الاستعارة المكنية.

ويقول السيوطي في حاشيته على تفسير البيضاوي وهو يستعرض معنى (ضرب): وضرب الخيمة بضرب أوتادها بالمطرقة، وتشبيهاً بضرب الخيمة قال تعالى: (وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الدِّلْلَةُ) أي:

(١) الطراز: ٧٩/١

(٢) سر الفصاحة: ١٢١

(٣) من بلاغة القرآن لأحمد البدوي: ١٦٧

(٤) تفسير البيضاوي: ١٠٦/١

(٥) تفسير البيضاوي: ٢٨٨/١

التحفthem الذلة التحاف الخيمة، ومنه استعير ﴿فَضَرَبَنَا عَلَىٰ مَا ذَانُوهُمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ (١١) .
الكهف: (١١).

ويقول أبو السعود في تفسيره لهذه الآية: (وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة والمسكناً) أي جعلنا محيطتين بهم إحاطة القبة بمن ضربت عليه أو أصقتا بهم وجعلنا ضربة لازب لا تتفكر عنهم مجازاً لهم على كفرائهم من ضرب الطين على الحائط بطريق الاستعارة بالكنية (٢) .

ومن الاستعارات المكنية التي أشار إليها البيضاوي في تفسيره قوله تعالى: ﴿وَأَخْفَضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٥) الشعرا: ٢١٥، وقوله تعالى: ﴿وَأَخْفَضْ لَهُمَا جَنَاحَ الْذُلِّ مِنَ الْرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ أَرْجُمَهُمَا كَمَا رَبَّيْنَا صَغِيرًا﴾ (٤٤) الإسراء: ٢٤.

قال البيضاوي رحمه الله: (وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) لِمَنِ جانبه لهم، مستعار من خفض الطائر جناه إذا أراد أن ينحط (٣) .

وقال البيضاوي أيضاً: (وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُلِّ) تذلل لهما وتواضع فيهما، وجعل للذل جناحاً كما جعل لبيه في قوله:

وَغَدَاءَ رِيحٍ قَدْ كَشَفَتْ وَقَرَةَ إِذْ أَصْبَحْتْ بِيَدِ الشَّمَالِ زِمامُهَا

للشمال يداً أو للقرة زماماً، وأمره بخفضه مبالغة أو أراد جناه كقوله تعالى: (وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ). وإضافته إلى الذل للبيان والمبالغة كما أضيف حاتم إلى الجود، والمعنى واخفض لهم جناحك الذليل (٤) .

شبه الذل بطائر بجامع الخضوع واستعير الطائر للذل، ثم حذف ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الجناح، على طريق الاستعارة بالكنية، وإثبات الجناح للذل استعارة تخيلية، وهي

(١) نواهد الأباء: ١٤٩-١٤٨/٢

(٢) تفسير أبي السعود: ١٠٧/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٥٥٥/٢

(٤) تفسير البيضاوي: ٢٩٨-٢٩٧/٢

قرينة المكنية، ويجعل الطائر مستعراً للمخاطب "أي": للولد في معاملة والديه" والأصل واحفظ لهما جناحك ذلا، ونحوه قوله تعالى: (وَاحْفِظْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) ^(١).

ومن الاستعارات المكنية أيضاً قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَأْرِضُ أَبْلَعِي مَاءً إِنَّ وَيَسِّمَهُ أَقْلَعِي﴾ هود: ٤، قال البيضاوي رحمه الله: (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلَعِي) نودياً بما ينادي به أولو العلم وأمراً بما يؤمرون به، تمثيلاً لكمال قدرته وانقيادهما لما يشاء تكوينه فيما بالأمر المطاع الذي يأمر المنقاد لحكمه المبادر إلى امثال أمره، مهابة من عظمته وخشية من أليم عقابه ^(٢).

فقد شبه الله تعالى الأرض والسماء بالكائن الحي أو الإنسان الذي يؤمر، فالأرض تبلغ الماء، والسماء تقلع، وفيها إشارة إلى عظيم قدرة الله وامثال مخلوقاته العظيمة والكبيرة إلى أوامرها، وذلك على سبيل الاستعارة المكنية.

ثانياً: الاستعارة التصريحية:

"إذا ذكر في الكلام لفظ المشبه به فقط، فاستعارة تصريحية أو مصريحة، ومعنى "تصريحية" أي مصرح فيها باللفظ الدال على المشبه به" ^(٣).

من الاستعارات التصريحية التي أشار إليها البيضاوي رحمه الله في تفسيره قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّزُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أَوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الأعراف: ١٥٧، قال البيضاوي رحمه الله: (وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ) أي مع نبوته يعني القرآن، وإنما سماه نوراً لأنّه بإعجازه ظاهر أمره مظهر غيره، أو لأنّه كاشف الحقائق مظهر لها، ويجوز أن يكون معه متعلقاً باتبعوا أي واتبعوا النور المنزل مع اتباع النبي فيكون إشارة إلى اتباع الكتاب والسنة ^(٤).

فقد يكون المراد بالنور على ما أشار البيضاوي رحمه الله القرآن الكريم، أو القرآن والسنة معاً، وفيها استعارة تصريحية حيث شبه الكتاب أو الكتاب والسنة بالنور، وحذف المشبه وصرّح بالمشبه به.

(١) علوم البلاغة للمراغي: ٢٧١

(٢) تفسير البيضاوي: ١٣٢/٢

(٣) جواهر البلاغة: ٢٦٠

(٤) تفسير البيضاوي: ٥٧٦/١

ومثال الاستعارة التصريحية أيضاً قوله تعالى: ﴿أَوْمَنَ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَنَاهُ وَجَعَلَنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلْمَتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيْنَ لِلْكُفَّارِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^{١٢٣} الأنعام: ١٢٢، قال البيضاوي رحمه الله: (أَوْمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَنَاهُ وَجَعَلَنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ) مثل به من هداه الله سبحانه وتعالى وأنقذه من الضلال وجعل له نور الحجج والآيات يتأمل بها في الأشياء، فيميز بين الحق والباطل والمحق والمبطل^(١).

وفي الآية عدة استعارات تصريحية، فقد شبه الله الضلال بالموت وحذف المشبه وصرح بالمشبه به فقال: (أَوْ مَنْ كَانَ مَيْتًا)، والاستعارة الثانية: (فَأَحْيَنَاهُ) فيها شبه الله الهدایة التي تحصل للإنسان بالحياة، وحذف المشبه وهو الهدایة وصرح بالمشبه به، والثالثة: (وَجَعَلَنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ)، فقد شبه الله الحجج والآيات والدلائل العقلية والنقلية بالنور على سبيل التصريحية، والرابعة قوله: (كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلْمَاتِ) حيث شبه الكفر والضلال بالظلمات وحذف المشبه، وأبقى على المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية.

وفي الآية استعاراتان قوبلتا باستعاراتين، (الموت والحياة) للضلال والهدایة، و(النور والظلمات) للإيمان والكفر.

ومنها قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الْمُدَّثِرُ ﴿١﴾ قُرْفَانِزَرَ ﴿٢﴾ المدثر: ١ - ٢، قال البيضاوي رحمه الله: (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِرُ) أي المدثر وهو لابس الدثار... وقيل المراد بالمدثر المدثر بالنبوة والكمالات النفسانية، أو المختفي فإنه كان بحراء كالمختفي فيه على سبيل الاستعارة^(٢).

فيشير البيضاوي إلى احتمال أن يُراد بالدثار هنا النبوة أو الكمالات النفسية والأخلاق السامية، أو المختفي بغار حراء، وعلى هذا يصح أن يكون هنا استعارة تصريحية، حيث شبه النبوة أو غار حراء، بالدثار الذي يلبسه الإنسان ويغطي به نفسه، فحذف المشبه وصرح بالمشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهَدُوا بِهَا فِي ظُلْمَتِ الَّبَرِّ وَالْبَحْرِ فَذَلِكَ الْآيَتُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^{١٢٤} الأنعام: ٩٧، قال البيضاوي رحمه الله: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ) خلقها لكم.

(١) تفسير البيضاوي: ٥١٥/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٤٦٤/٣

(لَهُنَّا كُلُّا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) في ظلمات الليل في البر والبحر، وإضافتها إليهما للملابسة أو في مشتبهات الطرق وسماها ظلمات على الاستعارة^(١).

فقد يكون المقصود بقوله تعالى: (في ظلمات البر والبحر)، في الطرق المشتبهة، ويؤيد هذا أن سياق الآية جاء للحديث عن النجوم وفائتها في الاهتداء بها ومعرفة الطرق، لذلك يكون في الآية تشبيه للطرق المشتبهة بالظلمات وحذف المشبه الذي هو (الطرق) وأبقى على المشبه به وهو (الظلمات) على سبيل الاستعارة التصريحية.

وأقرباً من الآية السابقة قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنْجِيْكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَحُمْقَيَةً لَئِنْ أَنْجَحَنَا مِنْ هَذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾^(٢) الأنعام: ٦٣، قال البيضاوي رحمه الله: (قُلْ مَنْ يُنْجِيْكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) من شدائدهما، استعيرت الظلمة للشدة لمشاركة في الهول وإبطال الإبصار فقيل لليوم الشديد يوم مظلم ذو كواكب، أو من الخسف في البر والغرق في البحر^(٣).

فقد شبه الله الشدائدين التي يمر بها الإنسان سواء في البر أو البحر شبهها بالظلمات على سبيل الاستعارة التصريحية.

ومنها قوله تعالى: (وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتِ الْحَمِيرِ) (لِقَمَان: ١٩)، قال البيضاوي رحمه الله: (لَصَوْتِ الْحَمِيرِ) والحمار مثل في الذم سيما نهاقه ولذلك يكى عنـه فيقال طويل الأذنين، وفي تمثيل الصوت المرتفع بصوته ثم إخراجه مخرج الاستعارة مبالغة شديدة^(٤).

فالمراد بـ(إن أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتِ الْحَمِيرِ)، أن الذي يعلـي صوته هو مثل نهاق الحمير، فحذف المشبه وهو كل معيـل لصوته وأبقى على المشبه به وهو صوت الحمار على سبيل الاستعارة التصريحية.

أنواع الاستعارة باعتبار ما يتصل بها من الماءمات:

تُقسـم الاستعارة باعتبار ما يتصل بها من ماءمات، إلى مرشحة ومجردة ومطلقة، فإذا ذكر في الاستعارة ما يلازم المشبه به (المستعار منه) كانت الاستعارة مرشحة، أما إذ ذكر معها

(١) تفسير البيضاوي: ٥٠٧/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٤٩٦/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٦٤/٣

ما يلائم المشبه (المستعار له) كانت مجردة، وإذا خلت مما يلائم المشبه والمشبه به، أو ذكر معها ما يلائم الطرفين فهي مطلقة^(١)، وسنأتي على ذكر أمثلة على هذه الاستعارات كما في تفسير البيضاوي رحمة الله:

١. الاستعارة المرشحة:

مثالها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّكُمْ بِاللَّيلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيَقْضَى أَجْلُ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يَنْتَهُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٦٠) الأنعام: ، قال البيضاوي رحمة الله: (وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّكُمْ بِاللَّيلِ) ينتمكم فيه ويرافقكم، استعير التوفي من الموت للنوم لما بينهم من المشاركة في زوال الإحساس والتمييز فإن أصله قبض الشيء بتمامه. (وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ) كسبتم فيه خص الليل بالنوم والنهار بالكسب جرياً على المعتاد. (ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ) يوقظكم أطلق البعث ترشياً للتوفي فيه في النهار^(٢).

فالبيضاوي رحمة الله بقوله: (أطلق البعث ترشياً للتوفي) يشير إلى كونها استعارة مرشحة.

فقد شبه الله في هذه الآية النوم بالموت حيث وجه الشبه بينهما زوال الإحساس والتمييز على ما أشار البيضاوي رحمة الله، وحذف المشبه به وهو (الموت)، ودلل عليه بالفعل (يتوفاكم)، لتكون استعارة مكنية، لكنه أردف الاستعارة بما يلائم المشبه به المحذوف وهو (البعث)، لأن البعث يلائم الموت ولا يلائم النوم، وما يلائم النوم هو أن يقال (ثم يوقظكم)، لكنه جاء بـ(يبعثكم) ترشياً للاستعارة.

ومثالها أيضاً قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَشْرَرُوا أَصْنَالَهُمْ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحُتْ بِخَرْتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ البقرة: ، قال البيضاوي رحمة الله: (أُولَئِكَ الَّذِينَ أَشْرَرُوا أَصْنَالَهُمْ بِالْهُدَىٰ) اختاروها عليه واستبدلواها به، وأصله بذل الثمن لتحصيل ما يطلب من الأعيان... ثم اتسع فيه فاستعمل للرغبة عن الشيء طمعاً في غيره، والمعنى أنهم أخلوا بالهدى الذي جعله الله لهم بالفطرة التي فطر الناس عليها محصلين الضلاله التي ذهبوا إليها. أو اختاروا الضلاله واستحبوا على الهدى. (فَمَا رَبِحُتْ تِجَارْتُهُمْ). ترشيح للمجاز، لـما استعمل الاشتراء في معاملتهم أتبعه ما يشكله تمثيلاً لخسارتهم، ونحوه:

(١) انظر: من بلاغة القرآن: أ.د. محمد علوان، وأ.د. نعمان علوان ، ٢٢٥

(٢) تفسير البيضاوي: ٤٩٥/١

وَلَمَّا رأيْتُ النَّسَرَ عَزَّ ابْنَ دَائِيَةَ
وَعَشَّشَ فِي وَكْرِيَهِ جَاهَ لَهُ صَدْرِيٌّ^(١).

فقد شبه الضلال بالبضاعة أو السلعة والهدى بالثمن الذي يدفع، على سبيل الاستعارة المكنية وأتى بلازم من لوازمهما وهو الشراء، وقد أعقب هذه الاستعارة بقوله: (فَمَا رَبَحَ تِجَارَتَهُمْ)، والتجارة والربح تلائم المشبه به وهو البضاعة لتكون من الاستعارات المرشحة.

أمّا البيت الذي استشهد به البيضاوي رحمه الله فقد أورده الزمخشري في الكشاف وعلق عليه ابن المنير السكندي في حاشيته (الانتصاف فيما تضمنه الكشاف)، فقال: شبه الشيب بالنسر بجامع البياض، واستعاره له تصريحًا. وشبه الشباب بالغراب - وهو ابن دائية - بجامع السواد كذلك... والتعشيش في الوكرين ترشيح للاستعارات^(٢).

ومن إشارات البيضاوي رحمه الله إلى الاستعارات المرشحة قوله: (فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ
وَالْخُوفِ) استعار الذوق لإدراك أثر الضرر، واللباس لما غشיהם واشتمل عليهم من الجوع والخوف، وأوقع الإذقة عليه بالنظر إلى المستعار له... وقد ينظر إلى المستعار كقوله:

يَنَازِعْنِي رِدَائِي عَبْدُ عَمْرُو
رُوَيْدَكَ يَا أَخَا عَمْرُو بْنَ بَكْرٍ
لِي الشَّطَرُ الَّذِي مَلَكَ يَمِينِي
وَدُونَكَ فَاعْتَجِرْ مِنْهُ بِشَطْرٍ

استعار الرداء لسيفه ثم قال فاعتذر نظراً إلى المستعار^(٣).

فقوله تعالى: (فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخُوفِ) من الاستعارات المجردة على ما سيتم تفصيله لاحقاً، لكنه عقب بأنه قد يأتي عقب الاستعارة بما يلائم المستعار، واستدل على ذلك بهذه الأبيات فتكون هذه الأبيات مثالاً على الاستعارة المرشحة.

ومعنى الأبيات والشاهد فيها أن الشاعر "يقول": ينazuني عبد عمرو سيفي الذي أقي به نفسي وعرضي، ثم التفت وقال له: تمهل، فسأقسم بيني وبينك، فأحتفظ لنفسي بقائمه الذي بيدي، وأعطيك أنت صدره يريد: أنه سيضرره على رأسه بصدر سيفه ضرباً يشق ذلك الرأس ويشرقه،

(١) تفسير البيضاوي: ٥١/١

(٢) حاشية الانتصاف فيما تضمنه الكشاف: ضمن تفسير الكشاف للزمخشري: ٧١/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٢٨٣/٢

فهو يهدده بالقتل حسما للنزاع. والشاهد فيه: استعارة الرداء للسيف، ثم وصف الرداء الذي هو المستعار منه بما يلائم من الاعتخار -إذ هو لف الرأس بنحو ثوب- ترشيحاً للاستعارة^(١).

٢. الاستعارة المجردة:

حيث يذكر عقب الاستعارة ما يلائم المشبه (المستعار له)، مثالها قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ إِمَامَةً مُطْمِئِنَةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغْدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنَعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخُوفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ النحل: ١١٢.

قال البيضاوي رحمه الله: (فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخُوفِ) استعار الذوق لإدراك أثر الضرب، وللباس لما غشיהם واشتمل عليهم من الجوع والخوف، وأوقع الإذاقة عليه بالنظر إلى المستعار له كقول كثير:

غَمْرُ الرِّدَاءِ إِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكًا غَلَقَتْ لِضَحْكَتِهِ رِقَابُ الْمَالِ

فإنه استعار الرداء للمعروف لأنه يصون عرض صاحبه صون الرداء لـما يلقى عليه، وأضاف إليه الغمر الذي هو وصف المعروف والنوال لا وصف الرداء نظراً إلى المستعار له^(٢).

فقد شبه الله تعالى الحالة التي كانوا عليها من جوع وخوف بعد ما كفروا بأنعم الله باللباس الذي يلبسه الإنسان للدلالة على إحاطة الجوع والخوف بهم كإحاطة اللباس بالإنسان، فنكون (الجوع والخوف) مشبهات، و(اللباس)، مشبه به، وقد جاء لفظ: (فَأَذَاقَهَا)، وهذا اللفظ يلائم المشبه (الذي هو الجوع) لتكون من قبيل الاستعارة المجردة.

(١) المنهاج الواضح للبلاغة: حامد عوني ج٣ ص٢٦٨، المكتبة الأزهرية للتراجم.

(٢) تفسير البيضاوي: ٢٨٣/٢

المبحث الرابع: الكناية والتعريض

المطلب الأول: الكناية:

الكناية لغة: أن يُكَنِّي عَنِ الشَّيْءِ الَّذِي يُسْتَقْحَشُ ذِكْرُه... والكناية: أن تَكَلَّمَ بِشَيْءٍ وَتُرِيدَ غَيْرَه. وكَنَّى عَنِ الْأَمْرِ بِعَيْرِهِ يُكَنِّي كِنَايَةً: يَعْنِي إِذَا تَكَلَّمَ بِعَيْرِهِ مِمَّا يَسْتَدِلُّ عَلَيْهِ نَحْوَ الرَّفَثِ وَالْعَائِطِ وَنَحْوَهِ^(١).

الكناية اصطلاحاً: عَرَفَهَا الإِمَامُ عَبْدُ الْقَاهِرِ الْجَرْجَانِيُّ فَقَالَ: أَنْ يُرِيدَ الْمُتَكَلِّمُ إِثْبَاتَ مَعْنَى مِنَ الْمَعَانِيِّ، فَلَا يَنْكُرُ بِاللَّفْظِ الْمَوْضِوعَ لَهُ فِي الْلُّغَةِ، وَلَكِنْ يَجِيءُ إِلَى مَعْنَى هُوَ تَالِيهِ وَرِدْفُهُ فِي الْوُجُودِ، فَيُوْمَئِي بِهِ إِلَيْهِ، وَيَجْعَلُهُ دَلِيلًا عَلَيْهِ^(٢).

وَعَرَفَ السَّكَاكِيُّ الْكَنَايَةَ فَقَالَ: الْكَنَايَةُ هِيَ تَرْكُ التَّصْرِيفِ بِذِكْرِ الشَّيْءِ عَلَى مَا ذَكَرَ مَا يُلْزِمُهُ لِيَنْتَقِلُ مِنَ الْمَذَكُورِ عَلَى الْمَتْرُوكِ^(٣).

وَقَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ: كُلُّ لَفْظٍ دَلَّتْ عَلَى مَعْنَى يُجُوزُ حَمْلَهُ عَلَى جَانِبِ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجازِ بِوَصْفِ جَامِعٍ بَيْنِ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجازِ^(٤).

وَعَرَفَ الْعَلَوِيُّ الْكَنَايَةَ فَقَالَ: هِيَ الْلَفْظُ الدَّالُّ عَلَى مَعْنَيَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ، حَقِيقَةٌ وَمَجازٌ مِنْ غَيْرِ وَاسْطَةٍ، لَا عَلَى جَهَةِ التَّصْرِيفِ^(٥).

وَالْتَعْرِيفُ الْجَامِعُ لِلْكَنَايَةِ أَنَّهَا: لَفْظٌ أُرِيدُ بِهِ لَازِمٌ مَعْنَاهُ مَعْنَاهُ جَوَازٌ إِرَادَةٌ مَعْنَاهُ حِينَئِذٍ^(٦).

تعريف البيضاوي للكناية:

عَرَفَ الْبَيْضَاوِيُّ الْكَنَايَةَ فَقَالَ: وَالْكَنَايَةُ هِيَ الدَّلَالَةُ عَلَى الشَّيْءِ بِذِكْرِ لَوازِمِهِ وَرَوَادِفِهِ، كَقُولُكَ الطَّوِيلِ النَّجَادِ لِلْطَّوِيلِ، وَكَثِيرُ الرَّمَادِ لِلْمَضِيَافِ^(٧).

(١) انظر: لسان العرب (كنى): ٢٣٣-٢٣٤/١٥

(٢) دلائل الإعجاز: ٦٦

(٣) مفتاح العلوم: ٤٠٢

(٤) المثل السائر: ٥٢/٣

(٥) الطراز: ١٨٩/١

(٦) بغية الإيضاح: ٥٣٨/٣

(٧) تفسير البيضاوي: ٢٠٤/١

فائدة الكنية والبلاغة فيها:

أجمع البلاغيون على أن الكنية أفضل من التصريح كما نقل الإمام عبد القاهر في الدلائل فقال: "قد أجمع الجميع على أن الكنية أبلغ من الإفصاح"^(١)، والسبب في ذلك هو أن الكلام المسوق بطريق الكنية يكون أشد تأكيداً وأكثر ثبيتاً من المسوق صراحة كما يرى الإمام عبد القاهر إذ يقول: تفسير هذا: أن ليس المعنى إذا قلنا: "إن الكنية أبلغ من التصريح"، أنك لمَّا كنَيْت عن المعنى زدْت في ذاته، بل المعنى أنك زدْت في إثباته، فجعلته أبلغ وأكَّدَ وأَشَدَ^(٢).

ووجه التأكيد في الكنية أنك تذكر فيها ما هو دليل على هذه الصفة وشاهد عليه "فكَّ عاقلِ يَعْلَمُ إذا رجَعَ إِلَى نَفْسِهِ، أَنَّ إِثْبَاتَ الصَّفَةِ بِإِثْبَاتِ دَلِيلِهَا، وَإِيجَابَهَا بِمَا هُوَ شَاهِدٌ فِي وُجُودِهَا، آكُدُّ وَأَبْلَغُ فِي الدَّعْوَى مِنْ أَنْ تُحْيِي إِلَيْهَا فِيَّتَهَا هَذَا سَادِجاً غُفْلًا". وذلك أنك لا تدعى شاهد الصفة ودليلها إلا والأمر ظاهر معروف، وبحيث لا يُشكُّ فيه، ولا يُظْنُ بالمحْبُر التَّجُّرُ والغَطُّ^(٣).

الفرق بين الكنية والمجاز:

هناك فرق بين الكنية والمجاز، فرغم أنهما يتشابهان في كون كل منهما أن يطلق اللفظ ويراد غيره، إلا أنهما يختلفان في كون الكنية تأتي مع احتمال أن يراد بها المعنى الأصلي للفظ، بخلاف المجاز فلا يصح أن يقصد بها المعنى الأصلي.

وفي هذا يقول السكاكي: والفرق بين المجاز والكنية يظهر من وجهين أحدهما أن الكنية لا تتفق وإرادة الحقيقة بلفظها فلا يتمتنع في قوله فلان طول النجاد أن تزيد طول نجاده من غير ارتكاب تأويل مع إرادة طول قامته وفي قوله فلانة نثومة الضحى أن تزيد أنها تمام ضحى لا عن تأويل يرتكب في ذلك مع إرادة كونها مخدومة مرفهة والمجاز ينافي ذلك فلا يصح في نحو رعينا الغيث أن تزيد معنى الغيث وفي نحو قوله في الحمام أسد أن تزيد معنى الأسد من غير تأويل وأنى والمجاز ملزم قرينة معاندة لإرادة الحقيقة^(٤).

(١) دلائل الإعجاز: ٧٠

(٢) دلائل الإعجاز: ٧١

(٣) دلائل الإعجاز: ٧٢

(٤) مفتاح العلوم: ٣٠٣



الكنية في تفسير البيضاوي:

كثرت الكنيات في القرآن الكريم، ومن ثم نرى الشيخ البيضاوي يأتي على ذكر كثير منها في تفسيره، والكنية ثلاثة أنواع:

أولاً: الكنية عن صفة:

وهي التي تأتي للدلالة على صفة من الصفات كالكرم والشجاعة، وغيرها، وسنحاول أن نجمع بعض الكنيات التي جاءت في القرآن للدلالة على صفات معينة تحت عناوينها، فمنها:

١. الكنية عن صفة البخل:

قوله تعالى: ﴿الْمُنْفَقُونَ وَالْمُنْفَدِقُونَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَاونَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيهِمْ﴾ التوبه: ٦٧، قال البيضاوي رحمه الله: (ويقبضون أيديهم) عن المبار، وقبض اليد كنایة عن الشح^(١).

لما كانت اليد هي آلة العطاء والمنح، كان قبضها دليلاً على بخل وشح، لذلك فإن المعنى من قوله تعالى: (يقبضون أيديهم) جاء كنایة عن بخلهم وشحهم.

ويقول صاحب التحرير والتؤير في قوله تعالى: (وقالت اليهود يد الله مغلولة) الوصف بالبخل في العطاء لأن العرب يجعلون العطاء معبراً عنه باليد، يجعلون بسط اليد استعارة للبذل والكرم، يجعلون ضد البسط استعارة للبخل فيقولون: أمسك يده وقبض يده^(٢).

٢. الكنية عن صفة الكرم:

وفي مقابل البخل الذي تحدث الله عنه في الآية السابقة فإن الله عندما تحدث عن نفسه العلية وعن جوده وكرمه للرد على اليهود قال عن نفسه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَمْ يَأْمِنُوا إِمَانًا قَاتُلُوا بَلْ يَدَاهُمْ مَبْسُوطَاتٍ يُفْقِي كَيْفَ يَشَاءُ﴾ المائدة: ٦٤، فكما أن قبض اليد جاء كنایة عن البخل والشح، فإن بسطها هو كنایة عن الكرم والجود.

فبسط الكف أو اليد كنایة عن الكرم، ولذلك يقول البيضاوي تعقيباً على قوله تعالى: (بن يَدَاهُ مَبْسُوطَاتٍ)، قال: ثئي اليد مبالغة في الرد ونفي البخل عنه تعالى وإثباتاً لغاية الجود، فإن

(١) تفسير البيضاوي: ٦٣/٢

(٢) التحرير والتؤير: ٢٤٩/٦

غاية ما يبذل السخي من ماله أن يعطيه بيديه، وتتبّعهاً على منح الدنيا والآخرة وعلى ما يعطي للاستدراج وما يعطي للإكرام^(١).

ولهذا نرى جريراً عندما أراد أن يمدح قوماً بالكرم قال فيهم في البيت الذي يُقال أنه أفضل ما قيل في المدح، قال جرير:

أَسْتَمْ خَيْرَ مِنْ رَكِبِ الْمَطَايَا
وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطْوَنَ رَاحِ

٣. الكنية عن صفة الندم:

من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأُوا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلَّلُوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْنَا لَنَا إِنَّ كُوَنَّنَا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾^(٢) الآية ١٤٩، قال البيضاوي رحمه الله: (ولما سقط في أيديهم) كناية عن اشتداد ندمهم فإن النادم المتحسر بعض يده فتصير يده مسقوطاً فيها^(٣).

فقوله تعالى: (سقط في أيديهم) جاءت كناية عن صفة الندامة والحسرة التي وقعت لبني إسرائيل بسبب ضلالهم واتباعهم أهواءهم.

ومن كنایات الندم قوله تعالى: ﴿ وَلْيُحِيطَ بِشَرِيفِهِ فَأَصْبَحَ يُقْلِبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ حَاوِيَةٌ عَلَى مُرْوِشَهَا وَيَقُولُ بِلَيَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾^(٤) الآية ٤٢، الكهف: قال البيضاوي رحمه الله: (فأصبح يُقلِبُ كفَيْهِ) ظهراً ليطن تلهفاً وتحسراً... لأن تقليل الكفين كناية عن الندم فكانه قيل: فأصبح يندم، أو حال أي متحسن على ما أنفق فيها^(٥).

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعْضُ الظَّالِمُونَ عَلَى يَدِيهِ يَكْفُلُ يَنَائِيَتَهُ أَحْذَثُ مَعَ الرَّسُولِ سَيِّلًا ﴾^(٦) الفرقان: ٢٧، قال البيضاوي رحمه الله: (ويوم يَعْضُ الظَّالِمُونَ عَلَى يَدِيهِ) من فرط الحسقة، وغض اليدين وأكل البنان وحرق الأسنان ونحوها كنایات عن الغيظ والحسرة لأنها من روادفهم^(٧).

(١) تفسير البيضاوي: ٤٤٩/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٥٧٣/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٣٤٠/٢

(٤) تفسير البيضاوي: ٥٢٠/٢

٤. الكنية عن صفة الاكتئاب والاغتمام:

مثالها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَهْدُمْ بِالْأَنْتَنَ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٥٨) النحل: ٥٨، قال البيضاوي رحمه الله: (ظلَّ وَجْهُهُ) صار أو دام النهار كله. (مسوًداً) من الكآبة والحياة من الناس. واسوداد الوجه كناية عن الاعتمام والتشوير^(١).

٥. الكنية عن صفة التكبر:

مثالها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا آتَنَا عَلَى الْإِنْسَنِ أَعْرَضَ وَتَأْبِيَّهُ وَإِذَا مَسَهُ الشَّرُّ كَانَ يَتُوسَّا﴾ (٨٣) الإسراء: ٨٣، قال البيضاوي رحمه الله: (وتَأْبِيَّهُ) لوى عطفه وبعد بنفسه عنه كأنه مستعن مستبد بأمره، ويجوز أن يكون كناية عن الاستكبار لأنه من عادة المستكبارين^(٢).

فلما كان النأي بالجنب من عادات المستكبارين كان تحريق الجنوب بالنار إضافة للوجه جزاء لهم يوم القيمة على استكبارهم، فلذلك قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الْذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِثُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعِذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢٤) يوم يحمحى عليهما في نار جهنم فتكوئ بهما جاههم وَجْهُوهُمْ وَظَهُورُهُمْ هَذَا مَا كَتَزْتَمَ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (٢٥) التوبة: ٣٤ - ٣٥

ومثالها أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَنِّدُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتْبٍ شَنِيدٍ﴾ (٨) ظافِ عِطْفِهِ لِيُضَلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خَرَقَ وَنَدَقَهُ بِوَمَ الْقِيمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (٩) الحج: ٨ - ٩، قال البيضاوي رحمه الله: (ثانِي عِطْفِهِ) متكبراً وثني العطف كناية عن التكبر كليًّا الجيد، أو معرضًا عن الحق استخفافاً به^(٣).

فالآياتان السابقتان جاءتا للدلالة على مدى التكبر والاستخفاف عند المنعم عليه، والمجادل، وكان فائدة الكنية هنا جاءت لتسجيل حركاتهم وإماءاتهم وإشاراتهم التي كانوا يتلامزون بها، أمام المؤمنين، فالله يريد في هذه الآيات أن يقول لهم أن حركاتهم الصغيرة كالنأي بالجنب، أو ثني العطف مسجلة عليهم محاسبون عليها فمن باب أولى ستكون أقوالهم وأفعالهم المعادية للإسلام وبالاً عليهم، ويحاسبون عليها حساباً عسيراً.

(١) تفسير البيضاوي: ٢٦٦/٢

(٢) تفسير البيضاوي:

(٣) تفسير البيضاوي: ٤٤٠/٢

٦. الكنية عن الموت:

مثالها قوله تعالى: ﴿وَالْبُدْنَكَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعْكِرٍ أَلَّوْ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٌ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعُمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعَرَّدَ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لِعَلَمْكُمْ شَكُورُونَ﴾ (٣٦) الحج: ٣٦، قال البيضاوي رحمه الله: (فإذا وجبت جنوبها) سقطت على الأرض وهو نهاية عن الموت^(١).

وهنا قد يرد سؤال مفاده: ما فائدة الكنية في هذه الآية؟ أي لماذا قال الله: (فإذا وجبت جنوبها فكروا منها)، ولم يقل: (إذا ماتت فكروا منها).

قد يكون الجواب على هذا السؤال أن الآية جاءت للحديث عن الأضاحي، وقد قرر العلماء أن سيلان الدم شرط لازم حتى يحل الأكل من الأضحية أو الذكارة، وذلك أخذًا من قول النبي صلى الله عليه وسلم: (ما أنهَرَ الدَّمَ وَذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَكُلْ).^(٢)

ومعلوم أن إجراء الدم وسائله حتى آخره لا يكون إلا إذا سقطت على الأرض، وبذلك كان التعبير بـ(إذا وجبت جنوبها) أبلغ وأكثر دلالة على المراد من التعبير بـ(ماتت، أو ذُبحت)، لأنه قد يفهم من موتها الموت بأي طريقة كانت من الطرق الأخرى سوى الذبح كالضرب على الرأس أو التردي من علو، وقد يفهم من الذبح، مجرد إجراء السكين على رقبتها دون خروج سائر الدم.

٧. الكنية عن صفة التحقيق:

مثالها قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى بِيَالِكَنَا نَعْدُمُ مِنَ الْأَشْكَارِ﴾ (٣٧) أَنْخَذْنَاهُمْ سُخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ﴾ (٣٨) ص: ٦٢ - ٦٣، قال البيضاوي رحمه الله: (أم زاغت) مالت. (عنهم الأ بصار) فلا نراهم... على أن المراد نفي رؤيتهم لأنهم قالوا: أليسوا ها هنا أم زاغت عنهم أ بصارنا... بمعنى أي الأمرين فعلنا بهم الاستخار منهم أم تحقرهم، فإن زيف الأ بصار نهاية عنه على معنى إنكارهما على أنفسهم^(٣).

(١) تفسير البيضاوي: ٤٤٩/٢

(٢) أحكام الأضحية والذكارة (مطبوع ضمن كتاب الصيد الشinin في رسائل ابن عثيمين): محمد العثيمين، ص ٢٣٥، دار الثقة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

(٣) تفسير البيضاوي: ١٧٧/٣ - ١٧٨

فالكافرون في النار يتذكرون ضعفاء المؤمنين وما كانوا يفعلونه بهم من الاستسخار وزيغ الأ بصار عنهم، فزيغ الأ بصار هنا كناية عن تحقرهم، فهم في نظرهم أقل من أن ينظر إليهم فضلاً عن محادثهم والوقوف معهم.

وبهذا تكون فائدة الكناية هنا إبراز مدى اللوم والحسرة التي يكون عليها الكفار في النار إذ أنهم لا يرون من كانوا يحتقرونهم معهم في نفس المكان.

وهنا يتضح معنى دقيق يبرز من وراء ستر الكناية، وهو أن الطغاة لما استرذلوا المؤمنين واحتقرتهم ورفضوا مجالستهم والوقوف معهم وحتى مجرد النظر إليهم، كان جزاؤهم أنهم محرومون من أن ينزلوا منازلهم في جنة الله، فهم يبحثون عنهم ويسألون عن مكانهم لعلهم يستطيعون إليهم سبيلاً فيقولون أين هم؟ ما لنا لا نراهم؟ على سبيل التحسر والندم.

٨. الكناية عن صفة الجهل:

مثالها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَخِنُ بِأَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا يَعْوَضُهُ فَمَا فَوَقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهِنَّا مَثَلًا يُضَلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَقْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضَلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ البقرة: ٢٦ قال البيضاوي رحمه الله: (وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ) كان من حقه: (وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَعْلَمُونَ)، ليطابق قرينه ويقابل قسيمه، لكن لما كان قولهم هذا دليلاً واضحاً على كمال جهلهم عدل إليه على سبيل الكناية ليكون كالبرهان عليه^(١).

قسم الله الناس في فهم الآيات والأمثال التي يضربها الله لهم إلى صنفين، صنف مؤمن، وصفهم بأنهم يعلمون، وكان القياس أن يقابلهم بالكافرين ويصفهم بأنهم (يجهلون أو لا يعلمون)، ولكن الله لم يقل ذلك بل عدل عن التصريح بجهلهم إلى الكناية وهو قولهم: (ماذا أراد الله بهذا مثلاً)، ولا شك أن ذلك أبلغ وإحضاراً للدليل والبرهان كما أشار البيضاوي رحمه الله.

٩. الكناية عن صفة الغضب:

مثالها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْرِكُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَآيَاتِنَا ثُمَّا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَقَ لَهُمْ فِي الْأَخْرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيَهُمْ وَأَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٌ﴾ آل عمران: ٧٧، قال البيضاوي رحمه الله: (أُولَئِكَ لَا خَلَقَ لَهُمْ فِي الْأَخْرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ) بما يسرهم أو بشيء أصلاً، وأن الملائكة يسألونهم يوم القيمة، أو لا ينتفعون بكلمات الله وأياته، والظاهر أنه كناية عن غضبه

(١) تفسير البيضاوي: ٧٥/١

عليهم قوله: (وَلَا يُنْظِرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) فإن من سخط على غيره واستهان به أعرض عنه وعن التكلم معه والالتقات نحوه، كما أن من اعتد بغيره يقاوله ويكثر النظر إليه^(١).

١٠. الكناية عن الجماع:

مثالها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي تَخَافُونَ شُوَّهْرٌ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ النساء: ٣٤، قال البيضاوي رحمه الله: (فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ) في المراقد فلا تدخلوهن تحت اللحف، أو لا تباشروهن فيكون كناية عن الجماع^(٢).

ومثالها أيضاً قوله تعالى: ﴿يَكَبِّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الْأَصْكَلَةَ وَأَنْتُمْ شَكَرَى حَقَّ تَعْمَلُوا مَا نَثُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَارِي سَبِيلٌ حَقَّ تَغْنِسُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَهْوَجٌ أَوْ عَلَى سَقَرٍ أَوْ جَاهَةً أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْفَاعِلِطِ أَوْ لَمْسِنِمِ النِّسَاءِ فَلَمَّا تَحَدُّوْ مَاءَ فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَبَّا فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِهِنَّ وَأَيْدِيهِنَّ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُواً غَفُورًا﴾ النساء: ٤٣ ، قال البيضاوي رحمه الله: (أَوْ لَمْسِنِمِ النِّسَاءِ) أو ماسستم بشرتهن ببشرتكم، وبه استدل الشافعي على أن اللمس ينقض الوضوء. وقيل: أو جامعتموهن... واستعماله كناية عن الجماع أقل من الملامة^(٣).

ثانياً: الكناية عن موصوف:

وهي أن ذكر في الكلام صفة أو عدة صفات، ونريد بها موصوفاً معيناً^(٤)

مثالها قوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ يُنَشِّئُ فِي الْحِلَيَةِ وَهُوَ فِي الْخَصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ الزخرف: ١٨ ، قال البيضاوي رحمه الله: (أَوَمَنْ يُنَشِّئُ فِي الْحِلَيَةِ) أي أو جعلوا له، أو اتخذ من يتربى في الزينة يعني البنات^(٥).

فاللاتي يُنَشَّأنَّ في الحليـة هن البنات، لذلك كانت هذه كناية عنـهنـ.

فمن المعروف في عادات الناس أَلَّهُمْ يُنَشِّئُونَ بناتهم بما يلائم طبيعتهـنـ، وذلك بإعدادهـنـ حتى يـكـنـ زوجاتـ مالـكـاتـ قـلـوبـ أـزـوـاجـهـنـ، وهذا الإـعـادـ يـتـطلـبـ تـدـريـبـهـنـ على إـتقـانـ زـينـاتـهـنـ

(١) تفسير البيضاوي: ٢٧١/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٣٥٤/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٣٥٩/١

(٤) من بلاغة القرآن: أ.د. محمد علوان، وأ.د. نعمان علوان ، ٢٣٦

(٥) تفسير البيضاوي: ٢٤٧/٣

وحلّياتِهِنَّ، والتخلصُ في القول، ومجافأةِ الجدال، وعدم تعلمُ الكلام الذي يقال في المخاصمات، لئلاً يُفْسِدَ عليها لسانها حياتها مع زوجها، أو مع أحد أولياء أمرها، فجمال المرأة بحشمتها وإتقان زينتها وضبطِ لسانها عن الخصومات^(١).

ومن كنایات الموصوف قوله تعالى: ﴿فَاعْبِرْ لِكَرِ رَيْكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَغْظُومٌ﴾ القلم: ٤٨ ، قال البيضاوي رحمه الله: (وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ) يونس عليه السلام^(٢).

ثالثاً: الكنية عن نسبة:

والكنية عن نسبة هي "أنهم يرومون وصف الرجل ومذنه، وإثبات معنى من المعاني الشريفة له، فيدعون التصريح بذلك، ويكتون عن جعلها فيه بجعلها في شيء يشتمل عليه ويتباس به، ويتوصلون في الجملة إلى ما أرادوا من الإثبات، لا من الجهة الظاهرة المعروفة، بل من طريق يخفى، ومسلك يدق"^(٣).

مثالها قوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسَرَةٍ عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ﴾ الزمر: ٥٦ ، قال البيضاوي رحمه الله: (على ما فرط) بما قصرت. (في جنب الله) في جانبه أي في حقه وهو طاعته... وهو كناية فيها مبالغة قوله:

إِنَّ السَّمَاحَةَ وَالْمُرُوءَةَ وَالنَّدَى فِي قُبَّةٍ صُرِيبَتْ عَلَى ابْنِ الْحَشْرَجِ^(٤).

فقوله: (في جنب الله) كناية عن حقه، ونقل ابن عطية في تفسيره عن مجاهد قوله: "في جنب الله أي في أمر الله"^(٥) فيكون جنب الله كناية عن أمره، فالقصير في أمر الله تقصير مع الله، فهي كناية عن نسبة.

وقال ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿وَلَنْسَكِنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَغَافَ وَعِيدَ﴾ إبراهيم: ١٤ ، قال: ومعنى (خاف مقامي) خافي، لفظ مقام مقم للبالغة في تعلق الفعل بمفعوله، كقوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَانَ﴾ الرحمن: ٤٦ ، لأن المقام أصله

(١) البلاغة العربية لعبد الرحمن الدمشقي: ١٤٩/٢

(٢) تفسير البيضاوي: ٤٣٦/٣

(٣) دلائل الإعجاز: ٣٠٦

(٤) تفسير البيضاوي: ١٩٤/٣

(٥) المحرر الوجيز: ٥٣٨/٤

مكان القيام... فإذا قيل (خاف مقامي) كان فيه من المبالغة ما ليس في (خافي) بحيث إن الخوف يتعلق بمكان المخوف منه. كما يقال: قصر في جنبي. ومنه قوله تعالى: (على ما فرطت في جنب الله) وكل ذلك كنایة عن المضاف إليه كقول زياد الأعجم:

إن السماحة والمروءة والندى في قبة ضربت على ابن الحشيج^(١)

وهذا البيت الذي استشهد به كل من البيضاوي وابن عاشور -رحمهما الله- عَلَمْ عند البلغاء في كنایة النسبة ومعناه يوضحه الإمام الجرجاني فيقول: أراد، كما لا يخفى، أن يُثبِّت هذه المعانى والأوصاف خلاً للمدح وضرائب فيه، فترك أن يُصرَّح فيقول: "إن السماحة والمروءة والندى لمجموعه في ابن الحشيج، أو مقصورة عليه، أو مختصّة به"، وما شاكل ذلك مما هو صريح في إثبات الأوصاف للمذكورين بها، وعدل إلى ما ترى من الكنایة والتلويح، فجعل كونها في القبة المضروبة عليه، عبارة عن كونها فيه، وإشارة إليه، فخرج كلامه بذلك إلى ما حرج إليه من الجَزَلة، وظهر فيه ما أنت ترى من الفخامة، ولو أنه أُسْقط هذه الواسطة من بين، لما كان إلَّا كلاماً غُفلاً، وحديثاً سادجاً^(٢).

(١) التحرير والتovir: ٢٠٨/١٣

(٢) دلائل الإعجاز: ٣٠٧

المطلب الثاني: التعريض:

التعريض لغة:

جاء في لسان العرب: عَرَضَ لِفَلَانٍ وَبِهِ إِذَا قَالَ فِيهِ قَوْلًا وَهُوَ يَعِيْبُهُ. الأَصْمَعِيُّ: يُقَالُ عَرَضَ لِي فَلَانٌ تَعْرِيْضًا إِذَا رَجَرَ بِالشَّيْءِ وَلَمْ يَبْيَّنْ. وَالْمَعَارِيْضُ مِنَ الْكَلَامِ: مَا عُرِّضَ بِهِ وَلَمْ يُصَرَّحُ. وَأَعْرَاضُ الْكَلَامِ وَمَعَارِصُهُ وَمَعَارِيْضُهُ: كَلَامٌ يُشَبِّهُ بَعْضُهُ بَعْضًا فِي الْمَعَانِي كَالرَّجُلُ شَسَّالُهُ: هَلْ رَأَيْتُ فَلَانًا؟ فَيَكْرَهُ أَنْ يُكَذَّبَ وَقَدْ رَأَهُ فَيَقُولُ: إِنَّ فَلَانًا لَيْرَى؛ وَلِهَذَا الْمَعْنَى قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْعَبَّاسِ: مَا أُحِبُّ بِمَعَارِيْضِ الْكَلَامِ حُمْرَ النَّعْمَ^(١).

أمّا اصطلاحاً فقد عَرَفَهُ كثير من العلماء منهم ابن الأثير حيث يقول: فهو اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم بالوضع الحقيقى والمجازى^(٢).

أمّا العلوي فقد عَرَفَ التعريض تعريفاً دقيقاً حيث يقول: هو المعنى الحاصل عند اللفظ لا به^(٣).

أهمية التعريض:

وموضوع التعريض من الموضوعات الدقيقة في البلاغة العربية، إذ أن أكثر العلوم يعتمد علماؤها في تقرير تفصيلاتها والوقوف على تفريعاتها على التصريح والبيان الواضح ليفهم المتعلمين دقائق هذا العلم، لكن علم الفصاحة والبلاغة متميز عن هذه العلوم، إذ أنه بالصدق منها قائم على التلميح والتعريض فإنك إذا قرأت ما قاله العلماء فيه، وجدت جلّه أو كله رمزاً ووحيناً، وكنايةً وتعريضاً، وإيماءً إلى الغرض من وجده لا يقطن له إلا من غلغل الفكر وأدق النظر، ومن يرجع من طبعه إلى المعينة يقوى بها على الغامض، ويصل بها إلى الخفي، حتى كان بسلاً حراماً أن تتجلى معانيهم سافرة الأوجُه لا ينقيب لها، وبادية الصفحة لا حجاب دونها، وحتى كأن الإفصاح بها حرامٌ، وذكرها إلا على سبيل الكناية والتعريض غير سائغ^(٤).

(١) لسان العرب (عرض): ١٨٣/٧

(٢) المثل السائر: ٥٦/٣

(٣) الطراز: ١٩٤/١

(٤) دلائل الإعجاز: ٤٥٥ بتصرف.

ولا بد من الإشارة إلى أن مبحثي الكناية والتعريف مبحثان متقاربان، لأنهما قائمان على اختفاء المعاني وراء الألفاظ، لذلك هناك من يخلط بين الكناية والتعريف و يجعلهما في مقام واحد، ويسوق أمثلة كل منها للأخر. لكن الصحيح أن هناك فرق بين الكناية والتعريف.

الفرق بين الكناية والتعريف:

فرق الزمخشري في كشافه بين الكناية والتعريف فقال: **الكناية**: أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له، كقولك: طويل النجاد والحمائل لطول القامة وكثير الرماد للمضياف. **والتعريف**: أن تذكر شيئاً تدل به على شيء لم تذكره، كما يقول المحتاج للمحتاج إليه: جئتك لأسلم عليك، ولأنظر إلى وجهك الكريم^(١).

فمن الفروق بين الكناية والتعريف:

١. الفرق باعتبار المجاز:

الكناية واقعة في المجاز، ومعدودة منه، بخلاف التعريف، فلا يعد منه، وذلك من أجل كون التعريف مفهوماً من جهة القرينة، فلا تعلق له باللغة، لا من جهة حقيقته، ولا من جهة مجازه^(٢).

٢. الفرق من حيث الخفاء:

فالتعريف أخفى من الكناية؛ لأن دلالة الكناية لفظية وضعية من جهة المجاز، ودلالة التعريف من جهة المفهوم لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي، وإنما سمي التعريف تعريفاً؛ لأن المعنى فيه يفهم من عرضه أي: من جانبه، وعرض كل شيء جانبه^(٣).

ومعنى هذا الكلام أننا لو قلنا مثلاً: (فلان كثير الرماد)، هذه العبارة دالة على الكناية، ودلالتها جاءت معتمدة على الألفاظ، وذلك لأن كثرة الرماد أوحى إيقاد النار، الذي أوحى بكثرة الضيوف وإكرامهم، وبهذا استُدلَّ على الكرم، فالدليل على الكناية قائم من اللفظ نفسه.

(١) الكشاف: ٢٨٣-٢٨٢/١

(٢) الطراز: ٢٠٢/١

(٣) المثل السائر: ٥٧/٣



أما لو جئنا إلى التعريض في قوله تعالى: ﴿وَالْكُفَّارُ هُمُ الْمُوَقِّنُونَ﴾ البقرة: ٤ ، فدلالة التعريض هنا لا تعتمد على اللفظ، بل يلمح من السياق، ودلالته على التعريض تعتمد على الموقف وعلى القرائن الخارجية لا على القرائن اللغوية، ومن هنا يتضح أن التعريض أخفى من الكناية.

٣. الفرق من حيث الإفراد والتركيب في الألفاظ:

فالكناية تشمل اللفظ المفرد والمركب معاً، فتأتي على هذا تارة، وعلى هذا تارة أخرى، وأما التعريض فإنه يختص باللفظ المركب، ولا يأتي في اللفظ المفرد بتة.

فالتعريض لا يأتي في اللفظ المفرد، لأنه كما تقرر سابقاً فإن التعريض لا يكون من معنى الألفاظ نفسها، لأنه يعرف على أنه المعنى الحاصل عند اللفظ لا به، ولللفظ في إفراده لا يؤدي معنى كاملاً ولا يمكن أن يفهم من تلویح أو إشارة يبني عليها التعريض، بخلاف الكناية فإنه يأتي في المفرد والمركب^(١).

لفتة جميلة في الفرق بين الكناية والتعريض:

فالكناية تختلف عن التعريض كما سبق فالتعريض أشد خفاء من الكناية، ولقد أشار العلوي في الطراز إلى استخدام التعريض والكناية في قذف المؤمنين، ولاختلافهما فقد فرق العلماء بين القذف بالكناية والقذف بالتعريض من حيث الحكم.

وفي هذا يقول العلوي: من أجل هذا فرق علماء الشريعة بين صريح القذف وكنايته، وتعريضه، فأوجبوا في الصريح من القذف الحد مطلقاً في قوله: يا زاني، وأوجبوا في كنايته الحد إذا نوى به في مثل قوله: يا فاعلا بأمه، ويأ مفعولا به، ولم يوجبوا في التعريض الحد في مثل قوله. يا ولد الحال، وما ذاك إلا لأجل أن الصريح والكناية، يدلان على القذف من جهة اللفظ، إما بالحقيقة، أو بالمجاز^(٢).

(١) المثل السائر: ٥٧/٣ بتصريف

(٢) الطراز: ٢٠٢/١

التعريض عند البيضاوي:

عَرَفَ الْإِمَامُ الْبَيْضَاوِيُّ رَحْمَهُ اللَّهُ التَّعْرِيفُ فَقَالَ: التَّعْرِيفُ وَالتَّلْوِيحُ: إِيَّاهُمُ الْمَقْصُودُ بِمَا لَمْ يُوْضَعْ لَهُ حَقِيقَةً وَلَا مَجَازًا، كَوْلُ السَّائِلِ جَئْنَكَ لِأَسْلَمَ عَلَيْكَ، وَالْكَنَاءُ هِيَ الدَّلَالَةُ عَلَى الشَّيْءِ بَذْكُرِ لَوازْمِهِ وَرَوَادِفِهِ، كَقُولُكَ الطَّوِيلِ النَّجَادِ لِلطَّوِيلِ، وَكَثِيرُ الرَّمَادِ لِلْمُضَيَّافِ^(١).

وتعريف البيضاوي رحمه الله يشير إلى ما قرره العلماء من أن الكناية والتعريض مختلفان وإن تقاربا في كونهما دالان على معنى خفي يتم عند الألفاظ.

ولقد بين البيضاوي رحمه الله التعريض في كثير من الآيات القرآنية والمتبوع لهذه الآيات يلحظ أن هناك طرقاً خاصة تشير إلى التعريض، يمكن أن تصنف تحت العناوين التالية:

طُرُقُ وَأَسَالِيبُ التَّعْرِيفِ فِي تَفْسِيرِ الْبَيْضَاوِيِّ:

١. تقديم الصلة:

من ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَإِنَّ الْخَرَقَةَ هُمْ يُوقَنُونَ ⑥ ﴾^(٢)
البقرة: ٤، قال البيضاوي رحمه الله: وفي تقديم الصلة وبناء يوقنون على هم تعريض لمن عداهم من أهل الكتاب، وبأن اعتقادهم في أمر الآخرة غير مطابق ولا صادر عن إيقان^(٣).

فجملة (وبالآخرة هم يوقنون)، وإن كان المراد الأول منها إثبات إيقان المؤمنين بالآخرة، لكن من مرادها أيضاً التعريض بالذين لا يوقنون بها، وهم أهل الكتاب على ما ذكر البيضاوي.

ويوضح لنا السكاكي هذا التعريض بقوله: وفي معنى قوله: (وبالآخرة هم يوقنون) نذهب على أنه تعريض بأن الآخرة التي عليها أهل الكتاب فيما يقولون أنها لا يدخل الجنة فيها من كان هودا أو نصاري وأنها لا تمسهم النار فيها إلا أياماً معدودات وأن أهل الجنة فيها لا يتلذذون في الجنة إلا بالنسم والآرواح العبة والسمع للذين ليست بالآخرة وإيقانهم بمثلها ليس من الإيقان بالتي هي الآخرة عند الله في شيء^(٤).

(١) تفسير البيضاوي: ٢٠٣/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٣٨/١

(٣) مفتاح العلوم: ٢٣٤

٢. تقديم الضمير

مثاله قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُسْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩] قال البيضاوي رحمه الله: (وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُسْفِقُونَ) خائفون وفي تصدير الضمير وبناء الحكم عليه مبالغة وتعریض^(١).

٣. التعریض بـ(إنما):

من المعاني التي تأتي لها (إنما) التعریض، ويشير إلى هذا الإمام عبد القاهر الجرجاني بقوله: ثم اعلم أنك إذا استقرت وجذتها أقوى ما تكون وأعلق ما ترى بالقلب، إذا كان لا يراد بالكلام بعدها نفس معناه، ولكن التعریض بأمر هو مقتضاه، نحو أنا نعلم أن ليس الغرض من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنَذِرُ أُولُوا الْأَيْنَى﴾ [الرعد: ١٩] [الزمر: ٩]، أن يعلم السامعون ظاهر معناه، ولكن أن يذم الكفار، وأن يقال إنهم من فرط العناد ومن غلبة الهوى عليهم، في حكم من ليس بذمي عقلاً، وإنكم إن طمعتم منهم في أن يتظروا ويتدبروا، كنتم كمن طمع في ذلك من غير أولي الألباب^(٢).

ومما جاء في تفسير البيضاوي على التعریض بـ(إنما)، قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [١١] [آل إِيمَانٍ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ] [١٢] [البقرة: ١١ - ١٢] قال البيضاوي رحمه الله: (أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ) وتعريف الخبر وتوسيط الفصل لرد ما في قولهم (إنما نحن مصلحون) من التعریض للمؤمنين^(٣).

فقولهم (إنما نحن مصلحون) جاءت للتعريض بالمؤمنين وكأنهم أرادوا أن يقولوا أنا نحن المصلحون فقط ولا مصلح غيرنا، لأن إنما من أدوات القصر، وبهذا يكون قصدهم أن يعرضوا بالمؤمنين بأنهم هم المفسدون فجاء الرد من الله عليهم أنهم هم المفسدون لا المؤمنين.

٤. نفي الصفات السيئة عن أضداد المعرض بهم:

فنفي الصفات السيئة والمعاصي عن المؤمنين مثلاً تأتي ليُفهم منها بطريق المخالفة أن غير المؤمنين متصفون بها فيكون هذا تعريض بهم.

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَتَعُونُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا أَخْرَ وَلَا يَقْتُلُونَ أَنفُسَ أَلَّا حَرَمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِيقَةِ وَلَا يَرْثُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً﴾ [٦٨] [الفرقان: ٦٨] قال البيضاوي رحمه الله: نفي عنهم أمehات

(١) تفسير البيضاوي: ٤٢٣/٢

(٢) دلائل الإعجاز: ٣٥٤

(٣) تفسير البيضاوي: ٤٩/١

المعاصي بعد ما ثبت لهم أصول الطاعات إظهاراً لكمال إيمانهم وإشعاراً بأن الأجر المذكور موعود للجامع بين ذلك، وتعرضاً للكفرة بآضداده ولذلك عقبه بالوعيد تهديداً لهم فقال: (وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يُلْقَ أثَاماً) ^(١).

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّتٍ بَخْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَرُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ التحريم: ٨، قال البيضاوي رحمه الله: (يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ) ظرف ل يُدْخِلُكُمْ. (وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ) عطف على النبي عليه الصلاة والسلام إحمداداً لهم وتعرضاً لمن ناوأهم ^(٢).

والمعنى أن الله لن يخزي النبي والمؤمنين، وهو تعریض بالمناوئين له أي أنه سيعکونون بالضد منهم في عداد المُخْرِيْن.

ومن التعریض بنفي الصفات السيئة قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُنُوا هُوَدًا أَوْ نَصَارَىٰ فَلْ يَنْبُئُ مَلَائِكَهُمْ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ البقرة: ١٣٥، قال البيضاوي رحمه الله: (ومَا كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) تعریض بأهل الكتاب وغيرهم، فإنهم يدعون اتباعه وهم مشركون ^(٣).

٥. نفي الصفات الحسنة عن أضداد المعرض بهم:

نفي الصفات الحسنة عن الكفار في القرآن الكريم يأتي للتعریض بالمؤمنين ويكون كالمدح لهم، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿فَأَبْيَتَنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ رَحْمَةٌ وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِعِيَّنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ الأعراف: ٧٢، قال البيضاوي رحمه الله: (ومَا كانُوا مُؤْمِنِينَ) تعریض بمن آمن منهم، وتنبيه على أن الفارق بين من نجا وبين من هلك هو الإيمان ^(٤).

٦. إثبات الصفات الحسنة لأضداد المعرض بهم:

على العكس مما سبق فيأتي التنزيل بإثبات الصفات الحسنة للمؤمنين تعریضاً بالكافرين وكأنهم بالضد منهم، ومثاله قوله تعالى: ﴿فَلْ نَزَّلْنَا رُوحَ الْقُدُّسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِتُبَيِّنَ الَّذِينَ

(١) تفسير البيضاوي: ٥٣٠/٢

(٢) تفسير البيضاوي: ٤٢٢/٣

(٣) تفسير البيضاوي: ١٤٢/١

(٤) تفسير البيضاوي: ٥٥٢/١

ءَامِنُوا وَهُدَىٰ وَبَشَّرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦﴾ النحل: ١٠٢ ، قال البيضاوي رحمه الله: (وَهُدَىٰ وَبَشَّرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ) المنقادين لحكمه... وفيه تعريض بحصول أضداد ذلك لغيرهم^(١).

ومن التعريض بإثبات الصفات الحسنة قوله تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّعِوْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشَرِّكِينَ﴾ ﴿٩٥﴾ آل عمران: ٩٥ ، قال البيضاوي رحمه الله: (قُلْ صَدَقَ اللَّهُ) تعريض بكذبهم، أي ثبت أن الله صادق فيما أنزل وأنتم الكاذبون^(٢).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿فَعَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأَمِيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلَمَتِهِ﴾ الأعراف: ١٥٨ ، قال البيضاوي رحمه الله: (فَعَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأَمِيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلَمَاتِهِ) ما أنزل عليه وعلى سائر الرسل من كتبه ووحيه. وقرئ (وكلمته) على إرادة الجنس أو القرآن، أو عيسى تعريضاً لليهود وتتببيها على أن من لم يؤمن به لم يعتبر إيمانه^(٣).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ يَوْمٍ وُلِدَتْ وَيَوْمٌ أَمُوتُ وَيَوْمٌ أُبْعَثُ حَيَاً﴾ ﴿٣٣﴾ مريم: ٣٣ ، قال البيضاوي رحمه الله: (وَالسَّلَامُ عَلَىٰ يَوْمٍ وُلِدَتْ وَيَوْمٌ أَمُوتُ وَيَوْمٌ أُبْعَثُ حَيَاً) كما هو على يحيى والتعريف للعهد والأظهر أنه للجنس والتعريض باللعنة على أعدائه، فإنه لما جعل جنس السلام على نفسه عرض بأن ضد ه عليهم كقوله تعالى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنْ أَبَيَ الْمُهَدَّةَ﴾ ﴿٤٧﴾ طه: ٤٧ ، فإنه تعريض بأن العذاب على من كذب وتولى^(٤).

٧. إثبات الصفات السعيدة للمعرض بهم:

فعندما يصف الله عز وجل أعمال قوم بالسوء والكراءة يكون مدحًا لمن خالق هذه الصفات وأتى بالضد منها، كما في قوله تعالى: ﴿فَرَحِّ الْمُخَلَّفُونَ يُمَقَّدِّهُمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوْا أَنْ يُجْهِدُوْا بِإِيمَانِهِمْ وَأَقْسِمُهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا نَنْفِرُ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُوْنَ﴾ ﴿٨١﴾ التوبة: ٨١.

(١) تفسير البيضاوي: ٢٨٠/٢

(٢) تفسير البيضاوي: ٢٧٨/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٥٧٦/١

(٤) تفسير البيضاوي: ٣٦٦/٢

قال البيضاوي رحمه الله: (وَكَرِهُوا أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) إيثاراً للدعة والخض على طاعة الله، وفيه تعريض بالمؤمنين الذين آثروا عليها تحصيل رضاه ببذل الأموال والمهج^(١).

فيكون التعريض هنا على طريق المدح وليس الذم، مع أن أكثر التعريض يأتي للذم والتوبیخ.

٨. إثبات القدرة للعجز الضعيف:

يأتي التعريض بأن ينزل العاجز منزلة القادر تعريضاً بعجزه وإظهاراً لضعفه، كما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ بْلَ فَعْلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسْلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطَقُونَ﴾^(٢) الأنبياء: ٦٣، قال البيضاوي رحمه الله: (قالَ بْلَ فَعْلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسْلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطَقُونَ) أنسد الفعل إليه تجوزاً لأن غيظه لما رأى من زيادة تعظيمهم له تسبب لمباشرته إياها، أو تقريراً لنفسه مع الاستهزاء والتباكيت على أسلوب تعريضي كما لو قال لك من لا يحسن الخط فيما كتبته بخط رشيق: أنت كتبت هذا فقلت بل كتبته أنت^(٣).

٩. تصوير الأمر على نفس المعرض والقصد إيقاعه على المعرض به:

هذه طريقة دقيقة وغاية في البلاغة يأتي عليها التعريض، وذلك أن يعمد المتكلم بالحديث عن نفسه، ويقصد به حمل الكلام على غيره تعريضاً، وفائدة هذا النوع من التعريض التلطف في الدعوة لتكون أقرب إلى نفس المستمع.

مثاله قوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَئِيهِمْ مَا كُنْتُ تَعْبُدُونَ﴾^(٤) ٧٥، أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْرَبُونَ^(٥) ٧٦، فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ^(٦) ٧٧، الشعراة: ٧٥ - ٧٧، قال البيضاوي رحمه الله: (فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي) يريد أنهم أعداء لعبادتهم من حيث إنهم يتضررون من جهتهم فوق ما يتضرر الرجل من جهة عدوه، أو إن المغري بعبادتهم أعدى أعدائهم وهو الشيطان، لكنه صور الأمر في نفسه تعريضاً لهم فإنه أفعى في النصح من التصريح، وإشعاراً بأنها نصيحة بدأ بها نفسه ليكون أدعى إلى القبول^(٧).

على معنى أنني فكرت في أمري فرأيت عبادي لها عبادة للعدو وهو الشيطان، فاجتنبها، وأثرت عبادة من الخير كله في يده، وأوأهم بذلك أنها نصيحة ينصح بها نفسه، لينظروا فيقولوا: ما

(١) تفسير البيضاوي: ٦٩/٢

(٢) تفسير البيضاوي: ٤٢٥/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ٥٤٣/٢

نصحنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه، فيكون ذلك أدعى لهم إلى القبول لقوله، وأبعث على الاستماع منه، ولو قال فإنهم عدو لكم لم يكن بتلك المثابة^(١).

ومن قبيل تصوير الأمر على النفس والمراد به الغير على طريق التعریض قوله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ^{١٥} الأنعام: ١٥، قال البيضاوي رحمه الله: (قُلْ إِنَّمَا أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) مبالغة أخرى في قطع أطماعهم، وتعريف لهم بأنهم عصاة مستوجبون للعذاب^(٢).

والمعنى أنه أراد أنكم عصيتم الله فسيكون جزاؤكم عذاب عظيم.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيَّ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَنْجُمُ أَهْوَاءَكُمْ فَدَعْلَمْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهَتَّمِينَ﴾ ^{٥٦} الأنعام: ٥٦، قال البيضاوي رحمه الله: (فَدَعْلَمْتُ إِذَا) أي إن اتبعت أهواءكم فقد ضللت. (وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهَتَّمِينَ) أي في شيء من الهدى حتى أكون من عدادهم، وفيه تعريف بأنهم كذلك^(٣).

١٠. التعريض بالمدح:

حيث يُعد إلى المدح بالكرم مثلاً والمراد منه السؤال والعطاء، ومثاله في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَفِي مَسَيْفَ الْمُرْثِ وَأَنَّ أَرْحَمَ الْرَّجِيبِينَ﴾ ^{٨٣} الأنبياء: ٨٣، قال البيضاوي رحمه الله: (وَأَنَّ أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ) وصف ربِّه بغاية الرحمة بعد ما ذكر نفسه بما يوجبهها واكتفى بذلك عن عرض المطلوب لطفاً في السؤال^(٤).

فكأنَّ أيوب عليه السلام استحيَا من الله عز وجل أن يطلب منه رفع البلاء صراحةً، فعمد إلى التعريض بوصف الله بالرحمة البالغة تلطفاً بالسؤال، "وروي أنه كان يقال له: ما لك لا تندعو في العافية، فكان يقول إني لأستحيي من الله تعالى أن أسأله زوال عذابه حتى يمر على فيه ما مر من الرخاء، وأصابه البلاء فيما روي وهو ابن ثمانين سنة"^(٥)

(١) المثل السائر: ١٢٩/٣

(٢) تفسير البيضاوي: ٤٨٢/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٤٩٤/١

(٤) تفسير البيضاوي: ٤٢٩/٢

(٥) المحرر الوجيز: ٩٥/٤

الفصل الرابع

”مباحث علم البديع في تفسير البيضاوي“

- المبحث الأول: المحسنات المعنوية
- المبحث الثاني: المحسنات اللفظية

الفصل الرابع: مباحث علم البدع في تفسير البيضاوي

البدع لغة: بَدَعَ الشَّيْءَ يَبْدُعُه بَدْعًا وَابْتَدَعَه: أَنْشَأَه وَبَدَأَه، وَالْبَدِيعُ: الْمُحْدَثُ الْعَجِيبُ، وَأَبْدَعْتُ الشَّيْءَ: أَخْتَرَعْتُه لَا عَلَى مِثْلٍ^(١).

البدع اصطلاحاً: علم يعرف به وجوه تحسين الكلام، بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة^(٢)، وقيل: هو علم يعرف به الوجوه والمزايا التي تزيد الكلام حسناً وطلاؤة، وتكتسوه بهاءً، ورونقاً، بعد مطابقته لمقتضى الحال مع وضوح دلالته على المراد لفظاً ومعنى^(٣).

وواضعه، (عبد الله بن المعتز العباسي) المتوفى سنة ٢٧٤ هجرية - ثم اقتقى أثره في عصره (قدامة بن جعفر الكاتب) فزاد عليها، ثم ألف فيه كثيرون (كأبي هلال العسكري) وابن رشيق القيرواني، وصفي الدين الحلبي، وابن حجة الحموي) وغيرهم من زادوا في أنواعه، ونظموا فيها قصائد تُعرف (بالبدعيات)^(٤)

(١) لسان العرب (بدع): ٧/٨

(٢) بغية الإيضاح: ٥٧١/٤

(٣) علوم البلاغة للمراغي: ٢٩٨

(٤) علوم البلاغة للمراغي: ٢٩٩

المبحث الأول: المحسنات المعنوية

أولاً: الطباق:

ويقال له التضاد، والتكافؤ، والطباق، وهو أن يؤتى بالشيء وبضده في الكلام^(١).

ويأتي الطباق على أشكال مختلفة، جاء على ذكر بعضٍ منها الإمام البيضاوي في تفسيره.

"العنصر الجمالي في الطباق هو ما فيه من التلاؤم بينه وبين تداعي الأفكار في الأذهان، باعتبار أن المتقابلات أقرب تخطاراً إلى الأذهان من المشابهات والمتخالفات"^(٢).

أنواع الطباق في تفسير البيضاوي:

١. الطباق بين اسمين:

مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرِزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَلِلَّهِ وَلِنَا أُولَئِكُمْ لَعَلَّ هُدَىً أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ سبأ: ٢٤، قال البيضاوي رحمه الله في معنى (الهدى): والهدى في الأصل مصدر كالسرى والتقوى ومعناه الدلالة. وقيل: الدلالة الموصولة إلى البغية لأنه جعل مقابل الضلال في قوله تعالى: إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ^(٣).

فالبيضاوي رحمه الله يشير بقوله: (لأنه جعل مقابل الضلال)، إلى وجود طباق بين الهدى والضلال، والهدى والضلال اسماً كما هو واضح، ويسميه البيضاوي مقابلة.

٢. الطباق بين فعلين:

مثاله قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَنْوَاتًا فَأَخْيَكُمْ ثُمَّ يُمْسِكُمْ ثُمَّ يُخْبِيْكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ البقرة: ٢٨، قال البيضاوي رحمه الله: والحياة حقيقة في القوة الحساسة، أو ما يقتضيها وبها سمي الحيوان حيواناً مجازاً في القوة النامية، لأنها من طائعها ومقدماتها، وفيما يخص الإنسان من الفضائل، كالعقل والعلم والإيمان من حيث إنها كمالها وغايتها، والموت بإذائها يقال على ما يقابلها في كل مرتبة قال تعالى: (فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّكُمْ ثُمَّ يُمْسِكُمْ)^(٤).

(١) الطراز: ١٩٧/٢

(٢) البلاغة العربية لعبد الرحمن الدمشقي: ٣٧٥/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ١٠٧/٣

(٤) تفسير البيضاوي: ٧٩/١

فالطباق بين (يحييك ويميتكم)، وهو فعلان.

ومن طباق الفعلين قوله تعالى: ﴿يَنْسَكُ الْشَّرَابَ وَسَاءَتْ مُرْتَقَةً﴾ الكهف: ٢٩ ، قوله تعالى: ﴿نَعَمَ الْثَّوَابُ وَحَسِنَتْ مُرْتَقَةً﴾ الكهف: ٣١

قال البيضاوي رحمه الله: (وساءت) النار. (مرتفقاً) متكوناً وأصل الارتفاع نصب المرفق تحت الخد، وهو لمقابلة قوله (وحسنت مرتفقاً) وإلا فلا ارتفاع لأهل النار^(١).

٣. الطباق بين حرفين:

وأشار البيضاوي رحمه الله إلى أن الطباق قد يقع بين حرفين وذلك عندما تعرّض لقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثْلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ البقرة: ٢١٤ ، قال البيضاوي رحمه الله: (ولمّا يأتكم) ولم يأتيكم، وأصل لمّا لم زيدت عليها ما وفيها توقع وذلك جعلت مقابل قد^(٢).

فيشير البيضاوي إلى أن (المّا وقد) حرفان بينهما طباق أو مقابلة على ما سماهما به، والسبب في ذلك هو أن معنى (الما) على ما وأشار هو توقع الحدوث، بينما قد تأتي للتأكيد.

٤. الطباق الخفي أو المعنوي:

والطباق الخفي أو المعنوي هو ما يكون بين لفظة وبين معنى يطابق هذه اللفظة، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الْأَضَلَالِ فَلَيَمِدُّ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَقًّا إِذَا رَأُوا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا أَعْذَابٌ وَإِمَّا أَسَاطِعَةٌ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ مريم: ٧٥

قال البيضاوي رحمه الله: (وأَضْعَفُ جُنْدًا) أي فئة وأنصاراً قابل به (أحسن ندياً) من حيث إن حسن النادي باجتماع وجوه القوم وأعيانهم وظهور شوكتهم واستظهارهم^(٣).

فالطباق الخفي واقع بين (أضعف جنداً) و (أحسن ندياً)، من حيث أن المعنى الذي يشير إليه (أحسن ندياً)، هو أقوى شوكة واستظهاراً كما وأشار البيضاوي وهو يطابق (أضعف جنداً)^(٤).

(١) تفسير البيضاوي: ٣٣٧/٢

(٢) تفسير البيضاوي: ١٨٥/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٣٧٧/٢

(٤) تفسير البيضاوي: ٣٧٦/٢

ومن الطباق الخفي قوله تعالى: ﴿لَيْسَرَ مَنْ كَانَ حَيَا وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(١) يس: ٧٠، قال البيضاوي رحمه الله: (ليذر) القرآن أو الرسول صلى الله عليه وسلم... (من كان حياً عاقلاً فهما فإن الغافل كالملت، أو مؤمناً في علم الله تعالى فإن الحياة الأبدية بالإيمان...) (ويحق القول) وتجب كلمة العذاب. (على الكافرين) المcriن على الكفر، وجعلهم في مقابلة من كان حياً إشعاراً بأنهم لففهم وسقوط حجتهم وعدم تأملهم أموات في الحقيقة^(٢).

فالطباق بين (حياً) و(الكافرين)، وهو طباق خفي إذ أنه وضع الكافرين موضع الأموات ليطابق (من كان حياً)، والتي تدل على المؤمنين.

ومن الطباق الخفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي مَا إِنَّا لَمْ يَعْلَمُوا أَفَنَ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي مَأْمَنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شَاءُوا إِنَّمَا يَمْأُلُونَ بَصِيرًا﴾^(٣) فصلت: ٤٠، قال البيضاوي رحمه الله: (أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ) قابل الإلقاء في النار بالإتيان آمناً مبالغة في إحمد حال المؤمنين^(٤).

فالذي يُلقى في النار يقابل الذي يدخل الجنة، لكنه قابله بالإتيان آمناً، وهو من الطباق الخفي، جاء لغرض وصف حال المؤمنين في الجنة وتقليلهم في نعيمها.

٥. طباق السلب:

هو الجمع بين فعلي مصدر واحد مثبت ومنفي، أو أمر ونهي^(٥).

ومثاله قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوْ عَزَّتْ أَرْدَلَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾^(٦) الشعراء: ١٣٦، قال البيضاوي رحمه الله: (قالوا سواء علينا أو عزت ألم لم تكن من الوعاظين) فإننا لا نرعوي عما نحن عليه، وتغيير شق النفي بما تقتضيه المقابلة للمبالغة في قلة اعتمادهم بوعظه^(٧)

فيشير البيضاوي في عبارته السابقة إلى وجود مقابلة أو تضاد بين (أوعزت) و(لم تكن من الوعاظين)، وهذا الطباق أو التضاد سماه العلماء طباق السلب حيث يؤتى بفعلين أو مشتقاتهما مرة مثبتة ومرة منفية لإفادة الطباق.

(١) تفسير البيضاوي: ١٣٨/٣

(٢) تفسير البيضاوي: ٢٢٧/٣

(٣) بغية الإيضاح: ٥٧٥/٤

(٤) تفسير البيضاوي: ٥٤٩/٢

٦. الطباق المجاري:

وهو الطباق الذي يأتي بين ألفاظ لا تدل على معانٍ حقيقة وإنما هي معانٍ مجازية، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَنَّ يَمْشِي مُكْبًا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمْنَ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١) قال الملك: ٢٢، قال البيضاوي رحمه الله: ومعنى مكباً أنه يعثر كل ساعة ويخر على وجهه لوعورة طريقه واختلاف أجزائه، ولذلك قابله بقوله: (أَمْنٌ يَمْشِي سَوِيًّا) قائماً سالماً من العثار... والمراد تمثيل المشرك والموحد بالسالكين والدينين بالمسلكين^(١).

فالطباق قائم بين لفظتي: (مكباً وسوياً)، وهذا الطباق ليس بمعناه الحقيقي أي أنه ليس مقصوداً بكلمة (مكباً) الذي يت العثر بالطريق على الحقيقة وليس المقصود بـ(سوياً) الذي يسير سيراً سالماً صحيحاً، وإنما المقصود منها المعنى المجاري وهو الضال والمهدى على الترتيب.

(١) تفسير البيضاوي: ٤٢٨/٣ - ٤٢٩/٤

ثانياً: المقابلة:

وهي أن تجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر وبين ضديهما^(١)، وقيل هي: أن يؤتى بمعنىين متوافقين أو أكثر ثم يؤتى بما يقابل ذلك على سبيل الترتيب^(٢).

فمن المقابلة التي جاءت في كتاب الله عز وجل قوله تعالى: ﴿مَثُلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا نَذَكَرُونَ﴾ هود: ٢٤، قال البيضاوي رحمه الله: (مثُلُ الفريقيْنِ) الكافر والمؤمن. (كالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ) يجوز أن يراد به تشبيه الكافر بالأعمى لتعامي عن آيات الله، وبالاصم لتصامه عن إسماع كلام الله تعالى وتأبيه عن تدبر معانيه، وتشبيه المؤمن بالسميع والبصیر لأن أمره بالضد فيكون كل واحد منهما مشبهاً باثنين باعتبار وصفين، أو تشبيه الكافر بالجامع بين العمى والصمم والمؤمن بالجامع بين ضديهما والعاطف لعطف الصفة على الصفة... وهذا من باب اللف والطباقي^(٣).

فقد جاءت المقابلة بين الكافرين والمؤمنين بذكر صفات كل فريق منهم على وجه التشبيه، فوصف الله الكافر بـ(الأعمى والأصم)، وقابل هاتين الصفتين بما يضادها على وجه الترتيب وهي صفات المؤمن فقال: (والبصیر والسمیع).

ومن المقابلة قوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الْطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبِثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ تُصْرِفُ الْأَيَّنَتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ الأعراف: ٥٨، قال البيضاوي رحمه الله: (والبلد الطيب) الأرض الكريمة التربة. (يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ) بمشيئة ربها وتيسيره، عبر به عن كثرة النبات وحسنه وغزاره نفعه لأنه أوقعه في مقابلة. (وَالَّذِي خَبِثَ) أي كالحرارة والسبخة. (لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا) قليلاً عديم النفع^(٤).

فالمقابلة قائمة بين: (البلد الطيب)، و (الذي خبث) من جهة، وبين (يخرج نباته بإذن ربها)، و (لا يخرج إلا نكداً) من جهة أخرى.

ومن المقابلات البدعية في القرآن الكريم المقابلة بين قوله تعالى: ﴿الْمُنْفَقُونَ وَالْمُنْفَقَنُ بَعْضُهُمُ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْصِدُونَ أَيْدِيهِمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَاهُمْ إِنَّ

(١) مفتاح العلوم: ٤٢٤

(٢) علوم البلاغة للمراغي: ٣٢٢

(٣) تفسير البيضاوي: ١٢٧/٢

(٤) تفسير البيضاوي: ٥٤٩/١

الْمُنَفِّقُونَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَفِّقِينَ وَالْمُنَفَّقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارًا جَهَنَّمَ خَلِيلِينَ فِيهَا هَيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنْهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ التوبه: ٦٧ - ٦٨

قال البيضاوي رحمه الله: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلَيَاءُ بَعْضٍ) في مقابلة قوله (الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطْبِعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فِي سَائِرِ الْأَمْوَارِ) (١).

فقد أشار البيضاوي رحمه الله إلى وجود مقابلة بين هاتين الآيتين، والمدقق في هذه الآيات يلحظ عدة مقابلات اجتمعت لتكون مقابلةً واحدة.

١. المقابلة بين: (المنافقون والمنافقات) و (المؤمنون والمؤمنات).
 ٢. المقابلة بين: (بعضهم من بعض) و (بعضهم أولياء بعض).
 ٣. المقابلة بين: (يأمرون بالمنكر)، و (يأمرون بالمعروف).
 ٤. المقابلة بين: (ينهون عن المعروف) و (ينهون عن المنكر).
 ٥. المقابلة بين: (يقطضون أيديهم) و (يؤتون الزكاة)، فإن قبض الأيدي كناية عن البخل وعدم الإنفاق، وإيتاء الزكاة دلالة على الإنفاق فيكون بين العبارتين تضاد.
 ٦. الم مقابلة بين: (نسوا الله فنسىهم) و (أولئك سيرحمهم الله) فنسيان الله لهم كناية عن تعذيبه لهم، والرحمة كناية عن النعيم الذي حلّ بهم.
 ٧. الم مقابلة بين: (نار جهنم خالدين فيها) و (جنت تجري من تحتها الأنهر خالدين فيها).
 ٨. الم مقابلة بين: (لعنهم الله) و (رضوان من الله أكبر).
 ٩. الم مقابلة بين: (ولهم عذاب مقيم) و (ذلك هو الفوز العظيم).

(١) تفسير البيضاوى: ٦٤/٢

وهذه المقابلات تأتي للإشارة إلى تباين واختلاف أحوال الفريقين في الدنيا بأعمالهم وفي الآخرة بعواقب هذه الأعمال، وذلك من سنن القرآن الكريم ليكون ذلك إقامةً الحجة على الكافر ليكون على علم بنهاية الطريق الذي يسلك وإلى أي شيء سيؤدي إليه كفره وعناده.

ثالثاً: المشاكلة:

المشاكلة اصطلاحاً: هي أن تذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته^(١)

والمشاكلة نوعان:

١. المشاكلة التحقيقية:

وهي أن تذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته حقيقة، أي أنه مذكور في الكلام نصاً، كما في قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَمُ الْغُيُوبِ﴾^(٢) المائدة: ١١٦، قال البيضاوي رحمه الله: تعلم ما أخفيه في نفسي كما تعلم ما أعلنه، ولا أعلم ما تخفيه من معلوماتك. قوله (في نفسك) للمشاكلة وقيل المراد بالنفس الذات^(٣).

ومثلها أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا إِنَّا أَنَا أَعْلَمُ إِنَّمَا يَعْلَمُ مَنْ مُسْتَهْزِئُونَ﴾^(٤) البقرة: ١٤ - ١٥، قال البيضاوي رحمه الله: (الله يسْتَهْزِئُ بِهِمْ) يجازيهم على استهزائهم، سمي جزاء الاستهزاء باسمه كما سمي جزاء السيئة سيئة، إما لمقابلة اللفظ باللفظ، أو لكونه مماثلاً له في القدر، أو يرجع وبالاستهزاء عليهم فيكون كالمستهزئ بهم^(٥).

فالاستهزاء هنا من الله ليس على حقيقته وإنما جاء على المشاكلة ليدل على أن عقاب الله لهم ناتج عن أعمالهم واستهزائهم بالمؤمنين.

ومثلها آية: ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَةً مِثْلَهَا فَمَنْ عَفَّ كَا وَأَصْلَحَ فَأَبْرَأَهُ اللَّهُ أَنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾^(٦) الشورى: ٤، قال البيضاوي رحمه الله: (وجزاء سيئة مثلكما) وسمى الثانية سيئة لازدواج^(٧).

فسمي الله عز وجل رد السيئة سيئة رغم أنها ليست سيئة على الحقيقة لأنه ليس البادي به وليس واقعاً منه ابتداءً، لكن لوقوعه في صحبته ومشاكلته له سماه سيئة.

ويمكن أن تقع المشاكلة في الحروف كما وقعت في الألفاظ وذلك كما في قوله تعالى: ﴿أَللَّهُ أَلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْقَمَ لَرَكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُونُ﴾^(٨) ولهم فيما منافع واتَّلَعُوا عَلَيْهَا حاجَةٌ

(١) مفتاح العلوم: ٤٢٤

(٢) تفسير البيضاوي: ٤٧٤/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٥٠/١

(٤) تفسير البيضاوي: ٢٤١/٣

فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ غافر: ٧٩ - ٨٠ ، قال البيضاوي رحمه الله: (وعليها) في البر. (وعلى الفلك) في البحر. (تحملون) وإنما قال وعلى الفلك ولم يقل في الفلك للزاوجة^(١).

٢. المشاكلة التقديرية:

أما المشاكلة التقديرية فهي أن يذكر الشيء بلفظ غيره ويكون أحدهما مذكوراً والآخر مقدراً غير موجود في سياق الكلام، وذلك كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ إِيمَنُوا بِمِثْلِ مَا أَمْنَتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَلَئِنْ تُوَلُّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكُفِّرُكُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْكَلِيمُ ﴾١٣٧﴾ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة وتحن له عيدون ﴿١٣٨﴾ البقرة: ١٣٧ - ١٣٨ .

قال البيضاوي رحمه الله: (صبغة الله) أي صبغنا الله صبغته، وهي فطرة الله تعالى التي فطر الناس عليها، فإنها حلية الإنسان كما أن الصبغة حلية المصبوغ، أو هدانا الله هدايته وأرشدنا حجته، أو طهر قلوبنا بالإيمان تطهيره، وسماه صبغة لأنه ظهر أثره عليهم ظهر الصبغ على المصبوغ، وتدخل في قلوبهم تداخل الصبغ الثوب، أو لمشاكلة، فإن النصارى كانوا يغمضون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية ويقولون: هو تطهير لهم وبه تتحقق نصرانيتهم^(٢).

رابعاً: التجريد:

والتجريد اصطلاحاً: هو أن ينتزع من أمر ذي صفة أو أكثر، أمر آخر أو أكثر منه فيها، لإفاده المبالغة بادعاء كمال الصفة في ذلك الأمر حتى كأنه بلغ من الاتصال بتلك الصفة مبلغاً يصح أن ينتزع منه موصوف آخر متصل بتلك الصفة، فهي فيه كأنها تقىض بمتلالتها لقوتها كما يفيض الماء عن ماء البحر^(٣).

ومثالها من التزييل قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي خَفَتُ الْمَوْلَى مِنْ وَرَائِهِ وَكَانَتْ آمِرَاتِي عَاقِرًا فَهَبْتُ لِي مِنْ لَدُنِكَ وَلِيَأْتِ ﴾٤﴾ يرثني ويرث من آل يعقوب وأجعله رب رضيأ ﴿٥﴾ مريم: ٥ - ٦ ، قال البيضاوي رحمه الله: وقرئ (يرثني وارث آل يعقوب)... و(وارث من آل يعقوب) على أنه فاعل يرثني وهذا يسمى التجريد في علم البيان لأنه جرد عن المذكور أولاً مع أنه المراد^(٤).

(١) تفسير البيضاوي: ٢١٧/٣

(٢) تفسير البيضاوي: ١٤٣/١

(٣) علوم البلاغة للمراغي: ٣٣٤

(٤) تفسير البيضاوي: ٣٦٠/٢

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أُنْشَقَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرَدَةً كَالْهَانِ﴾ الرحمن: ٣٧، قال البيضاوي رحمه الله: (فَإِذَا أُنْشَقَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرَدَةً) أي حمراء كوردة وقرئت بالرفع على كان التامة فيكون من باب التجريد كقوله:

وَلَئِنْ بَقِيتِ لَأَرْجَلَنِ بِغَرْوَةٍ
تَحْوِي الْغَنَائِمَ أَوْ يَمُوتَ كَرِيمٌ

(كالدهان) مذابة كالدهن وهو اسم لما يدهن به كالحرام، أو جمع دهن وقيل هو الأديم الأحمر^(١).

فالسماء لشدة حمرتها في مشهد يوم القيمة صح أن يتنزع منها الورد الذي يشبه الدهان وهو الجلد الأحمر.

خامساً: اللف والنشر:

وهو ذكر الشيئين على جهة الاجتماع مطلعين من غير تقيد، ثم يرمى بما يليق بكل واحد منهما اتكالاً على قريحة السامع، بأن يلحق بكل واحد منهما ما يستحقه^(٢).

مثاله قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ آمَانِيْهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَنَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ البقرة: ١١١ ، قال البيضاوي رحمه الله: (وقالوا) عطف على وَدَّ، والضمير لأهل الكتاب من اليهود والنصارى. (لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى) لف بين قولي الفريقين كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُثُرُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ البقرة: ١٣٥ ثقة بفهم السامع^(٣).

فاللف في قوله: (وقالوا) أي اليهود والنصارى، والنشر في (هوداً أو نصارى)، وإذا أردنا أن نلحق كل واحد بما يستحقه كان حق السياق أن يكون: (قالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان من النصارى)، وواضح ما في اللف والنشر من الإيجاز والبلاغة.

(١) تفسير البيضاوي: ٣٥٦/٣

(٢) الطراز: ١٩٩/٣

(٣) تفسير البيضاوي: ١٢٩/١

ومن اللف والنشر أيضاً قوله تعالى: ﴿مَثُلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالْسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾^(١) هود: ٢٤، قال البيضاوي رحمه الله: يجوز أن يراد به تشبيه الكافر بالأعمى لتعاميده عن آيات الله، وبالاصم لتصامه عن إسماع كلام الله تعالى وتأبيه عن تدبر معانيه، وتشبيه المؤمن بالسميع والبصير لأن أمره بالضد فيكون كل واحد منهما مشبهاً باثنين باعتبار وصفين... وهذا من باب اللف والطريق^(٢).

ومنه قوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِكُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ لَطِيفٌ لَّغِيْرِ﴾^(٣) الأنعام: ١٠٣، قال البيضاوي رحمه الله: ويجوز أن يكون من باب اللف أي لا تدركه الأ بصار لأنه اللطيف وهو يدرك الأ بصار لأنه الخبر^(٤).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ عَائِدِنِيْهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيلِ وَأَبْغَاوُكُمْ مِنْ فَضْلِيْهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾^(٥) الروم: ٢٣، قال البيضاوي رحمه الله: منامكم بالليل وابتغاوكم بالنهار فلفوضم بين الزمانين وال فعلين بعاطفين إشعاراً بأن كلاً من الزمانين وإن اختص بأحدهما فهو صالح للأخر عند الحاجة^(٦).

سادساً: تأكيد المدح بما يشبه الذم:

ويأتي هذا المحسن البديعي على ضربين:

الضرب الأول: أن يستثنى من صفة ذم منفيه عن الشيء صفة مدح بتقدير دخولها في صفة الذم، والضرب الثاني: أن يثبت للشيء صفة مدح يعقبها بأداة استثناء تليها صفة مدح أخرى^(٧).

ومثال النوع الأول من كتاب الله عز وجل قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَئِنْ رَزَقْنَاهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَيْشَيْنَا﴾^(٨) مريم: ٦٢، قال البيضاوي رحمه الله: (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا) فضول كلام (إِلَّا سَلَامًا) ولكن يسمعون قولاً يسلمون فيه من العيب والنفيصة، أو تسليم الملائكة عليهم أو تسليم

(١) تفسير البيضاوي: ١٢٧/٢

(٢) تفسير البيضاوي: ٥١٠-٥٠٩/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٤٩/٣

(٤) انظر: من بلاغة القرآن: أ.د. محمد علوان، وأ.د. نعمان علوان ، ٢٧٢-٢٧١

بعضهم، على بعض على الاستثناء المنقطع، أو على أن معنى التسليم إن كان لغوًّا فلا يسمعون لغوًّا سواه قوله:

وَلَا عَيْبٌ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ سُيُوفُهُمْ
بِهِنَّ فُلُونَ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَابِ^(١).

فيشير البيضاوي رحمه الله بما استدل عليه من بيت (ولَا عيوب فيهم...) إلى وجود أسلوب تأكيد المدح بما يشبه الذم في هذه الآية، إذ أن الله عز وجل أكد بهذا الأسلوب ومدح المؤمنين وحالهم في الجنة بما نفي عنهم من سماع اللغو وما تستفر منه الآذان.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ ^٨ البروج: ٨، قال البيضاوي رحمه الله: (وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ) وما أنكروا. (إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) استثناء على طريقة قوله:

وَلَا عَيْبٌ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ سُيُوفُهُمْ
بِهِنَّ فُلُونَ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَابِ^(٢)

فالنقم يأتي للإشارة إلى صفة ذم تقدمها نفي لكن هذه الصفة اتضحت أنها بعد الاستثناء صفة مدح إذ أن نعمة الكفار على المؤمنين كانت بسبب إيمانهم بالله العزيز الحميد وهذه صفة مدح أكدت بها الأسلوب.

ومن النوع الثاني قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيْرِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ الحج: ٤٠، قال البيضاوي رحمه الله: (الذين أخرجوا من ديارهم) يعني مكة. (بغير حق) بغير موجب استحقوه به. (إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ) على طريقة قول النابغة:

وَلَا عَيْبٌ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ سُيُوفُهُمْ
بِهِنَّ فُلُونَ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَابِ^(٣)

فقد أثبت للمؤمنين صفة مدح وهو أنهم أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أنه أتي بأدلة استثناء يتوجه السامع أنه سيأتي بعدها بحسب ينافي ما قبل الاستثناء من مدح لهم إلا أنه أتي بصفة مدح لهم تأكيداً للمدح الأول وهو أنهم يقولون ربنا الله.

(١) تفسير البيضاوي: ٣٧٣/٢

(٢) تفسير البيضاوي: ٥١٨/٣

(٣) تفسير البيضاوي: ٤٥٠/٢

سابعاً: أسلوب الحكيم

وهو تلقي المخاطب بغير ما يتربقه أو يتوقعه، إما بترك سؤاله والإجابة عن سؤال لم يسأله، وإما بحمل كلامه على غير ما كان يقصد تتبئهاً على أنه كان ينبغي له أن يسأل هذا السؤال أو يقصد هذا المعنى^(١).

ومن هذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِّنْ خَيْرٍ فِلِلَّوَادِيَنَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَمَّ وَالْمَسِكِينَ وَأَيْنَ السَّبِيلُ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ البقرة: ٢١٥، قال البيضاوي رحمة الله: عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهم (أن عمرو بن الجombok الأنصاري كان شيئاً هما ذا مال عظيم، فقال يا رسول الله ماذا نفق من أموالنا وأين نضعها فنزلت). (قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِّنْ خَيْرٍ فِلِلَّوَادِيَنَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسِكِينَ وَأَيْنَ السَّبِيلُ) سُئل عن المنافق فأجيب ببيان المصرف لأنّه أَهْمَ فَإِنْ اعْتَدَ الدِّفْقَةَ بِاعْتَدَرَهُ، وَلَأَنَّهُ كَانَ فِي سُؤَالِ عُمَرٍ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مذكُوراً فِي الْآيَةِ^(٢).

فالبيضاوي رحمة الله بقوله: (سُئل عن المنافق فأجيب ببيان المصرف لأنّه أَهْمَ فَإِنْ اعْتَدَ الدِّفْقَةَ بِاعْتَدَرَهُ) يشير إلى ما عرف بأسلوب الحكيم حيث كان سُؤَالَهُمْ عَمَّا يُنْفِقُونَهُ فَأُجِيبُوهُ بمصارف الإنفاق لأنّها أَهْمَ.

ومن هذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجَّ وَلَيْسَ الْبَرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبَيْعَوْتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبَرَّ مِنْ أَنْ تَقْعُدُ وَأَتْوَا الْبَيْعَوْتَ مِنْ أَبُوَاهِهَا وَأَتَقْعُدُ اللَّهُ لَمَّا كُنْمَ فَلَلْحُوتَ﴾ البقرة: ١٨٩، قال البيضاوي رحمة الله: (ولكنَّ الْبَرَّ مِنْ اتَّقَى)... كانت الأنصار إذا أحرموا لم يدخلوا داراً ولا فسطاطاً من بابه، وإنما يدخلون من نقب أو فرجة وراءه، ويعدون ذلك براً، وبين لهم أنه ليس ببر وإنما البر بـر من اتقى المحارم والشهوات، ووجه اتصاله بما قبله أنهم سُأَلُوا عن الأمرين... أو أنهم لما سُأَلُوا عَمَّا لا يعنيهم ولا يتعلق بعلم النبوة وتركوا السؤال عما يعنيهم ويختص بعلم النبوة، عقب ذكره جواب ما سُأَلُوهُ تتبئهاً على أن اللائق بهم أن يسألوا أمثل ذلك ويهتموا بالعلم بها^(٣).

فقد كان سؤال المشركين لرسول الله عن الأهلة وكيف تصغر ثم تكبر ثم تصغر مرة أخرى وتتغير منازلها، فلما كان هذا جواب هذا السؤال مما لا تستوعبه عقولهم في ذلك الوقت، كان

(١) من بلاغة القرآن: أ.د. محمد علوان، وأ.د. نعمان علوان ، ٢٧٣

(٢) تفسير البيضاوي: ١٨٥/١

(٣) تفسير البيضاوي: ١٧٢/١

الجواب عنه (هي موافقة للناس والحج)، وكأنه بهذا الجواب يقرعهم على سؤالهم عن أشياء لا تعنيهم ويقول لهم: اسألوا عما يعنيكم في دينكم ودنياكم.

ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَغَنِيمَةٌ لِلَّذِينَ أَتَمُوا الصَّدَقَاتِ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ يَرَهُ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾^(١) الآية ٧٥، قال البيضاوي رحمه الله: (قالوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ) عدلوا به عن الجواب السوي الذي هو نعم تتبيهاً على أن إرساله أظهر من أن يشك فيه عاقل ويخفى على ذوي رأي، وإنما الكلام فيما من آمن به ومن كفر^(٢).

كأنهم أرادوا القول لا تأسوا هل نعلم أنه مرسل أم لا، فهذا مما لا يشك فيه عاقل ولكن اسألوا ما هو موقفكم من هذه الرسالة، فإننا مؤمنون به وهذا ما يجب على كل إنسان.

ثامناً: سوق المعلوم مساق المجهول:

هو إخراج ما يُعرف صحته مخرج ما يشك فيه ليزيد بذلك تأكيداً^(٣).

ومثاله من كتاب الله عز وجل قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْفُعُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ أَنَّهُ اللَّهُ وَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(٤) الآية ٢٤، قال البيضاوي رحمه الله: (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدَى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) أي وإن أحد الفريقين...على أحد الأمرين من الهدى والضلال المبينين، وهو بعد ما تقدم من التقرير البليغ الدال على من هو على الهدى ومن هو في الضلال أبلغ من التصريح لأنه في صورة الانصاف المskt للخصم المشاغب^(٥).

فالمؤمنون عند حجاجهم مع الكافرين أو المشركين يعلمون أنهم هم على الحق وأن الفريق الآخر على الضلال المبين، لكنهم أخرجوا الكلام مخرج من يشك فيه لزيادة التقرير والتأكيد وهذا الأسلوب وهذه الطريقة في الاحتجاج أكثر إقناعاً وتأثيراً ولهذا نرى البيضاوي رحمه الله يعلق على ذلك بقوله: (وهو بعد ما تقدم من التقرير البليغ الدال على من هو على الهدى ومن هو في الضلال أبلغ من التصريح).

(١) تفسير البيضاوي: ٥٥٤/١

(٢) الصناعتين: ٣٩٦:

(٣) تفسير البيضاوي: ١٠٧/٣

تاسعاً: الاستطراد:

و معناه في مصطلح علماء البيان أن يشرع المتكلم في شيء من فنون الكلام، ثم يستمر عليه فيخرج إلى غيره، ثم يرجع إلى ما كان عليه من قبل^(١).

ومثاله من التزيل قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرِاتٌ سَائِغٌ شَرَابٌ . وَهَذَا مِلْحٌ أَجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَهُمَا طَرِيْا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبِسُونَهَا وَرَى الْفُلَكَ فِيهِ مَوَارِخَ لِتَبَغْفِيْا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾^(٢) فاطر: ١٢ ، قال البيضاوي رحمه الله: (وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَهُمَا طَرِيْا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبِسُونَهَا) استطراد في صفة البحرين وما فيهما من النعم^(٣).

و من الاستطراد قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَكْثُرُ أَلَاَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يُرِثُ الْمُنْتَهَى وَالْأَرْضُ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتحِ وَقَنَلْ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَنَلُوا وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْمُحْسِنُوْنَ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ حَمِيرٌ ﴾^(٤) الحديد: ١٠

قال البيضاوي رحمه الله: (لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً) بيان لتفاوت المنفقين باختلاف أحوالهم من السبق وقوه اليقين، وتحري الحاجات حثاً على تحري الأفضل منها بعد الحث على الإنفاق، وذكر القتال للاستطراد^(٥).

فسياق الآيات كلها تتحدث عن الإنفاق لكنه ذكر القتال استطراداً، وعاد بعد ذلك للحديث عن الإنفاق مرة أخرى فقال في الآية التالية للآية السابقة: ﴿ مَنْ ذَا أَلَّذِي يُفَرِّضُ اللَّهُ فَرِضَ حَسَنَاتِ مُضَيَّفِهِ لَهُ وَلَهُ أَبْغَرَكِيْهُ ﴾^(٦) الحديد: ١١ ، فبهذا يكون الحديث عن القتال في الآية السابقة جاء للاستطراد وبيان عظيم الصلة بين الإنفاق والقتال، وذلك لأن الإنفاق بذل الأموال، والقتال بذل النفوس، ومن الصلة بينهما أيضاً، أن القتال يعتمد اعتماداً كاملاً على الإنفاق لما فيه من حاجة لشراء العتاد والمؤمن التي يحتاجها الجيش.

(١) الطراز: ٨/٣

(٢) تفسير البيضاوي: ١١٨/٣

(٣) تفسير البيضاوي: ٣٧٢/٣

عاشرًا: المذهب الكلامي:

وهو أن يورد المتكلم حجة لما يدعوه على طريق أهل الكلام^(١). وقيل: هو أن يورد المتكلم على صحة دعواه حجّة قاطعة مسلمة عند المخاطب، بأن تكون المقدمات بعد تسليمها مستلزمة للمطلوب^(٢).

ومن المذهب الكلامي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخِلَافِ الْأَيْلَلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي بَعَرَى فِي الْبَغْرِيَّا يَنْعَمُ النَّاسُ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَعْجَمَ إِلَيْهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهِ وَبَئْسَ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ وَالشَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يَكُنْ لِقَوْمٍ يَعْقُلُونَ﴾ البقرة: ١٦٤ ، ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسَبَّحُنَّ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصْنَعُونَ﴾ الأنبياء: ٢٢.

قال البيضاوي رحمه الله: واعلم أن دلالة هذه الآيات على وجود الإله ووحدته من وجوه كثيرة يطول شرحها مفصلاً، والكلام المجمل أنها: أمور ممكنة وجد كل منها بوجه مخصوص من وجوه محتملة، وأنباء مختلفة، إذ كان من الجائز مثلاً أن لا تتحرك السماوات، أو بعضها كالأرض وأن تتحرك بعض حركاتها، وبحيث تصير المنطقة دائرة مارة بالقطبين، وأن لا يكون لها أوج وحضيض أصلًا، وعلى هذا الوجه لبساطتها وتساوي أجزائها، فلا بد لها من موجد قادر حكيم، يوجد لها على ما تستدعيه حكمته وتقضيه مشيئة، متعالياً عن معارضة غيره. إذ لو كان معه إله يقدر على ما يقدر عليه الآخر. فإن توافق إرادتهما: فالفعل إن كان لهما، لزم اجتماع مؤثرين على أثر واحد، وإن كان لأحدهما، لزم ترجيح الفاعل بلا مرجح وجز الآخر المنافي لآلته. وإن اختفت: لزم التمانع والتطارد، كما أشار إليه بقوله تعالى: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا). وفي الآية تنبية على شرف علم الكلام وأهله، وحث على البحث والنظر فيه^(٣).

فالآيتين السابقتين جاءتا على أسلوب المذهب الكلامي وإليه أشار البيضاوي بقوله: (وفي الآية تنبية على شرف علم الكلام وأهله، وحث على البحث والنظر فيه)، ووجه هذا الأسلوب في هاتين الآيتين أنهما جاءتا بأدلة عقلية وبراهين قاطعة، إذ أن قوله تعالى: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) حجة قاطعة لمن كان له عقل، إذ أن السماوات والأرض لو كان فيهما آلهة غير الله

(١) بغية الإيضاح: ٦١٥/٤

(٢) جواهر البلاغة: ٣٠٥

(٣) تفسير البيضاوي: ١٥٥/١

مشتركون معه في الخلق لكان حتماً أن يختلفوا ومن ثم تقصد المخلوقات، لكنهما لم يفسدا، وهذا دليلٌ دامغ أنه ليس مع الله شريك في الخلق.

ومن هذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ كَانَ لِرَبِّكُمْ وَلَدٌ فَإِنَّا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾^(١) الزخرف: ٨١، قال البيضاوي رحمة الله: (قُلْ إِنْ كَانَ لِرَبِّكُمْ وَلَدٌ فَإِنَّا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ) منكم فإن النبي صلى الله عليه وسلم يكون أعلم بالله وبما يصح له وبما لا يصح له، وأولى بتعظيم ما يوجب تعظيمه ومن تعظيم الوالد تعظيم ولده، ولا يلزم من ذلك صحة كينونة الولد وعبادته له إذ المحال قد يستلزم المحال بل المراد نفيهما على أبلغ الوجوه كقوله تعالى: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) غير أن (لو) ثم مشعرة بانتقاء الطرفين، وإن هنا لا تشعر به ولا بنفيصه فإنها لمجرد الشريطة بل الانتقاء معلوم لانتقاء اللازم الدال على انتقاء ملزومه، والدلالة على أن إنكاره الولد ليس لعناد ومراء بل لو كان لكان أولى الناس بالاعتراف به^(٢).

حادي عشر: التقسيم:

يأتي التقسيم اصطلاحاً على معانٍ مختلفة، أولها: ذكر متعدد، ثم إضافة ما لكل إليه على التعين^(٣).

ومثاله من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلُّمْ نَفْسٌ إِلَّا يُذَرِّنَهُ فَمِنْهُمْ شَقِيقٌ وَسَعِيدٌ ﴾^(٤) فَإِنَّمَا الَّذِينَ شَعُورًا فِي النَّارِ لَمُّ فِيهَا رَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ^(٥) خَلِيلِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ ^(٦) وَإِنَّمَا الَّذِينَ سُعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَلِيلِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاهُمْ غَيْرَ مَجْدُونٍ ^(٧) هود: ١٠٥ - ١٠٨ قال البيضاوي رحمة الله: هنا المراد أن أهل الموقف لا يخرجون عن القسمين، وأن حالمهم لا يخلو عن السعادة والشقاوة^(٨).

فقوله تعالى: (فَمِنْهُمْ شَقِيقٌ وَسَعِيدٌ) ذكر هنا متعدداً، ثم بدأ بالتفصيل والتقسيم في أحوال كل منهم.

(١) تفسير البيضاوي: ٢٥٧/٣

(٢) بغية الإيضاح: ٦٠٣/٤

(٣) تفسير البيضاوي: ١٥١/٢

ثاني المعاني التي يأتي عليها التقسيم: هو أن يذكر أحوال الشيء مضافاً إلى كل حال ما يليق بها^(١).

مثاله ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّلِيْلَوَالِيْنَسَنِيْ حَقَّ إِذَا بَلَغُوا الْتِكَاحَ فَإِنَّمَا اسْتَشْرِفُ مِنْهُمْ رُشْدًا فَأَذْفَوْا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلَيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلَيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوْا عَلَيْهِمْ وَقُنْقُنَ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾٦﴿ النساء : ٦﴾

قال البيضاوي رحمه الله: (وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلَيَسْتَعْفِفْ من أكلها. وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلَيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ) بقدر حاجته وأجرة سعيه... وإيراد هذا التقسيم بعد قوله (ولا تأكلوها) يدل على أنه نهي للأولياء أن يأخذوا وينفقوا على أنفسهم أموال اليتامي^(٢).

فقوله تعالى: (ولا تأكلوها) نهي للجميع عن أكل أموال اليتامي، لكنه بدأ بذكر وتقسيم الأحوال وإضافة حكم لكل حالة لوحدها، فالغني عليه الاستعفاف، والفقير عليه الأكل بالمعروف.

ثالث المعاني التي يأتي عليها التقسيم: استيفاء أقسام الشيء بالذكر^(٣).

مثاله من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهْبِطُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّا وَهَبْلِمَنْ يَشَاءُ الدُّكُورَ ﴾٤﴿ أوْ يُرْزُقُهُمْ ذُكْرَانَا وَإِنَّا وَهَبْلِمَنْ يَعْقِيمًا إِنَّهُ عَلِيِّمٌ قَدِيرٌ ﴾٥﴿ الشورى : ٤٩ - ٥٠ ، قال البيضاوي رحمه الله: (لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) فله أن يقسم النعمة والبلية كيف يشاء... (يَهْبِطُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّا وَهَبْلِمَنْ يَشَاءُ الدُّكُورَ أوْ يُرْزُقُهُمْ ذُكْرَانَا وَإِنَّا وَهَبْلِمَنْ يَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا...) ... والمعنى يجعل أحوال العباد في الأولاد مختلفة على مقتضى المشيئة فيهب البعض إما صنفاً واحداً مِنْ ذُكُورٍ أوْ أُنْثَى أو الصنفين جميعاً ويعقم آخرين... وتغيير العاطف في الثالث لأنه قسم المشترك بين القسمين، ولم يتحجج إليه الرابع لإفصاحه بأنه قسم المشترك بين الأقسام المتقدمة^(٤).

فكلام البيضاوي السابق يشير إلى تقسيم الله عز وجل ما يهبه للناس في أرحام الأمهات إلى أقسام أربعة جاء على تفصيلها وبيانها في الآية مع استيفاء لأقسامها جميعاً.

(١) بغية الإيضاح: ٦٠٧/٤

(٢) تفسير البيضاوي: ٣٣٣/١

(٣) بغية الإيضاح: ٦٠٧/٤

(٤) تفسير البيضاوي: ٢٤٢/٣

ثاني عشر: المبالغة:

المبالغة أن يُدَعِّى لوصف بلوغه في الشدة أو الضعف حداً مستحيلاً أو مستبعداً^(١)، وقيل في تعريف المبالغة: هي أن تثبت للشيء وصفاً من الأوصاف تقصد فيه الزيادة على غيره، إما على جهة الإمكان، أو التعتذر، أو الاستحاللة^(٢).

فالبالغة تأتي على ثلاثة أنواع كما يتضح من التعريف وتفصيل هذه الأنواع الثلاثة: النوع الأول: التبليغ: ويكون الادعاء فيه للوصف من الشدة أو الضعف ممكناً عقلاً وعادة، والنوع الثاني: الإغرار: ويكون الادعاء فيه للوصف من الشدة أو الضعف ممكناً عقلاً لا عادة، والنوع الثالث: الغلو: ويكون فيه الادعاء للوصف من الشدة أو الضعف مستحيلاً عقلاً وعادة^(٣).

فمما جاء في القرآن الكريم على مبالغة الإغرار قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ تَصِيبُ مِنَ الْمَلَكِ فَإِذَا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ النساء: ٥٣، قال البيضاوي رحمه الله: (فَإِذَا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا) أي لو كان لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون أحداً ما يوازي نقيراً، وهو النقرة في ظهر النواة. وهذا هو الإغرار في بيان شُحّهم فإنهم إن بخلوا بالنمير وهم ملوك مما ظنك بهم إذا كانوا فقراء أذلاء متفاقرين^(٤).

فقول البيضاوي رحمه الله: (وهذا هو الإغرار في بيان شُحّهم) إشارة منه إلى أن في الآية مبالغة وإغراراً في وصف بخلهم وشحهم.

(١) بغية الإيضاح: ٦١٢/٤

(٢) الطراز: ٦٣/٣

(٣) انظر: جواهر البلاغة: ٣١٢-٣١٣

(٤) تفسير البيضاوي: ٣٦٣/١

المبحث الثاني: الحسنات اللفظية:

السجع:

السجع لغة: سجع: أَسْتَوَى وَاسْتَقَامَ وَأَشْبَهَ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَالسَّجْعُ: الْكَلَامُ الْمُفَعَّلُ، وَسَجْعٌ يَسْجَعُ سَجْعًا وَسَجَعَ تَسْجِيْعًا: تَكَلَّمُ بِكَلَامٍ لَهُ فَوَاصِلٌ كَفَوَاصِلِ الشِّعْرِ مِنْ غَيْرِ وَزْنٍ^(١).

والسجع اصطلاحاً: تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد^(٢)، وقيل: هو تواطؤ الفاصلتين أو الفواصل على حرف واحد، أو حرفين متقاربين، أو حروف متقاربة^(٣).

والبيضاوي رحمه الله في تفسيره أشار في مواطن كثيرة إلى السجع في القرآن الكريم حيث يسميه تارة: (مراعاة الفواصل)، ويسميه تارة أخرى: (المحافظة على رؤوس الآي).

التغييرات التي تطرأ على النظم لأجل السجع:

وأشار البيضاوي رحمه الله في تفسيره إلى أنه يُعد في سبيل السجع في القرآن الكريم إلى تغيير نظم الكلام، وليس هذا التغيير من أجل السجع فقط، بل له اعتبارات أخرى -إلى جانب السجع- تتعلق بالمعنى، ويأتي تغيير النظم من أجل السجع على أشكال عده، منها:

١. التقديم والتأخير:

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَدَّةَ وَرَزْقَكُمْ مِنَ الظَّيْنَتِ أَفَإِلَّا بِطِلِيلٍ يُؤْمِنُونَ وَيَنْعِمُ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾^(٤) النحل: ٧٢، قال البيضاوي رحمه الله: (وَيَنْعِمُ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ) وتقديم الصلة على الفعل إما للاهتمام أو لإيهام التخصيص مبالغة، أو للمحافظة على الفاصل^(٥).

ومنه قوله تعالى: ﴿ يَتَبَّعُ أَفِرِيقَ الْمَسْلَوَةَ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصِيرَ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾^(٦) وَلَا تُصِيرَ حَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْسِ في الْأَرْضِ مَرَحَّاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ بَعْضَ الْمُتَنَاهِلِ فَخُورٍ ﴾^(٧) لقمان:

(١) انظر: لسان العرب (سجع): ١٥٠/٨

(٢) المثل السائر: ٢١٠/١

(٣) من بلاغة القرآن: أ.د. محمد علوان، وأ.د. نعمان علوان ، ٢٨٦

(٤) تفسير البيضاوي: ٢٧١/٢

١٧ - ١٨ ، قال البيضاوي رحمة الله: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) وتأخير الفخور وهو مقابل للمصعر خده والمختال للماشي مرحًا لتوافق رؤوس الآي^(١).

ومنه قوله تعالى: ﴿ مَلِكٌ يَوْمَ الْيَقْظَةِ إِيَّاكَ نَبْتُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ الفاتحة: ٤ - ٥ ، قال البيضاوي رحمة الله: وقدمت العبادة على الاستعانة ليتوافق رؤوس الآي.

٢. إفراد ما حقه الثنائية:

ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿ وَلَذِكْنَاهُ لِلْمَلَائِكَةِ أَسْجَدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسُ أَبَنِي ﴾^(٢) فقلنا يَنَادِمُ إِنَّ هَذَا عَدُوُّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُنَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشَقَّقُ ﴾ طه: ١١٦ - ١١٧ ، قال البيضاوي رحمة الله: (مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشَقَّقُ) أفرد بساند الشقاء إليه بعد إشراكهما في الخروج اكتفاء باستلزم شقاءها من حيث إنه قيم عليها ومحفظة على الفواصل^(٣).

إذ لو قال الله تعالى: (فلا يخرجنكم من الجنة فتشقق) لاختلت الفواصل لذلك قال (فتحت)
لتوافق الآية السابقة لها حيث قال في ختامها: (إِلَّا إِبْلِيسُ أَبَنِي).

٣. وضع المضارع موضع الماضي:

كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْرُنُونَ ﴾^(٤) لقد أخذنا ميشنق بفتح إسْرَئِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَبُوا وَفِرِيقًا يَقْتَلُونَ ﴾^(٥) المائدة: ٦٩ - ٧٠ ، قال البيضاوي رحمة الله: وإنما جاء بـ (يقتلون) موضع قتلوا على حكاية الحال الماضية استحضاراً لها واستفهاماً للقتل وتتببيها على أن ذلك من دينهم ماضياً ومستقبلاً ومحفظة على رؤوس الآي^(٦).

٤. تغيير نوع الجملة:

كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَكَّلُونَ فِيهَا مِنْ أَسْكَارِهِ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾^(٧) الحج: ٢٣ ، قال

(١) تفسير البيضاوي: ٦٤/٣

(٢) تفسير البيضاوي: ٤٠٦/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ٤٥٢/١

البيضاوي رحمه الله: (ولِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) غير أسلوب الكلام فيه للدلالة على أن الحرير ثيابهم المعتادة، أو للمحافظة على هيئة الفوascal^(١).

معنى قول البيضاوي: (غير أسلوب الكلام فيه) هو الإشارة إلى أن الجمل كلها من بداية الآية جاءت على طريقة الجمل الفعلية (يدخل، يحلون)، لكنه عند ختامها قال: (لباسهم) ولم يقل (يلبسون)، فتحولها من جملة فعلية إلى اسمية، والسبب -كما يفهم من كلام البيضاوي- هو أنه لو قال: (يلبسون) لاقتضى ذلك أن تختتم الآية بـ(حريراً) على أنها مفعول به، وهذا يخالف الروي في الآيات السابقة لهذه الآية حيث ختمت بـ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيرِ﴾^(٢) الحج: ٢٢، وقبلها: ﴿وَلَمْ يَقْدِمُ مِنْ حَدِيدٍ﴾^(٣) الحج: ٢١.

كما أن الآية السابقة بذلت الجملة الفعلية إلى اسمية للمحافظة على الفوascal، قد يحدث العكس فتبديل الاسمية إلى فعلية أيضاً للمحافظة على الفوascal كما في قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمٌ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعْدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾^(٤) الأحزاب: ٤٤.

يقول البيضاوي رحمه الله: (وَأَعْدَ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا) هي الجنة، ولعل اختلاف النظم لمحافظة الفوascal والبالغة فيما هو أهم^(٥).

والمعنى الذي يشير إليه البيضاوي أن الآية من بدايتها جاءت بجملة اسمية فقال الله تعالى: (تحييهم يوم يلقونه سلام)، وكان حق النظم جرياً على ما سبق أن يقول: (وأجرهم يومئذٍ كريم) وحينها ستكون كلمة (كريم) مرفوعة مخالفة للفوascal السابقة، لكنه عدل عن الجملة الإسمية إلى الجملة الفعلية لتتفق الفاصلة مع سابقاتها وهي: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾^(٦) الأحزاب: ٤٣، وقبلها: ﴿وَسَيَحْوِه بَكْرَةً وَأَصِيلًا﴾^(٧) الأحزاب: ٤٢.

٥. تغيير نوع الكلمة:

كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكاذِبِينَ﴾^(٨) النمل: ٢٧، قال البيضاوي رحمه الله: (أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكاذِبِينَ) أي أم كذبت والتغيير للبالغة ومحافظة الفوascal^(٩).

(١) تفسير البيضاوي: ٤٤٤/٢

(٢) تفسير البيضاوي: ٩٠/٣

(٣) تفسير البيضاوي: ٥٦٥/٢

فكان القياس كما يشير البيضاوي أن ي مقابل الفعل بالفعل لكنه غير نوع الكلمة إلى اسم للحافظة على الفواصل السابقة لها: (لا يهتدون، ما يخونون وما يعلنون) بالإضافة إلى سبب آخر وهو المبالغة.

كما أن الفعل يُستبدل به الاسم للحافظة على الفواصل يحدث العكس، ففي استبدال الاسم بالفعل كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَسْخَنَهُمْ عَلَى مَكَانِهِمْ فَمَا أَسْتَطَعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾^(١) يس: ٦٧، قال البيضاوي رحمه الله: (ولا يرجعون) ولا رجوعاً فوضع الفعل موضعه للفاصل^(٢).

حيث الفاصلة السابقة لهذه الآية: ﴿فَأَنَّ يُبَرِّرُونَ﴾^(٣) يس: ٦٦، لذلك عدل عن الاسم (رجوعاً) إلى الفعل (يرجعون).

٦. زيادة حرف:

كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَرْقَنْكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَا زَاغَتِ الْأَبْصَرُ وَلَمْ يَأْتِ الْقُلُوبُ بِالْحَكَمِ وَتَطَهُّنَ بِاللهِ الظُّنُونُ﴾^(٤) الأحزاب: ١٠، قال البيضاوي رحمه الله: (وتَطَهُّنَ بِاللهِ الظُّنُونَ) الأنواع من (الظن) والألف مزيدة في أمثاله تشبيهاً للفواصل بالقوافي^(٥).

فقد زيدت الألف في كلمة (الظنون) لتفقد الفواصل حيث ختمت الآيات السابقة بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾^(٦) الأحزاب: ٩ والتي قبلها بقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(٧) الأحزاب: ٨.

٧. تغيير صيغة المصدر:

كما في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرِ أَنَّمَا رَبِّكَ وَتَبَّلَ إِلَيْهِ تَبَّيِّلًا﴾^(٨) المزمول: ٨، قال البيضاوي رحمه الله: (وتَبَّلَ إِلَيْهِ تَبَّيِّلًا) وانقطع إليه بالعبادة وجرد نفسك مما سواه، ولهذه الرمزة ومراقبة الفواصل وضعه موضع تبتلاً^(٩).

(١) تفسير البيضاوي: ١٣٧/٣

(٢) تفسير البيضاوي: ٧٩/٣

(٣) تفسير البيضاوي: ٤٦١/٣

فيشير البيضاوي رحمة الله إلى أن الأصل أن يقال: (تبتل إِلَيْهِ تَبْتَلَ) لكنه قال: (تبتيلًا)
مراجعة للفوائل السابقة لهذه الآية ﴿إِنَّكَ فِي النَّهَارِ سَبَّاحٌ طَوِيلًا﴾ المزمل: ٧، و﴿إِنَّ نَاسَةَ اللَّيلِ هِيَ أَشَدُ وَطْفًا وَأَقْوَمُ قِلَّا﴾ المزمل: ٦.

فال مصدر من تبتل هو تبتل كما جاء في لسان العرب في مادة (بتل): وَفِي التَّرْزِيلِ: (وَتَبَتَّلَ إِلَيْهِ تَبْتَلِ) جاءَ الْمَصْدُرُ فِيهِ عَلَى غَيْرِ طَرِيقِ الْفَيْعُلِ، وَلَهُ نَظَائِرٌ، وَمَعْنَاهُ أَخْلِصُ لَهُ إِخْلَاصًا.
وَالْتَّبَتُّلُ: الْإِنْقِطَاعُ عَنِ الدُّنْيَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى... والأصل فِي تَبَتَّلٍ أَنْ تَقُولَ تَبَتَّلُ تَبَتَّلًا^(١).

٨. العدول عن صيغة الاسم إلى صيغة المبالغة:

كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ الإنسان: ٣، قال
البيضاوي رحمة الله: ولعله لم يقل كافراً ليطابق قسيمه محافظة على الفوائل^(٢).

قسم الله أنواع الناس إلى صنفين: (شاكر) و(كافر) لكنه سمي الكافر (كفوراً) بصيغة
المبالغة لأسباب منها المحافظة على الفوائل.

٩. حذف المفعول:

كما في قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَّ﴾ الضحى: ٣، قال البيضاوي رحمة الله: (وما
قلّ) وما أبغضك، وحذف المفعول استغناء بذكره من قبل ومراجعة للفوائل^(٣).

يعني أنه كان الأصل أن يقال: (وما قلاك)، لكنه حذف المفعول الذي هو الضمير لمراجعة
الفوائل السابقة لهذه الآية ﴿وَالضَّحْيَ﴾ و﴿أَتَيْلِ إِذَا سَاجَنِ﴾ الضحى: ١ - ٢

بلاغة السجع:

السجع في القرآن الكريم لا يأتي مراعاة للفظ فقط على حساب المعنى والنظم والبلاغة،
لكنه يأتي مزاوجاً بين جمال الألفاظ وتراصها مع أخواتها وبين المعنى البلاغي، "جمال الفوائل
في القرآن بادٍ لا يخفى على أحد، فموقع الفاصلة في الآية لا يأتي اعتماداً أو لمراجعة اللفظ فقط

(١) لسان العرب (بتل): ٤٢/١١

(٢) تفسير البيضاوي: ٤٧٧/٣

(٣) تفسير البيضاوي: ٥٤٣/٣

ولكنها تكمل معنى الآية، ويتم بها النغم الموسيقى للاية، فنراها أكثر ما تنتهي بالتون والميم وحروف المد، وتلك هي الحروف الطبيعية في الموسيقى نفسها^(١).

وللفاصل القرآنية مكانها الذي لا يحيد من التأثير الموسيقي في النفس وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقاً عجياً يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب، وترتها أكثر ما تنتهي بالتون والميم، وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها؛ أو بالمد، وهو كذلك طبيعي في القرآن، فإن لم تنته بواحدة من هذه، كأن انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى، كان ذلك متابعة لصوت الجملة وتقطيع كلماتها، ومناسبة للون المنطق بما هو أشبه وأليق بموضعه، وعلى أن ذلك لا يكون أكثر ما أنت واجده إلا في الجمل القصار، ولا يكون إلا بحرف قوي يستتبع القلقلة أو الصغير أو نحوهما مما هو ضروب أخرى من النظم الموسيقية.

وهذه هي طريقة الاستهوء الصوتي في اللغة، وأثرها طبيعي في كل نفس، فهي تشبه في القرآن الكريم أن تكون صوت إعجازه الذي يخاطب به كل نفس تفهمه، وكل نفس لا تفهمه، ثم لا يجد من النفوس على أي حال إلا الإقرار والاستجابة؛ ولو نزل القرآن بغیرها لكان ضرباً من الكلام البليغ الذي يُطْمَع فيه أو في أكثره، ولما وجد فيه أثر يتعدى أهل هذه اللغة العربية إلى أهل اللغات الأخرى، ولكنه انفرد بهذا الوجه للعجز، فتألت كلماته من حروف لو سقط واحد منها أو أبدل بغیره أو أقحم معه حرف آخر، لكان ذلك خلاً بيناً، أو ضعفاً ظاهراً في نسق الوزن وجرس النغمة، وفي حِسْنِ السمع وذوق اللسان، وفي انسجام العبارة وبراعة المخرج وتساند الحروف وإفضاء بعضها إلى بعض، ولرأيت هُجنة في السمع، كالذي تتكره من كل مرئي لم تقع أجزاؤه على ترتيبها، ولم تتفق على طبقاتها، وخرج بعضها طولاً وبعضها عرضاً، وذهب ما بقي منها إلى جهات متناكرة^(٢).

(١) من بلاغة القرآن لأحمد البدوي: ٦٥

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي، ص. ١٥٠، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثامنة، ٢٠٠٥ هـ، ١٤٢٥ م.

الفصل الخامس

”تأثير البيضاوي بالسابقين وتأثيره في اللاحقين“

- المبحث الأول: تأثيره بالسابقين.
- المبحث الثاني: تأثيره في اللاحقين.

الفصل الخامس: تأثير البيضاوي بالسابقين وتأثيره في اللاحقين:

المبحث الأول: تأثير البيضاوي بالسابقين:

لا شك أن أي عالم أو أديب أو مفكر -كما يقال- هو ابن عصره، يتأثر بمعلميه وأساتذته ومن يقرأ لهم، ويؤثر أيضاً في غيره، وليس معنى ذلك أن الأديب حين يتأثر بغيره أن شخصيته ذاتية ينقل ما يسمعه أو يقرأه دون أن يُعمل عقله وفكرة فيهما ليس هذا صحيحاً، لأن الإنسان يتأثر بالعلوم التي يستقيها من السابقين والمعاصرين ويضفي عليها شخصيته وآرائه ويرثها لللاحقين، فالعلم رحم بين أهله -كما قيل- والعلوم والمعارف الإنسانية متراكمة.

وليس مقصد هذا المبحث أن يستقصي كل المجالات التي تأثر بها البيضاوي من آراء السابقين أو المعاصرين، وإنما مقصد التركيز على الآراء البلاغية واللغوية، وإظهار مدى تأثره بها.

أولاً: الزمخشري (٥٣٨):

تأثير البيضاوي رحمة الله بالزمخشري كثيراً، خاصة في آرائه البلاغية واللغوية، والمتخصص لنفسه البيضاوي يرى ذلك جلياً، حين يقارن بين آراء البيضاوي وآراء الزمخشري.

وهنا أسوق بعض المواقع التي يظهر فيها تأثر البيضاوي بآراء الزمخشري البلاغية، محاولاً التنويع بين مباحث علم البلاغة فيما ذكره، وهي كالتالي:

١. الخبر بغرض التهكم:

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ هود: ٨٧. قال البيضاوي: تهكموا به وقصدوا وصفه بضد ذلك^(١). وقال الزمخشري رحمة الله: وأرادوا بقولهم ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ نسبته إلى غاية السفه والغى، فعكسوا ليتهكموا به^(٢).

(١) تقسيم البيضاوي: ١٤٥/٢.

(٢) الكشاف: ٢٢٦/٣.

٢. الخبر لغرض الوعيد

ومن تأثر البيضاوي بالزمخشي الخبر الذي جاء لغرض الوعيد، كما في قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ يوں: ٤، قال البيضاوي رحمه الله:

﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بإفسادها وتقويت منافعها عليهم... ويجوز أن يكون وعيداً لهم^(١)

أما الزمخشي فقال: أي لا ينقصهم شيئاً مما يتصل بمصالحهم من بعثة الرسل وإنزال الكتب، ولكنهم يظلمون أنفسهم بالكفر والتذيب. ويجوز أن يكون وعيداً للمذنبين^(٢).

٣. ما يجري مجرى القسم:

في قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِيَّاكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ يس: ١٦، قال البيضاوي: (فَأَلْوَرَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِيَّاكُمْ لَمُرْسَلُونَ) استشهدوا بعلم الله وهو يجري مجرى القسم^(٣). قال الزمخشي رحمه الله: قوله: (ربنا يعلم) جار مجرى القسم في التوكيد^(٤).

٤. السين في إفادة التوكيد:

في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ سَيِّرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ التوبه: ٧١، قال البيضاوي رحمه الله: (أُولَئِكَ سَيِّرْحَمُهُمُ اللَّهُ) لا محالة، فإن السين مؤكدة للوقوع^(٥). قال الزمخشي رحمه الله: (سَيِّرْحَمُهُمُ اللَّهُ) السين مفيدة وجود الرحمة لا محالة، فهي توكل الوعد^(٦).

٥. التوكيد بتكرار الكلمة:

كما في قوله تعالى: ﴿وَنَدْخُلُهُمْ ظَلَّالًا ظَلِيلًا﴾ النساء: ٥٧، قال البيضاوي: والظليل صفة مشتقة من الظل لتؤكدده كقولهم: شمس شامس، وليل أليل، ويوم أيوم^(٧). قال الزمخشي رحمه الله: (ظللاً) صفة مشتقة من لفظ الظل لتتأكد معناه. كما يقال: ليل أليل، ويوم أيوم، وما أشبه ذلك^(٨).

(١) تفسير البيضاوي: ١٠٣/٢

(٢) الكشاف: ٣٤٩/٢

(٣) تفسير البيضااوي: ١٢٩/٣

(٤) الكشاف: ٩/٤

(٥) تفسير البيضااوي: ٦٤/٢

(٦) الكشاف: ٢٨٩/٢

(٧) تفسير البيضااوي: ٣٦٤/١

(٨) الكشاف: ٥٢٣/١

٦. النداء لغرض التخصيص:

ومثاله قوله تعالى: ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَرَكْنُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ هود: ٧٣ ، قال البيضاوي رحمه الله: وأهل البيت نصب على المدح أو النداء لقصد التخصيص^(١). قال الزمخشري رحمه الله: وأهل البيت: نصب على النداء أو على الاختصاص، لأن (أهل النبيت) مدح لهم^(٢)

٧. التعريف للتکثیر:

في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَاتُلُوا لَنَا هَذِهِ، وَإِنْ تُصْبِهُمْ سَيِّئَةً يَطْيِرُوا بِمُؤْسَنٍ وَمَنْ مَعَهُ﴾ الأعراف: ١٣١ ، قال البيضاوي رحمه الله: وإنما عرف الحسنة وذكرها مع أدلة التحقيق لكثرة وقوعها^(٣). قال الزمخشري رحمه الله: فإن قلت: كيف. قيل: (فإذا جاءتهم الحسنة) فإذا وتعريف الحسنة، (إن تصبهم سيئة) بيان وتتكير السيئة؟ قلت: لأن جنس الحسنة وقوعه كالواجب لكثرته واتساعه^(٤).

٨. التنکير للتقليل:

في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ أَكْبَرَ إِنْ يَعْبُدُوهُ إِلَيْلًا﴾ الإسراء: ١ ، قال البيضاوي رحمه الله: وفائدته الدلالة بتکيره على تقليل مدة الإسراء^(٥). قال الزمخشري رحمه الله: أراد بقوله (إليلاً) بلفظ التنکير: تقليل مدة الإسراء^(٦).

٩. الاعتراض للتنزيه والتعظيم:

في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَنِطْلًا سُبْحَانَكَ فَقَنَاعَدَابًا أَنَّا﴾ آل عمران: ١٩١ ، قال البيضاوي رحمه الله: (سبحانك) تتنزيهاً لك من العبث وخلق الباطل وهو اعتراض^(٧). وقال الزمخشري رحمه الله: وسبحانك: اعتراض للتنزيه من العبث، وأن يخلق شيئاً بغير حكمة^(٨).

(١) تفسير البيضاوي: ١٤٠/٢

(٢) الكشاف: ٤١١/٢

(٣) تفسير البيضاوي: ٥٦٦/١

(٤) الكشاف: ١٤٥/٢

(٥) تفسير البيضاوي: ٢٨٩/٢

(٦) الكشاف: ٦٤٦/٢

(٧) تفسير البيضاوي: ٣٢٣/١

(٨) الكشاف: ٤٥٤/١

١٠. الالتفات للتفخيم:

في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ لَدُ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءَهُمْ فَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ وَأَسْتَغْفِرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوْجَدُوا اللَّهَ تَوَابًا رَّحِيمًا﴾ النساء: ٦٤، قال البيضاوي رحمه الله: (واسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ) وإنما عدل الخطاب تفخيمًا لشأنه^(١).

قال الزمخشري رحمه الله: ولم يقل: واستغفرت لهم، وعدل عنه إلى طريقة الالتفات، تفخيمًا لشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعظيمًا لاستغفاره^(٢).

١١. التغليب:

في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبَعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَرَأَ كُلَّ جَرَأَةٍ مَّوْفُورًا﴾ الإسراء: ٦٣ ، قال البيضاوي رحمه الله: (فَمَنْ تَبَعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَرَأُكُمْ) جزاؤك وجزاؤهم فغلب المخاطب على الغائب^(٣).

قال الزمخشري رحمه الله: التقدير: فإن جهنم جزاؤهم وجزاؤك، ثم غلب المخاطب على الغائب فقيل: جراؤكم^(٤).

١٢. وضع المفرد موضع المثنى:

في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوَ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ التوبة: ٦٢، قال البيضاوي رحمه الله: وتوحيد الضمير لتلازم الرضاعين^(٥). قال الزمخشري رحمه الله: وإنما وحد الضمير لأنه لا تقاوت بين رضا الله ورضا رسوله صلى الله عليه وسلم، فكانا في حكم مرضى واحد^(٦).

(١) تفسير البيضاوي: ٣٦٧/١

(٢) الكشاف: ٥٢٨/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٣٠٩/٢

(٤) الكشاف: ٦٧٧/٢

(٥) تفسير البيضاوي: ٦١/٢

(٦) الكشاف: ٢٨٥/٢

١٣. تشبيه المحسوس بالمعقول:

في قوله تعالى: ﴿ طَلَعَهَا كَانَهُ رُؤُسُ الشَّيَاطِينِ ﴾^(١) الصافات: ٦٥، قال البيضاوي رحمه الله: (كَانَهُ رُؤُسُ الشَّيَاطِينِ) في تناهي القبح والهول، وهو تشبيه بالتخيل كتشبيه الفائق الحسن بالملك^(٢).

وقال الزمخشري رحمه الله: وشبه برعوس الشياطين دلالة على تناهيه في الكراهة وقبح المنظر، لأنّ الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس، لاعتقادهم أنه شر محض لا يخلطه خير، فيقولون في القبيح الصورة: كأنه وجه شيطان، كأنه رأس شيطان. وإذا صوره المصورون: جاءوا بصورته على أقبح ما يقدر وأهوله، كما أنهم اعتقدوا في الملك أنه خير محض لا شر فيه، فشبّهوا به الصورة الحسنة^(٣).

١٤. التشبيه البليغ:

في قوله تعالى: ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ ﴾^(٤) البقرة: ٢٥ قال البيضاوي رحمه الله: فالمعنى هذا مثل رزقنا ولكن لما استحكم الشبه بينهما جعل ذاته ذاته كقولك: أبو يوسف أبو حنيفة^(٥).

وقال الزمخشري رحمه الله: معناه هذا مثل الذي رزقناه من قبل وشبّهه بدليل قوله (وأتوا به متشابها)، وهذا كقولك: أبو يوسف أبو حنيفة، تزيد أنه لاستحكام الشبه كأن ذاته ذاته^(٦).

١٥. المجاز العقلي لعلاقة المكانية:

في قوله تعالى: ﴿ يَصَدِّحِي السِّجْنَ إِذِيَابٌ مُّنْفَرِقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ أَوْحِدُ الْقَهَّارُ ﴾^(٧) يوسف: ٣٩، قال البيضاوي رحمه الله: (يا صاحبِي السِّجْنِ) أي يا ساكنيه، أو يا صاحبي فيه فأضافهما إليه على الاتساع كقوله: يا سارق الليلة أهل الدار^(٨).

(١) تفسير البيضاوي: ١٥٠/٣

(٢) الكشاف: ٤٦/٤

(٣) تفسير البيضاوي: ٧٠/١

(٤) الكشاف: ١٠٨/١

(٥) تفسير البيضاوي: ١٧٣/٢

وقال الزمخشري رحمه الله: (يا صاحبِي السِّجْنِ) يريد يا صاحبي في السجن، فأضافهما إلى السجن كما تقول: يا سارق الليلة، فكما أن الليلة مسروقة فيها غير مسروقة^(١).

١٦. المجاز المرسل لعلاقة الحالية:

في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضُوا وُجُوهُهُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَلِيلُونَ﴾ آل عمران: ١٠٧
قال البيضاوي رحمه الله: (وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضُوا وُجُوهُهُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ) يعني الجنة والثواب المخلد^(٢). وقال الزمخشري رحمه الله: (فِي رَحْمَةِ اللَّهِ) فهي نعمته وهي الثواب المخلد^(٣).

١٧. الاستعارة المكنية:

في قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاهُ لَهُمْ أَتَيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلَمُونَ﴾ يس: ٣٧، قال البيضاوي رحمه الله: نزيله ونكشفه عن مكانه مستعار من سلخ الجلد^(٤). وقال الزمخشري رحمه الله: سلخ جلد الشاة: إذا كشطه عنها وأزاله. ومنه: سلخ الحية لخرشانها، فاستعير لإزالة الضوء وكشفه عن مكان الليل^(٥).

١٨. الكناية:

في قوله تعالى: ﴿وَكَاسِقَلَ فِتْ أَيْدِيهِمْ﴾ الأعراف: ١٤٩، قال البيضاوي رحمه الله: (وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ) كناية عن اشتداد ندمهم فإن النادم المتضرر بعض يده غماً فتصير يده مسقوطاً فيها^(٦). وقال الزمخشري رحمه الله: (وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ) ولما اشتد ندمهم وحرستهم على عبادة العجل، لأنّ من شأن من اشتد ندمه وحرسته أن يغض يده غماً، فتصير يده مسقوطاً فيها^(٧).

ثانياً: الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٠هـ):

يظهر تأثر البيضاوي رحمه الله بأقوال الخليل بن أحمد الفراهيدي - الإمام الكبير - في مواطن كثيرة من ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّا كَفَّهُ وَإِلَّا كَشَفَتِ﴾ الفاتحة: ٥، قال البيضاوي رحمه الله: و(إِلَّا) ضمير منصوب منفصل، وما يلحقه من الياء والكاف والهاء

(١) الكشاف: ٤٧١/٢

(٢) تفسير البيضاوي: ٢٨٦/١

(٣) الكشاف: ٣٩٩/١

(٤) تفسير البيضاوي: ١٣٢/٣

(٥) الكشاف: ١٦/٤

(٦) تفسير البيضاوي: ٥٧٣/١

(٧) الكشاف: ١٦٠/٢

تأثير البيضاوي بالسابقين وتأثيره في اللاحقين

حروف زيدت لبيان التكلم والخطاب والغيبة لا محل لها من الإعراب، كالتاء في أنت والكاف في أرأيتك. وقال الخليل: إيا مضاف إليها، واحتج بما حكا عن بعض العرب إذا بلغ الرجل ستين فِيَاه وِيَا الشَّوَّاب^(١)

ومن تأثر البيضاوي بالخليل تفسير قوله تعالى: ﴿الْمَرْءُ ذَلِكَ الَّذِي بَثَ لَأَرْبَبِ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(٢)
 البقرة: ١ - ٢، قال البيضاوي رحمه الله: الم وسائل الألفاظ التي يتهجى بها، أسماء مسمياتها الحروف التي ركبت منها الكلم لدخولها في حد الاسم، واعتدار ما يخص به من التعريف والتكيير والجمع والتصغير ونحو ذلك عليها، وبه صرّح الخليل وأبو علي^(٣)

ثالثاً: سيبويه (١٨٠):

تأثير البيضاوي بعلماء اللغة والنحو إجمالاً، إذ كان البيضاوي مطلاعاً على هذه العلوم، وهي أداة مهمة لا يستغني عنها المفسر بأي حال من الأحوال، وكان سيبويه أحد الذين تأثر بهم البيضاوي في تفسيره فنقل عنه واستشهد بأقواله في مواضع كثيرة.

فمن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذِلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾^(٤)
 الأعراف: ٤١، قال البيضاوي رحمه الله: (وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ) أغطية، والتنوين فيه للبدل عن الاعلال عند سيبويه^(٥)

ومن تأثره بسيبويه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَمِ لَعْبَةٌ شُقِيقُكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرَثَ وَدَمٍ لَبَّا خَالِصًا سَائِعًا لِلشَّرِّيْنِ﴾^(٦) النحل: ٦٦، قال البيضاوي رحمه الله: (شُقِيقُكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ) استئناف لبيان العبرة، وإنما ذكر الضمير ووحده هنا للفظ وأنثه في سورة «المؤمنين» للمعنى، فإن الأنعام اسم جمع ولذلك عده سيبويه في المفردات المبنية على أفعال كأخلاق وأكياس^(٧)

رابعاً: المبرد (٥٢٨٦):

من الذين تأثر بهم البيضاوي ونقل عنهم العالم اللغوي الكبير المبرد، فمن المواطن التي يظهر فيها تأثر البيضاوي بالمبرد قول البيضاوي: "و (إن) من الحروف التي تشابه الفعل في عدد

(١) تفسير البيضاوي: ١٦/١

(٢) تفسير البيضاوي: ٢٤/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٥٤٤/١

(٤) تفسير البيضاوي: ٢٦٨/١

الحروف، والبناء على الفتح، ولزوم الأسماء، وإعطاء معانيه والمعندي خاصة في دخولها على اسمين... وفائتها تأكيد النسبة وتحقيقها، ولذلك يلتقي بها القسم، ويُصدّر بها الأجرة، وتندر في معرض الشك مثل قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِمَّا مَكَّنَنَا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ الكهف: ٨٣ - ٨٤، ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَغْرِبُ عَنِّي رَسُولٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الأعراف: ١٠٤ ، قال المبرد: قوله: (عبد الله قائم) إخبار عن قيامه، (وإن عبد الله قائم) جواب سائل عن قيامه، (وإن عبد الله لقائم) جواب منكر لقيامه^(١).

ومن مظاهر تأثره بالمبرد ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْعَبْ عَنِ الْمُلْكِ إِلَّا مَنْ سَفَهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ أَضْطَفَنَا فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّابِرِينَ﴾ البقرة: ١٣٠ ، قال البيضاوي رحمه الله: (إِلَّا مَنْ سَفَهَ نَفْسَهُ) إلا من استمهنها وأذلها واستخف بها. قال المبرد وثعلب سفة بالكسر متعد وبالضم لازم^(٢)

خامساً: الأخفش:

فمن الآيات التي يظهر فيها تأثر البيضاوي رحمه الله بالأخفش قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّتِي مِنْ خَيْلٍ وَأَعْنَبْ وَفَجَرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ بيس: ٣٤ ، قال البيضاوي رحمه الله: (من العيون) أي شيئاً من العيون، فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه، أو العيون ومن مزيدة عند الأخفش^(٣)

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأُنُّوِّسُكُمْ مِّنْ مِثْلِهِ وَأَذْعُو أَشْهَادَهُمْ مِّنْ دُونِ الْمُلْكِ إِنَّكُنُتُمْ صَادِقِينَ﴾ البقرة: ٢٣ ، قال البيضاوي رحمه الله: (من مثله) صفة سورة أي: بسورة كائنة من مثله، والضمير لما نزلنا، و (من) للتبسيط أو للتبيين. وزائدة عند الأخفش أي بسورة مماثلة للقرآن العظيم في البلاغة وحسن النظم^(٤)

(١) تفسير البيضاوي: ٣٩/١

(٢) تفسير البيضاوي: ١٣٩/١

(٣) تفسير البيضاوي: ١٣٢/٣

(٤) تفسير البيضاوي: ٤٤/١

سادساً: أبو البقاء العكّري (٥٦١٦):^(١)

يظهر تأثر البيضاوي بأبي البقاء العكّري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ إِمَّا
إِلَّهٌ وَإِلَّا يَوْمٌ آخِرٌ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ البقرة: ٨ قال البيضاوي: "والناس أصله أنس، لقولهم: إنسان،
 وأنس، وأنسى، فحذفت الهمزة حذفها في لوقة عوض عنها حرف التعريف ولذلك لا يكاد يجمع
بينهما".^(٢)

وقال العكّري: "أصل الناس عند سيبويه أنس، فحذفت همزته، وهي فاء الكلمة، وجعلت
الألف واللام عوض منها، فلا يكاد يستعمل الناس إلا بالألف واللام، ولا يكاد يستعمل أنس بالألف
واللام، فالألف في الناس على هذا زائدة واشتقاقه من الأنس بضم الهمزة".^(٣)

(١) هو عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكّري البغدادي، أبو البقاء، محب الدين: عالم بالأدب واللغة والفرائض والحساب.

أصله من عكرا (بليدة على دجلة) ومولده ووفاته ببغداد. أصيب في صباه بالجذري، فعمي (الأعلام للزرکلي: ٤٠/٤)

(٢) تفسير البيضاوي: ٤/١.

(٣) التبيان في إعراب القرآن: ٢٤/١.

المبحث الثاني: تأثيره في اللاحقين:

كان لتقسيير أنوار التزيل وأسرار التأويل أثراً كبيراً على كثير من العلماء والكتاب فراحوا يستقون من معينه وينقلون منه في كتاباتهم وتقاسيرهم.

وللوقوف على تأثير هذا التقسيير في اللاحقين سأقف عند عناوين بارزة وهي:

١. تأثير تقسيير البيضاوي في كتاب الحواشى والتعليقات.
٢. المفسرون الذين تأثروا بتقسيير البيضاوى ونقلوا عنه في تقاسيرهم.
٣. المحققون الذين أحالوا على تقسيير البيضاوى لدعيم أقوال المفسرين.

أولاً: تأثير تقسيير البيضاوى في كتاب الحواشى والتعليقات:

لعل أكبر مظاهر تأثير تقسيير البيضاوى في اللاحقين انكباب الشراح والمُحشّين عليه، حيث وثّقت الدراسات أسماء ثلاثة وثلاثين حاشية^(١).

ولقد ظهر تأثير تقسيير البيضاوى في هذه الحواشى في شرح كتابها لكلام البيضاوى وال الوقوف على آرائه سواء البلاغية منها أو غيرها، حيث كانوا يوافقونه أحياناً ويخالفونه أحياناً أخرى، ويسطون القول في آرائه البلاغية. وبهذا يكون تقسيير البيضاوى قد أثر تأثيراً مباشراً بمن استفاد منه بشكل مباشر، وتأثيراً غير مباشر بمن قرأ حواشيه وتعليقاته.

وسأقف عند أبرز الحواشى التي كتبت على تقسيير البيضاوى محاولاً إظهار تأثير تقسيير البيضاوى في هذه الحواشى فيما يخص الجوانب البلاغية، بذكر أمثلة على مظاهر هذا التأثير.

١. حاشية الشهاب:

الشهاب الخفاجي في حاشيته المعروفة باسم (عنابة القاضي وكفاية الراضي على تقسيير البيضاوى) يقف على كتاب البيضاوى كثيراً ويناقش آراءه البلاغية.

من مظاهر تأثير الشهاب الخفاجي بأراء البيضاوى البلاغية وموافقته له، تعقيبه على تقسيير البيضاوى لقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَلَبُونَ ﴾^(٥) المائدة: ٥٦.

(١) انظر: كشف الظنون: ١٨٨/١، وإيضاح المكنون: ١٣٨/١، الفهرس الشامل للتراث العربي والإسلامي المخطوط: ٣٢٠/١.

قال البيضاوي رحمه الله: (فَإِنْ حُزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ) أي فإنهم هم الغالبون، ولكن وضع الظاهر موضع المضمر تبيهاً على البرهان عليه^(١).

قال الشهاب الخفاجي: قوله: (وضع الظاهر موضع المضمر إلخ) هذا مبني على أن جواب الشرط الاسمي في نحوه لا بد من اشتماله على ضميره كما مر فوضع الاسم الظاهر موضع الضمير للدلالة على علة الغبة، وهو أنهم حزب الله كقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ ^{١٧٣} الصافات: ١٧٣^(٢).

ومن تأثر الشهاب بالبيضاوي ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ ^{١٠} النور . وَلَنَجْنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ

قال البيضاوي رحمه الله: (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَلَنَجْنَادَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ) متrok الجواب للتعظيم أي لفضحكم وعاجلكم بالعقوبة^(٣).

وقال الشهاب: قوله: (متrok الجواب للتعظيم) أي ليدل على أن المقدر أمر هائل عظيم لا تحيط به العبارة^(٤)

فنلاحظ أن الشهاب الخفاجي كان يأخذ عبارة البيضاوي ويشرحها متفقاً معها في الأغلب وشارحاً لها وباسطاً القول فيها.

٢. حاشية السيوطي:

ومن الذين تأثروا بتفسير البيضاوي السيوطي في حاشيته المعروفة بـ "نواهد الأبكار وشوارد الأفكار" حيث كان يقف عند آراء البيضاوي البلاغية ويقوم بشرحها وتدعمها بأقوال العلماء.

ويظهر هذا عندما نرى تفسير البيضاوي لقوله تعالى: ﴿وَلَذَّا حَذَّنَا مِيقَاتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَبْدُونَ إِلَّا اللَّهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَأَيْتَنَى وَالْمَسَكِينَ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنَا وَأَقْمُوا الْأَصْلَوَةَ وَمَأْتُوا أَلْزَكَوْةَ ثُمَّ تَوَلَّتُمُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُغْرِبُونَ﴾ ^{٨٣} البقرة: ٨٣.

(١) تفسير البيضاوي: ٤٤٦/١

(٢) حاشية الشهاب: ٢٥٦/٣

(٣) تفسير البيضاوي: ٤٨٨/٢

(٤) حاشية الشهاب: ٣٦١/٦

تأثير البيضاوي بالسابقين وتأثيره في اللاحقين

قال البيضاوي في هذه الآية: (ثُمَّ تَوَلَّتُمْ) على طريقة الالتفات^(١).

وقال السيوطي رحمه الله: قوله: (ثُمَّ توليتكم على طريقة الالتفات)، قال الحببي: إنما يجيء هذا على قراءة لا يعبدون بالغيبة، وأما على قراءة الخطاب فلا التفات الباءة، ويجوز أن يكون أراد بالالتفات الخروج من خطاب بنى إسرائيل القدماء إلى خطاب الحاضرين في زمن النبي - صلى الله عليه وسلم - وقد قيل بذلك. ويؤيده قوله تعالى: (إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ)، قيل: يعني بهم الذين أسلموا في زمانه عليه الصلاة والسلام كعبد الله في سلام، وأضرابه، فيكون التفاتا على القراءتين^(٢)

فالسيوطى رحمه الله في هذه الآية يسرد آراء العلماء فيما قاله البيضاوى ومن ثم يبدي رأيه ونراه يتافق مع ما قاله البيضاوى.

ومن الأمثلة التي تظهر تأثير تفسير البيضاوى فى حاشية السيوطى، ما جاء في تفسير البيضاوى عند قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيَعْمَلُونَ الصَّلَاةَ وَمَا رَأَيْتُمْ يَتَعَقَّبُونَ﴾ البقرة: ٣ .

قال البيضاوى رحمه الله: عبر عن الأداء بالإقامة لاشتمالها على القيام، كما عبر عنها بالقنوت والركوع والسجود والتسبيح. والأول أظهر لأنه أشهر وإلى الحقيقة أقرب^(٣).

وقال السيوطي شارحاً عبارة البيضاوى: قوله: (أو يؤدونها، عبر عن أدائها بالإقامة، لاشتمالها على القيام، كما عبر عنها بالقنوت، والركوع، والسجود، والتسبيح)

قال بعض أرباب الحواشى: هذا بعيد؛ لأنه قال هنا (ويقيمون الصلاة) فذكر اسم الصلاة مع إقامتها، وأما في تلك الأماكن فلم يذكر معها اسم الصلاة.

وقال الشيخ أكمل الدين: قيل: إنه على هذا مجاز، من باب ذكر الجزء وإرادة الكل؛ لأن القيام في الصلاة جزء من الصلاة، وفيه نظر؛ لأن الجزء لا يستلزم الكل، فلا يكون مجازا.

والجواب أن المراد القيام في الصلاة، وهو يستلزمها قطعا^(٤).

(١) تفسير البيضاوى: ١١٦/١

(٢) نواهد الأباء: ٢٧٨/٢

(٣) تفسير البيضاوى: ٣٥/١

(٤) نواهد الأباء: ٣٠١/١

فالسيوطى رحمة الله قد وقف عند عبارة البيضاوى السابقة وقام بشرحها وساق لها آراء البلاغيين وهذا أثرٌ كبير تركه هذا التفسير ظاهرٌ تمام الظهور في هذا المثال.

٣. حاشية محي الدين شيخ زاده:

وضع شيخ زاده حاشية جليلة شرح فيها كثيراً من المسائل التي نبه عليها البيضاوى في تفسيره سيما المسائل البلاغية فنراه يطيل الوقف شارحاً لهذه المسائل.

فمن ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الفاتحة: ٥، قال البيضاوى في هذه الآية: "وقد المفعول للتعظيم والاهتمام به والدلالة على الحصر..."^(١)

قال شيخ زاده: (قوله: وقد المفعول) ذكر لتقدير المفعول وجوهاً خمسة: الأول أن الضمير المنصوب عبارة عن ذات المعبود بالحق المستحق لأن يعظم بغاية ما يمكن من التعظيم ومن طريق التعظيم تقديمها في الذكر، والثاني أن المطلب الأعلى والأعم والأقوى بالنسبة إلى القارئ إنما هو مولاه المعبود بالحق الموصوف بجميع صفات الجلال والجمال المستجمع لجميع وجوه الفضل والإفضال، فكان لذلك نصب عينه وأهم عنده من جميع ما سواه بحيث لا يسبق إلى لسانه إلا ذكره ولا إلى قلبه إلا محبته ولا إلى جوارحه إلا حضوره والاستكانة إليه فلم يتمالك لذلك إلا أن يقدم اللفظ الدال عليه على عامله، والثالث الدلالة على الحصر فإن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر والتخصيص كما تقرر في علم البيان..."^(٢)

وواضح ما في كلام الشيخ زاده من تفصيل وشرح وبسط لكلام البيضاوى، وهذا يُظهر مدى الأثر الذي تركه البيضاوى في علم البلاغة.

٤. حاشية القونوى:

ومن أجل الحواشى التي وضعت على تفسير البيضاوى حاشية القونوى حيث يظهر فيها تأثيره بتفسير القونوى، حيث شرح فيها تفسير البيضاوى وأكَّد على المسائل البلاغية بتقسيمها وبسط الكلام فيها.

(١) تفسير البيضاوى: ١٦/١

(٢) حاشية محي الدين شيخ زاده: محمد بن مصلح القوجى، ٨٧-٨٨/١، تحقيق محمد شاهين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م.

فمن ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَرِهِمْ غِشْنَوْهُ﴾ البقرة: ٧، قال البيضاوي رحمه الله: وسماه على الاستعارة ختماً^(١)

قال القونوي في شرح عبارة البيضاوي: فعلى هذا في (ختم) استعارة تصريحية تتبعية ويلزم منه تشبيه القلوب والأسماع بالأواني المختومة^(٢).

(١) تفسير البيضاوي: ٤١/١

(٢) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: ٤٧/٢

ثانياً: المفسرون الذين تأثروا بتفسير البيضاوي ونقلوا عنه في تفاسيرهم:

تأثر الكثير من المفسرين بتفسير البيضاوي واعتمدوا عليه اعتماداً كبيراً في تفاسيرهم واعتبره بعضهم من مصادره الرئيسية في تفسيره، ومن هؤلاء المفسرين:

١. أبو السعود "تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم"

صاحب هذا التفسير هو "محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، المولى أبو السعود المتوفى ٩٨٢هـ": مفسر شاعر، من علماء الترك المستعربين. ولد بقرب القدسية، ودرس ودرس في بلاد متعددة، وتقلد القضاء في بروسة فالقسطنطينية فالرومالي. وأضيف إليه الإفتاء سنة ٩٥٢هـ وكان حاضر الذهن سريع البديهة^(١)

اعتمد أبو السعود في تفسيره كثيراً على تفسيري الكشاف وأنوار التنزيل، ونراه في مقدمة تفسيره يشير إلى مكانة هذين التفسيرين، ومن ذلك قوله في المفسرين المتأخرین: فدونوا أسفاراً بارعة جامعة لفنون المحسن الرائعة يتضمن كل منها فوائد شريفة تقر بها عيون الأعيان وعوائد لطيفة يتشفّف بها آذان الأذهان لا سيما الكشاف وأنوار التنزيل المتقدّدان بالشأن الجليل والنعت الجميل فإن كلاً منهما قد أحرز قصب السبق أي إحراز كأنه مرآة لاجتلاء وجه الإعجاز صحائفهما مزايا المزايا الحسان وسطورهما عقود الجمان وقلائد العقبان^(٢).

فأبو السعود رحمه الله قد وقف على أهمية هذين التفسيرين والكنوز وال دقائق البلاغية فيهما لذلك فقد عكف عليهما كثيراً وفي ذلك يقول: "ولقد كان في سوابق الأيام وسوانح الدهور والأعوام أوان اشتغاله بمطالعتهما وممارستهما وزمان انتصابي لمفاوضتيهما ومدارستهما يدور في خلدي على استمرار آناء الليل وأطراف النهار أن أنظم درر فوائدهما في سبط دقيق وأرتب غرر فرائدهما على ترتيب أنيق وأضيف إليها ما أفيته في تضاعيف الكتب الفاخرة"^(٣)

لكنه كان متربداً بسبب اشغال الدنيا لكنه في النهاية قام وألف تفسيره معتمداً على تفسيري الكشاف وأنوار التنزيل بالإضافة إلى عديد التفاسير الأخرى، وأضاف إليها خلاصة إبداعه وعلومه المختلفة.

(١) الأعلام: ٥٩/٧

(٢) تفسير أبي السعود: ٤/١

(٣) تفسير أبي السعود: ١٤/١

تأثير البيضاوي بالسابقين وتأثيره في اللاحقين

والمعنى في هذا المقام هو تأثر أبو السعود رحمه الله بتفسير البيضاوي كما صرّح بذلك في مقدمة تفسيره، ويظهر هذا التأثر في مواطن كثيرة.

من تلك المواطن والأمثلة التي وافق فيها أبو السعود البيضاوي ونقل فيها عبارته نصاً ما جاء في قوله تعالى: (أَمْ لَمْ يُنَبِّئْ بِمَا فِي صُحْفِ مُوسَى، وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى) (النجم: ٣٧).

قال البيضاوي رحمه الله: وتقديم موسى عليه الصلاة والسلام لأن صحفه وهي التوراة كانت أشهر وأكبر عندهم^(١).

وقال أبو السعود: وتقديم موسى لما أن صحفة التي هي التوراة أشهر عندهم وأكثر^(٢)

ومن موافقته له أيضاً ما جاء في قوله تعالى: قوله تعالى: ﴿الَّهُ يَدْعُونَ الْخَلَقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ إِلَيْهِ تُرْجَعُوك﴾ الروم: ١١، قال البيضاوي رحمه الله: (ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) للجزاء والعدول إلى الخطاب للمبالغة في المقصود^(٣).

قال أبو السعود: (ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) إلى موقف الحساب والجزاء والاتفاق للمبالغة في الترهيب^(٤).

ومن الموضع التي اعترض فيها أبو السعود على قول البيضاوي ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ إِلَيْنَا أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْحَكَمِ﴾ آل عمران: ٢٣.

قال البيضاوي: وتکير النصیب يتحمل التعظيم والتحقیر^(٥).

قال أبو السعود: وما فيه من التکير -كلمة نصیباً- للتخفیم وحمله على التحقیر لا يساعد في مقام المبالغة في تقبیح حالهم^(٦)

(١) تفسير البيضاوي: ٣٤١/٣

(٢) تفسير أبي السعود: ١٦٣/٨

(٣) تفسير البيضاوي: ٤٧/٣

(٤) تفسير أبي السعود: ٥٣/٧

(٥) تفسير البيضاوي: ٢٥١/١

(٦) تفسير أبي السعود: ٢٠/٢

٢. تفسير النسفي "مدارك التنزيل وحقائق التأويل"

هو عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، أبو البركات، حافظ الدين: فقيه حنفي، مفسر، من أهل إيدج (من كور أصبهان) ووفاته فيها. نسبته إلى (نسف) ببلاد السندي، بين جيرون وسمرقند^(١)، متوفي سنة (٦٧١هـ).

اختصر النسفي تفسيره من تفسير الكشاف والبيضاوي وفي هذا يقول الذهبي: هذا التفسير، اختصره النسفي - رحمه الله - من تفسير البيضاوي ومن الكشاف للزمخشري... قرأث في هذا التفسير فوجدته كما قلت آنفاً موجز العبارة سهل المأخذ، مختصراً من تفسير الكشاف، جاماً لمحاسنه، متحاشياً لمساوئه، ومن تفسير البيضاوي أيضاً حتى إنه ليأخذ عبارته بنصها أو قريباً منه ويضمونها تفسيره^(٢)

فمن الموضع التي تظهر تأثر النسفي بتفسير البيضاوي ونقله عنه عبارته بنصها أو قريباً منها ما جاء في قوله تعالى: كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَإِنَّا أَعْذَنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ الفتح: ١٣.

قال البيضاوي رحمه الله: وضع الكافرين موضع الضمير إيذاناً بأن من لم يجمع بين الإيمان بالله ورسوله فهو كافر وأنه مستوجب للسعيير بكفره، وتتكير سعيراً للتهويل أو لأنها نار مخصوصة^(٣).

قال النسفي: (وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْذَنَا لِلْكَافِرِينَ) أي لهم فأقيم الظاهر مقام الضمير ل لإذان بأن من لم يجمع بين الإيمانين بالله والإيمان برسوله فهو كافر ونكر (سعيراً) لأنها نار مخصوصة كما نكر (ثاراً تلظى)^(٤).

(١) الأعلام: ٦٧/٤

(٢) التفسير والمفسرون: ٢١٦/١-٢١٧

(٣) تفسير البيضاوي: ٢٩٦/٣

(٤) تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل): عبد الله النسفي، ٣٣٧/٣، حقه وخرج أحاديث يوسف علي بدبو، راجعه وقدم له محبي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة الأولى، هـ ١٤١٩، م ١٩٩٨

٣. تفسير الخطيب الشربيني:

من التفاسير التي ظهر تأثرها بتفسير البيضاوي تفسير (السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير) للخطيب الشربيني، وهو محمد بن أحمد الشربيني، شمس الدين: فقيه شافعي، مفسر. من أهل القاهرة. متوفى (٩٧٧هـ)^(١)

اعتمد الخطيب الشربيني في تفسيره على كثير من التفاسير، وفي هذا يقول: وقد تلقيت التفسير بحمد الله من تفاسير متعددة رواية ودرامية عن أئمة ظهرت وبهرت مفاحرهم، واشتهرت وانتشرت مآثرهم، جمعني الله وإياهم وال المسلمين في مستقر رحمته بمحمد وآل و أصحابه^(٢)

ومن الذين اعتمد عليهم الخطيب في تفسيره تفسير البيضاوي، ويظهر ذلك جلياً لمن تصفح هذا التفسير.

ونرى الشربيني ينقل عن البيضاوي نصاً ويقول: (قال البيضاوي)، ويوافقه أحياناً ويشرح عبارته أحياناً أخرى ويناقش عبارته أحياناً.

فمن المواطن التي اعتمد فيها الخطيب قول البيضاوي كما هو ونقله في تفسيره قوله في قوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ أَتَبَعَكَ أَهْوَاءُهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمَنَ الظَّالِمِينَ﴾^{١٤٥} البقرة: ١٤٥.

قال الخطيب: وقد أكد سبحانه وتعالى التهديد في ذلك وبالغ فيه قال البيضاوي من سبعة أوجه: الأول: الاتيان باللام الموطئة للقسم، الثاني: القسم المضمر، الثالث: حرف التحقيق أي: التأكيد وهي أن الرابع تركيبه من جملة إسمية، الخامس: الاتيان باللام في الخبر أي: وهو من الظالمين، السادس: جعله من الظالمين أي: تعريف الظالمين الدال على المعروفين ولم يقل إنك ظالم، فإن في الاندراج معهم إيهاماً بحصول أنواع الظلم؛ لأن ألم في الظالمين للاستغرار، السابع: التقييد بمجيء العلم تعظيماً للحق المعلوم وتحريضاً على اقتضائه وتحذيراً عن متابعة الهوى واستقطاعاً لظهور الذنب عن الأنبياء^(٣).

(١) الأعلام: ٦/٦

(٢) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير: شمس الدين الشربيني، ١/٣، مطبعة بولاق الأميرية، القاهرة، ١٢٨٥هـ.

(٣) السراج المنير: ١/٢٠. انظر: تفسير البيضاوي: ١/٤٨



تأثير البيضاوي بالسابقين وتأثيره في اللاحقين

ومن المواطن التي يظهر فيها تأثره بالبيضاوي ومناقشته له ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ
فَبِئْدُوا إِلَيْكَ مُتَّسِعُونَ﴾ الفاتحة: ٥.

قال الخطيب: فإن قيل: لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب؟ أجب: بأنّ عادة العرب التفنن في الكلام والعدول من أسلوب إلى آخر تحسيناً للكلام وتشييطاً للسامع فيكون أكثر إسغاءً للكلام فتعدل من الخطاب إلى الغيبة ومن الغيبة إلى التكلم وبالعكس فيهما فهذا أقسام أربعة ذكرها البيضاوي والتحقيق كما قاله بعض المتأخرین: أنها ستة لأنّ الملفت إليه إثنان وكل منها إما غيبة أو خطاب أو تكلم^(١)

⁴. تفسير ابن عجيبة "البحر المديد في تفسير القرآن المجيد":

صاحب هذا التقسير هو أحمد بن محمد بن المهدى، ابن عجيبة، الحسنى الأنجرى: مفسر صوفى مشارك. من أهل المغرب. دفن ببلدة أنجرة (بين طنجة وتطوان) له كتب كثيرة. متوفى ١٢٤٦هـ^(٢).

^(٣) يعد تقسير البيضاوي من أولى التقاسير التي اعتمد عليها ابن عجيبة في تقسيره

فقد كان ابن عجيبة ينقل عبارة البيضاوي كما هي كما جاء في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قد دخلتْ لَمَّا مَكَسِبْتُمْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا شَرِيكُونَ كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ البقرة: ١٤١.

قال ابن عجيبة: قال البيضاوى: كره للبالغة فى التحذير (٤)

ومن تأثر ابن عجيبة بتفسير البيضاوي قوله تعالى: ﴿وَأَقْرَبُوا إِلَيْنَا وَإِنَّا مُنَعِّذُكُمْ﴾
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلَيْهِمْ ٢٨٢ البقرة: ٢٨٢

(١) السراج المنير: ١٠/١ . وانظر: تفسير البيضاوي: ١٥/١

٢٢٥/١ الأعلام:

(٣) انظر: مقدمة تحقيق البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: أبو العباس أحمد بن محمد بن عجيبة، ٣٥ / ١ ، تحقيق أحمد عبد الله القرشي، رسлан، الناشر الدكتور حسن عباس زكي، القاهرة، ١٤١٩ هـ.

(٤) البحر المدید: ١٧٣/١ . وانظر : تفسیر البيضاوى: ١٤٤/١

قال ابن عجيبة: وكرر لفظ الجلالة في الجمل الثلاث، لاستقلالها، فإن الأولى حثّ على التقوى والثانية وعد بتعليم العلم، والثالثة تعظيم شأنه، وأنه أدخل في التعظيم من الكنية. قاله البيضاوي^(١).

٥. تفسير الألوسي "روح المعانى في تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى":

صاحب هذا التفسير هو محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، شهاب الدين، أبو الثناء: مفسر، محدث، أديب، من المجددين، من أهل بغداد، مولده ووفاته فيها. كان سلفي الاعتقاد، مجتهدا. تقلد الإفتاء ببلده سنة ١٢٤٨ هـ وعزل، فانقطع للعلم. متوفى (١٢٧٠ هـ)^(٢)

هذا التفسير أفرغ فيه مؤلفه وسعه، وبذل مجده حتى أخرجه للناس كتاباً جاماً لآراء السلف رواية ودرائية، مشتملاً على أقوال الخلاف بكل أمانة وعناية، فهو جامع لخلاصة كل ما سبقه من التقاسير، فتراه ينقل لك عن تفسير ابن عطية، وتفسير أبي حيان، وتفسير الكشاف، وتفسير أبي السعود، وتفسير البيضاوي، وتفسير الفخر الرازى، وغيرها من كتب التفسير المعتبرة^(٣)

فتفسير البيضاوى من التقاسير التي اعتمد عليها الألوسى في روح المعانى كمصدر من مصادره، وكان ينص على نقله من تفسير البيضاوى فيقول: قال القاضى، أو قال القاضى البيضاوى، أو قال القاضى ناصر الدين.

ويظهر تأثره ونقله من تفسير البيضاوى ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْمُصْرِفُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسْكُنُ مُقْلِيلًا مَانَذَكَرُونَ﴾^(٤) غافر: ٥٨، قال الألوسى: (قليلًا ما تذكرُون) أي تذكرا قليلا تذكرون. وقرأ الجمهور والأعرج والحسن وأبو جعفر وشيبة بباء الغيبة والضمير للناس أو الكفار، قال الزمخشري: والتاء أعم، وعلله صاحب التقريب بأن فيه تغليب الخطاب على الغيبة، وقال القاضى: إن التاء للتغييب أو الالتفات^(٤).

ومن نقولاته عن البيضاوى ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَرَى إِلَى الَّذِينَ يُجَنِّدُونَ فِي مَا يَكْتَبُ اللَّهُ أَنَّ يُصْرَفُونَ﴾^(٥) غافر: ٦٩ ، قال الألوسى: تكرير ذكر المجادلة لتعدد

(١) البحر المديد: ٣١٥/١. وانظر: تفسير البيضاوى: ٢٣٦/١

(٢) الأعلام: ١٧٦/٧

(٣) التفسير والمفسرون: ٢٥٣-٢٥٢/١

(٤) تفسير الألوسى: ٣٣٣/١٢. وانظر: تفسير البيضاوى: ٢١٤/٣

تأثير البيضاوي بالسابقين وتأثيره في اللاحقين

المجادل بأن يكون هناك قوماً وهذا آخرين أو المجادلة فيه بأن يحمل في كل على معنى مناسب فيما مر في البعث وهذا في التوحيد أو هو للتأكيد اهتماماً بشأن ذلك^(١).

٦. التفسير الوسيط "مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر":

قام بتأليف هذا التفسير مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، ونرى تأثيرهم بتفسير البيضاوي جلياً وواضحاً.

فمن تأثيرهم ونقلهم عنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقَيْلَ يَكَارِضُ أَبْلَى مَاءَ لِي وَيَنْسَمَاءَ أَقْلَى﴾ هود: ٤٤ جاء في التفسير الوسيط: ومن المفسّرين من جعل ذلك تمثيلاً لكمال قدرة الله عليهما، وتمام انقيادهما لما يشاؤه فيهما، قال الإمام البيضاوي: نودياً بما ينادي به أولو العلم، وأمراً بما يؤمرون به تمثيلاً لكمال قدرته، وانقيادهما لما يشاء تكوينه فيهما، بالأمر المطاع الذي يأمر المنقاد لحكمه، المبادر إلى امثال أمره، مهابة من عظمته، وخشية من أليم عقابه^(٢).

٧. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور:

تأثير صاحب هذا الكتاب وهو إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفي: ٨٨٥هـ) بتفسير البيضاوي ونقل عنه كثيراً في كتابه.

فمن ذلك قوله: "وقال البيضاوي: والأسباط جمع سبط وهو الحافظ، يريد به حفة يعقوب وأبناءه وذراريهم حفة لإبراهيم وإسحاق"^(٣).

وقد كان يحيل إليه كثيراً فمن ذلك قوله: وإذا راجعت تفسير البيضاوي لقوله سبحانه وتعالى في البقرة ﴿وَإِذَا قَصَحَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ البقرة: ١١٧ زادك بصيرة فيما هنا^(٤).

٨. تفسير الإيجي "جامع البيان في تفسير القرآن":

صاحب هذا التفسير هو محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الحسني الحسيني الإيجي الشافعي: مفسر، من أهل (إيج) بنواحي Shiraz. متوفى سنة (٩٠٥هـ).

(١) تفسير الألوسي: ٣٣٧/١٢. وانظر: تفسير البيضاوي: ٢١٥/٣

(٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم: مجمع البحوث بالأزهر، ١٩٨/٤، الهيئة العامة لشؤون المطبع الاميرية، الطبعة الأولى، ١٣٩٣هـ، ١٩٧٣م. وانظر: تفسير البيضاوي: ١٣٢/٢

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: إبراهيم بن عمر البقاعي، ١٨٩/٢، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٣٣/٤

تأثير البيضاوي بالسابقين وتأثيره في اللاحقين

لقد اشغل الإيجي بعلم التفسير، ووقف على كتب عدة في جمعه لمادة تفسيره، وله كتب في التفسير منها: تفسير سورة الفاتحة، جامع البيان في تفسير القرآن.

ومما يدل على براعته في التفسير أنه يجمع في تفسير الآية أقوالاً كثيرة بأوجز عبارة وألطف إشارة، وهذا لا يستطيعه إلا من كان بالتفسير خبيراً وبطرق المفسرين وعباراتهم بصيراً، حتى قال عن نفسه كما في مقدمة تفسيره: "ثم أعلم أن ما يحتويه أكثر التفاسير ترى في هذا التفسير مع معانٍ صحيحة نفيسة لم تجد في كثير منها".^(١)

وقد نصَّ الإيجي في مقدمة تفسيره أنه اعتمد على تفسير البيضاوي مع تفاسير أخرى فقال: ثم إن مأخذ كتابي هذا: المعالم، والوسط، وتفسير ابن كثير، والنسيفي، والكشف مع شروحه: الطبيبي، والكشف وشرح المحقق القتازاني وتفسير القاضي ناصر الدين البيضاوي.

من تأثره بتفسير البيضاوي ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَتَرَعَ يَدُهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾^(٢) الأعراف: ١٠٨، قال الإيجي: (فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ) للناظرين متعلق بـ بيضاء، أي: بيضاء للناظرة.^(٣).

قال البيضاوي رحمه الله: (فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ) أي بيضاء بياضاً خارجاً عن العادة تجتمع عليها النظارة، أو بيضاء للناظر.^(٤).

٩. تفسير إسماعيل حقي "روح البيان في تفسير القرآن":

صاحب هذا التفسير هو إسماعيل حقي بن مصطفى الإسلامي الحنفي الخلوي، المولى أبو الفداء: متصوف مفسر تركي مستعرب. ولد في آيدوس وسكن القسطنطينية، وانتقل إلى بروسة، وكان من أتباع الطريقة (الخلوتية) فنفي إلى تكفور طاغ، وأوذى. وعاد إلى بروسة فمات فيها. له كتب عربية وتركية. توفي (١١٢٧هـ)^(٥)

(١) تفسير الإيجي (جامع البيان في تفسير القرآن): محمد بن عبد الرحمن الإيجي، ٦/١ (مقدمة الناشر بتصرف)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م

(٢) تفسير الإيجي: ٦٣٩/١

(٣) تفسير البيضاوي: ٥٦٢/١

(٤) الأعلام: ٣١٣/١

فمن تأثر حقي بالبيضاوي ما جاء في تقسيم قوله تعالى: ﴿الَّذِي عَلِمَ مَا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبُلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْوَابِ الْرَّحِيمِ﴾ التوبه: ١٤

قال حقي: (وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ) أي جنس الصدقات صدقاتهم وصدقات غيرهم أراد بهأخذ النبي عليه السلام والائمة بعده لان أخذهم لا يكون الا بأمر الله وكأن الله هو الآخذ قال البيضاوي يقبلها قبول من يأخذ شيئاً ليؤدي بدلـه ففيه استعارة تبعية لان الآخذ حقيقة هو الرسول عليه السلام لا من عينه لأخذها^(١).

١٠. صفة التفاسير "الصابوني":

صاحب هذا التفسير هو محمد علي الصابوني وهو من المفسرين المعاصرين جمع تفسيره من عدة تفاسير ونقل كثيرا عن البيضاوي في تفسيره.

فمن ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَعْبُدُ وَأَرِيكُمُ الَّذِي خَلَقْتُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقَوْنَ﴾ البقرة: ٢١، قال الصابوني: {لَعَلَّكُمْ تَتَّقَوْنَ} أي لتكونوا في زمرة المتقين، الفائزين بالهدى والصلاح قال البيضاوي: لما عدّ تعالى فِرَقَ الْمَكْفُونَ، أقبل عليهم بالخطاب على سبيل الالتفات، هزاً للسامع، وتنشيطاً له، واهتمامًا بأمر العبادة وتقخيماً لشأنها، وإنما كثُر الداء في القرآن بـ{يَا أَيُّهَا} لاستقلاله بأوجهٍ من التأكيد، وكل ما نادى الله له عباده من حيث إنها أمور عظام من حقها أن يتقطنوا لها، ويقبلوا بقلوبهم عليها وأكثُرُهم عنها غافلون حقيقٌ بأن يُنادي له بالآكد الأبلغ^(٢)

١١. تفسير المدار “تفسير القرآن الكريم”:

صاحب هذا التفسير هو محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني، البغدادي الأصل، الحسيني النسب: صاحب مجلة (المنار) وأحد رجال الإصلاح الإسلامي. من الكتاب، العلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير. ولد ونشأ في القلمون (من أعمال طرابلس الشام) وتعلم فيها وفي طرابلس. وتنسّك، ونظم الشعر في صباحه. متوفى (سنة ١٣٥٤ هـ) (٣).

(١) تفسير روح البيان: إسماعيل حقي، ٣٥٠٠، دار الفكر، بيروت. وانظر: تفسير البيضاوي: ٧٧/٢

(٢) صفة النفاسير: محمد علي الصابوني، ٣٥١، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م. انظر تفسير البيضاوي: ٥٩١

^{٥٩} ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م. انظر تفسير البيضاوي: ١/٦٣.

(٣) الأعلام: ٦/١٢٦

من المواقع التي يظهر فيها تأثيره بالبيضاوي ونقله عنه ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِنَاحِيْلَ فَإِنَّهُ زَلَّهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ البقرة: ٩٧، قال صاحب المنار: ومنها أنَّ الضَّمِيرَ الْمُنْصُوبُ الْبَارِزُ فِي (تَزَلَّهُ) لِلْقُرْآنِ وَهُوَ لَمْ يُذْكُرْ فِيمَا قَبْلَهَا، وَإِنَّمَا عَيْنَتُهُ قَرِينَةُ الْحَالِ، وَذَلِكَ يَدْلِلُ عَلَى فَخَامَةِ شَأنِهِ، كَأَنَّهُ لِسَهْرِتِهِ قَدْ اسْتَعْنَى عَنْ ذِكْرِهِ (قالهُ الْبَيْضَاوِيُّ) (١) .

١٢. تفسير زهرة التفاسير لأبي زهرة:

صاحب هذا التفسير هو محمد بن أحمد أبو زهرة. أكبر علماء الشريعة الإسلامية في عصره. مولده بمدينة المحلة الكبرى وتربى بالجامع الأحمدي. متوفي (سنة ١٣٩٤ هـ) (٢)

من تأثيره بالبيضاوي ونقله عنه ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾ يونس: ٥، قال أبو زهرة: ونحن نقول: إن الشمس ذاتها ضياء، والقمر نور، أي ذا نور، وقلنا في القمر ذو نور، لأن ضياءه ليس من ذاته إنما هو من توسطه بين الأرض والشمس، ونوره عرضي وليس ذاته نورا كالشمس في أن ذاتها ضياء، ولقد أدرك هذا بعض المفسرين الأقدمين الذين لم يعنوا بدراسة الأجرام السماوية. فقد قال البيضاوي: أنه سمي "نورا" للقمر للمبالغة، فهو أعم من الضوء (٣)

١٣. تفسير محاسن التأويل للقاسمي:

صاحب هذا التفسير هو جمال الدين (أو محمد جمال الدين) بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق، من سلالة الحسين السبط: إمام الشام في عصره، علما بالدين، وتضلعا من فنون الأدب. مولده ووفاته في دمشق. متوفي (١٣٣٢ هـ) (٤)

من تأثيره بالبيضاوي ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ لَوْلَا يَتَّهَمُهُمُ الْأَرْتَيْهُونَ وَالْأَجَّارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ أَسْحَثَ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ المائدة: ٦٣، قال القاسمي: "وقال البيضاوي: فيها

(١) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار): محمد رشيد رضا، ٣٢٥/١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠ م. وانظر: تفسير البيضاوي: ١٢٢/١

(٢) الأعلام: ٢٥/٦

(٣) زهرة التفاسير: أبو زهرة، ٣٥١٧/٧، دار الفكر العربي. وانظر: تفسير البيضاوي: ٩٠/٢

(٤) الأعلام: ١٣٥/٢

تحضير لعلمائهم على النهي عن ذلك، فإن (لولا) إذا دخل على الماضي أفاد التوبيخ، وإذا دخل على المستقبل أفاد التحضير^(١).

١٤. فتح البيان في مقاصد القرآن:

صاحب هذا التفسير هو محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي، أبو الطيب: من رجال النهضة الإسلامية المجددين. ولد ونشأ في قنوج (بالهند) وتعلم في دلهي. وسافر إلى بهوپال طلباً للمعيشة، ففاز بثروة وافرة... له نيف وستون مصنفاً بالعربية والفارسية والهندية^(٢).

ويظهر تأثر صاحب فتح البيان بالبيضاوي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُم﴾ الكهف: ٢٢، قال محمد صديق خان رحمة الله: قيل وإظهار الواو في هذه الجملة يدل على أنها مراده في الجملتين الأوليين... وقيل زائدة لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت، وهذا ما جنح إليه الزمخشري وصرح به البيضاوي واحتاره ابن هشام^(٣).

١٥. التفسير المنير للزحيلي:

هذا تفسير معاصر للدكتور وهبة بن مصطفى الزحيلي، تأثر فيه بالبيضاوي فنقل عنه في مواضع كثيرة.

من ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴾١٦﴿ تَأَلَّهُ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾١٧﴾ الشعراة: ٩٦ - ٩٧، قال الزحيلي: (وهم فيها يختصمون) يختصمون مع معبدتهم، على أساس أن الله ينطق الأصنام، فتخاصم العبدة، ويؤيد الخطاب في قوله ﴿إِذْ شَوَّيْكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾١٨﴾ الشعراة: ٩٨ أي نجعلكم مساوين له في استحقاق العبادة. قال البيضاوي: ويجوز أن تكون

(١) محسن التأويل: محمد جمال القاسمي، ١٨٣/٤، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ. وانظر: تفسير البيضاوي: ٤٤٩/١

(٢) الأعلام: ١٦٨/٦

(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن: محمد صديق خان القنوجي، ٣٢/٨، عني بطبعه عبد الله الأنصارى، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا- بيروت، ١٤١٢ هـ، ١٩٩٢ م. وانظر: تفسير البيضاوي: ٢٣٤/٢

الضمائر للعبدة، كما في قالوا والخطاب للمبالغة في التحسن والندامة، والمعنى: أنهم مع تخاصمهم في مبدأ ضلالهم معترفون بأنهم أكفهم في الضلال، متحسنون عليها^(١).

الخلاصة:

بعد ما تقدم من ذكر التفاسير التي نقلت عن تفسير البيضاوي يتضح أن تفسير البيضاوي قد أثر تأثيراً كبيراً في اللاحقين، إذ كان مرجعاً مهماً في كثير من التفاسير، وذلك لما في هذا التفسير من خصائص مميزة سبق ذكرها لعل أهمها اهتمامه بالجوانب والنكات البلاغية إلى جانب اختصاره وإيجازه مع كونه يناصر مذهب أهل السنة والجماعة تاركاً اعتزاليات الكشاف.

إحالات محقق التفاسير على تفسير البيضاوي:

لا بد من الإشارة إلى أن تأثير تفسير البيضاوي لم ينعكس فقط على التفاسير التي جاءت من بعده، بل كان لها الأثر على التفاسير التي سبقته، وذلك لأن محقق هذه التفاسير كانوا يحيلون إلى تفسير البيضاوي لإيضاح أو مزيد شرح أو إزالة إبهام.

من هذه التفاسير مثلاً تفسير مقاتل بن سليمان إذ نرى محقق هذا التفسير يحيل إلى تفسير البيضاوي بعد قول مقاتل بن سليمان في قوله تعالى: ﴿أَمْ نَقُولُنَّ إِنَّ إِرَاهُمَ قَاتَلُوا إِسْمَاعِيلَ وَأَسْخَنُوا
وَيَغْرُوبُ وَأَلْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ البقرة: ١٤٠، قال مقاتل بن سليمان: وإنما سموا الأسباط لأنه ولد لكل واحد منهم أمة من الناس^(٢).

ونرى المحقق عبد الله محمود شحاته يضع حاشية بعد الكلام السابق يقول فيها: (وفي البيضاوي: والأسباط جمع سبط وهو الحافظ يريد به حفة يعقوب أو أبناءه وذریتهم فإنهم حفة إبراهيم وإسحاق)^(٣).

وعلى منوال ما سبق نجد كثيراً من المحققين يحيلون إلى تفسير البيضاوي وهذا من عظيم تأثير تفسير البيضاوي على التفاسير الأخرى ومحققيها، وقيمتها العلمية، فممن حذوا حذو عبد الله شحاته في إحالاته:

(١) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: وهبة الزحيلي، ١٩٧٧/١٩، دار الفكر المعاصر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ. وانظر: تفسير البيضاوي: ٥٤٥/٢

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان: أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلاخي، ٤٣/١، تحقيق عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الأولى - ١٤٢٣هـ.

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان: ٤/١

تأثير البيضاوي بالسابقين وتأثيره في اللاحقين

١. محققًا تفسير القرطبي (أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش)^(١).
٢. محقق تفسير الشعالي (الشيخان محمد علي معرض وعادل أحمد عبد الموجود)^(٢)
٣. محقق التفسير البسيط للنисابوري، وتحقيق هذا التفسير عبارة عن (١٥) رسالة دكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود، ثم قامت لجنة علمية من الجامعة بسبكه وتسيقه، وكان محقق هذا التفسير يحيطون إلى تفسير البيضاوي^(٣).
٤. محققًا (تفسير درج الدرر في تفسير الآي والسور) للإمام عبد القاهر الجرجاني^(٤).
٥. محقق تفسير القشيري إبراهيم البسيوني^(٥).
٦. محقق إيجاز البيان عن معاني القرآن الدكتور حنيف القاسمي^(٦)

(١) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي): أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

(٢) الجوادر الحسان في تفسير القرآن: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الشعالي (المتوفى: ٨٧٥هـ)، تحقيق الشيخ محمد علي معرض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولى - ١٤١٨هـ.

(٣) انظر: **التفسير البسيط**: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الوادي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، عدد من الباحثين بجامعة الإمام محمد بن سعود، الناشر: عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ

(٤) انظر: **درج الدرر في تفسير الآي وال سور**: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ)، محقق القسم الأول: طلعت صلاح الفرحان، محقق القسم الثاني: محمد أديب شكور أمير، دار الفكر - عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

(٥) انظر: **لطائف الإشارات** (تفسير القشيري): عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: ٤٦٥هـ)، تحقيق إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر، الطبعة الثالثة.

(٦) انظر: **إيجاز البيان عن معاني القرآن**، محمود بن أبي الحسن بن الحسين النيسابوري أبو القاسم، نجم الدين (المتوفى: نحو ٥٥٠هـ)، تحقيق الدكتور حنيف بن حسن القاسمي، دار الغرب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٥هـ

الخاتمة

بدايةً أَحْمَدُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ وَفَنِيَ لِإِكْمَالِ هَذِهِ الْدِرَاسَةِ حَيْثُ وَقَتَ مِنْ خَلَالِهَا عَلَى جَهُودِ الْإِمَامِ الْبَيْضَاوِيِّ الْبَلَاغِيِّ فِي تَفْسِيرِهِ "أَنُوَارُ التَّنْزِيلِ وَأَسْرَارُ التَّأْوِيلِ" تَتَبَعُتْ هَذِهِ الْجَهُودُ وَقَمَتْ بِدِرَاستِهَا وَتَبَوِيبِهَا عَلَى أَسَاسِ مَبَاحِثِ عِلْمِ الْبَلَاغَةِ مِنْ مَعْانِيٍّ وَبِيَانٍ وَبَدِيعٍ.

أولاً: النتائج:

١. يُعَتَّبِرُ تَفْسِيرُ الْإِمَامِ نَاصِرِ الدِّينِ الْبَيْضَاوِيِّ مِنْ أَهْمَ الْتَفَاسِيرِ الَّتِي اهْتَمَتْ بِإِظْهَارِ الْجَوَانِبِ الْبَلَاغِيَّةِ وَالْإِعْجَازِيَّةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.
٢. الْإِمَامُ الْبَيْضَاوِيُّ عَالَمٌ مُوسَعٌ جَمَعَ عَلَوْمًا كَثِيرًا كَالْفَقْهِ وَالْأَصْوَلِ وَالتَّفْسِيرِ وَالتَّارِيخِ وَالْبَلَاغَةِ وَالْلُّغَةِ.
٣. ظَهَرَ مِنْ خَلَالِ الْدِرَاسَةِ اهْتِمَامُ الْبَيْضَاوِيِّ رَحْمَهُ اللَّهُ بِعِلْمِيِّ الْمَعْانِيِّ وَالْبَيَانِ أَكْثَرَ مِنْ عِلْمِ الْبَدِيعِ.
٤. ظَهَرَ مِنْ الْدِرَاسَةِ أَنَّ الْبَيْضَاوِيَّ كَغَيْرِهِ مِنَ الْعُلَمَاءِ تَأْثَرَ بِكَثِيرٍ مِنْ مَعَاصِرِهِ وَسَابِقِيهِ وَخَاصَّةً الْزمُخْشَرِيِّ وَالرَّازِيِّ وَالرَّاغِبِ الْأَصْفَهَانِيِّ.
٥. تَبَيَّنَ مِنْ الْدِرَاسَةِ تَأْثِيرُ الْبَيْضَاوِيِّ فِي الْلَّاهِقِينَ كَأَبِيِّ السَّعُودِ، وَالنَّسْفِيِّ، وَالْخَطِيبِ الشَّرِبِينِيِّ، وَابْنِ عَجَيْبَةِ، وَإِسْمَاعِيلِ حَقِّيِّ، وَمُحَمَّدِ رَشِيدِ رَضا، وَالْأَلوَسيِّ، وَالْبَقَاعِيِّ، وَالْإِيجِيِّ، وَالصَّابُونِيِّ، وَأَبِيِّ زَهْرَةِ، وَالْقَاسِمِيِّ.
٦. تَبَيَّنَ مِنْ الْدِرَاسَةِ أَنَّ تَفْسِيرَ الْبَيْضَاوِيِّ قدَ أَحَدَثَ نَشاطًا عَلَمِيًّا وَاسِعًا، حَيْثُ كَتَبَتْ عَلَيْهِ الْحَوَاشِيُّ وَالْتَّعْلِيقَاتِ وَالْمُخْتَصَراتِ، وَعَقِدَتْ لِمَدَارِسِهِ دُرُوسَ الْعِلْمِ فِي الْمَسَاجِدِ وَالْمَرَاكِزِ الْعَلَمِيَّةِ، وَعَقِدَتْ مَنَاظِرَاتٍ حَوْلَ هَذِهِ التَّفْسِيرِ.

ثانيًا: التوصيات:

بعد النتائج التي توصلت لها في حدود هذه الدراسة، هذه أهم التوصيات:

١. حَوَاشِيُّ تَفْسِيرِ الْبَيْضَاوِيِّ مَلِيئَةُ بَلَاغَةِ الْبَلَاغَةِ، فَهِيَ بِحَاجَةٍ إِلَى دراساتٍ مُتَأْنِيةٍ لِلوقوفِ عَلَى الْبَلَاغَةِ الْقُرَآنِيَّةِ فِيهَا.
٢. الْتَفَاسِيرُ الْقُرَآنِيَّةُ مُعِينٌ لَا يَنْضُبُ وَهِيَ مَنْبَعُ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، فَلَا بدَّ مِنِ الْإِسْقَادَةِ مِنَ الْدِرَاسَاتِ الْبَلَاغِيَّةِ الْقُرَآنِيَّةِ السَّابِقَةِ وَرِبطِهَا مَعًا ضَمِّنَ دَرَاسَةٍ مُوحَدةٍ.
٣. تَأْثِيرُ الْبَيْضَاوِيِّ فِي الْلَّاهِقِينَ كَبِيرٌ جَدًّا، يُمْكِنُ أَنْ تُفَرِّدَ لَهُ دَرَاسَةٌ خَاصَّةٌ، لِإِظْهَارِ فَضْلِ هَذِهِ الْعَالَمِ وَتَأْثِيرِهِ.

قائمة المصادر والمراجع

• القرآن الكريم

أولاً: الكتب والمراجع:

١.	آداب البحث والمناظرة: محمد الأمين الشنقيطي، تحقيق سعود العريفى، دار عالم الفوائد.
٢.	أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدنى بالقاهرة ودار المدنى بجدة.
٣.	الإشارات والتبيهات في علم البلاغة: محمد الجرجاني، تحقيق الدكتور عبد القادر حسين، دار نهضة مصر، القاهرة.
٤.	إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعى، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثامنة، ١٤٢٥ هـ، ٢٠٠٥ م.
٥.	إعراب القرآن: المنسوب إلى للزجاج: تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتب الإسلامية، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني.
٦.	الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، الطبعة ١٥، لبنان، بيروت.
٧.	الإكسير في علم التفسير: سليمان الطوفى، تحقيق عبد القادر حسين، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الثانية.
٨.	أمالى ابن بشران: أبو القاسم ابن بشران ١٤١/٢، تحقيق أحمد بن سليمان، دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ، ١٩٩٩ م.
٩.	أنوار الربيع في أنواع البديع: ابن معصوم المدنى، تحقيق شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، الطبعة الأولى، ١٣٨٨ هـ، ١٩٦٨ م.
١٠.	إيجاز البيان عن معانى القرآن، محمود بن أبي الحسن بن الحسين النيسابوري أبو القاسم، نجم الدين (المتوفى: نحو ٥٥٠ هـ)، تحقيق الدكتور حنيف بن حسن القاسمي، دار الغرب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٥ هـ.
١١.	إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: إسماعيل باشا، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
١٢.	الإيضاح في علوم البلاغة: جلال الدين القزويني، محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل بيروت، الطبعة الثالثة.

البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: أبو العباس أحمد بن محمد بن عجيبة، تحقيق أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر الدكتور حسن عباس زكي، القاهرة، ١٤١٩هـ.	.١٣
البداية والنهاية: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تحقيق عبدالله التركي، هجر للطباعة والنشر، ط١، ١٩٩٧م.	.١٤
البديع في البديع: ابن المعتز، دار الجيل، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.	.١٥
البرهان في أصول الفقه: عبد الملك الجوني، تحقيق صلاح عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.	.١٦
البرهان في علوم القرآن: بدر الدين الزركشي، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م	.١٧
بغية الإيضاح لتألخيص المفتاح في علوم البلاغة: عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، الطبعة السابعة عشر، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م	.١٨
بغية الوعاء: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد إبراهيم، دار الفكر، ط٢، ١٩٧٩م.	.١٩
البلاغة العربية: عبد الرحمن بن حسن الميداني الدمشقي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.	.٢٠
بلاغة الكلمة والجملة والجمل: منير سلطان، منشأة المعارف، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، الإسكندرية.	.٢١
البلاغة فنونها وأفاناتها علم المعاني: فضل حسن عباس، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م، الأردن.	.٢٢
البيان والتبيين: عمرو بن بحر المشهور بالجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ	.٢٣
تاج العروس من جواهر القاموس: الزبيدي، مجموعة محققين، دار الهدایة.	.٢٤
البيان في إعراب القرآن: أبو البقاء العكبي، تحقيق علي الباوي، الناشر عيسى البابي الحلبي وشركاه.	.٢٥
تحرير ألفاظ التبييه: محبي الدين النووي، تحقيق عبد الغني الدقر، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.	.٢٦
التحرير والتتوير: محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤هـ.	.٢٧
التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة: شمس الدين السخاوي، أسعد طرابزوني الحسيني، ١٩٧٩م	.٢٨

٢٩.	تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم): أبو السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٣٠.	تفسير الإيجي (جامع البيان في تفسير القرآن): محمد بن عبد الرحمن الإيجي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م.
٣١.	التفسير البسيط: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواهبي، النيسابوري، عدد من الباحثين بجامعة الإمام محمد بن سعود ،الناشر: عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ.
٣٢.	تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل): ناصر الدين البيضاوي، تحقيق محمد حلاق ومحمود الأطرش، دار الرشيد ، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.
٣٣.	تفسير الراغب الأصفهاني: الراغب الأصفهاني، تحقيق محمد بسيوني وعادل الشدي، كلية الآداب جامعة طنطا، ودار الوطن الرياض.
٣٤.	تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار): محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.
٣٥.	تفسير القرآن العظيم (ابن كثير): أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٩هـ.
٣٦.	تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، تحقيق مصطفى السيد محمد وآخرون، مؤسسة قرطبة.
٣٧.	التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ.
٣٨.	تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل): عبدالله النسفي، حققه وخرج أحاديثه يوسف علي بدبو، راجعه وقدم له محبي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.
٣٩.	التفسير الوسيط للقرآن الكريم: مجمع البحوث بالأزهر، الهيئة العامة لشؤون المطبع الأميرية، الطبعة الأولى، ١٣٩٣هـ، ١٩٧٣م.
٤٠.	تفسير روح البيان: إسماعيل حقي، دار الفكر، بيروت.
٤١.	تفسير مقاتل بن سليمان: أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأذدي البلخي، تحقيق عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الأولى - ١٤٢٣هـ.
٤٢.	التفسير والتأويل في القرآن: صلاح الخالدي، دار النفائس، الأردن، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

٤٣.	التفسير والمفسرون: محمد الذهبي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٧، ٢٠٠٠ مـ).
٤٤.	التفسير ورجاله: محمد الفاضل بن عاشور ، مجمع البحث الإسلامية بالأزهر ، ١٣٩٠ هـ ، ١٩٧٠ مـ.
٤٥.	الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي): أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخرجي شمس الدين القرطبي ، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ، دار الكتب المصرية - القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ مـ .
٤٦.	جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: أحمد الهاشمي ، المكتبة العصرية بيروت.
٤٧.	الجواهر الحسان في تفسير القرآن: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الشعالي ، تحقيق الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، الطبعة الأولى - ١٤١٨ هـ.
٤٨.	حاشية الشهاب (عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي) ، دار صادر ، بيروت.
٤٩.	حاشية القونوي على تفسير الإمام البيضاوي ، عبد الله عمر ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠١ مـ.
٥٠.	حاشية محي الدين شيخ زاده: محمد بن مصلح القوجي ، تحقيق محمد شاهين ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٩ هـ ، ١٩٩٩ مـ.
٥١.	حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر: عبد الرزاق البيطار ، تحقيق محمد البيطار ، ١٣٨٠ هـ ، ١٩٦١ مـ.
٥٢.	خصائص التراكيب: محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ، الطبعة السابعة.
٥٣.	خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر: المحببي.
٥٤.	خلاصة المعاني: الحسن المفتى ، تحقيق عبد القادر حسين ، الناشرون العرب ، السعودية.
٥٥.	الدر المصور في علوم الكتاب المكنون: شهاب الدين الحلبي ، تحقيق أحمد الخراط ، دار القلم ، دمشق.
٥٦.	ذُرْجُ الذُّرْرِ فِي تَفْسِيرِ الْأَيِّ وَالسُّورِ : أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل ، الجرجاني الدار ، محقق القسم الأول: طلعت صلاح الفرمان ، محقق القسم الثاني: محمد أديب شكور أمير ، دار الفكر - عمان ، الأردن ، الطبعة الأولى ، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ مـ

الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ابن حجر العسقلاني، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣ م.	.٥٧
دلائل الاعجاز في علم المعاني: عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدنى بالقاهرة ودار المدنى بجدة، الطبعة الثالثة، ١٤١٣ هـ، ١٩٩٢ م.	.٥٨
الدليل إلى المتون العلمية: عبد العزيز بن إبراهيم بن قاسم.	.٥٩
ديوان البختري: عبد الرحمن البرقوقي، مطبعة هندية بالموسكي، الطبعة الأولى، ١٩١١ م، مصر.	.٦٠
ديوان امرئ القيس: امرؤ القيس، عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٥ هـ، ٢٠٠٤ م.	.٦١
روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى: شهاب الدين الألوسي، تحقيق علي عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ.	.٦٢
روضة الطالبين وعemma المفتين: أبو زكريا النووي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، على محمد معوض، دار الكتب العلمية.	.٦٣
زهرة التقاسير: أبو زهرة، دار الفكر العربي.	.٦٤
سر الفصاحة: عبد الله بن محمد الخفاجي الحلبي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٢ هـ، ١٩٨٢ م.	.٦٥
السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير: شمس الدين الشربيني، مطبعة بولاق الأميرية، القاهرة، ١٢٨٥ هـ.	.٦٦
السنن الكبرى: أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق حسن شلبي، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ، ٢٠٠١ م.	.٦٧
شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد، تحقيق عبد القادر ومحمد الأنطاوط، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٩٨٨ م.	.٦٨
شرح السنة للبغوي: الحسين البغوي، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣ هـ، ١٩٨٣ م.	.٦٩
الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية: طاشكيري زاده، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٥ م.	.٧٠
الصحابي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها: ابن فارس الرازي، الناشر محمد علي بيضون، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ، ١٩٩٧ م >	.٧١

الصحيح تاج اللغة وصحاح العربية: أبو نصر الفارابي، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملائين، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.	.٧٢
صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق محمد زهير الناصر، دار طوق النجا، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.	.٧٣
صفوة التقاسير: محمد علي الصابوني، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.	.٧٤
كتاب الصناعتين: أبو هلال العسكري، تحقيق علي محمد الباجوبي ومحمد إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٩هـ.	.٧٥
الصيد الثمين في رسائل ابن عثيمين: محمد العثيمين، دار الثقة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م	.٧٦
طبقات الشافعية الكبرى: السبكي، تحقيق الحلو والطناحي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.	.٧٧
طبقات الشافعية: ابن قاضي شهبة، تحقيق عبد العليم خان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند، ط١، ١٩٧٩م.	.٧٨
طبقات المفسرين: الداودي، تحقيق مجموعة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.	.٧٩
الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: يحيى بن حمزة العلوي، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.	.٨٠
عجائب الآثار في الترجم والأخبار: عبد الرحمن الجبرتي، دار الجيل، بيروت.	.٨١
علم المعاني والبيان والبديع: عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت	.٨٢
العمدة في محسن الشعر وأدابه: ابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد محبي الدين عبد الحميد، دار الجيل، الطبعة الخامسة، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.	.٨٣
غرائب التبيهات على عجائب التشبيهات: علي بن ظافر الأزدي المصري، تحقيق: دكتور محمد زغلول سلام، دكتور مصطفى الصاوي الجوني، دار المعارف القاهرة.	.٨٤
فتح البيان في مقاصد القرآن: محمد صديق خان القنوجي، عني بطبعه عبد الله الأنصاري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا - بيروت، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.	.٨٥
الفتح السماوي بتخريج أحاديث القاضي البيضاوي: عبد الرؤوف المناوي، تحقيق أحمد مجتبى، دار العاصمة، الرياض.	.٨٦

فتح القدير: محمد بن علي الشوكاني، دار ابن كثير ودار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.	.٨٧
فقه اللغة وسر العربية: عبد الملك الثعالبي، تحقيق عبد الرزاق المهدى، إحياء التراث العربى، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م.	.٨٨
فن البلاغة: عبد القادر حسين، عالم الكتب، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٤م.	.٨٩
كتاب التعريفات: علي بن محمد الجرجاني، تحقيق جماعة من العلماء، الناشر دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.	.٩٠
الكتاب: سيبويه، عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م	.٩١
الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ.	.٩٢
كشف الظنون عن أسمى الكتب والفنون: حاجي خليفة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.	.٩٣
الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة: نجم الدين الغزي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.	.٩٤
لسان العرب: جمال الدين ابن منظور، بتصريف، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.	.٩٥
لطائف الإشارات (تفسير الفشيري): عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك الفشيري (المتوفى: ٦٥٤هـ)، تحقيق إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر، الطبعة الثالثة.	.٩٦
المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين بن الأثير، تحقيق أحمد الحوفي وبدوى طبانة، دار نهضة مصر، القاهرة.	.٩٧
محاسن التأويل: محمد جمال القاسمي، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.	.٩٨
المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية الأندلسى، تحقيق عبد السلام محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.	.٩٩
المحسول: فخر الدين الرازي، تحقيق طه العلواني، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.	.١٠٠
مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان: اليافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.	.١٠١

١٠٢	المستصفى: أبو حامد الغزالى، تحقيق محمد عبد السلام عبد الشافى، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.
١٠٣	معجم البلدان: ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م.
١٠٤	معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: أحمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
١٠٥	المعجم المفصل في علوم البلاغة: إنعام عكاوى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.
١٠٦	معجم المؤلفين: عمر رضا كحال، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.
١٠٧	المعجم الواifi في أدوات النحو العربي: علي توفيق الحمد ويونس الزعبي، دار الأمل، الأردن، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.
١٠٨	المعنى لابن قدامة: ابن قدامة المقدسي، مكتبة القاهرة، ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م.
١٠٩	مفآتيخ الغيب: فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ، بيروت.
١١٠	مفتاح العلوم: يوسف بن أبي بكر السكاكى، ضبط نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
١١١	المفضليات: المفضل بن محمد الضبي، تحقيق: أحمد محمد شاكر و عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السادسة.
١١٢	من بلاغة القرآن: أ.د. محمد علوان، وأ.د. نعمان علوان، الطبعة الرابعة، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.
١١٣	من بلاغة القرآن: أحمد البدوى، نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٥م.
١١٤	المنهاج الواضح للبلاغة: حامد عونى، المكتبة الأزهرية للتراجم.
١١٥	نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
١١٦	نقد الشعر: قدامة بن جعفر، مطبعة الجواب، قسطنطينية، الطبعة الأولى، ١٣٠٢هـ.
١١٧	نهاية الأرب في فنون الأدب: شهاب الدين التويى، دار الكتاب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

النهاية في غريب الحديث والأثر: مجد الدين ابن الأثير، تحقيق طاهر الزاوي ومحمود الطناхи، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ ١٩٩٧م.	.١١٨
نواهد الأبكار وشوارد الأفكار: جلال الدين السيوطي، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٥م	.١١٩
هدية العارفين أسماء المؤلفين والمصنفين: اسماعيل البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٥١م.	.١٢٠
الوافي بالوفيات: صلاح الدين الصفدي، تحقيق الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.	.١٢١

ثانياً: الرسائل الجامعية:

الاستبطاط عند القاضي البيضاوي من خلال تفسيره أنوار التزيل وأسرار التأويل: يوسف السلمي، رسالة دكتوراه، إشراف عبد العزيز محمود، جامعة أم القرى، السعودية، ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م.	.١
اهتمام مفسري القرن الحادى عشر بتفسير البيضاوى أسبابه ومظاهره: محمد إدريس، رسالة ماجستير، إشراف عبد القادر محمد الحسين، كلية الشريعة، جامعة دمشق.	.٢
البيضاوى ومنهجه في التفسير: يوسف أحمد علي، رسالة دكتوراه، إشراف الأستاذ محمد شوقي السيد، جامعة أم القرى، السعودية.	.٣

الفهرس

التمهيد: حياة الإمام البيضاوي

٨	أولاً: اسمه ونسبه:
٩	ثانياً: مولده ونشأته:
٩	ثالثاً: شيوخه:
١٠	رابعاً: تلاميذه:
١٠	خامساً: ثناء العلماء عليه:
١١	سادساً: آثاره ومصنفاته العلمية:
١٣	سابعاً: وفاته:

الفصل الأول: نظرة في تفسير البيضاوي

١٦	المبحث الأول: سبب تأليف البيضاوي لتفسيره
٢١	المبحث الثاني: مكانة تفسير البيضاوي بين كتب التفاسير
٢٦	أولاً: المؤلفات التي كتبت على تفسير البيضاوي:
٢٩	١. الحواشى:
٣١	٢. التعليقات والحواشى غير الناتمة:
٣٢	٣. تحرير أحاديث تفسير البيضاوي:
٣٤	٤. مختصراته:
٣٦	ثانياً: الدروس التي عُقدت على تفسير البيضاوي:
٣٩	ثالثاً: تتلمذ العلماء وطلاب العلم على تفسير البيضاوي:
٤٣	المبحث الثالث: مصادر تفسير البيضاوي
٤٣	أولاً: من القرآن الكريم:
٤٥	ثانياً: من السنة النبوية ^(١) :
٤٧	ثالثاً: من أقوال الصحابة:
٤٨	رابعاً: من كتب الفقهاء ^(٢) :
٤٩	خامساً: من كتب الأصول ^(٣) :
٥١	سادساً: من كتب اللغة ^(٤) :
٥٥	سابعاً: من كتب التفسير:
٦٥	المبحث الرابع: منهج البيضاوي في التفسير
٦٥	أولاً: منهجه العام:
٦٥	١. معلومات السورة:
٦٦	٢. سبب النزول:
٦٦	٣. الجمع بين التفسير بالرواية والدرایة:
٦٧	٤. أحاديث فضائل السور:
٦٧	٥. المسائل الفقهية:

٦٨	٦٨	٦. القراءات:
٦٨	٦٩	٧. المعنى اللغوي للكلمة:
٦٩	٦٩	٨. الاستشهاد بالشعر لبيان معنى الكلمة:
٦٩	٦٩	٩. الاستشهاد بأقوال اللغويين:
٦٩	٦٩	١٠. بيان الاشتراكات والأبنية الصرفية:
٦٩	٦٩	١١. بيان التغيرات الصرفية:
٦٩	٧٠	١٢. الصناعة النحوية:
٧٠	٧٠	ثانياً: منهجه البلاغي:
٧٠	٧١	١. اهتمامه بعلم المعاني والبيان أكثر من البديع:
٧١	٧٢	٢. التعريفات الاصطلاحية البلاغية:
٧٢	٧٢	٣. عدم التفصيل في تسمية الفن البلاغي:
٧٢	٧٣	٤. استشهاده بالشعر :
٧٣	٧٣	٥. ربط الآية بلاغياً بأية أخرى:
٧٣	٧٣	٦. ذكر الأغراض البلاغية للفن البلاغي:
٧٣	٧٤	٧. ذكر الوجوه البلاغية المتعددة:
٧٤	٧٤	٨. اعتراضه على آراء بلاغية:
		٩. تعليل توجيهاته البلاغية:

الفصل الثاني: مباحث علم المعانى فى تفسير البيضاوى

٨٤	٨٤	المبحث الأول: الخبر والإنشاء:
٨٤	١٠٩	المطلب الأول: الخبر:
	١١٠	المطلب الثاني: الإنشاء:
	١١٠	أنواع الإنشاء الطلبية:
	١١٠	أولاً: الأمر:
	١١٠	الأغراض البلاغية للأمر:
	١١٠	١. التهديد:
	١١١	٢. التعجب:
	١١٢	٣. الخبر:
	١١٣	٤. الإهانة:
	١١٤	٥. الدعاء:
	١١٥	٦. الإنفاذ والتنييس:
	١١٦	٧. الإباحة:
	١١٧	٨. الندب:
	١١٧	٩. التهكم والاستهزاء:
	١١٨	١٠. التبكيت والتوبيخ:
	١٢٠	١١. الاستهانة والاستخفاف:
	١٢١	١٢. التقويض:
	١٢٢	١٣. التسوية:
	١٢٣	ثانياً: النهي:

الأغراض البلاغية للنهي:

١٢٤	١. الدعاء:
١٢٥	٢. التهكم والاستهزاء:
١٢٥	٣. التأديب:
١٢٦	٤. الاعذار:
١٢٧	٥. التهيب:
١٢٧	٦. التسوية:
١٢٨	٧. التهديد والوعيد:
١٢٩	٨. الإخبار:
١٣٠	٩. الاستهانة والاستخفاف:
١٣٠	١٠. النصح والإرشاد:
١٣١	١١. المبالغة:
١٣١	١٢. الإباحة:
١٣٢	١٣. التبيّن:
١٣٣	١٤. التعظيم والتغليظ:
١٣٣	١٥. التثبيط:
١٣٤	١٦. التسلية:
١٣٥	ثالثاً: الاستفهام:

الأغراض البلاغية للاستفهام:

١٣٦	١. التوبيخ والتقرير والتبيّن:
١٣٦	٢. التهكم والاستهزاء:
١٣٧	٣. النشويق:
١٣٨	٤. التحضيض والتحريض:
١٤٠	٥. النهي:
١٤٠	٦. الإنكار:
١٤١	٧. الأمر والحث:
١٤٢	٨. النفي:
١٤٢	٩. التعجب:
١٤٣	١٠. التعجب:
١٤٤	١١. التقرير:
١٤٥	١٢. التحقير:
١٤٥	١٣. التهويل:
١٤٦	١٤. الاستبعاد:
١٤٧	١٥. العرض:
١٤٨	١٦. الاستبطاء:
١٤٩	رابعاً: التمني:
١٥٠	أدوات التمني
١٥٠	١. ليت:
١٥١	٢. هل:
١٥٢	٣. لو:

٤. لعل:	١٥٢
خامساً: النداء:	١٥٥
الأغراض البلاغية للنداء	١٥٦
١. الإغراء:	١٥٦
٢. التحسّر:	١٥٦
٣. الاختصاص:	١٥٧
المبحث الثاني: التعريف والتنكير	١٥٩
أدوات التعريف:	١٦٠
١. الضمير:	١٦٠
٢. العلمية:	١٦١
٣. اسم الإشارة:	١٦١
٤. الاسم الموصول:	١٦١
٥. التعريف بـ "ال":	١٦١
لام التعريف في تفسير البيضاوي:	١٦٣
الأغراض البلاغية للتعريف:	١٦٣
١. التكثير:	١٦٤
٢. التعظيم:	١٦٤
٣. التشريف:	١٦٥
٤. التهويل:	١٦٦
٥. الاستعطاف:	١٦٧
٦. الشمول:	١٦٧
٧. التحقيق:	١٦٨
٨. المبالغة:	١٦٨
٩. الوصف:	١٦٩
١٠. الاختصاص:	١٧٠
أغراض التنكير:	١٧٢
١. التعظيم:	١٧٢
٢. التقليل:	١٧٢
٣. التحقيق:	١٧٣
٤. التعميم:	١٧٤
٥. المبالغة:	١٧٥
٦. النوعية:	١٧٥
٧. التهويل:	١٧٦
٨. الإبهام:	١٧٧
٩. التكثير:	١٧٧
المبحث الثالث: التقديم والتأخير	١٧٨
الأغراض البلاغية للتقديم والتأخير:	١٨١
١. التخصيص:	١٨١
٢. تقوية الحكم وتقريره في نفس السامع:	١٨٤

١٨٦	٣. العناية والاهتمام:
١٨٩	٤. تقديم الكثير على ما دونه:
١٩١	٥. تقدم الكلمة لتقديمها في الزمن:
١٩٢	٦. الترقى من الأدنى إلى الأعلى:
١٩٢	٧. التقديم للرتبة والشرف:
١٩٣	٨. المناسبة والسياق:
١٩٤	٩. تقديم الغاية على الوسيلة:
١٩٥	١٠. تقديم الأشهر :
١٩٥	١١. دفع التوهّم:
١٩٥	١٢. تقديم السبب على المسبب:
١٩٦	١٣. تقديم الأقرب إلى الحس:
١٩٦	١٤. تقديم الأربع:
١٩٧	١٥. مراعاة الفواصل:
٢٠٠	المبحث الرابع: الاعتراض
٢٠١	الأغراض البلاغية للاعتراض:
٢٠٢	١. التنزيه والتعظيم:
٢٠٢	٢. التأكيد:
٢٠٤	٣. الحث والترغيب:
٢٠٥	٤. البيان والتوضيح:
٢٠٦	٥. دفع التوهّم:
٢٠٧	٦. التعليل:
٢٠٨	٧. الدعاء:
٢٠٩	٨. التسلية:
٢٠٩	٩. الحصر والاختصاص:
٢١٠	١٠. التوبيخ:
٢١١	المبحث الخامس: خروج الكلام عن مقتضى الظاهر
٢١١	أولاً: الالتفات:
٢١٢	الالتفات عند البيضاوي:
٢١٣	من صور الالتفات في تفسير البيضاوي:
٢١٣	١. الالتفات من الغيبة إلى الخطاب:
٢١٤	٢. الالتفات من الخطاب إلى الغيبة.
٢١٧	٣. الالتفات من الغيبة إلى التكلم:
٢١٩	٤. الالتفات من التكلم إلى الغيبة:
٢٢٠	باقي صور الالتفات:
٢٢٠	الفاندة البلاغية للالتفات:
٢٢٠	١. التعظيم والتقدير:
٢٢١	٢. التهديد والتحذير:
٢٢٢	٣. الترهيب:
٢٢٢	٤. التوبيخ والنرم:
٢٢٣	٥. المبالغة:

٦. الدلالة على الاختصاص:	٢٢٣
٧. الوعيد:	٢٢٤
٨. العناية والاهتمام:	٢٢٤
٩. الزجر:	٢٢٥
١٠. التعميم:	٢٢٥
١١. المعاشرة:	٢٢٥
ثانياً: التغليب:	٢٢٦
من أقسام التغليب عند الإمام البيضاوي:	٢٢٧
١. تغليب المخاطب على الغائب:	٢٢٧
٢. تغليب المذكر على المؤنث:	٢٢٩
٣. تغليب العاقل على غير العاقل:	٢٣٠
٤. تغليب الجماعة على الواحد:	٢٣١
٥. تغليب الموجود على ما لم يوجد:	٢٣٢
٦. تغليب الأشهر:	٢٣٢
٧. تغليب المتعدي بنفسه على المتعدي بغيره:	٢٣٢
٨. تغليب الثواب على العقاب:	٢٣٣
ثالثاً: التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي:	٢٣٤
رابعاً: التعبير عن الماضي بلفظ المضارع أو المستقبل:	٢٣٥
خامساً: وضع المفرد موضع المثنى:	٢٣٦
سادساً: وضع المثنى موضع المفرد:	٢٣٨
سابعاً: وضع المفرد موضع الجمع:	٢٣٨
ثامناً: وضع الجمع موضع المفرد:	٢٣٩
تاسعاً: وضع الجمع موضع المثنى:	٢٣٩
عاشرأً: وضع الظاهر موضع المضمر:	٢٤٠
الأعراض البلاعية لوضع الظاهر موضع المضمر عند البيضاوي:	٢٤٢
١. التشبيه والوصف:	٢٤٢
٢. التعظيم:	٢٤٤
٣. الاختصاص:	٢٤٥
٤. التعميم:	٢٤٥
٥. التهويل:	٢٤٦
٦. التعليل والبرهان:	٢٤٦
٧. الدلالة على الاستحقاق:	٢٤٧
٨. التعريف:	٢٤٧
٩. زيادة التقرير والتمكين:	٢٤٨
١٠. تربية المهابة وإدخال الرّوع على ضمير المتكلّي:	٢٤٨
المبحث السادس: الإيجاز والإطناب والمساواة	٢٤٩
المطلب الأول: الإيجاز:	٢٤٩
أولاً: إيجاز الحذف:	٢٥٢
إيجاز الحذف عند البيضاوي:	٢٥٢
١. حذف المسند:	٢٥٢

٢٥٤	٢. حذف المسند إليه:
٢٥٤	٣. حذف المتعلقات:
٢٥٤	حذف جواب لولا:
٢٥٤	حذف متعلق الفعل:
٢٥٥	حذف المضاف:
٢٥٥	حذف المضاف إليه:
٢٥٦	حذف "لا":
٢٥٦	حذف الشرط:
٢٥٧	حذف جواب الطلب:
٢٥٧	حذف المعطوف:
٢٥٨	حذف المفعول به:
٢٥٩	حذف أحد المتلازمين:
٢٦٠	حذف المفضل عليه:
٢٦٠	حذف جملة:
٢٦٠	ثانياً: إيجاز القصر:
٢٦١	إيجاز القصر عند البيضاوي:
٢٦٨	المطلب الثاني: الإطناب:
٢٦٨	صور الإطناب في تفسير البيضاوي:
٢٦٨	أولاً: الإيضاح بعد الإبهام:
٢٦٨	١. التوكيد والمبالغة:
٢٦٩	٢. تشويق السامع:
٢٧٠	٣. تفخيم المبهم:
٢٧٠	ثانياً: ذكر الخاص بعد العام:
٢٧٢	ثالثاً: ذكر العام بعد الخاص:
٢٧٢	رابعاً: التكرار:
٢٧٢	أغراض التكرار في تفسير البيضاوي:
٢٧٢	١. التعظيم والترغيب:
٢٧٣	٢. التأكيد:
٢٧٣	٣. مزيد الاعتناء:
٢٧٤	٤. الدلالة على تكرار الفعل:
٢٧٤	٥. القخيم:
٢٧٥	٦. الاختصاص:
٢٧٥	٧. التذكير:
٢٧٦	٨. منع الفصل:
٢٧٧	٩. منع التوهّم:
٢٧٧	١٠. الدلالة على اختلاف الحال:
٢٧٨	١١. الدلالة على اختلاف الطرق والتتويع:
٢٧٩	١٢. المبالغة في التحذير:
٢٧٩	١٣. المبالغة في التوصية:
٢٧٩	١٤. المبالغة في التقرير:

٢٧٩	١٥. المبالغة في الابتهاج:
٢٨٠	١٦. التعليل:
٢٨٠	١٧. التهويل:
٢٨٠	١٨. الذم:
٢٨٠	١٩. المدح:
٢٨١	٢٠. الاستعطاف:

الفصل الثالث: مباحث علم البيان في تفسير البيضاوي

٢٨٣	المبحث الأول: التشبيه
٢٨٦	فاندة التشبيه عند البيضاوي:
٢٨٧	أنواع التشبيه باعتبار طرفيه في تفسير البيضاوي:
٢٨٨	١. تشبيه المحسوس بالمحسوس:
٢٨٩	٢. تشبيه المعقول بالمعقول:
٢٩٠	٣. تشبيه المحسوس بالمعقول:
٢٩١	٤. تشبيه المعقول بالمحسوس:
٢٩٢	٥. تشبيه المفرد بالمفرد:
٢٩٤	٦. تشبيه المركب بالمركب:
٢٩٥	من أنواع التشبيه في تفسير البيضاوي:
٢٩٥	١. التشبيه البليغ:
٢٩٧	٢. التشبيه الضمني:
٢٩٨	٣. التشبيه المقلوب:
٣٠٠	المبحث الثاني: المجاز
٣٠١	المطلب الأول: المجاز العقلي:
٣٠١	علاقات المجاز العقلي في تفسير البيضاوي:
٣٠١	١. الزمانية:
٣٠٢	٢. المكانية:
٣٠٣	٣. المصدرية:
٣٠٤	٤. المفعولية:
٣٠٥	٥. الفاعلية:
٣٠٥	٦. السببية:
٣٠٧	٧. المحلية:
٣٠٧	٨. المصالحة والموافقة:
٣٠٨	٩. الملابسة:
٣٠٩	١٠. الوصفية:
٣١١	المطلب الثاني: المجاز المرسل:
٣١١	علاقات المجاز المرسل في تفسير البيضاوي:
٣١١	١. السببية:
٣١٢	٢. المسبيبة:
٣١٤	٣. المحلية:

٣١٤	٤. الحالية:
٣١٥	٥. اعتبار ما كان:
٣١٦	٦. اعتبار ما سيكون:
٣١٧	٧. الآلية:
٣١٨	٨. الجزئية:
٣٢٠	٩. الكلية:
٣٢١	المبحث الثالث: الاستعارة:
٣٢٥	أنواع الاستعارة:
٣٢٥	أولاً: الاستعارة المكنية:
٣٣٠	ثانياً: الاستعارة التصريحية:
٣٣٢	أنواع الاستعارة باعتبار ما يتصل بها من الملاعمات:
٣٣٣	١. الاستعارة المرشحة:
٣٣٥	٢. الاستعارة المجردة:
٣٣٦	المبحث الرابع: الكنية والتعريف
٣٣٦	المطلب الأول: الكنية:
٣٣٧	الفرق بين الكنية والمجاز:
٣٣٨	الكنية في تفسير البيضاوي:
٣٣٨	أولاً: الكنية عن صفة:
٣٣٨	١. الكنية عن صفة البخل:
٣٣٨	٢. الكنية عن صفة الكرم:
٣٣٩	٣. الكنية عن صفة الندم:
٣٤٠	٤. الكنية عن صفة الاكتئاب والاغتمام:
٣٤٠	٥. الكنية عن صفة التكبر:
٣٤١	٦. الكنية عن الموت:
٣٤١	٧. الكنية عن صفة التحقر:
٣٤٢	٨. الكنية عن صفة الجهل:
٣٤٢	٩. الكنية عن صفة الغضب:
٣٤٣	١٠. الكنية عن الجماع:
٣٤٣	ثانياً: الكنية عن موصوف:
٣٤٤	ثالثاً: الكنية عن نسبة:
٣٤٦	المطلب الثاني: التعريف:
٣٤٦	أهمية التعريف:
٣٤٧	الفرق بين الكنية والتعريف:
٣٤٧	١. الفرق باعتبار المجاز:
٣٤٧	٢. الفرق من حيث الخفاء:
٣٤٨	٣. الفرق من حيث الإفراد والتركيب في الألفاظ:
٣٤٩	التعريف عند البيضاوي:
٣٤٩	طُرُق وأساليب التعريف في تفسير البيضاوي:
٣٤٩	١. تقديم الصلة:
٣٥٠	٢. تقديم الضمير:

٣٥٠	٣. التعریض بـ(إنما):
٣٥٠	٤. نفي الصفات السيئة عن أضداد المُعرَّض بهم:
٣٥١	٥. نفي الصفات الحسنة عن أضداد المُعرَّض بهم:
٣٥١	٦. إثبات الصفات الحسنة لأضداد المُعرَّض بهم:
٣٥٢	٧. إثبات الصفات السيئة للمُعرَّض بهم:
٣٥٣	٨. إثبات القدرة للعاجز الضعيف:
٣٥٣	٩. تصوير الأمر على نفس المُعرَّض والقصد إيقاعه على المُعرَّض به:
٣٥٤	١٠. التعریض بالمدح:

الفصل الرابع: مباحث علم البديع في تفسير البيضاوي

٣٥٦	المبحث الأول: المحسنات المعنوية:
٣٥٧	أولاً: الطباق:
٣٥٧	أنواع الطباق في تفسير البيضاوي:
٣٥٧	١. الطباق بين اسمين:
٣٥٧	٢. الطباق بين فعلين:
٣٥٨	٣. الطباق بين حرفين:
٣٥٨	٤. الطباق الخفي أو المعنوي:
٣٥٩	٥. طباق السلب:
٣٦٠	٦. الطباق المجازي:
٣٦١	ثانياً: المقابلة:
٣٦٤	ثالثاً: المشاكلة:
٣٦٤	١. المشاكلة التحقيقية:
٣٦٥	٢. المشاكلة التقديرية:
٣٦٥	رابعاً: التجريد:
٣٦٦	خامساً: اللف والنشر:
٣٦٧	سادساً: تأكيد المدح بما يشبه الذم:
٣٦٩	سابعاً: أسلوب الحكيم:
٣٧٠	ثامناً: سوق المعلوم مساق المجهول:
٣٧١	تاسعاً: الاستطراد:
٣٧٢	عاشرأً: المذهب الكلامي:
٣٧٣	حادي عشر: التقسيم:
٣٧٥	ثاني عشر: المبالغة:
٣٧٦	المبحث الثاني: المحسنات اللفظية:
٣٧٦	السجع:
٣٧٦	التغييرات التي تطراً على النظم لأجل السجع:
٣٧٦	١. التقديم والتأخير:
٣٧٧	٢. إفراد ما حقه الثنية:
٣٧٧	٣. وضع المضارع موضع الماضي:
٣٧٧	٤. تغيير نوع الجملة:

٣٧٨	٥. تغيير نوع الكلمة:
٣٧٩	٦. زيادة حرف:
٣٧٩	٧. تغيير صيغة المصدر:
٣٨٠	٨. العدول عن صيغة الاسم إلى صيغة المبالغة:
٣٨٠	٩. حذف المفعول:

الفصل الخامس: تأثر البيضاوي بالسابقين وتأثيره في اللاحقين:

٣٨٣	المبحث الأول: تأثر البيضاوي بالسابقين:
٣٨٣	أولاً: الزمخشري (٥٥٣٨):
٣٨٨	ثانياً: الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٠ هـ):
٣٨٩	ثالثاً: سيبويه (١٨٠ هـ):
٣٨٩	رابعاً: المبرد (٥٢٨٦):
٣٩٠	خامساً: الأخفش:
٣٩١	سادساً: أبو البقاء العكبري (٥٦١٦):
٣٩٢	المبحث الثاني: تأثيره في اللاحقين:
٣٩٢	أولاً: تأثير تفسير البيضاوي في كتاب الحواشي والتعليقات:
٣٩٢	١. حاشية الشهاب:
٣٩٣	٢. حاشية السيوطي:
٣٩٥	٣. حاشية محي الدين شيخ زاده:
٣٩٥	٤. حاشية القونوي:
٣٩٧	ثانياً: المفسرون الذين تأثروا بتفسير البيضاوي ونقلوا عنه في تفاسيرهم:
٣٩٧	١. أبو السعود "تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم"
٣٩٩	٢. تفسير النسفي "مدارك التنزيل وحقائق التأويل"
٤٠٠	٣. تفسير الخطيب الشرببي:
٤٠١	٤. تفسير ابن عجيبة "البحر المديد في تفسير القرآن المجيد":
٤٠٢	٥. تفسير الألوسي "روح المعانى في تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى":
٤٠٣	٦. التفسير الوسيط "مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر":
٤٠٣	٧.نظم الدرر في تناسب الآيات وال سور:
٤٠٣	٨. تفسير الإيجي "جامع البيان في تفسير القرآن":
٤٠٤	٩. تفسير إسماعيل حقي "روح البيان في تفسير القرآن":
٤٠٥	١٠. صفوه التفاسير "الصابوني":
٤٠٥	١١. تفسير المنار "تفسير القرآن الكريم":
٤٠٦	١٢. تفسير زهرة التفاسير لأبي زهرة:
٤٠٦	١٣. تفسير محسن التأويل للقاسمي:
٤٠٧	١٤. فتح البيان في مقاصد القرآن:
٤٠٧	١٥. التفسير المنير للزحيلي:
٤٠٨	حالات محقق التفاسير على تفسير البيضاوي:

الخاتمة